

التفسير الكاشف
٣

محمد بن عبد الوهاب

التفسير الكاشف

المجلد الثالث

من المائة الى آخر النفا

دار الأنوار

سورة المائدة

مدنية الا قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فإنه نزل في حجة الوداع ، وعدد آياتها ١٢٠ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أوفوا بالعقود الآية ١ . ٢ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)﴾

اللغة :

العقود واحدها عقد ، والمراد بها كل التزام جرى بين بالغين عاقلين عن طيب نفس على أي شيء كان ، شريطة ان لا يحرم حالا ، ولا يحلل حراما .

والبهيمة في اللغة الحيوان الذي لا نطق له لما في صوته من الإبهام ، ولكن العرب لا يستعملون هذه اللفظة في الطير . والأنعام الإبل والبقر والغنم . وشعائر جمع شعيرة ، والشعيرة والعلامة والآية بمعنى واحد ، وشعائر الله علامات دينه ودلائله ومظاهره وآياته . والمراد بالهدي ما يهدى من الانعام الى الكعبة ليذبح هناك . والقلائد جمع قلادة ، وكانوا يقلدون الإبل من الهدي بما يدل عليها ، فلا يتعرض لها أحد . وآمين أي قاصدين . ولا يجرمكم أي لا يبعثكم . والشنآن البغض .

الاعراب :

الا ما يتلى (ما) في محل نصب على الاستثناء المتصل من بهيمة . غير حال من الضمير المحرور في لكم ولا القلائد على حذف مضاف ، أي ولا ذوات القلائد . ولا آمين أيضا على الحذف ، أي ولا قتال آمين . والبيت مفعول لآمين . وجملة يبتغون حال من الضمير في آمين . وان صدوكم المصدر المنسبك مفعول لأجله ليجرمنكم . والمصدر المنسبك من ان تعتدوا محرور بحرف جر محذوف ، والمحرور متعلق بيجرمكم ، أي لا يبعثكم شنآن قوم لأجل صدهم إياكم عن المسجد على الاعتداء .

المعنى :

تدور آيات القرآن حول العقيدة ، والعبادة ، والشرعية ، والأخلاق ، والرئاسة الدينية والدينية ، والقضاء والجهاد ، وتعرف الآيات الواردة في الشريعة بما فيها العبادة ، تعرف بآيات الأحكام عند الفقهاء ، وتبلغ حوالي خمسمائة آية ، ومنها قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ﴾ . وهذه الجملة على إيجازها عظيمة النفع ، فإنها الأصل والأساس لإجماع المذاهب على وجوب الوفاء بما يقع عليه التراضي بين اثنين ، مع توافر الشروط التي اعتبرها الشرع من البلوغ والعقل في المتعاقدين

وقابلية الشيء المعقود عليه للتملك ، وعدم استلزامه تحليل الحرام ، أو تحريم الحلال ، وما إلى ذلك مما جاء في كتب الفقه ، ومنها الجزء الثالث من فقه الإمام جعفر الصادق .

﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ . الانعام هي الإبل والبقر والغنم والمعز الأهلية والوحشية ، وتقع البهيمة على الانعام وغيرها من الحيوانات التي لا نطق لها ، وعلى هذا تكون اضافة البهيمة الى الانعام من باب اضافة الشيء الى ما هو أخص منه . وبعد أن أحل الله أكل الانعام جاء هذا الاستثناء ﴿إِلَّا مَا يُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ . وقد تلا علينا جل ثناؤه صنفين من الانعام : الأول ما أشار اليه بقوله : ﴿غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ . والثاني ما أشار اليه في الآية الثالثة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ...﴾ . ويأتي الكلام عن هذا الصنف قريباً .

ومعنى ﴿غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ ان الانعام التي أحل الله لنا أكلها هي الانعام الأهلية ، أو الوحشية التي لم نتصيدا حال الإحرام ، أما المصطادة في هذه الحال ، فأكلها حرام ، لأن كل ما يصطاده المحرم فلا يجوز أكله ، سواء أكان من الانعام ، أم من غيره ، ويأتي التفصيل عند تفسير الآية ٩٧ وما بعدها من هذه السورة .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ . وشعائره جل وعز هي أحكام دينه ، ومن أظهرها مناسك الحج والعمرة ، قال تعالى : ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَفْوَى الْقُلُوبِ﴾ . ٣٢ الحج ، ومعنى النهي عن تحليل أحكام دين الله ان لا نحرفها ، ونتصرف فيها كما نشاء . ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أي لا تحلوا القتال في الشهر الحرام ، والمراد به الأشهر الأربعة : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، لأن الألف واللام في الشهر للاستغراق . ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾ وهو ما يهدى الى بيت الله من الإبل والبقر والغنم ، والمراد ان لا يتعرض أحد لها بغصب أو منع من بلوغها البيت الحرام . ﴿وَلَا الْقُلَائِدَ﴾ أي ولا ذوات القلائد فقد كانوا يقلدون الهدي بنعل أو حبل وما اليه ، ليعرف فلا يتعرض له أحد ، وانما ذكر ذوات القلائد بعد الهدي ، مع ان الهدي يقع عليها وعلى غيرها . للاهتمام بها ، تماماً كقوله تعالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ .

﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾. أي لا تقاتلوا أحدا قصد بيت الله ، سواء أقصده للعبادة أم التجارة. ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾. لأن الصيد يحرم في حال الإحرام ، وفي أرض الحرم مطلقا ، فإذا لم يكن الإنسان محرما ولا في أرض الحرم فالصيد وأكل المصيد حلال ، لزوال المانع .. والأمر في قوله : ﴿فَاصْطَادُوا﴾ للاباحة ، لأنه ورد بعد النهي.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾. في سنة ست للهجرة كان المشركون هم المسيطرين على مكة والبيت الحرام ، وأراد النبي والصحابة أن يزوروا البيت في هذه السنة فصدهم عنه المشركون ، وفي حجة الوداع كانت السيطرة على مكة والبيت للمسلمين ، فنزلت هذه الآية ، ومعناها لا ينبغي لكم أيها المسلمون أن يحملكم بغض المشركين لكم ، أو بغضكم لهم على أن تمنعهم عن البيت الحرام بعد أن أظهركم الله عليهم ، لأنهم منعكم من قبل. وقد كان هذا قبل أن تنزل الآية ٢٩ من سورة التوبة : ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾.

وتسأل : ألم يقل الله سبحانه : ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾. البقرة ، ١٩٤ ؟

الجواب : ان هذه الآية نزلت في القصاص ، والمعاملة بالمثل في موارد خاصة ، كالحرب وقطع الأعضاء ، أي من قاتلكم فقاتلوه ، ومن قطع يد غيره تقطع يده ، وما الى ذلك .. أما من منع وصد عن عبادة الله والتجارة والزراعة فلا يجوز أن يمنع هو عن ذلك ، بل يجازى بعقوبة أخرى.

والخلاصة ان جزاء المعتدي قد يكون بالمثل ، وقد يكون بغيره ، وفي سائر الأحوال ينبغي أن يكون الجزاء انتصارا للحق ، لا تشفيا وانتقاما.

الثورة والثورة المضادة :

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾. من الألفاظ التي كثر تداولها اليوم على ألسنة المتكلمين ، وأقلام الكتّاب لفظ الثورة والثورة المضادة .. ويعنون بالثورة تعاون المخلصين ونضالهم ضد التخلف والأوضاع

الفاسدة ، ويعنون بالثورة المضادة تكتل الرجعيين والخائنين وتعاونهم على مقاومة كل محاولة لتغيير التقاليد الضارة الفاسدة.

وظاهر الآية الكريمة يحول لنا ان نطبق قوله تعالى : ﴿وَلَا تَعَاوُنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ على الثورة المضادة لكل خير وتقدم.

حرمت عليكم الميتة الآية ٣ :

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلِيَ لغيرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْحَنِقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِى يَوْمِ النَّاسِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)﴾

الإعراب :

الا ما ذكيتم (ما) في محل نصب على الاستثناء المتصل مما تقدم ذكره من الحيوانات على أن يدرك حيا سوى ما لا يقبل التذكية كالخنزير. والمصدر من ان تستقسموا في محل رفع عطفا على الميتة ، أي وحرم عليكم أن تستقسموا. ودينا حال من الإسلام. وغير حال من الضمير في اضطر.

المعنى :

كل المأكولات والمشروبات على الإباحة إلا ما ورد النص بتحريمه خصوصا كالميتة وما إليها ، أو عموما كالأشياء الضارة ، ومنها الخبائث. قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ . ١٦٨ البقرة». وقال الإمام جعفر الصادق (ع) : كل شيء فيه حلال وحرام فهو لك حلال أبدا ، حتى تعرف الحرام بعينه فتدعه.

وتقدم في الآية الأولى قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ وقد تلا علينا صنفين من المحرمات : الأول ما أشار إليه بقوله : ﴿غَيْرَ مُحْلَى الصَّيْدِ﴾ الخ وسبق تفسيره. الثاني ما ذكره في هذه الآية ؛ وهو عشرة أصناف.

الأول : الميتة ، وهي كل حيوان أو طير مات من غير تذكية شرعية ، وتختلف التذكية الشرعية باختلاف الحيوان ، فتذكية السمك بإخراجه من الماء حيا ، وتذكية الجراد بالاستيلاء عليه حيا أيضا ، وتذكية الجنين بذكاة أمه ، وتذكية المصيد تكون بالكلب المعلم ، أو بالسيف أو الرمح أو السهم أو آلة محددة الرأس ، وتذكية الحيوان باستقباله القبلة وقطع أوداجه الأربعة مع ذكر اسم الله عليه. والتفصيل في كتب الفقه ، ومنها الجزء الرابع من فقه الإمام الصادق.

الثاني : الدم المسفوح ، والمراد به الذي يخرج بقوة ودفع ، ويتميز عن اللحم ، لأن ما يختلط باللحم معفو عنه ، والدم الذي هو كاللحم حلال إذا كان كبدا عند جميع المذاهب ، وحرام إذا كان طحالا عند الشيعة الإمامية خاصة.

الثالث : لحم الخنزير ، وهو حرام بإجماع المسلمين.

الرابع : ما أهل لغير الله ، والإهلال رفع الصوت ، يقال : استهل الصبي إذا صرخ عند الولادة ، والمراد به هنا ما ذبح على غير ذكر الله. وقد كان المشركون يذبحون لأصنامهم ، ويرفعون أصواتهم باسم اللات والعزى. وتقدم الكلام عن هذه الأصناف الأربعة عند تفسير الآية ١٧٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٦٤.

الخامس : المنخنقة ، وهي التي تموت اختناقاً بيد أو حبل ، أو يدخل رأسها في مضيق ، وما إلى ذلك.

السادس : الموقوذة ، وهي التي تضرب بعصا ونحوها ، حتى تموت.

السابع : المتردية ، وهي التي تتردى من مكان عال.

الثامن : النطيحة ، وهي التي تنطحها أخرى ؛ فتموت.

التاسع : ما أكل السبع ، أي ما تبقى من فريسة الحيوان المفترس.

ثم استثنى سبحانه من الأصناف الخمسة الأخيرة ما ندركه حيا ، فانه يحل لنا بالذبح الشرعي ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ **إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ** ﴾ . وفي الأخبار : «ان أدنى ما تدرك به الذكاة أن تدركه وتتحرك اذنه أو ذنبه أو تطرف عينه».

العاشر : ما ذبح على النصب ، قال صاحب التسهيل لعلوم التنزيل : «النصب جمع نصاب ، وهي حجارة كان أهل الجاهلية يعظمونها ، ويدبحون عليها ، وليست بالأصنام ، لأن الأصنام مصورة ، والنصب غير مصورة».

وتجدر الإشارة الى ان محرمات الطعام لا تنحصر بهذه الأصناف العشرة التي جاءت في الآية الكريمة ، بل هناك محرمات أخرى ، كالكلب والحيوان المفترس والطير الكاسر كالبازي والنسر والحشرات وبعض أنواع السمك ومحرمات الذبيحة ، وما إليها مما نصت عليه السنة النبوية ، وأجمع عليه الفقهاء ، ولا فرق بين ما جاء النص على تحريمه في الكتاب أو السنة : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** ﴾ . ٧ الحشر . وغير بعيد أن يكون ذكر هذه الأصناف بالخصوص لمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ** ﴾ . وبعد أن ذكر سبحانه الأصناف العشرة عطف عليها قوله :

﴿ **وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ** ﴾ . أي وحرّم عليكم الاستقسام بالأزلام ، وهي جمع زلم بضم الزاي وفتحها ، مع فتح اللام ، والزلم قطعة من الخشب على هيئة السهم . وكان أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم أن يقدم على أمر يهمه أخذ ثلاثة من الأزلام ، وكتب على واحد منها أمرني ربي ، وعلى ثان نهاني ربي ، وأهمل الثالث ، ثم يغطيها بشيء ، ويدخل يده ويخرج أحدها ، فان كان أمرا فعل ، وان كان نهيا ترك ، وان كان مهنلا أعاد ، حتى يخرج الأمر ، أو النهي .

﴿ذَلِكُمْ فَسَقٌ﴾. اشارة الى خصوص الاستقسام بالأزلام ، دالة ، الى جميع المحرمات المذكورة حكما ، وبهذا يتبين معنا ان اختلاف المفسرين حول ذلكم : هل هي اشارة الى خصوص الأخير ، أو الى الجميع؟ ان هذا الاختلاف لا جدوى منه ، ما دام حكم الجميع واحدا ، من حيث الفسق ، أي الذنب العظيم.

﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الدِّينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾. قال كثير من المفسرين : ان المراد باليوم في الآية اليوم الذي نزلت فيه من ذي الحجة في حجة الوداع من السنة العاشرة للهجرة ، وعليه يكون الألف واللام في اليوم للعهد ، وقال صاحب مجمع البيان : اليوم هنا بمعنى الآن ، كما يقول القائل : اليوم قد كبرت ، أي الآن قد كبرت. ومهما يكن فان معنى الآية ان الكفار يؤسوا من زوال الإسلام ، أو تحريفه بعد أن تمكن في نفوس أتباعه ، وأخذ طريقه في الانتشار يوما بعد يوم .. اذن ، فلا تخافوا. أيها المسلمون . من الكافرين ، وخافوا من الله وحده ، وصدق الله العظيم في كل ما يقول : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. ٣٣ التوبة.

ومن المفيد بهذه المناسبة أن نقطف جملا من كتاب «الإسلام في القرن العشرين» للعقاد ، قال :

«ان العقيدة الإسلامية لم تكن قوة غالبية ، وحسب في ابان النشأة والظهور ، ولكنها كانت قوة صامدة بعد مئات السنين .. وصمود القوة الإسلامية في أحوال الضعف عجيب كانتصارها في أحوال القوة والسطوة ، ولا سيما الصمود بعد أكثر من عشرة قرون .. ان قوة صمود العقيدة الإسلامية في صدر الإسلام عجيبة ، ولكن صمودها الآن أعجب ، لأنها لا تملك الدفاع النافع ولا مال لديها ولا سلاح ولا علم ولا معرفة ، بل لا تملك الدفاع ، ولا اتفاق بين أهلها على الدفاع .. ان قوة العقيدة الإسلامية قد سرت مسراها في أرجاء العالم بمعزل عن حروب الدول وسياستها ، وعن عروش العواهل وتيجانها ، وفي افريقية اليوم مائة مليون مسلم ، لا شأن في إسلامهم لدولة أو سياسة ، وقريب من هذا العدد مسلمون

في السومطرة وبلاد الجاوة ، وقريب منه في الباكستان ، وقد يكون في الصين وما جاورها عدة كهذه العدة من الملايين».

إكمال الدين وإتمام النعمة :

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

اختلف الشيعة وأكثر السنة في تفسير هذه الآية ، ونحن نعرض أقوال الطرفين كناقلين ، لا مؤيدين ، ولا مفندين ، ونترك القارئ وعقله يستفتيه وحده.

قال السنة أو أكثرهم : المراد بالآية ان الله سبحانه أكمل للمسلمين دينهم بتغلبه وإظهاره على الأديان كلها رغم محاربة أهلها ومقاومتهم له وللمسلمين ، وأتم نعمته عليهم بالنص على عقيدته وشريعته أصولا وفروعا ، وأبان جميع ما يحتاجون اليه في أمر دينهم ودنياهم : ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

وقال الشيعة : يصح تفسير الآية بهذا المعنى إذا لم تقترن بحادثة تفسرها ، وتبين المراد منها ، فإن كثيرا من الآيات تفسرها الحادثة التي اقترنت بزمن نزولها. من ذلك . على سبيل المثال . قوله تعالى مخاطبا نبيه الأكرم : ﴿وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ . ٣٧ الأحزاب . فلو جردنا هذه الآية عن قصة زيد بن حارثة ، وأخذنا بظاهرها لكان معنى الآية ان رسول الله (ص) يؤثر رضا المخلوق على رضا الخالق .. حاشا من اصطفاه الله لوجيه ورسالته.

ثم قال الشيعة : وهذه الآية اقترنت بحادثة خاصة تفسرها وتبين المراد منها ، واستدلوا على ذلك بما يلي :

أولا : اتفق علماء السنة والشيعة المفسرون منهم والمؤرخون على ان سورة المائدة بجميع آياتها مدنية ، ما عدا هذه الآية : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فإنها نزلت في مكة ، وفي السنة العاشرة للهجرة ، وهي السنة التي حج فيها رسول الله (ص) حجة الوداع ، لأنه انتقل الى جنان ربه في شهر ربيع الأول سنة احدى عشرة.

ثانيا : ان النبي بعد أن قضى مناسكه في هذه السنة توجه الى المدينة ، ولما

بلغ غدیر خم . وهو مكان في الجحفة تشعب منه طرق كثيرة . أمر مناديه أن ينادي بالصلاة ، فاجتمع الناس قبل أن يتفرقوا ، ويذهب كل في طريقه الى بلده ، فخطبهم وقال فيما قال :

«ان الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، أنا أولى بهم من أنفسهم ، فمن كنت مولاه فعليّ مولاه يقولها ثلاثا ، وفي رواية أربعاً .. ثم قال : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه . وأحبّ من أحبه ، وأبغض من أبغضه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وادر الحق معه حيث دار . ألا فليبلغ الشاهد الغائب» .

والسنة لا ينكرون هذا الحديث بعد ان تجاوز حد التواتر ^(١) وسجله الكثير من أئمتهم وعلمائهم ، منهم الإمام ابن حنبل في مسنده ، والنسائي في خصائصه ، والحاكم في مستدركه ، والحوارزمي في مناقبه ، وابن عبد ربه في استيعابه ، والعسقلاني في اصابته ، كما ذكره الترمذي والذهبي وابن حجر وغيرهم ، ولكن الكثير منهم فسروا الولاية بالحب والمودة ، وان المراد من قول الرسول (ص) : من كنت مولاه . من أحبني فليحب عليا .

ورد الشيعة هذا التفسير بأن قول النبي : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن كنت مولاه فعليّ مولاه . يدل بصراحة ووضوح على ان نفس الولاية التي ثبتت لمحمد (ص) على المؤمنين هي ثابتة لعلي (ع) ، دون زيادة أو نقصان ، وهذه الولاية هي السلطة الدينية والزمنية ، حتى ولو كان للفظ الولاية ألف معنى ومعنى .

وعلى هذا يكون معنى الآية ان الله سبحانه أكمل الدين في هذا اليوم بالنص على علي بالخلافة .

(١) . نقل الشيعة هذا الحديث عن العديد من مصادر السنة ، ووضع علماءهم فيه كتباً خاصة ، وآخرهم الشيخ الاميني من علماء النجف الأشرف في هذا العصر ، فقد ألف كتاباً أسماه الغدير في ١٢ مجلداً ، تبلغ صفحاتها حوالي خمسة آلاف صفحة ، ذكر فيه رواية الحديث ، وهم ١٢٠ صحابياً ، و ٨٤ تابعاً ، و ٣٦٠ إماماً وحافظاً للحديث ، وفيهم الحنفي والشافعي وغيرهما كل ذلك نقله عن كتب السنة والكتاب معروض للبيع في مكتبات العراق وايران ولبنان .

وتسأل : ان إكمال الدين بإظهاره على الأديان ، وبيان أحكامه كاملة وافية كما يقول السنة . واضح لا يحتاج الى تفسير ، أما إكمال الدين بالنص على خلافة علي فلا بد له من التفسير والإيضاح ، فبأي شيء يفسره الشيعة؟.

قال الشيعة في تفسير ذلك : ان الإكمال حقا لا يتم إلا بوجود السلطة التشريعية والتنفيذية معا ، والأولى وحدها ليست بشيء ما لم تدعمها الثانية ، وقد كان التنفيذ بيد الرسول الأعظم (ص) ، فظن اعداء الإسلام ان السلطة التنفيذية ستذهب بذهاب الرسول ، وبذهابها يذهب الإسلام ... فأقام النبي عليا ليحفظ الشريعة من بعده ، وقيم الدين كما أقامه الرسول (ص) ، وبهذا لم يبق للكفار أي أمل في ذهاب الإسلام أو ضعفه.

﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. مر تفسيره مفصلا

في ج ١ ص ٢٦٥ فقرة «المضطر وحكمه» ، الآية ١٧٣ من سورة البقرة.

وما علمتم من الجوارح ملكين الآية ٤ :

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤)﴾

اللغة :

الجوارح جمع جارح من جرح بمعنى كسب ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ والمراد بالجوارح هنا ما يمكن الاصطياد به من الكلاب والفهود والطيور ، لأنها كواسب لأهلها. ومكلبين أي معلمين الكلاب ونحوها الاصطياد ،

وانما اطلق لفظ مكلبين على الجوارح المعلمة ، لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب ، فاشتق منه هذا اللفظ لكثرتة في جنسه .. هذا عند غير الشيعة ، أما الشيعة فلا يجيزون الا صيد الكلب ، وفيما يلي التفصيل.

الإعراب :

ما ذا يجوز أن تكون (ما) مبتدأ ، وذا خبر بمعنى الذي ، ويجوز أن تكون (ما ذا) كلمة واحدة وجملة أحل خبر. وما علمتم على حذف مضاف ، أي وصيد الذي علمتم. ومكلبين حال من ضمير علمتم ، لأنها بمعنى معلمي الكلاب.

المعنى :

﴿يَسْتَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾. الطيب ضد الخبيث ، والخبيث ما نص الشارع على تحريمه بالخصوص كالهيئة ولحم الخنزير ، أو بالعموم ، وهو ما فيه ضرر وفساد بجهة من الجهات. وقد ذكر سبحانه هذه الجملة بلفظها أو معناها في ١٥ مكانا من كتابه العزيز.

﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾. واتفقت كلمة المذاهب على ان صيد الكلب يحل أكله بالشروط الآتية ، واختلفت في صيد غيره كالفهد والصقر وما أشبه إذا كان معلما يفقه ما يفقهه الكلب ، قال الشيعة : لا يحل. وقال غيرهم : يحل. واستدل الشيعة بأن لفظ مكلبين خاص بصيد الكلب المعلم ، ومهما يكن ، فلا يحل صيد الجوارح إلا مع توافر الشروط التالية :

١ . أن يكون الجارح معلما إذا أمره صاحبه بأتمر ، وإذا زجره ينزجر. وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾.

٢ . ان يرسله صاحبه بقصد الصيد ، فلو انطلق من تلقائه ، وأتى بالصيد مقتولا فلا

يحل.

٣ . أن يكون الصائد مسلما عند الشيعة.

- ٤ . أن يسمى الصائد عند إرسال الجراح ، فيقول : اذهب على اسم الله ، وما أشبهه ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ .
- ٥ . أن يدرك الجراح الصيد حيا ، وإن يسند الموت الى جرحه ، فلو أدركه ميتا لم يحل ، وكذا إذا أدركه حيا ، ولكن مات بسبب آخر غير الجراح .

طهارة أهل الكتاب الآية ٥ :

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)﴾

اللغة :

للاحصان معان أربعة : الإسلام والتزوج والحرية والعفة ، وهي المقصودة هنا . والسفاح الزنا ، والمراد به هنا الجهر به ، لأنّ قوله تعالى : ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ المراد به الزنا بالسر ، والخذن الصديق يقع على الذكر والأنثى .

الاعراب :

والمحصنات معطوف على الطيبات ، وإذا ظرف متضمن معنى الشرط متعلق بأحل . ومحصنين حال من الواو في آتيتموهن . وغير مسافحين (غير) صفة

لمحصنين ، ويجوز أن تكون حالا ، وإن كان صاحب الحال نكرة ، ما دام المعنى ظاهرا.

المعنى :

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾.

اختلف السنة والشيعة في المعنى المراد بطعام أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، فقال السنة : المراد به ذبائحهم ، نقل هذا عنهم صاحب تفسير المنار ، وهذه عبارته بالحرف: «فسر الجمهور الطعام هنا بالذبائح ، لأن غيرها حلال بقاعدة أصل الحل».

وذهب أكثر فقهاء الشيعة الى نجاسة أهل الكتاب ، وحرّموا طعامهم وشرابهم ، حتى الخبز والماء الذي باشروه ، وفسروا الطعام في الآية بالحبوب.

أما نحن فنرى طهارة أهل الكتاب ^(١) ، وقد صرحنا بذلك مع الدليل في الجزء الأول من فقه الإمام جعفر الصادق ، وعلى هذا كثير من المراجع الكبار ، منهم السيد الحكيم والسيد الخوئي الذي أسرّ برأيه لمن يثق به. أما قول من قال : الكتابي متنجس لا نجس فهو تلاعب بالألفاظ ، لأن الأشياء في الشريعة على قسمين : طاهر ونجس ، ولا ثالث .. أجل قد تعرض النجاسة للطاهر ، ثم تزول بالتطهير ، ولو كانت لازمة له لكان نجسا ، لا متنجسا.

أما تفسير الطعام بالحبوب خاصة فبعيد كل البعد عن فصاحة القرآن وبلاغته ، فقد استعمل الطعام لصيد البحر ، ولا حبوب في البحر ، قال تعالى : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ﴾ . ٩٦ المائدة . واستعمله في الماء ، وبين الماء والحبوب ما بين السائل والجامد ، قال عز من قائل : ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ . ٢٤٩ البقرة . واستعمله في شتى المأكولات : ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ . ٥٣ الأحزاب . وهل يجرؤ واحد على تفسيره بإذا أكلتم الشعير . مثلاً . فانتشروا؟ .. وإذا تجرأ على مثل هذا التفسير فمن أي نوع

(١). وأخيرا أفتى بطهارتهم السيد الحكيم المرجع الكبير للطائفة الاسلامية الشيعية.

يكون؟ .. بل استعمل سبحانه الطعام في اللحم : ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ حَمَّ خِنْزِيرٍ﴾ . ١٤٥ الانعام.

ومن أجل هذا نقول بأن ذبائح أهل الكتاب حلال ، مع العلم بتوافر الشرائط من الاستقبال والتسمية وقطع الأوداج الأربعة ، وهذا هو الفرق بين ذبيحة الكتابي ، وذبيحة المسلم ، فذبيحة الأول تحرم الا إذا علمت بأنه استقبل وسمى وقطع الأوداج الأربعة مع استقرار الحياة في الحيوان قبل الذبح ، وذبيحة الثاني تحل الا إذا علمت بأنه أخل بما أوجبه الشرع. وصرحنا بذلك مع الدليل في الجزء الرابع من فقه الإمام جعفر الصادق ، وفيه روايات صحيحة عن أهل البيت (ع). وعمل بها الشهيد الثاني والصدوق وابن أبي عقيل وابن الجنيد. قال صاحب مجمع البيان عند تفسير هذه الآية : «عن أكثر المفسرين ، وأكثر الفقهاء ان المراد بالطعام في الآية ذبائح أهل الكتاب ، وبه قال جماعة من أصحابنا» أي من علماء الشيعة الذين يعتد بأقوالهم.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾. المراد بالاحصان في الألفاظ الثلاث العفة ، وبالأجور المهور ، والمسافحون هم الذين يرتكبون الزنا جهرا ، ومتخذو الأخدان يرتكبونه سرا ، وقيد إتيان الأجور بعدم الزنا المشار اليه بمحصنين غير مسافحين . للاشعار بأن ما يدفعه الرجل للمرأة من المال يجب أن يكون مهرا للنكاح الشرعي ، لا أجرا للسفاح ، ومحصل المعنى ان الله قد أحل نكاح العفيفات المسلمات والكتائيات ، وعلى من ينكحهن أن يدفع لهن ما جرى عليه الاتفاق من المال مهرا شرعيا ، لا بدلا عن الزنا. واتفق فقهاء المذاهب على أن المسلم لا يحل له أن يتزوج بمن لا تدين بشيء إطلاقا ، ولا بمن تعبد الأوثان والنيران ، وما اليها ، واختلفوا في زواج الكتائية ، أي النصرانية واليهودية ، فقال أصحاب المذاهب الأربعة السنية : يجوز ، واستدلوا بهذه الآية ، واختلف فقهاء الشيعة بين محيز ومانع ومفصل بين الزواج الدائم والمنقطع ، فأجاز الثاني ، ومنع الأول.

ونحن مع القائلين بالجواز مطلقا ، ومستندنا أولا : الأدلة الدالة على اباحة الزواج بوجه عام. ثانيا : قوله تعالى : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾. ثالثا : الروايات الكثيرة عن أهل البيت (ع) ، وذكرها صاحب الوسائل والجواهر ، ووصفها هذا بالمستفيضة ، أي بلغت حدا من الكثرة يقرب من التواتر ، ونقلنا بعضها في الجزء الخامس من فقه الإمام جعفر الصادق.

وتسأل : وما أنت صانع بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾. وقوله : ﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾؟

الجواب : المشركات غير الكتابيات بدليل عطف المشركين على أهل الكتاب في الآية الاولى من سورة البينة : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾. أما قوله : ﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ فغير صريح في الزواج ، لأن الإمساك بالعصم كما يكفى به عن الزواج يكفى به عن غير الزواج أيضا ، قال صاحب المسالك : «ان الآية ليست صريحة في ارادة النكاح ، ولا فيما هو أعم منه».

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. بعد أن ذكر سبحانه طرفا من أحكامه وحلاله وحرامه قال : من سمع وأطاع فهو المؤمن حقا ، وعمله مقبول ، وعليّ أجره وثوابه ، ومن جحد أحكامي وشريعتي فهو الكافر الخاسر ، فالمراد بالإيمان هنا نفس الأحكام التي يجب الإيمان بها ، من باب اطلاق المصدر على المفعول ، كاطلاق الخلق على المخلوق ، والأكل على المأكول ، أما الإحباط فقد تكلمنا عنه مفصلا عند تفسير الآية ٢١٧ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٢٦.

الوضوء والتميم الآية ٦ . ٧ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ

جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦) وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) ﴿

اللغة :

المرافق جمع مرفق. والكعبان عظامان ناشزان يفصلان بين الساق والقدم. والجنب ذو الجنبية ، ويطلق على المذكر والمؤنث ، والمفرد والمثنى والجمع. والغائط المكان المنخفض ، والمراد به هنا قضاء الحاجة من المخرجين. والصعيد وجه الأرض.

الإعراب :

برءوسكم ، قيل الباء زائدة ، وقيل للإلصاق ، وقيل للتبعيض ، ويأتي التفصيل في فقرة المعنى. وما يريد الله ليجعل عليكم من حرج مفعول يريد محذوف ، ويجعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لفظة الله ، ومن زائدة ، وحرج مفعول يجعل ، والتقدير ما يريد الله ذلك لأن يجعل عليكم حرجا. ومثله يريد ليطهركم.

المعنى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾. أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة ،

تماما كما تقول : إذا نمت فاقراً سورة الفاتحة ، وهذا من باب اطلاق السبب على المسبب .
﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾. لا خلاف فيه ، سوى ان الشيعة الامامية قالوا : يجب
الابتداء من الأعلى ، ولا يجوز النكس ، وقال غيرهم : يجوز الغسل كيف اتفق ، والابتداء
من الأعلى أفضل .

﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾. أيضا لا خلاف فيه إلا ان الشيعة أوجبوا الابتداء بالمرفق ،
وأبطلوا النكس ، كما أوجبوا تقديم اليد اليمنى على اليسرى ، وقال السنة : يغسلهما كيف
اتفق .. أجل ، تقديم اليمنى أفضل ، وكذا الابتداء من الأصابع الى المرفق .
وتسأل : ان كلا من السنة والشيعة قد خالفوا ظاهر الآية ، لأن المرافق يجب أن
تكون نهاية الغسل لمكان «الى» ، مع ان السنة لا يوجبون ذلك ، والشيعة لا يميزونه ، فما
هو التأويل؟

وأجاب كثيرون بأن «الى» هنا بمعنى مع مثل قوله تعالى : ﴿وَيَرْدُّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾
٥٢ . هود» ، أي مع قوتكم .. والذي نراه في الجواب ان التحديد في الآية للعضو المغسول
، وهو اليد ، بصرف النظر عن كيفية الغسل من حيث الابتداء والانتهاء ، تماما كقولك :
بعثك الأرض من هنا الى هناك ، وقطفت ورد الحديقة من هنا الى هنا ، وأنت تريد تحديد
الكم والمقدار ، لا بيان الكيف والهيئة .

﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾. قال الحنابلة : يجب مسح الرأس والأذنين ، ويجزي الغسل عن
المسح بشرط إمرار اليد على الرأس . وقال المالكية : يجب مسح جميع الرأس دون الأذنين .
وقال الحنفية : يجب مسح ربع الرأس ، ويكفي إدخال الرأس في الماء ، أو صبه عليه . وقال
الشافعية : يجب مسح بعض الرأس ولو قل ، ويكفي الغسل أو الرش . وقال الشيعة الامامية
: يجب مسح جزء من مقدم الرأس ، ويكفي أقل ما يصدق عليه اسم المسح ، ولا يجوز
الغسل ولا الرش .. وعليه يكون معنى الباء الإلصاق على القولين الأولين ، والتبعيض على
الأقوال الأخيرة الثلاثة .

﴿وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾. ورد في الأرجل قراءتان : إحداهما النصب ، والأخرى الخفض. وقال السنة : يجب غسل الأرجل ، لا مسحها ، لأنها معطوفة على الأيدي ، على القراءتين. أما على قراءة النصب فواضح ، إذ الأيدي منصوبة لفظاً ومحلاً. وأما على قراءة الجر فللجوار والإتباع ، أي الرؤوس مجرورة ، والأرجل مجاورة لها ، فجرت الأرجل لعلاقة المجاورة ، تماماً كقول العرب : «جحر ضب خرب» مع العلم بأن خرب يجب رفعه ، لأنه صفة للحجر ، لا للضب ، ولكنه خفض لمجاورته للضب.

وقال الشيعة : يجب مسح الأرجل ، لا غسلها ، لأنها معطوفة على الرؤوس. أما على قراءة الجر فواضح ، إذ الرؤوس مجرورة بالباء. وأما على قراءة النصب فمعطوفة على محل الرؤوس ، لأن كل مجرور لفظاً منصوب محلاً.

ثم قال الشيعة : ان العطف على الأيدي لا يجوز لأمرين :

الأول : انه خلاف الفصاحة ، لوجود الفاصل بين الأيدي والأرجل ، وهو قوله :

﴿وَأَمْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ﴾ ولو كان الأرجل معطوفة على الأيدي لقال : ﴿وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ ولم يفصل بين الأيدي والأرجل بمسح الرأس.

الثاني : ان العطف على الأيدي يستدعي أن يكون لكل قراءة معنى مغاير للآخر ، إذ يكون المعنى على قراءة النصب الغسل ، وعلى قراءة الجر المسح .. وهذا بخلاف العطف على الرؤوس فان المعنى يكون واحداً على القراءتين. بالإضافة الى أن الجر للجوار رديء لم يرد في كلام الله إطلاقاً.

﴿وَأِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾. يجب الغسل من الجنابة لأمرين : الأول : نزول المني في

نوم أو يقظة. الثاني : إدخال رأس الإحليل في قبل أو دبر ، وبالأولى إدخاله كاملاً.

ولم يوجب السنة الغسل بكيفية خاصة ، وإنما أوجبوا أن يعم الماء جميع البدن كيف

اتفق.

وقسم الشيعة الإمامية غسل الجنابة الى نوعين : ترتيب وارتماس ، والترتيب ان يصب

المغتسل الماء على جسمه صبا ، وفي هذه الحال أوجبوا الابتداء بالرأس ،

ثم بالجانب الأيمن من الجسم ، ثم الأيسر ، فلو أدخل ، وقدم المؤخر ، أو آخر المقدم يطل الغسل. أما الارتماس فهو غمس تمام البدن تحت الماء دفعة واحدة ، فلو خرج جزء منه عن الماء لم يكف.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾. تقدم تفسيره في سورة النساء الآية ٤٣.

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. الحرج الضيق والمشقة ، والضرر حرج وزيادة ، ومنه الأذى والمرض وذهاب المال .. والإسلام لم يشرع حكما يستدعي أي نحو من الضيق والمشقة ، فضلا عن الضرر ، فما أمر بشيء الا وفيه خير وصلاح ، وما نهى عن شيء الا وفيه شر وفساد ، وإذا كان في الشيء الواحد جانبان : نفع وضرر ، ينظر : فان كان النفع أكبر فهو مطلوب ، وان كان الضرر أكبر فهو منهى عنه ، فالعبرة دائما بالأكثر ، ومع التساوي فالخيار في الفعل والترك ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ . ٢٤ الأنفال. وقال : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ . ١٨٥ البقرة.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾. كل من دخل في دين أو حزب فقد قطع عهدا على نفسه أن يستجيب لمبادئه وتعاليمه ، ويعمل بها عن رضى وطيب نفس .. وهذا هو الميثاق الذي واثقنا الله به نحن المسلمين حين ارتضينا الإسلام ديننا ، ومن قام بهذا الميثاق وأداه كما أمر الله فقد وفي مع الله ، ومن عصى فقد خان الله ، ومن أظهر معاني الوفاء لله سبحانه الإخلاص لعباده. والصدق في معاملتهم ، ولا أعرف علامة على الصدق في الدين حقا وواقعا غير الوفاء .. وأنصح كل انسان ان لا يأتمن أحدا لعلمه أو عبادته ، أو لمنصبه وشهرته ، بل يأتمنه ويثق به بعد اليقين بصدقه ووفائه.

اعدلو هو أقرب التقوى الآية ٨ . ١٠ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ

شَنَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)
وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) ﴿

اللغة :

القسط العدل. ولا يجرمنكم ، أي لا يبعثكم. والشنان البغض.

الاعراب :

شهداء حال من الواو في كونوا. هو أقرب مبتدأ وخبر ، وضمير هو يعود على المصدر المتصيد من اعدلوا. وعد الله (وعد) تحتاج الى مفعولين الأول الذين آمنوا ، والثاني جملة لهم مغفرة ، وقيل : المفعول الثاني محذوف تقديره الجنة ، وجملة لهم مغفرة مفسرة لهذا المفعول المحذوف.

المعنى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾. للايمان الصحيح مظاهر تحس وتلمس ، وقد حددها الله سبحانه ، وأوضحها بشتى الأساليب في العديد من آياته ، مرّ الكثير منها ، وما يأتي أكثر ، والآية التي نفسرها الآن تقول بلسان مبين : ان كنتم مؤمنين فقوموا لله ، واشهدوا بالعدل ، ومعنى القيام له تعالى الصدق والإخلاص في الأقوال والأفعال ، أما الشهادة بالعدل فليس المراد منها ان نشهد لأعدائنا وأضدادنا بما لهم من حق علينا أو على غيرنا ..

كلا ، وان كان السياق يشعر بذلك ، وانما المراد أن يعدل الإنسان في جميع سلوكه ، دون استثناء .

فإن كان عالما زمنيا اتخذ من علمه وسيلة للقضاء على أسباب الضعف والتخلف ، وتوفير أسباب القوة والتقدم ، وان كان «دينيا» دعا الى كلمة الله ، وهي أن يحسن الإنسان خلافة الله في أرضه ، ويقاوم كل من ينحرف عن هذا السبيل ، وان كان جاهلا استجاب لأهل العلم والدين ، ووقف الى جانبهم مناصرا ومؤازرا ، ما داموا مع الحق والعدل .

هذا هو العدل الذي أمر الله به في هذه الآية وغيرها ، العدل الذي هو أمل الانسانية وهدفها ، والذي لا تستقيم بدونه حياة .. ان المجتمع قد يعيش من غير علم ، اما ان يعيش بلا عدل في جهة من الجهات فمحال ، حتى ولو كان جميع أفراده عباقرة ومخترعين .. ان العلم بلا عدل ضرره أكثر من نفعه ، أما العدل فكله نفع ، ومحال أن يكون فيه للضرر شائبة ، وان وجدت فهي وسيلة لدفع ما هو أعظم ضرا ، وأشد خطرا .

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ . المراد بالقوم في

الآية أعداء الخير والعدل الذين يقاومون كل محاولة لتحرير الانسانية من قيود الضعف والتخلف .. وقد أمرنا سبحانه بالمضي في اقامة العدل والعمل من أجل الحياة غير مهتمين ولا مكثرئين بغیظ المنحرفين ودسائسهم ، وبعبارة ثانية ينبغي أن نعمل بالمثل : القافلة تسير ، والكلاب تنبح .

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ . في الآية ٢٥ من

سورة البقرة بشر سبحانه المؤمنين العاملين بأن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، وفي الآية ٥٧ من سورة آل عمران بشرهم بأنه تعالى يوفيههم أجورهم ، وزاد في الآية ٥٦ من سورة النساء بأن لهم في الجنة أزواجا مطهرة ، ويأتي هذا الوعد في بقية السور بأسلوب آخر .. والهدف في الجميع واحد ، وهو الحث والترغيب في الايمان والعمل كلما دعت المناسبة .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ . بعد أن وعد المؤمنين العاملين

بالنعيم توعدهم الكافرين بالجحيم على طريقته تعالى من تعقيب الترغيب

بالترهيب .. وفي هذه الآية دلالة واضحة على ان من كفر بالله فهو من أصحاب الجحيم ، وان لم يدعه الى الايمان نبي أو وصي نبي. ذلك ان آياته تعالى التي تقوم بها الحجة على وجوده لا تختص بما أنزله على رسله ، فلقد أقام الدليل الكافي الوافي على وحدانيته وعظمته من الأنفس والسموات والأرض ، فمن يكفر بها تلزمه الحجة : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ . ٨ . الروم .

اذكروا نعمة الله الآية ١١ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾

الإعراب :

إذ ظرف متعلق بنعمة الله. والمصدر المنسبك من : أن يبسطوا ، مجرور بالباء المحذوفة ، والمجرور متعلق بهم.

المعنى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ . يقال ، بسط اليه لسانه إذا شتمه ، وبسط اليه يده إذا بطش به ، والمراد بالقوم هنا مشركو مكة الذين أرادوا القضاء على الإسلام في بدايته عن طريق البطش بأتباعه قتلا وتعديبا وتشريدا ، ثم إعلان

الحرب وتجهيز الجيوش ، ولكن الله في النهاية نصر المسلمين على أعدائه وأعدائهم ، وصاروا أعزاء بعد أن كانوا أذلاء ، وحاكمين بعد أن كانوا محكومين ، ولا نعمة أعظم من الحرية والنصر على العدو ، وبعد أن ذكر الله سبحانه المسلمين بهذه النعمة الجلى وجه اليهم هذا الخطاب :

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لا على قوتهم ، أي انما منحتكم هذه القوة لتستعملوها في احقاق الحق ، لا في احياء الباطل ، وفي انتشار الأمن والعدل ، لا لاستغلال المستضعفين ، والتأمر عليهم ، والتحكم بهم ، كما فعل بكم المشركون من قبل ، وكما يفعل أكثر الناس ، يطلبون العدالة ، وهم ضعفاء ، ويتنكرون لها ، وهم أقوياء .. ان المؤمن حقا يخشى الله ويشكره ، وهو قوي أكثر مما يخشاه ويشكره ، وهو ضعيف ، أو هو في الحالين سواء . على الأقل . أما من آمن بلسانه ، دون قلبه فعلى العكس : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ . ٦٥ العنكبوت .

اخذ الميثاق من اليهود والنصارى الآية ١٢ . ١٤ :

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

اللغة :

نقيب القوم من يبحث عن أحوالهم ، والمراد به هنا من أسندت اليه أمور القوم وتدير مصالحهم. ويطلق التعزيز على التأديب ، وعلى النصره ، وهو المراد هنا. وأغرينا أي الصقنا ، لأنه مأخوذ من الغراء الذي يلصق بالشيء.

الإعراب :

فبما نقضهم (ما) زائدة ، والمجرور متعلق بلعناهم. وقاسية مفعول ثان لجعلنا. ومن الذين قالوا متعلق بأخذنا.

المعنى :

تحدث سبحانه في كتابه العزيز عن الكفار والمشركين بعامه ، وعن مشركي قريش بصورة خاصة لما لاقاه النبي (ص) منهم ، وتحدث عن المنافقين الذين أظهروا الإسلام ، وأبطنوا الكفر ، وعن اليهود والنصارى ، ولكنه تحدث عن اليهود أكثر من الجميع ، لأنهم أكثر خلق الله عنادا للحق ، وحقدا على الانسانية ، ومر الكثير عنهم في سورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، ومعظم هذه السورة ، أي المائدة فيهم وفي النصارى.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾. ذكر

سبحانه انه بعث من بني إسرائيل اثني عشر نقيبا ، ولم يبين : هل كان هؤلاء الاثنا عشر زعماء اسباطهم الذين يمثلون ١٢ فرعا من يعقوب ، وهو إسرائيل ، أو هم أنبياء أو أوصياء؟ لم يذكر الله شيئا من ذلك ، ونحن نسكت عما سكت الله عنه .. اجل ، ان الآية صريحة في انه قد كان لله ميثاق مع بني إسرائيل ، يتضمن أن يقوم بنو إسرائيل بأمر خمسة ، وان الله يشيهم بأمرين إذا وفوا ، وإذا نكثوا استحقوا منه تعالى الطرد والعذاب ، أما الأمور التي التزموا بأدائها والوفاء بها فهي :

- ١ . اقامة الصلاة. ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾.
 - ٢ . إيتاء الزكاة. ﴿وَأَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾.
 - ٣ . الايمان برسل الله. ﴿وَأَمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾.
 - ٤ . نصره الرسل. ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾.
 - ٥ . بذل المال في سبيل الله. ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾. ويدل عطف القرض على الزكاة على انه كان الواجب في أموالهم أمرين : الزكاة ، والبذل في سبيل الله. ولقاء القيام بهذه الأمور الخمسة التي جاءت شرطا في الميثاق يشيهم الله بأمرين وقعا جزاء لهذا الشرط ، وهما :
 - ١ . العفو عن السيئات. ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.
 - ٢ . الجنة. ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.
- هذا هو ميثاق الله مع بني إسرائيل شرطا وجزاء ، وبعد ان بيّنه سبحانه خاطبهم بقوله : ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. ومن ضل الصراط المستقيم فعاقبته الخزي والخذلان.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾. انهم ينقضون كل عهد الا عدم نقض العهد والميثاق ، وهذه سمة لهم لا تفارقهم أبدا ، كما ان لعنة الله عليهم لا تنفك عنهم أبدا .. للتلازم والتلاحم بين نقض العهد ، وبين لعنة الله. ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾. كل من لا يتقي الشر والمعاصي فميت قلبه. قال الإمام علي (ع) : من قل ورعه مات قلبه.

وتسأل : كيف نسب سبحانه قسوة قلوبهم اليه؟ أليس معنى هذا أنهم غير مسؤولين عن هذه القسوة ، لأنها من الله ، لا منهم؟.

الجواب : ان الله بيّن لهم طريق الخير ، وأمرهم به ، وبيّن طريق الشر ، ونهاهم عنه ، وأخذ منهم الميثاق على السمع والطاعة ، فأعطوه إياه ، ثم خانوا ونكثوا ، وأصرروا على العصيان والتمرد ، فتركهم وشأنهم ، ولم يلجئهم إلى عمل الخير ، إذ لا تكليف مع الإلجاء ، ولأنه تعالى لم يلجئهم صح ان ينسب القسوة اليه ، ومن أراد زيادة في التوضيح فليرجع الى ما قلناه عند تفسير الآية ٨٨ من سورة النساء ، فقرة الإضلال من الله سلبى ، لا ايجابى.

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾. تقدم تفسيره في سورة النساء الآية ٤٥. ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾. ذكروا بالتوراة ، فحرفوا منها ما يتنافى مع أهوائهم ، وابقوا ما يشتهون. وإذ نقضوا ميثاق الله ، وحرفوا كتابه الذي أنزله اليهم من السماء . فبالأولى أن ينقضوا ما يعطونه من موثاق للعرب وغير العرب ، وان يحرفوا قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن.

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾. لم يكتف يهود الجزيرة العربية آنذاك بإنكار نبوة محمد (ص) ، حتى تأمروا عليه مع أعدائه ، وبيتوا له المكر والغدر ، فخطبه الله بقوله : ﴿لَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾. اي انك لاقيت . يا محمد . الكثير من اليهود ، وستلاقي أيضا الكثير منهم ، وان أحسنت اليهم ، لأن المحسن والمسيء عندهم سواء ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ وهم الذين أسلموا وصدقوا في إسلامهم كعبد الله بن سلام ومن معه. ورغم ذلك كله فان الله أمر نبيه أن يقابل إساءتهم بالإحسان : ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وتسأل : أبعد أن وصفهم سبحانه بأقبح الأوصاف ، وان الخير لا يرجى منهم بحال ، أبعد هذا يأمر نبيه بالصفح والعفو عنهم؟ وهل يعرف اليهود معنى الصفح والعفو؟ وهل يجوز الصفح عن الأفاعي والعقارب؟

وأجيب عنه بأجوبة منها ان ضمير عنهم يعود على القليل منهم الذين أسلموا وأخلصوا. ومنها ان هذه الآية منسوخة بآية السيف. وهذان الجوابان محتملان ،

أما الأول فلأن الضمير بظاهره يعود على الأقرب ، وأما الثاني فلوجود النسخ في القرآن .
ويجوز أن يكون الأمر بالصفح عنهم نزل بعد أن قوي الإسلام ، وأصبح في حصن
حصين لا يضره كيد اليهود ولا غيرهم من الكافرين .

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ . بعد ان بيّن سبحانه حال اليهود من
نقض الميثاق والتحريف بيّن حال النصارى وانهم واليهود سواء من هذه الجهة .. ولكن جل
ثناؤه ذكر في الآية السابقة نوع الميثاق الذي نقضه اليهود ، ولم يذكر شيئا عن نوع الميثاق
الذي أخذه على النصارى ، وغير بعيد ان الله سبحانه أطلق الكلام بالنسبة الى النصارى
لوضوح الميثاق الذي أخذه منهم ، وهو التوحيد ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ . والذي ذكروا
به هو الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى (ع) وينص صراحة على التوحيد ، وعلى نبوة
محمد (ص) باسم أحمد ، فحرفوه تماما كما حَرَفَ اليهود التوراة .

ومن أقوى الأدلة على تحريف الإنجيل ان رؤساء الكنيسة وعلماء التاريخ في الأناجيل
الأربعة التي اعتمدها النصارى في القرن الرابع «قد اختلفوا فيما بينهم فيمن كتب الأناجيل؟
ومتى كتبت؟ وبأية لغة؟ وكيف فقدت نسخها الأصلية؟ وهذه الخلافات موجودة بالتفصيل
في «دائرة المعارف الفرنسية الكبرى» . ذكر هذا وكثيرا غيره صاحب تفسير المنار .

﴿فَأَعَزَّنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ . ولا شيء يقال في تفسير هذه
الجملة خير مما قاله الشيخ أبو زهرة في كتاب «محاضرات في النصرانية» . لذا ننقل عبارته
بحرفها :

«لقد وقع بين الذين قالوا : إنا نصارى من الخلاف والشقاق والعداء في التاريخ
القديم والحديث مصداق ما قصه سبحانه في كتابه الصادق الكريم ، فقد سال من دمائهم
على أيدي بعضهم البعض ، ما لم يسأل من حروبهم مع غيرهم في التاريخ كله ، سواء أكان
ذلك بسبب الخلافات الدينية ، أو بسبب الخلافات على الرياسة الدينية ، أو بسبب
الخلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وفي خلال القرون الطويلة لم تسكن هذه
العداوات ، ولم تخمد هذه الحروب والجراحات ، وهي ماضية الى يوم القيامة ، كما قال
أصدق القائلين» .

قد جاءكم من الله نور الآية ١٥ . ١٦ :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)﴾

الاعراب :

جملة يبين لكم حال من رسولنا . وسبل السلام بدل من رضوانه ، ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا ليهدي ، لأن هدى تتعدى تارة الى المفعول الثاني بواسطة حرف الجر مثل هداه الى الخير ، وتارة بلا واسطة مثل هداه الخير .

المعنى :

أمر الله سبحانه نبيه (ص) والمسلمين جميعا أن يجادلوا أهل الكتاب بالتي هي أحسن ، ثم ضرب لهم أمثلة من هذا الجدل ليكونوا على بينة من معناه ومفهومه ، من ذلك أن يقول المسلمون لأهل الكتاب : ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِنَّا وَإِهْكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ . ٤٦ . العنكبوت : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ . ٦٣ آل عمران .. وهناك آيات تحصي على أهل الكتاب بعض آثامهم ، ومنها هذه الآية التي نفسرها ، فقد ذكرتهم بتحريف التوراة والإنجيل ، وعنادهم لمحمد الذي جاءهم بالهدى والنور .

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾. المراد بالرسول محمد (ص) ، فإنه بيّن لليهود والنصارى فيما بيّن بعض ما أخفوه من الكتاب الذي معهم ، فالنصارى أخفوا التوحيد ، وهو أساس الدين ، واليهود أخفوا من العقيدة خبر الحساب والعقاب يوم القيامة ، ومن الشريعة تحريم الربا ، ورجم الزاني ، كما أخفى اليهود والنصارى معا بعثة محمد : ﴿الَّذِي يَكِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾. ١٥٦ الأعراف».

لقد أطلع الله سبحانه محمدا (ص) على كل ما أخفاه وحرفه اليهود من التوراة ، والنصارى من الإنجيل ، ثم أخبرهم محمد (ص) بكثير مما كانوا يخفون ، وسكت عن كثير مما يعلم من تحريفهم ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾. أي يسكت عنه.

وجاء هذا الإخبار من محمد (ص) دليلا قاطعا على نبوته ، ومعجزة من معجزات القرآن التي لا ينبغي لعاقل أن يرتاب فيها ويشك ، لأن النبي (ص) كان أميا لم يقرأ كتابا ، ولم يخبره أحد عما في كتب اليهود والنصارى.

وتسأل : لما ذا أخبرهم النبي بالبعض فقط ، دون الجميع؟

الجواب : ان الغاية هي اعلامهم بأن الرسول عالم بما يخفون ، وهذه الغاية تحصل بالأخبار عن البعض ، كما تحصل بالأخبار عن الكل .. هذا ، الى انهم إذا علموا بأنه (ص) عالم ببعض ما أخفوه فقد علموا بأنه عالم بالكل.

الإسلام وأنصار السلام :

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾. قيل : النور محمد ، والكتاب القرآن. وقيل : هما وصفان للإسلام .. ولا اختلاف بين القولين الا في التعبير ، فان محمدا والإسلام وكتاب الله معان متلازمة متشابكة ، لا ينفك بعضها عن بعض.

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾. أي من رغب في مرضاة الله وحده ، وطلب الحق لوجه الحق فانه يجد في الإسلام بغيته ومرامه ، لأن فيه ثلاث فوائد :

١. ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾. وليس المراد بالسلام خصوص السلام الذي ينشده وينادي به أنصار السلام من طلب الأمن على الأرواح والأموال للشعوب ، وانما المراد به السلام الكامل الشامل لجميع الشعوب ، والأفراد ، وسلام البيت والأسرة من التربية الفاسدة ، وسلام العقل من الجهل والايمان بالخرافات والأساطير ، وسلام النفس من الطمع والحقد والكذب والمكر.

٢. ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾. أي يخرجهم الله بأمره تعالى من ظلمات التعبد للأصنام الى نور التوحيد الذي يحررهم من كل قيد إلا التعبد لله الواحد القهار.

٣. ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. والصراط المستقيم عند الله هو السبيل الذي يجعل الحياة ، هذه الحياة ، متعة وهناء لا عذابا وشقاء.

وبعد ، فهل عند أنصار السلام وغيرهم من الذين ينادون بتنمية الانتاج ، وتوفير العيش للجميع ، هل عند هؤلاء وغير هؤلاء منهج أفضل وأجدى مما عند الإسلام؟ وهل يحبون عباد الله أكثر من حب الله لعباده ، أو اتهم أعلم منه بما يصلح خلقه ويفسده؟ وبالتالي ، هل في عقيدة الإسلام ، وشرعية الإسلام ، وأخلاق الإسلام ، أو في حكم واحد من أحكام الإسلام ما يتنافى مع زيادة الانتاج وتوزيعه بالحق والعدل؟ ان القرآن أول الدعاة الى حياة أفضل ، قال سبحانه في الآية ٩ من الاسراء : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾. قال المفسرون : أي للحالة الأفضل.

ومهما شككت ، فاني على علم اليقين ان ما من أحد يدرس الإسلام دراسة صحيحة ، أي بكفاءة وتجرد ، إلا آمن به وأذعن له ، من حيث يريد ، أو لا يريد.

قالوا ان الله هو المسيح الآية ١٧ . ١٩ :

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي

الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

الاعراب :

جميعا حال من المسيح وامه ومن في الأرض. وعلى فترة متعلق بمحذوف حالا من الضمير في يبين. والمصدر المنسبك من أن تقولوا مجرور باضافة مفعول له محذوف ، والتقدير مخافة قولكم ما جاءنا من بشير.

المعنى :

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾. قد نفهم ان أحكام الشرائع الوضعية تتغير بتغير الأزمان ، أما ان تتغير اصول العقيدة الدينية بتغير الظروف والأوقات فبعيد عن فهم كل عاقل .. ولكن هذا ما حدث بالفعل للعقيدة المسيحية ، فقد ابتدأت هذه العقيدة بالتوحيد الخالص في عيسى (ع) ، وبقيت على التوحيد أمدا غير قصير فرق من المسيحيين ، منها فرقة ابيون ، وفرقة بولس الشمشاطي ، وفرقة أريوس ، وقد نص القرآن صراحة على ان

عيسى (ع) أتى بعقيدة التوحيد :

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ. قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ. إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ (١١٥ المائدة).

وظلت عقيدة التوحيد عند كثير من المسيحيين ، ولم تعلن عقيدة التثليث مدعومة بالقوة الى سنة ٣٢٥ م حيث أصدر مجمع نيقية قرارا بإثبات ألوهية المسيح ، وتكفير من يقول : انه انسان ، وحرقت جميع الكتب التي تصفه بغير الألوهية ، ونفذ قسطنطين امبراطور الرومان هذا القرار ، وأصبح المسيح إلها عندهم بعد أن كان بشرا ، وصدق عليهم قول الفيلسوف الصيني (لين يوتانغ) : ان الاغريق جعلوا آلهتهم مثل الرجال ، أما المسيحيون فقد جعلوا الرجال مثل الآلهة^(١).

وبهذا يتبين معنا ان الاعتقاد بألوهية عيسى (ع) كان قبل نزول القرآن بحوالى ثلاثة قرون . اذن . يكون المعنى المراد من قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾ المعنى الظاهر من اللفظ ، ولا داعي للتأويل بالحلول والاتحاد ، كما فعل كثير من المفسرين القدامى زاعمين ان أكثر النصارى لا يقولون بربوبية عيسى ، بل يقولون : ان الله حل به ، أو اتحد معه ، وعليه فلا تعدد .. وقال صاحب تفسير المنار : «ان أمثال الزمخشري والبيضاوي والرازي لا يعتد بما يعرفون عن النصارى ، لأنهم لم يقرءوا كتبهم ، ولم يلاحظوهم فيها». وصدق صاحب المنار ، فان من يرجع الى كتبهم يجد صريحة في التثليث ، ونقل الشيخ أبو زهرة الكثير منها في كتاب «محاضرات في النصرانية»

(١). المجمع عند النصارى تنقسم الى ثلاثة اقسام : مجامع مسكونية ، اي تجمع رجال الكنيسة في جميع أنحاء المعمورة ، وهذه حكمها لا يرد ، ومجامع ملية ، اي تختص بملة دون ملة ، ومجامع اقليمية ، اي خاصة باقليم دون إقليم .. وتجدر الإشارة الى ان أبا حنيفة يقول : ليس لله احكام واقعية ، وان حكمه ما يراه المجتهد بالذات ، اي ان حكم الله واقعا ما حكم به الفرد فضلا عن الجماعة والمجامع.

وعقد في هذا الكتاب فصلا خاصا بعنوان «النصرانية كما هي عند النصارى وفي كتبهم» ،
ومما جاء فيه ان القس بوطر ألف رسالة أسمها «الأصول والفروع» قال فيها : «ان في
اللاهوت ثلاثة أقانيم ، ولكل منهم عمل خاص في البشر». وتقدم الكلام عن الأقانيم
الثلاثة عند تفسير الآية ٥٠ من النساء.

الاشاعرة والنصارى :

وتسأل : ان النصارى يؤمنون بالتثليث والوحدانية في آن واحد ، لأنهم يقولون «بسم
الأب والابن والروح القدس إلهًا واحدًا» ، فكيف يمكن الجمع بين الوحدانية والتثليث ، كيف
يكون الواحد ثلاثة ، والثلاثة واحدًا؟
وأجاب المسيحيون أنفسهم عن ذلك بأن العقيدة فوق العقل ، وهم يربون صغارهم
على ذلك ، ويقولون لهم : إذا لم تفهموا هذه الحقيقة الآن فإنكم سوف تفهمونها يوم
القيامة.

وبهذه المناسبة نشير الى أن الأشاعرة من المسلمين قالوا : ان الله قد أراد الكفر به من
العبد ، ومع ذلك يعاقبه عليه .. فإذا كان قول النصارى : الثلاثة واحد غير معقول فان قول
الأشاعرة : الله يفعل الشيء ثم يعاقب عبده عليه غير معقول أيضا.
أما المسلمون فيؤمنون إيمانًا جازمًا بأن كل ما يقره العقل يقره الدين ، وما يرفضه
العقل يرفضه الدين ، ويروون عن نبيهم انه قال : أصل ديني العقل .. وان رجلا سأله عن
معنى البر والإثم؟ فقال له : استفت قلبك ، البر ما اطمأنت اليه النفس ، واطمأن اليه القلب
، والإثم ما حاك في النفس ، وتردد في الصدر ، وان أفتاك الناس وأفتوك.

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ

جَمِيعًا﴾. هذه الآية من أقوى الردود على المسيحيين ، وأصدق الأدلة على عدم ألوهية
المسيح ، لأن الله سبحانه إذا ملك القدرة على هلاك المسيح فلا يكون المسيح ، والحال هذه
، إلهًا ، وان لم يملك الله القدرة على هلاكه فلا يكون الله إلهًا ، والمفروض انه إله ، فيكون
قادرا على هلاك المسيح.

ورب قائل يقول : ان هذه الآية لا تصلح ردا على النصارى فضلا عن انها من أصدق الأدلة ، لأنها دعوى مجردة عن الدليل .. فللنصارى أن يقولوا : ان الله لا يقدر على هلاك المسيح ، ولا المسيح يقدر على هلاك الله ، لأن كلا منهما إله؟.

الجواب : ان المسيحيين متفقون قولاً واحداً على أن اليهود قد صلبوا المسيح وآذوه وأماتوه وقبروه تحت الأرض ، وعلى ذلك نصت أناجيلهم ، منها ما جاء في إنجيل متى إصحاح ٢٧ رقم ٥٠ : «وصرخ أيضا يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح». وما جاء في إنجيل لوقا إصحاح ٢٣ رقم ٤٦ : «ونادى يسوع بصوت عظيم قائلاً يا أبت في يديك استودع روحي ولما قال هذا أسلم الروح». وما جاء في إنجيل يوحنا إصحاح ١٩ رقم ٣٣ و ٣٤ «واما اليسوع فلما انتهوا اليه ورأوه قد مات لم يكسروا ساقيه ، ولكن واحداً من الجند فتح جنبه بحربة ، فخرج للوقت دم وماء» أي خرج من جنب المسيح بعد موته .. وإذا كان اليهود قد أهلكوا المسيح فبالأولى أن يقدر الله على هلاكه وهلاك أمه.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾. ان قولهم هذا تماماً كقولهم الذي حكاه الله عنهم في الآية ١١١ من سورة البقرة : ﴿وَقَالُوا لَنُيَدْخَلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾. وتجد تفسير هذه الآية في ج ١ من هذا التفسير ص ١٧٧ و ١٧٨ .. وتجدد الإشارة الى عقيدة الإسلام التي تقول : لا فضل لإنسان على إنسان إلا بالتقوى ، وان النطق بكلمة الإسلام من حيث هو ليس بشيء إلا مع العمل الصالح.

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾. وتساءل : ان هذا لا يصلح جواباً لليهود والنصارى عن زعمهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه ، لأن لهم أن يقولوا : ان الله لا يعذبنا في الآخرة ، وإذا لم يكن لديهم دليل محسوس على عدم عذابهم في الآخرة فلا دليل محسوس أيضاً على عذابهم في ذلك اليوم؟.

الجواب : ان المراد بالعذاب ما يعم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .. والله سبحانه قد عذب اليهود في الدنيا على يد الفراعنة ، وبخت نصر والرومان وغيرهم. (انظر ج ١ من هذا التفسير ص ٩١). أما عذاب النصارى فهو أدهى وأمر ،

لأنه في الدنيا كان بمحاربة بعضهم بعضا ، وتنكيل بعضهم ببعض .. وبديهية ان الأب لا يعذب أبنائه ، والحب لا يعذب أحباءه.

أما الدليل على عذابهم في الآخرة فقد أشار اليه سبحانه بقوله : ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ﴾ لا تمتازون عن غيركم في شيء .. كل الناس من آدم ، وآدم من تراب كما قال رسول الله (ص). ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ ممن يراه أهلا لمغفرته ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ ممن يراه مستحقا لعذابه ، وليس لأحد أن يفرض عليه الغفران ، أو يمنع من العذاب.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾. لأنه خالق الكون ، ومن كان كذلك فهو غني عن الأبناء والأحباء. ﴿وَالْبَاقِيَ الصَّابِرِينَ﴾. وهناك يعلم اليهود والنصارى انهم أبغض عباد الله لله ، وأكثرهم عذابا على افتراءهم الكذب بأنهم أبناء الله وأحباءه.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾. أي بعد انقطاع الوحي أمدًا من الزمن ، واحتياج الناس الى الأنبياء والمرشدين ، قال الإمام علي (ع) : «بعثه والناس ضلال في حيرة ، وخابطون في فتنة ، قد استهوتهم الأهواء ، واستزلتهم الكبرياء ، واستخفتهم الجاهلية الجهلاء ، حيارى من زلزال في الأمر ، وبلاء من الجهل ، فبالغ (ص) في النصيحة ، ومضى على الطريقة ، ودعا الى الحكمة والموعظة الحسنة».

﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ ولم يترك الله لكم حجة ولا معذرة ، وهذه الآية بمعنى الآية ١٦٥ من سورة النساء : ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِنَاسٍ لَّيْسَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ ومر تفسيرها. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. يقدر على نصره محمد (ص) ، وإعلاء كلمة الإسلام ، وان جحدته اليهود والنصارى.

موسى وقومه الآية ٢٠ . ٢٦ :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ

فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ اللَّهَ عَلَيْنِهُمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّمَا مَحْرَمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴿

اللغة :

الجبار للمبالغة. ويستعمل في إصلاح الأمور ، يقال : جبر كسره إذا أصلحه. وجبر الفقير إذا أنعشه ، وأيضا يستعمل في ذم الإنسان المتكبر المتعاضم وهذا هو المراد هنا. وإذا وصف ذو الجلال به فالمراد به العالي الذي لا ينال ، حتى العقول تعجز عن ادراك كنهه وحقيقته ، ومن ذلك قول العرب : نخلة جبارة ، إذا طالت وعلت وقصرت الأيدي عن تناولها. والته الحيرة. والأسى الحزن له أو عليه.

الاعراب :

فتنقلبوا منصوب بأن مضمرة بعد الفاء لوقوع الفعل في جواب النهي . وما داموا (ما) مصدرية ظرفية ، والمصدر المنسبك بدل بعض من أبدا . وما هنا . (ها) للتنبيه ، وهنا ظرف متعلق بقاعدون . وأربعين سنة ظرف متعلق بمحرمة . وجملة يتيهون حال من الضمير في عليهم .

المعنى :

هذه الآيات حلقة من قصة بني إسرائيل التي ذكرها سبحانه متفرقة في العديد من سور القرآن ، وكرر بعض حلقاتها مرات ، وهي . كما ترى . ظاهرة الدلالة ، واضحة المعنى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ . ذكرهم موسى (ع) بنعم الله عليهم تمهيدا لما سيأمرهم به من الجهاد ، وعدّ من هذه النعم ثلاثا : الأولى ان الله جعل فيهم أنبياء . الثانية : انه جعلهم ملوكا ، أي مستقلين يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، ولا نعمة أعظم من الحرية . الثالثة : انه عاملهم بما لم يعامل به أحدا من الناس ، فأهلك عدوهم من غير جهاد وقتال ، وأنزل عليهم المن والسلوى بلا حرث ولا حصاد ، وأخرج لهم المياه العذبة من الحجر بلا حفر وتنقيب ، وأظل فوقهم الغمام بلا بناء وعناء .

وبهذه النعم الثلاث نجد تفسير الآية ٤٧ من سورة البقرة : «يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم واني فضلتكم على العالمين» . فالتفضيل على أهل زمانهم كان بإرسال الأنبياء منهم ، وباستقلالهم ، وانزال المن والسلوى عليهم ، وما اليه . وبتعبير ثان ان التفضيل لم يكن بالأخلاق والمناقب ، بل بكيفية المعاملة معهم .

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ﴾ . أي وعد . ﴿اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ . بعد أن ذكرهم موسى بنعم الله عليهم

أمرهم بغزو فلسطين ، وكان فيها الحيثيون والكنعانيون ، وأمرهم بالصبر والثبات في القتال ، وكان الله قد وعدهم السكنى بها في ذلك العهد. فقول موسى : « كتب الله لكم » إشارة الى هذا الوعد ، وليس معناه ان فلسطين ملك طلق لهم ، كما يزعم اليهود.

ولكن قوم موسى قالوا له جبنا وضعفا : ﴿يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنُ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾. فهم يريدون نصرا رخيصة ومريحا ، لا يكلفهم قتيلا ولا جريحا ، تماما كما غرق عدوهم فرعون ... ولكن رجلين صالحين منهم قاما فيهم مرشدين يثابتهما على السمع والطاعة لله ولرسوله ، واليهما أشار سبحانه بقوله :

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾. أي بالايمان . ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. أي اغزوا القوم في عقر دارهم ، فيذلوا وينكسروا ، على أن تكونوا متوكلين حقا على الله ، كما هو شأن المؤمنين المخلصين. ولكنهم عادوا الى جبلتهم من العناد والتمرد والقحة والصلافة.

و ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنُ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾. رأيت الى هذه الجرأة على الله ورسوله؟ .. الى هذه الوقاحة والصلافة : « اذهب أنت وربك » .. انه ربهما إذا خدم مصالحهم الشخصية ، ولم يكلفهم بما يزعجهم ، وقتل أعداءهم .. وهم (قاعدون) سالمون آمنون ، أما إذا انزعج خاطرهم بأدنى تكليف فهو رب موسى ، وليس برههم .. ومعنى هذا في واقعه ان أهواءهم وشهواتهم وحدها هي ربههم وإلههم الذي يستحق منهم العبادة والتقديس بحمده.

والحق ان هذه الظاهرة لا تخص اليهود وحدهم ، بل تشمل كل من عبد الله على حرف .. وما أكثرهم في المسلمين والنصارى.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾. هذا التوجه من موسى الى ربه يشعر بالشكوى من غربته بين قومه بعد الجهد الجهد ، والعناء الطويل من أجلهم .. ﴿إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ ولا ملك ولا أمر لمن لا يطاع :

﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾. لم يجد موسى بدا من الطلب اليه تعالى ان يفصل ويباعد بينه وبين قومه بعد نكولهم عن عهد الله وميثاقه.

﴿قَالَ فَإِنَّا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾. هذا هو جزاؤهم : التيه في صحراء سيناء الجرداء ، يسرون فيها لا يهتدون الى طريق الخروج ، ولا يدرون أين المصير .. وهكذا يضربون في مجاهلها أربعين عاما ، حتى يفنى كبرائهم ، وينشأ بعدهم جيل جديد.

قاييل وهابيل الآية ٢٧ . ٣١ :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)﴾

اللغة :

القربان مصدر كالشكران والكفران ، والمراد به هنا اسم المفعول ، أي الشيء

الذي يتقرب به الى الله من الذبائح وغيرها ، فهو مثل الخلق حيث أريد به المخلوق . والبسط المد ضد القبض . وباء بوءا ، أي رجع رجوعا . فطوعت له نفسه ، أي زينت له نفسه . والسوأة ما يسوء ظهوره . والويل حلول الشر ، والويلة تستعمل في الفضيحة ، وهذا المعنى هو المراد هنا ، فكأنه قال : وا فضيحتاه .

الإعراب :

إذ قربا قربانا ، أي قرب كل واحد منهما قربانا ، مثل قوله تعالى : فاجلدوهم ثمانين جلدة ، أي اجلدوا كل واحد منهم . وكيف حال من الضمير في يوارى . وجملة يوارى مفعول ثان ليريه . يا ويلتا ليس النداء هنا للآدميين بل للويل نفسه ، أي يا ويل احضر هذا وقتك . وكذا وا عجباه ، أي أيها العجب هذا وقتك .

المعنى :

لقد حاك القصاص ، وكثير من المفسرين الأساطير من قصة ابني آدم هذين .. ولا مصدر إلا الاسرائيليات . ونحن نلخص ما دل عليه ظاهر الآيات بما يلي : لقد كان المتنازعان ابني آدم من صلبه مباشرة ، كما هو الظاهر ، ولكن الله سبحانه لم يصرح باسمهما ، وقال المفسرون والمؤرخون : ان اسم القاتل قابيل ، واسم المقتول هابيل .. وسبب النزاع والشقاق ان كلا منهما قرب قربانا لله سبحانه ، فتقبله جل ثناؤه من هابيل ، ولم يتقبل من قابيل .. ولم تذكر الآيات نوع القربان ، ولا كيفية التقبل من ذاك ، والرفض من هذا . فثار حفيظة قابيل ، وهدد أخاه بالقتل . فقال له هابيل : انت الجاني على نفسك ، ولا لوم عليّ ، لأن الله تعالى يتقبل من المتقين ، ولست منهم ، وان أردت قتلي فلا أقابلك بالمثل ، وكفأك جرما إن فعلت أن ترجع بإثم قتلي ، وإثمك الذي كان السبب في عدم قبول قربانك .

ولكن هذه الكلمات لم تترك أثرا في نفس قابيل ، بل على العكس زادت من نقمته ، ونقذ الخطة عامدا ، وبعد أن صار أخوه جثة هامدة لم يعرف كيف يوارئها ، فبعث الله غرابا ، فحفر برجليه ومنقاره حفرة ، فلما رآها القاتل زالت حيرته ؛ واهتدى الى دفن أخيه من عمل الغراب .. ولكنه عض يده ندامة بعد أن أدرك فداحة الخطب ، كما أدرك انه دون الغراب معرفة وتصرفا.

هذا هو موجز القصة ، كما دلت عليها الآيات .. وبهذه المناسبة نشير الى خلاف معروف بين علماء الأخلاق منذ القديم ، وهو ، هل الإنسان شرير بالطبع ، أو خير بالطبع؟. وحاول كثير من المفسرين أن يستدلوا بهذه القصة على انه شرير بالطبع. والصحيح ان في كل انسان استعدادا للخير والشر بفطرته ، حتى خير الأخيار ، وشر الأشرار ، والفرق ان في بعض الأفراد مناعة من عقل رصين ، أو دين متين يكبح نزواتهم الى الشر ، ويندفع البعض الآخر مع شهواته لضعف في دينه ، أو عقله.

الفرد والجماعة في الاسلام الآية ٣٧ :

﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)﴾

اللغة :

من أجل ذلك ، أي بسبب ذلك. والإسراف التجاوز عن حد الاعتدال.

الإعراب :

من أجل ذلك متعلق بكتبتنا. وانه (الهاء) ضمير الشأن ، والمصدر المنسبك من ان وما بعدها مفعول كتبتنا. ومن شرطية. وبغير متعلق بمحذوف حالا من الضمير في قتل. وبعد ظرف متعلق بمسرفون.

المعنى :

﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. لقد كشفت قصة ولدي آدم ان في الناس نوعين : معتديا ومعتدى عليه .. ولحماية هذا من ذاك ، وصيانة الحياة ونظامها جعل الله لكل معتد عقوبة يستحقها ، واعتبر قتل الأبرياء جريمة الجرائم كلها ، فقله تعالى : ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ﴾ اشارة الى جريمة القتل من حيث هي ، وليس اشارة الى قصة قابيل مع أخيه هابيل ، وان كانت هي السبب الباعث على التشريع ، تماما كما تشرع السلطة قانونا عاما بسبب حادثة خاصة.

وتسأل : ان عقوبة القتل تعم بني إسرائيل وغيرهم ، فما هو القصد من تخصيصهم بالذكر؟

الجواب : أجل ، ان هذه العقوبة وغيرها عامة لهم ولغيرهم ، ولكن الله سبحانه خص اليهود بالذكر لأنهم أجزأ خلق الله على قتل عباده ، وارقة دمائهم ، وبذلك تشهد توراتهم التي أباحت لهم قتل النساء والأطفال ، ويشهد عليهم قتلهم الأنبياء في تاريخهم القديم ، وسيرتهم في فلسطين في تاريخهم الحديث.

﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾. أي أو غير فساد في الأرض عطفًا على نفس ، لا على غير ، والمعنى يجوز شرعا قتل من قتل غيره عدوانا ، وأيضا يجوز قتل من سعى في الأرض فسادا جزاء وفاقا ، وصيانة لحياة الناس وأمنهم.

أما من يقتل نفسا بريئة مسالمة ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾. اختلف المفسرون وغير المفسرين في الوجه المبرر لتشبيه القتل الافرادي بالقتل الجماعي ، واحياء الفرد باحياء الناس جميعا ..

فمن قائل : انه مبالغة في الردع عن جريمة القتل ، والحث على إنقاذ النفس وتخليصها من المهلكات ، كالغرق والحرق ، وما اليهما من اغاثة الملهوف. ومن قائل : انه بيان لحقيقة القتال والمحسن ، بأن من أقدم على قتل واحد يقدم على قتل الناس جميعا ، تماما كما يقولون : «من يسرق البيضة يسرق الجمل»^(١) وان من أحسن الى واحد من الناس يحسن للجميع ، ما دام الدافع له حب الخير والإحسان. وقال آخرون : انه بيان للطبيعة النوعية في الإنسان ، وانها تتمثل في البعض والكل على السواء ، لا تزيد بكثرة الأفراد ، ولا تنقص بقلتهم.

والذي نفهمه من الآية ان الفرد في نظر الإسلام هو غاية بنفسه ، لا وسيلة الى غيره ، وانه ظاهرة انسانية ، له ما لها من الحرمة والكرامة ، وان العدوان عليه عدوان على الانسانية التي تتمثل به وبالناس جميعا ، وان الإحسان اليه احسان الى الناس جميعا.

وتسأل : ان هذا تضخيم خيالي لذات الفرد ، وتضحية بالجماعة من أجله ، مع ان العكس هو الحق والعدل؟

الجواب : ليس المراد بمصلحة الفرد المصلحة التي تغطي على مصلحة الجماعة ، وتتنافى معها ، ولا المراد بالفرد الذي يحاول العيش على حساب غيره من الناس .. ان هذا لا يعد إنسانا بالمعنى الصحيح ، بل هو أعدى أعداء الانسانية في نظر الإسلام ، والى هذا يومئ قوله تعالى : ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾. وانما المراد بالفرد الذي يستمد مصلحته من مصلحة الجماعة ، ويرى حياته بحياتها ، وكرامته بكرامتها. كما ان المراد بمصلحة الجماعة مصلحة جميع أفرادها ، لأن الجماعة ليست مجموعة أصفار ، وانما هي مجموعة أفراد .. فأية جماعة يوجد فيها ضعيف واحد يخاف على حق من حقوقه فهي ضعيفة في كيانها ، فاسدة في أوضاعها ، تماما كالجسم إذا فسد بعض أعضائه ، أو البيت إذا تهدم ركن من أركانه. وعلى هذا تكون مصلحة الفرد والجماعة متكاملتين ، يملأ بعضهما بعضا ، ولا تنفك إحداها عن الأخرى.

(١). رأيت هذا بالحرف في بعض الأحاديث المروية عن النبي (ص).

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ . أي

ان رسل الله قد بلغوا اليهود حكم الله سبحانه ، وقالوا لهم بوحى منه : من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا .. ولكن الكثير من اليهود لم يكثرثوا بهذا التحذير ، ومضوا مسرفين في سفك الدماء وانتهاك الحرمات .. وقوله تعالى : ﴿بَعَدَ ذَلِكَ﴾ إشارة الى انهم فعلوا ما فعلوا بعد إقامة الحجة عليهم ، وانقطاع كل عذر يمكن أن يتذرعوا به .. وهذا هو موقف القرآن من كل جاحد يحتج عليه بمنطق الحق ، ويدعوه اليه بالحكمة ، حتى إذا أصر على جحوده كان إصراره عنادا للحق بالذات ، لا لشخصية الداعي .

جزاء المفسدين الآية ٣٣ . ٣٤ :

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤)﴾

اللغة :

تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف معناه إذا قطعت اليد اليمنى تقطع الرجل اليسرى ، والعكس بالعكس ، والخزي الذل والفضيحة .

الإعراب :

جزاء مبتدأ. وفسادا مصدر وضع موضع الحال من الواو في يسعون ، أي يسعون في الأرض مفسدين. والمصدر المنسبك من أن يقتلوا خبر جزاء. ومن خلاف متعلق بمحذوف حال من أيديهم وأرجلهم. وذلك مبتدأ أول ، وخزي مبتدأ ثان ، وخبره لهم ، والمبتدأ الثاني مع خبره خبر المبتدأ الأول ، وفي الدنيا متعلق بمحذوف صفة لخزي. وإلا الذين في محل نصب على الاستثناء المتصل من واو يحاربون.

المعنى :

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ المراد بمحاربة الله ورسوله ان الاعتداء على الناس اعتداء على الله والرسول ، ومن أجل هذا كانت عقوبته حدا من حدود الله. والمراد بالفساد في الأرض هنا قطع الطريق ، وتلثقي في هذه الجريمة عدة جرائم : إخافة الأمنين ؛ والتمرد على الحكم ، والمجاهرة بالإجرام ، وإراقة الدماء ، ونهب الأموال ، وقد يكون فيها هتك الأعراض. ومن أجل ذلك جعل الله جزاء قطاع الطريق ما أشار اليه بقوله :

﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ هُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. المراد بالمفسد هنا كل من جرد السلاح لإخافة الناس بالضرب أو القتل أو السلب أو الإهانة أو الاعتداء على الأعراض ، مسلما كان أو غير مسلم ، فعل ذلك في بر أو بحر ، في ليل أو نهار ، في مصر أو غير مصر ، تسليح بسيف أو مسدس أو عصا أو حجارة ، فالعبرة بإخافة الناس على أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم ، ونصت الآية على أربع عقوبات :

١. القتل ، وجاء بصيغة المبالغة إشارة الى ان القتل حتم لا بد منه ، ولو ان قاطع

الطريق قتل نفسا ، وعفا عنه ولي المقتول فلا يعفى عنه ، قيل للإمام

أبي جعفر الصادق (ع) : رأييت لو أراد أولياء المقتول أن يأخذوا الدية ، ويدعوه ، ألهم ذلك؟ قال : لا ، عليه القتل.

٢ . الصلب ، والمبالغة فيه كالمبالغة في القتل ، أما كيفيته فما هو معروف عند الناس.

٣ . قطع الأيدي والأرجل من خلاف ، أي إذا قطعت اليد اليمنى قطعت الرجل اليسرى ، والمبالغة فيه أظهر من المبالغة في القتل والصلب لتكرار القطع.

٤ . النفي إلى بلد ناء عن بلده يحس فيه بالغبرة والتشريد ، وقال أبو حنيفة : المراد بالنفي السجن ..

وعلق صاحب المنار على هذا بقوله : «وهو أغرب الأقوال».

واختلفت المذاهب الإسلامية في كيفية تنفيذ هذه العقوبات الأربع : هل تنفذ على سبيل التخيير أو التعيين لكل حسب جرمه ، ومقدار إفساده؟.

قال الشيعة الإمامية : ان (أو) تدل بظاهرها على التخيير ، وعليه يترك الأمر لاجتهاد الحاكم في تنفيذ ما تدرأ به المفسدة ، وتقوم به المصلحة من القتل أو الصلب أو القطع أو النفي . وقريب من هذا قول المالكية.

وقال الشافعية : ان هذه العقوبات تختلف باختلاف الجنايات ، فمن اقتصر على القتل قتل ، ومن قتل وأخذ المال قتل وصلب بعد القتل ثلاثة أيام ، ومن أخذ المال فقط قطع من خلاف ، ومن أخاف السبيل ، دون أن يقتل أو يأخذ المال نفي .

وقال الحنفية : ان أخذ المال وقتل فللحاكم الخيار ، ان شاء قطع من خلاف وان شاء قتل ولم يصلب ، وان شاء جمع بين القتل والصلب ، وصفة الصلب عنده أن يصلب حيا ، ويبعج بطنه برمح إلى أن يموت ، ولا يصلب أكثر من ثلاثة أيام.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. إذا تاب

قاطع الطريق من تلقائه ، وقبل القبض عليه سقطت عنه العقوبة ، لأن الحكمة من العقوبة أن يرتدع المجرم عن الفساد ، فان ارتدع من نفسه لم يبق لها من موجب ، وهذا أصدق مثال على إنسانية الشريعة الإسلامية وعظمتها.

وتجدر الإشارة إلى أن التوبة قبل الظفر بالجاني تسقط عنه العقوبة الأدبية ، أما الحقوق المادية للناس فيطالب بها ، فإن سلب مالا فعلية ارجاعه أو إرجاع بدله من المثل أو القيمة إذا كان قد تلف ، وان قتل ، فلاولياء المقتول أن يقتلوه به إن شاءوا.

ابتغوا اليه الوسيلة الآية ٣٥ . ٣٧ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
(٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ هُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا
وَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧)﴾

اللغة :

الوسيلة الوسيلة والقربة ، تقول توسلت اليه ، أي تقربت اليه.

الإعراب :

ما في الأرض اسم أن. ولهم خبرها ، والمصدر المنسبك من أن وما بعدها فاعل لفعل محذوف ، أي لو ثبت ان لهم ، و «لو وجوابها» خبر إن الذين.

المعنى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. ان تقوى الله ، وابتغاء الوسيلة اليه ، والجهاد في سبيله ، كل هذه تعبر عن معنى واحد ، أو عن معان متلازمة متشابكة ، لأن تقوى الله اتقاء سخطه ، وابتغاء الوسيلة اليه طلب مرضاته ، والجهاد في سبيله يشمل الأمرين .. وأفضل ما يتوسل به المتوسلون الى الله حب الناس ، والعمل من أجلهم ، وقرأت كلمة لكاتب كبير تقول : «محال أن يعرف حقيقة الناس من لا يحب الناس». ونزيد عليها : ومحال أن يحب الله من لا يحب الناس.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ هُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾. يضحى الإنسان بجميع ما يملك للخلاص من أسقامه وآلامه في حياته هذه ، فكيف بنار جهنم. ﴿مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. انما يقبل الفدية من يفتقر اليها ، والله ملك السموات والأرض. ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾. وهذا نص قاطع على أن من جحد الخالق ، أو عبد سواه ، فهو مخلد في النار. ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾. وفي الآية ٢٠ من سورة السجدة : ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يُخْرِجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾. وهناك جرائم لا تقل إثما وعذابا عن الكفر بالله ، كسلب الشعوب أقواتها ومقومات حياتها ، وقتل النفس ، لأنها أبت إلا أن تعيش حرة كريمة.

والسارق والسارقة الآية ٣٨ . ٤٠ :

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾
(٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ

عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) ﴿

الاعراب :

والسارق والسارقة مبتدأ ، والخبر فاقطعوا ، وجاز دخول الفاء على الخبر لأن الألف واللام في السارق والسارقة بمعنى اسم الموصول ، فكأنه قال ، من سرق فاقطعوا. وعن سيويه ان الخبر محذوف. والظاهر من أيديهما ان السارق تقطع يداه الاثنان ، لأن أيديهما جمع ، والجمع يصدق على الثلاثة وما فوق ، ولو كان المقصود قطع الواحدة لقال يديهما ، ولكن هذا الظاهر متروك بالسنة النبوية والإجماع على قطع الواحدة ، كما ان عموم السارق والسارقة يقتضي قطع كل سارق وسارقة ، ولكن هذا العموم متروك كما يتضح مما يأتي. وجزاء مفعول من أجله لإقطعوا. ونكالا بدل من جزاء.

المعنى :

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ﴾. المراد بالنكال هنا العقوبة الدنيوية .. ومهما اختلفت الشرائع السماوية والأرضية في تحديد الجريمة ، ونوع العقوبة ، وشروط تنفيذها فإنها تتفق على أن الهدف منها ردع المجرم عن الاجرام حفظا للأمن وصيانة للمصالح ، قال الإمام علي (ع) : «السلطان وزعة الله في أرضه». ولا يلتفت إلى قول بعض الفقهاء : ان الهدف من العقوبة مجرد سقوط العذاب عن المجرم في الآخرة .. أجل ان الله أعدل وأرحم من أن يجمع بين عقوبتين على جرم واحد. ولقطع يد السارق شروط :

١. أن يكون المسروق في حرز ، ويخرجه السارق منه ، فمن سرق سيارة . مثلاً . من كراج مقفل يحد ، ويرجع السيارة إلى أهلها ، ومن سرقها من

الطريق ، أو من كارج غير مقفل فلا يحد ، بل يعزر بما يراه الحاكم ، ويرجع المسروق إلى صاحبه. ولا خلاف في ذلك.

٢ . اتفقوا على أنه لا قطع إلا في ربع دينار أو أكثر. وقال أبو حنيفة : بل في دينار.

٣ . أن يكون السارق بالغاً ، لحديث : «رفع القلم عن الصبي ، حتى يحتلم ، وعن المجنون ، حتى يفيق ، وعن النائم ، حتى يستيقظ». وقال المالكية : لا فرق بين الصغير والكبير.

٤ . أن يكون السارق عاقلاً ، لحديث «رفع القلم».

٥ . اتفقوا على أن الوالد لا يقطع إذا سرق من مال ولده ، لحديث : «أنت ومالك لأبيك» وقالت المذاهب الأربعة ، وبعض فقهاء الشيعة : الأم مثل الأب. وقال الحنفية والشافعية والحنابلة : لا يقطع أحد الزوجين بسرقة مال الآخر. وقال المالكية : لا يقطع إذا سرق من بيت يسكنان فيه معا ، وإلا قطع. وقال : الشيعة : يقطع إطلاقاً إلا إذا سرقت الزوجة لنفقتها ونفقة أولادها.

٦ . أن لا تكون السرقة في عام المجاعة ، فإذا سرق الجائع مأكولاً ، حيث لا وسيلة لسد حاجته إلا السرقة فلا حد عليه.

أما كيفية القطع فقد اتفقت المذاهب الأربعة على أن الكف اليمنى تقطع من المفصل. وقال الإمامية : تقطع أصابعه الأربع من الكف اليمنى ، وتترك الراحة والإبهام. وهناك مسائل كثيرة تتصل بهذا البحث ندعها لكتب الفقه ، ومنها الجزء السادس من فقه الإمام جعفر الصادق.

﴿فَمَنْ تَابَ﴾ . من السارقين . ﴿مَنْ بَعْدَ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . قال السنة : توبة السارق لا تسقط عنه الحد. وقال الشيعة الإمامية : إذا تاب السارق من تلقاء نفسه ، وقبل أن تثبت السرقة عليه عند الحاكم فلا حد عليه. ووافقهم على ذلك صاحب تفسير المنار ، قال : «وإذا قيسست السرقة على الحراة . أي قطع الطريق . فالقول بسقوط الحد ظاهر ، إن تاب السارق قبل رفع أمره إلى الحاكم».

واتفقوا على ان التوبة لا تسقط الحق الشخصي للمسروق منه ، ولا بد من اعادة المال الى صاحبه عينا ان كان قائما ، أو بدله ان كان تالفا.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

هذا خطاب لكل من يسمع القرآن ، لا للنبي وحده ، وفيه بيان ان الله سبحانه هو الذي خلق الكون والإنسان ، وانه لا يفعل إلا ما فيه خير وصلاح لعباده ، فإذا عذب من يشاء من الجناة فإنما يفعل ذلك تربية له ، وتأمينا للناس من شره ، وإذا غفر ورحم من يشاء من عباده التائبين فإنما يفعل ذلك ترغيبا له في إصلاح نفسه.

سماعون الكذب الآية ٤١ . ٤٣ :

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاؤُكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ

وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

اللغة :

كل من يقبل الكذب يقال له سماع للكذب. والمراد بالسحت المال الحرام.

الإعراب :

من الذين قالوا متعلق بمحذوف حال من واو يسارعون. سماعون مبتدأ خبره من الذين هادوا ، واللام في ﴿لِلْكَذِبِ﴾ زائدة ، والكذب مفعول سماعون. وسماعون الثانية تأكيد للأولى ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، أي هم سماعون. واللام في (القوم) ليست زائدة ، بل متعلقة بسماعون الثانية ، مثل استمعت له. وشيئا مفعول مطلق ، أي فلن تملك له من الله أي نوع من الملك. وكيف حال من فاعل يحكمونك. وعندهم التوراة مبتدأ وخبر. وكذلك فيها حكم الله.

المعنى :

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾. هذا خطاب من الله لرسوله (ص) ، يهون عليه أمر المنافقين واليهود ، لأن العقوبة ستكون عليهم لا لهم .. وهذه الجملة تختص بالمنافقين ، لأن الإيمان بالأفواه ، دون القلوب حقيقتهم وهويتهم.

والنهي عن الحزن نهي عن لوازمه ، وعدم ترتب الأثر عليه ، لأن الإنسان لا اختيار له فيه ، وأي عاقل يختار الحزن لنفسه؟ ولكن تبقى السيطرة معه للعقل والدين ، قال الرسول الأعظم (ص) : تدمع العين ، ويحزن القلب ،

ولا نقول ما يسخط الرب. وبعد أن ذكر سبحانه المنافقين أشار إلى قوم من اليهود بقوله :
﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾. عاد الحديث عن اليهود ، وفي هذه الآيات أخبار اعتمدها المفسرون ، وتتلخص بأن التوراة كانت تنص على وجوب رجم الزاني .. وصادف في عهد الرسول (ص) ان زنى رجل وامرأة من أشrafهم ، فكره قوم من اليهود رجمهما ، وأرسلوا وفدا منهم إلى رسول الله ليسأله عن حكم الزنا ، وقالوا للوفد : ان افتي بغير الرجم فاقبلوا ، وان افتي بالرجم فارفضوا .. فجاءوا الرسول ، فأفتاهم بالرجم ، فرفضوا زاعمين ان التوراة ليس فيها رجم ، ولما حاجَّ الرسول بعض علمائهم اعترف بأن حكم التوراة هو الرجم ، تماما كما أفتي الرسول ، وان اليهود خصوا حكم الرجم بالضعفاء ، وجعلوا الجلد مكان الرجم إذا زنى الشرفاء.

فالمراد بقوله : **﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾** ان اليهود يقبلون الكذب من المنافقين ، ومن بعضهم البعض. والمراد من القوم في قوله : **﴿لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾** أولئك الذين أرسلوا الوفد ليسألوا النبي (ص) ولم يأتوه بأنفسهم.

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾. حيث وضعوا الجلد مكان الرجم. وتقدمت هذه الجملة بالمعنى في سورة البقرة الآية ٧٥ : **﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾**. وأيضاً تقدمت بحرفها في الآية ٤٥ من سورة النساء.

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾. أي قال الذين أرسلوا الوفد للوفد : ان أفتي محمد (ص) بغير الرجم فاقبلوا ، وإن أفتي بالرجم فارفضوا.

﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾. اختلف المفسرون في المراد من الفتنة .. قال الأشاعرة ، أي السنة : المراد من الفتنة الكفر ، ويكون المعنى ان أي عبد جعله الله كافرا وضالاً فلن يقدر أحد أن يدفع عنه الكفر والضلال .. وإنما ذهب الأشاعرة إلى هذا التفسير ، وفي مقدمتهم الرازي لأنهم يميزون على الله أن يريد الكفر من عبده ، وأن يفعله فيه ، ثم يعذبه عليه.

وقال الشيعة والمعتزلة : المراد من الفتنة في هذه الآية العذاب ، ويكون المعنى

ان من يرد الله عذابه فلن يقدر أحد أن يدفع العذاب عنه .. وإنما قالوا ذلك لأنهم لا يجيزون على الله أن يفعل الشيء ، ثم يعاقب غيره عليه.

والذي نراه في تفسير هذه الآية ان الله سبحانه نهي اليهود عن الكذب والتحريف ، والمكر والخداع ، وتوعدهم بالعذاب إن خالفوا وتمردوا. ولكنهم أصروا على العناد ، ولم يكثرثوا بالنهي ، ولا بالوعيد .. فتركهم الله وشأنهم ؛ ولم يردعهم بالقسر والقهر عن الفتنة ، لأنه تعالى يعامل الناس . فيما يعود إلى أفعالهم . معاملة المرشد الناصح ، لا معاملة القاهر الغالب.

وقد أكد سبحانه ذلك بقوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾. أي لم يرد أن يلجئهم إلجاء إلى تطهير القلوب وتركية النفوس ، بل جعل لهم الخيار في ذلك ، وبهذا الاعتبار صحت نسبة الفتنة اليه تعالى .. وقد أوضحنا ذلك عند تفسير الآية ٨٨ من سورة النساء ، فقرة «الإضلال من الله سلبى لا إيجابى».

﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْأَلُونَ لِلْسُخْتِ﴾. كرر سبحانه ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ مبالغة في الذم والقدح ، والردع والزجر ، والمراد بالسحت المال الحرام ، كالربا وما اليه .. وأشد جرما من الربا الأموال التي يقبضها العملاء من الدول الاستعمارية لتبقى شعوبهم متخلفة بائسة تتسول الرغيف ممن ينهب أقواتها وثرواتها.

﴿إِنْ جَاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. هذا بيان لوظيفة الحاكم المسلم إذا تحاكم لديه خصمان من غير المسلمين .. وقد اتفق الفقهاء على انه إذا كان الخصمان من غير أهل الذمة فللحاكم الخيار ، إن شاء حاكمهما ، وإن شاء رفض ، حسبما يرجحه من المصلحة .. واختلفوا فيما إذا كان الخصمان من أهل الذمة ، فقال صاحب المنار . من السنة . : يجب على الحاكم أن يحاكمهما. وقال فقهاء الشيعة : بل هو مخير ان شاء حاكم ، وان شاء رفض.

وإذا حاكم يجب عليه أن يفصل بينهما بحكم الإسلام ، لا بأحكام دينهم ، لقوله تعالى : ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾.

وإذا كان أحد المتخاصمين مسلما ، والآخر غير مسلم وجب على الحاكم قبول الدعوى والحكم بما أنزل الله باتفاق المسلمين.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾. تحاكم اليهود في أمر الزاني عند النبي (ص) ، ولما حكم بينهم تولوا عنه ورفضوا حكمه بعد أن اختاروه حكما .. وما كان أغناهم عن الحالين؟! فالأولى بهم أن لا يحكموه منذ البداية ، أما أن يرضوا به حكما ، ثم يرفضوا حكمه فغريب .. هذا مع أنهم يعلمون علم اليقين بأنه (ص) حكم بحكم الله الموجود في التوراة .. فقلوه تعالى : ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى التحكيم ، وإلى حكم النبي بحكم الله. ولفظ ذلك يشار به الى المفرد والمثنى والجمع.

﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾. أي لا غرابة في أن يتولوا عن حكم النبي بعد أن رضوا به حكما ، وبعد ان حكم بحكم الله ، لأنهم لا يؤمنون بالله ولا بالتوراة إيمانا صادقا ، وإنما يؤمنون بأهوائهم ورغباتهم .. وكل من لا يرضى بالحق وحكمه فما هو من الايمان الحق في شيء يهوديا كان أو مسلما. قال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ . ٦٤ النساء».

فلا تخشوا الناس الآية ٤٤ :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾

اللغة :

ربانيون جمع رباني نسبة إلى الرب ، أي يرضي الرب بأقواله وأفعاله. والأحبار جمع حبر بفتح الحاء ، وهو العالم.

الإعراب :

فيها هدى ونور مبتدأ وخبر. والربانيون والأخبار فاعل لفعل محذوف دل عليه الموجود ، أي ويحكم الربانيون والأخبار بما است حفظوا.

المعنى :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾. كل كتاب أنزله الله على نبي من أنبيائه فهو نور يهدي إلى الحق والخير ، والتوراة كتاب الله أنزله على موسى (ع) فهو هدى ونور .. أما توراة اليوم فليست من الله في شيء ، لأنها أبعد ما تكون عن الهدى والنور ، والحق والخير .. إن تعاليمها تقوم على التفرقة العنصرية ، فتجعل اليهود شعب الله المختار ، يباح لهم غزو الشعوب الأخرى. وقتل رجالها ، وذبح نسائها وأطفالها ، ونهب أموالها ، واحتلال ديارها. (أنظر فقرة ١٣ و ١٤ من اصحاح ٢٠ سفر التثنية . نقلا عن الأسفار المقدسة لعلي عبد الواحد وافي).

﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾. أي ان الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى كداود وسليمان وزكريا ويحيى كانوا يرشدون اليهود إلى حكم التوراة التي هي هدى ونور ، فيحلون لهم حلالها ، ويحرمون لهم حرامها. وقوله تعالى : ﴿النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ معناه ان أنبياء الله أسلموا أنفسهم لله ، وحكموا لليهود بحكم الله ، لا بمشيئتهم ، ولا باجتهاداتهم أو أهوائهم ، كما فعل اليهود في عهد محمد (ص) وأرادوا منه أن يحكم في الزاني بما يشتهون.

﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَا اسْتُخْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾. أي وكذلك علماء اليهود وقضاةهم المؤمنون المخلصون كانوا يحكمون بما عرفوا وحفظوا من كتاب الله. ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ (كانوا) يعود على الربانيين والأخبار ، وفي (عليه) يعود على اليهود ، والمعنى ان أولئك الربانيين والأخبار كانوا يعملون بكتاب الله ، ولا يحددون عنه ، وليس من شك ان من قدس قولاً والتزم العمل به فقد شهد له بالفعل قبل القول انه حق وعدل.

﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. من عرف حكم الله لا يخالفه إلا لأحد أمرين : إما خوفا على منصبه من الزوال ، وإما طمعا في المال ، وقد أشار سبحانه إلى الأول بقوله : ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي﴾. وإلى الثاني بقوله : ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. والمعنى يا أحبار اليهود اعملوا بما تعلمون إنه الحق ، ولا تخشوا فيه لومة لائم ، ولا تحرفوه طمعا في الرشوة .. وإذا كان هذا الخطاب موجها بظاهره للأحبار الذين حرفوا حكم الزاني من الرجم إلى الجلد فإنه في واقعه عام لكل من يحاول التحريف والتزييف خوفا أو طمعا.

وأبلغ قول يفسر هذه الآية كلمة قالها علي أمير المؤمنين (ع) في وصف أولياء الله : «بهم قام الكتاب ، وبه قاموا ، لا يرون مرجوا فوق ما يرجون ، ولا مخوفا فوق ما يخافون» أي لا يرجون إلا الله ، ولا يخافون إلا منه.

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. وقال تعالى في الآية التالية ٤٥ : ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. وفي الآية ٤٧ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. وعند تفسير هذه الآية ، أي ٤٧ نبين الوجه في تعدد الوصف بالكفر والظلم والفسق ، لموصوف واحد.

النفس بالنفس الآية ٤٥ . ٤٧ :

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى

وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) ﴿

الاعراب :

النفس اسم ان ، وبالنفس متعلق بمحذوف خبرها ، والعين وما بعدها عطف على النفس. والجروح قصاص ، أي وان الجروح قصاص. ومصدقا الأولى حال من عيسى. وفيه هدى مبتدا وخبر ، والجملة حال من الإنجيل. ومصدقا الثانية عطف على الجملة الحالية ، لأنها حال مثلها.

المعنى :

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾. هذه الآية من آيات الأحكام ، وموضوعها القصاص ، وفي الفقه الاسلامي باب خاص به ، وهذا الحكم ، أي النفس بالنفس الخ من الأحكام التي نزلت في التوراة ، ولم تنسخه الشريعة الاسلامية. وسبق الكلام عن القصاص عند تفسير الآية ١٧٨ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٧٤.

﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾. ضمير (به) يعود على حق القصاص ، و (فهو) يعود على التصدق ، أي المصدر المتصيد من (تصدق) وضمير (له) يعود على المتصدق ، والمعنى ان المجني عليه إذا عفا عن الجاني فإن الله سبحانه يجعل هذا العفو كفارة لذنوب العافي.

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. يأتي الكلام عنه في الآية التالية.
﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾. الضمير في آثارهم يعود على النبيين ، أي وبعثنا عيسى بعد النبيين الذين كانوا يحكمون

بالتوراة ، وصدق هو التوراة بأقواله وأعماله ، ونقلوا عنه في أناجيلهم أنه قال : «ما جئت لأنقض الناموس . أي شريعة التوراة . وإنما جئت لأتمم» . أي لأزيد عليها من الأحكام والمواظ.

﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ . شأن كل كتاب إلهي ، وكل نبي من أنبياء الله ، والإنجيل الذي وصفه الله بالهدى والنور هو الإنجيل الذي نطق بالتوحيد ، ونفى التثليث ، وأقر نبوة محمد (ص) ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ التي تأمر بالعدل والإحسان ، ولا تبيح القتل والسلب .

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ . وتساءل : ان الله سبحانه وصف الإنجيل الذي أنزله على عيسى بالهدى والنور ، ثم وصفه ثانية بالهدى والموعظة للمتقين فما هو الوجه لتكرار وصفه بالهدى في آية واحدة؟ .

الجواب : إن الهدى الأول جاء وصفا لطبيعة الإنجيل من حيث هو بقطع النظر عن العمل به ، والهدى الثاني جاء وصفا له من حيث العمل به ، أي ان هذا الذي في الإنجيل إنما ينتفع به ويتعظ بمواعظه المتقون ، فهو تماما كقولك : إنما ينتفع بالنور ذوو الأبصار ، قال الإمام علي (ع) : «ربّ عالم قتله جهله وعلمه معه لا ينفعه» . لأنه لم يعمل بعلمه ، ونكرّر القول : إن المراد بالإنجيل في الآية الإنجيل الذي ينزه الله عن الولد والصاحبة ، وينفي الربوبية عن عيسى (ع) ويبيشر بنبوة محمد (ص) .

﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ . أهل الإنجيل النصارى ، وأهل التوراة اليهود ، وأهل القرآن المسلمون ، وقد أمر الله سبحانه كل من يدين بدين ، ويؤمن بكتاب من كتب الله سبحانه أن يعمل به ، ويلزم نفسه بأحكامه ، ومن خالف فهو مفتر كذاب ، يهوديا كان أو نصرانيا أو مسلما . ولا ميزة لطائفة دون طائفة ، وإنما خص أهل الإنجيل بالذكر لأن الحديث عنهم .

بين الكفر والفسق والظلم :

قال سبحانه في الآية المتقدمة ٤٤ : ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ

الكَافِرُونَ﴾ . وقال في الآية ٤٥ : ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ

الظَّالِمُونَ». وقال في الآية ٤٧؟ **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾**. ثلاثة أوصاف تواردت على موصوف واحد ، وقد اختلف المفسرون في التوجيه والتأويل ، ونضرب صفحا عن أقوالهم تجنباً للاطالة ، أما رأينا فنبدية فيما يلي :

ان الدين عقيدة وشريعة ، والعقيدة من صفات القلب ، ولها أصول ، وهي الايمان بالله وصفاته ، وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر ، والشريعة أحكام عملية تتعلق بالأقوال والأفعال ، وإذا أطلق لفظ الكفر مجردا عن القرينة ، كما لو قيل : فلان كافر فهم منه انه يحدد أصول العقيدة كلاً أو بعضاً .. وإذا أطلق لفظ الفسق فهم منه انه مقر بالدين أصولاً وفروعاً ، ولكنه متهاون ، وتارك العمل بالفروع كلاً أو بعضاً.

هذا ، إذا أطلق كل من اللفظين ، دون أن يضاف إلى شيء ، أما إذا أضيف الفسق إلى العقيدة كقولنا : فلان فاسق العقيدة فيكون المراد بالفسق الكفر ، وقد جاء هذا الاستعمال في القرآن ، قال تعالى : **﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾** . ٩٩ البقرة». وإذا أضيف الكفر الى العمل ، لا الى العقيدة فالمراد منه الفسق ، قال تعالى : **﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾** . ٩٧ آل عمران». فقد وصف سبحانه تارك الحج بالكفر ، مع انه مؤمن بجميع الأصول ، فيتعين ان المراد بالكفر الفسق.

أما لفظ الظلم فيجوز إطلاقه على الكفر وعلى الفسق ، لأن كلا من الكافر والفاسق قد ظلم نفسه ، حيث حملها من العذاب ما لا تطيق ، قال تعالى : **﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** . ٢٥٤ البقرة». وقال : **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾** . ١٤٠ البقرة». وكتّم الشهادة بوجه العموم لا يوجب الكفر باتفاق المسلمين.

وبهذا يتبين معنا ان الكفر والفسق والظلم ألفاظ كثيراً ما تتوارد في القرآن على معنى واحد ، وعليه يصح أن يوصف بها من لم يحكم بما أنزل الله ، والقصد التغليظ على من لم يحكم بالحق ، سواء أحكم بالباطل ، أو استنكف عن الحكم سلباً

وإيجاباً ، ونفس الشيء يقال فيمن يحكم عليه بحكم الله فيستتكف عن تنفيذه والإذعان له.
وبهذه المناسبة نشير إلى أن الفقهاء اتفقوا على أن من جحد حكماً شرعياً ثبت
بإجماع المسلمين كوجوب الصلاة وحرمة الزنا فهو كافر ، ومن خالفه مقراً به فهو فاسق.

لكل جعلنا منكم شرعة الآية ٤٨ . ٥٠ :

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾

اللغة :

المهيمن على الشيء القائم على شئونه. والشرعة والشرعة لمعنى واحد ، وهي

الطريق الى الماء ، أو مورد الماء ثم استعملت فيما شرعه الله لعباده من الأحكام العملية ، لأن كلا من الماء وأحكامه تعالى سبب للحياة. والمنهاج الطريق الواضح. والابتلاء الاختبار. وان يفتنوك ، أي يميلوا بك عن الحق.

الاعراب :

بالحق متعلق بمحذوف حال من الكتاب. ومصدقا حال. وليبلوكم منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك مجرور باللام متعلق بمحذوف ، والتقدير فرقكم لبلوكم. والمصدر المنسبك من أن أحكم مبتدأ ، وخبره محذوف ، والتقدير الحكم بالحق لازم. والمصدر المنسبك من أن يفتنوك ، مفعول لأجله ، على حذف مضاف أي احذرهم مخافة أن يفتنوك. وحكما تمييز.

المعنى :

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾. المراد بالكتاب الأول القرآن ، لأن الخطاب موجه لمحمد (ص) ، والمراد بالكتاب الثاني جنس الكتاب الشامل لجميع الكتب السماوية ، ومنها التوراة والإنجيل .. بعد أن ذكر سبحانه التوراة والإنجيل وموسى وعيسى (ع) عقب بذكر القرآن ومحمد (ص) ، ووصف القرآن بوصفين : الأول : انه يصدق كل كتاب نزل على نبي من الأنبياء. الثاني : انه مهيم على ما سبقه من الكتب السماوية ، ومعنى هيمنة القرآن على التوراة والإنجيل انه يشهد لهما بالحق والصدق ، ويخبر عن الأصول والأحكام المحرفة فيهما ليميز الناس الأصيل من الدخيل الذي نسبته رؤساء الأديان الى الله كذبا وافتراء.

﴿فَاخْذِكُمْ بَيْنَهُمْ﴾. أي بين اليهود. ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾. وبديهة أن النبي (ص) لا يحكم إلا بالحق ، ولا يتساهل فيه كبيرا كان أو صغيرا ، ومحال أن يتبع هوى مخلوق .. كيف وأقواله وأفعاله الميزان الذي يقاس به الحق والعدل؟ .. ولو افترض أن مخادعا حاول أن يخدع الرسول

بمظهره وريائه ، وأوشك الرسول أن يخدع به باعتباره بشرا فإن الله سبحانه يرحاه بعنايته ، ويعلمه بالواقع قبل أن تبدر منه أية بادرة يريد بها منه المخادع المحتال : ﴿وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا﴾ . ٧٤ الاسراء .

وتسأل : ما دام الأمر كذلك ، فلما ذا خاطب الله نبيه المعصوم بهذا الخطاب؟
الجواب : أولا بيّنا فيما تقدم ان الخطاب إذا صدر من الأعلى لا يلحظ فيه حال المخاطب ، مهما كانت منزلته ، وإنما يعتبر ذلك إذا صدر الخطاب من المساوي أو الأدنى .
ثانيا : إن الله سبحانه يعلم ان علماء السوء من أمة محمد (ص) سيبررون الانحراف عن حكمه ، بمعاذير شيطانية ، فخاطب نبيه الأكرم بهذا الخطاب تحذيرا لهم من التلاعب بالدين مسايرة لأهواء الحاكمين والمترفين .

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ . المضاف اليه محذوف ، أي لكل أمة . ومنكم خطاب لجميع الناس ، أو للأمم الثلاث : اليهود والنصارى والمسلمين ، وشرعة الشريعة ، وهي الأحكام العملية التي يمتثلها الإنسان طاعة لله ، وابتغاء مرضاته وثوابه ، وتجنّد الإشارة إلى أن كلمة الشريعة أخص من كلمة الدين ، لأن الدين يشمل الشريعة ، وأصول العقيدة . والمنهاج السبيل الواضح ، أي أن الله جعل لكل أمة شريعة واضحة لا التباس فيها ولا غموض .

وهذه الآية نص في أن شريعة الله لم تكن واحدة لكل الناس في كل العصور وأنها كانت فيما مضى مؤقتة بأمد محدود ، وإن الأديان تتفق وتتحد في أصول العقيدة فقط ، لا في الشريعة .

وتسأل : إذا كان الأمر كذلك ، فلما ذا اختصت الشريعة الإسلامية بالدوام والاستمرار من بين الشرائع؟

ولن يعرف الجواب عن هذا السؤال إلا من درس الشريعة الإسلامية ، حيث يرى أنها تقوم على قواعد ثابتة محال أن تتغير بتغير الأزمان والأحوال ، لأنها تلائم الإنسان ، من حيث هو إنسان ، لا من حيث انه قديم أو حديث ، من ذلك على سبيل المثال : لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .. كل إنسان بريء ، حتى تثبت إدانته .. الصلح خير .. إقرار العقلاء على أنفسهم جائز .. الناس عند

شروطهم .. الحدود تدرأ بالشبهات .. لا ضرر ولا ضرار .. الضرورات تبيح المحظورات ..
اليقين لا ينقضه إلا يقين مثله .. درأ المفسدة أولى من جلب المصلحة .. الضرر لا يزال
بضرر مثله .. الغائب على حجته حتى يحضر ، وما إلى ذلك مما أفرد له الفقهاء المجلدات ..
إن هذه المبادئ محال أن تتغير إلا إذا تغيرت طبيعة الإنسان.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ جَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾. مَيَّزَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْإِنْسَانَ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ
المخلوقات بأن جعل فيه استعدادا للجهل والعلم ، والتخلف والتقدم ، ولعمل الخير والشر ،
ثم نهاه عن هذا ، وأمره بذلك ، وكان من نتيجة هذا الاستعداد والأمر والنهي أن تفاوت
الناس في استغلال هذا الاستعداد ، وفي طاعة الله ومعصيته ، ولو شاء الله أن لا يمنح
الإنسان هذه الموهبة لفعل ، ولو فعل لكان الناس جميعا في مستوى واحد ، تماما كالحیوانات
والطيور والحشرات ، يتصرفون ولا يعرفون خيرا ولا شرا ، ولا نجاحا ولا فشلا.

﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾. أي أن الله منحنا هذه الموهبة ، وأمرنا ونهانا ليعاملنا
معاملة السيد المختبر لعبيده أيهم أحسن عملا ، مع العلم بأنه يعلم السرائر والضمائر ،
ولكنه لا يثيب إلا بالعمل ، ولا يعاقب إلا بعد الانذار والاعذار.

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. أي إذا
كان الله قد منح الإنسان هذه الموهبة ، وشرع الشرائع للأمم لتظهر الأفعال التي يستحق بها
الإنسان الثواب فعلينا جميعا أن نسارع إلى عمل الخيرات لأنها المقصود الأول من الشرائع ،
ومن يتخذ من اختلاف الشرائع وسيلة للشحناء والبغضاء فإن الله سبحانه يحاسبه غدا ،
ويجازيه بما يستحق.

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾. هذه الآية تكرار للآية التي قبلها بلا فاصل ، وقال بعض المفسرين : تلك
نزلت في تحاكم اليهود في الزنا ، وهذه في تحاكمهم في القتل ، ولا دليل على هذا التوجيه ،
ولا على غيره مما في كتب التفسير ، وقد بينا في ج ١ ص ٩٦ ان القرآن الكريم يستعمل
التكرار لأنه عامل قوي في تكوين الآراء وانتشارها.

هذا ، إلى أن ضمير أهوائهم يعود إلى اليهود ، ومن طريقة القرآن أن يكرر ويؤكد ما يتصل بهم أكثر من تأكيده وتكراره لأي شيء آخر ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن اليهود شر الأمم على الإطلاق ، وبذلك شهد تاريخهم القديم والحديث ، وما من أحد رآهم أهلاً لغير الشر إلا أهل الشر ، وقد ظهرت هذه الحقيقة للرأي العام بأجلى معانيها بعد ٥ حزيران من سنة ١٩٦٧ .

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ . أي إن أعرضوا عن حكم الله فسيعود عليهم هذا الاعراض بالخزي والوبال ، وتسأل : لما ذا قال ببعض ذنوبهم ، ولم يقل بذنوبهم ، وهل معنى هذا ان الله يعذبهم على بعض الذنوب ، ويعفو عن بعض؟
الجواب : ان قوله تعالى : ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ اشارة إلى إعراضهم عن الحكم الذي حكم به رسول الله (ص) ، والمعنى : لا يترك أيها الرسول إعراض اليهود عن حكمك ، فإن الله سيعاقبهم على هذا الاعراض والتمرد.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ . الفاسق من عصى الله في حكم واحد من أحكامه .. وعلى هذا فأكثر الناس ، بل كل الناس ، فاسقون إلا من ندر ، ولكن كلمة كثير تستعمل في الأكثرية ، ولا عكس . ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ . وكل حكم يخالف حكم الله فهو حكم الجاهلية ، سواء أكان في عصر الجاهلية ، أم بعده .

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ . وليس من شك ان كل حكم فيه صلاح للناس بجهة من الجهات فهو حكم الله ، سواء أورد فيه نص خاص من الكتاب والسنة ، أم لم يرد ، وكل ما فيه ضرر للناس بجهة من الجهات فمحال أن يرضى الله به ، حتى الحق الإلهي يسقط إذا تولد منه الضرر .. وكفى دليلاً على أن كل حكم ينتفع الناس به فهو حكم الله ، كفى دليلاً على هذه الحقيقة الآية ٢٣ من سورة الأنفال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لأن معناها ان كل دعوة إلى الحياة فهي دعوة لله ولرسول الله (ص).

واختلف المفسرون في معنى اللام في قوله تعالى : ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فقال

بعضهم : انها بمعنى عند مثل كتبه لخمس خلون من شهر كذا ، أي عند خمس. وقال آخر
: هي للبيان. والصحيح انها للاختصاص مثل الجنة للمتقين ، لأن المؤمنين الموقنين هم
وحدهم الذين يحكمون ويعملون بحكم الله.

لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء الآية ٥١ . ٥٣ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ
يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ
فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا
بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣)﴾

اللغة :

الدائرة ما أحاط بالشيء ، والمراد بها هنا ما يدور به الزمان من المصائب ، يقال
دارت عليه الدوائر ، أي نزلت عليه النوائب والدواهي. والفتح القضاء والفصل ، والمراد به
هنا النصر.

الاعراب :

بعضهم أولياء بعض مبتدأ وخبر ، والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب.

وفي قلوبهم مرض مبتدأ وخبر ، والجملة صلة الذين. و (فترى) ان كانت بصرية فإنما تحتاج الى مفعول واحد ، وهو الذين ، وعليه تكون جملة يسارعون حال ، وإن كانت قلبية فتحتاج إلى مفعولين ، وعليه تكون جملة يسارعون مفعولا ثانيا. وجهد مفعول مطلق لأقسموا لأنه مضاف إلى الأيمان ، والأيمان بمعنى القسم ، فيكون مثل قعدت جلوسا ، وجلست قعودا.

المعنى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾. يتسع الإسلام لجميع الأديان والأجناس ، لا فرق عنده بين الأسود والأبيض ، ولا العربي والعجمي ، ولا بين المسلم وغير المسلم من حيث المساواة أمام العدالة والقانون .. فلكل إنسان كائنا من كان الحق في أن يعيش بحرية وأمان على نفسه وماله ، ولا سلطان لأحد عليه ما كفّ أذاه عن غيره ، فإن تعدّى وأفسد أقيم عليه الحد .. فإذا أساء المسلم إلى غيره وجب علينا نحن المسلمين أن نمقته ونبرأ منه ، وعلى العدالة أن تردعه وتعاقبه ، وإذا كفّ اليهودي أو النصراني أذاه بسطنا له يد البر والإحسان ، ولو أنكر نبوة محمد والقرآن ، قال تعالى : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ . ٩ الممتحنة».

وإذا عطفنا هذه الآية التي رغب الله بها المسلمين في البر والإحسان إلى جميع الطوائف وأهل الأديان الذين لم ينصبوا العداة للمسلمين ، إذا عطفنا هذه الآية على الآية التي نفسرها ، وجمعناها في كلام واحد يكون المعنى : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء إذا نصبوا العداة لكم ، وكانوا حربا عليكم ، أما إذا كانوا وادعين مسالمين فعليكم أن تحسنوا العشرة معهم ، وتعيشوا جميعا متعارفين متآلفين .. بل ولكم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم ، لأن الله يحب

العدل والإحسان إلى جميع خلقه ، من آمن أو كفر بشرط واحد : وهو أن لا يسيء إلى أحد ، لأن الناس ، كل الناس عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله .. فالميرر عنده تعالى لحسن العشرة مع أي إنسان ، هو كف الإساءة والأذى ، أما من جحد وكفر فعليه كفره .
وتقدم الكلام مفصلا عن موالاة المؤمن للكافر بشتى أقسامها وأحكامها عند تفسير الآية ٣٠ من سورة آل عمران .

وبهذه المناسبة نشير إلى أن كرهنا لليهود نحن المسلمين لا سبب له إلا أنهم قاتلونا في عقر ديارنا ، وأخرجوا منها نساءنا وأطفالنا ، كما ان السبب الأول والأخير لكرهنا وعدائنا للولايات المتحدة وانكلترا ، ومن اليهما من دول الاستعمار التي ساندت إسرائيل هو أن هذه الدول ظاهرت إسرائيل على إخراج أهل فلسطين من ديارهم .. ومرة ثانية نعيد خطاب الله لنا وقوله عز من قائل : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

البتول واليهود والنصارى :

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ . أجمع المفسرون على ان المراد بعض اليهود أنصار بعض ، وبعض النصارى أنصار بعض ، وليس المراد ان كل طائفة توالي الأخرى ، لأن ما بين الطائفتين من العداة أكثر مما بين النصارى والمسلمين ، فإن اليهود يرمون مريم بالفاحشة ، والمسلمون يقدسونها ويبرءونها من كل عيب .

وليس من شك ان المفسرين قد استوحوا هذا المعنى من العصر الذي عاشوا فيه ، حيث لا شركات بترول عالمية ، ولا مؤسسات احتكارية نهممة إلى التوسع والسيطرة على ثروات الشعوب ومقدراتها .. أما اليوم وبعد أن قامت هذه الشركات والمؤسسات فقد رأى أصحابها المسيحيون في اليهود خير وسيلة يعتمدون عليها لتدعيم احتكاراتهم وأطماعهم ، ومن أجل هذا أقاموا دولة إسرائيل في فلسطين وحرصوا على تعزيزها وحمايتها ، ورسوموا لها خطط العدوان والتوسع ، وتعهدوا بالوقوف إلى جانبها في الأمم المتحدة ومجلس الأمن .. وتعلقت هي بأذيالهم ،

ودارت في فلکهم ، ونفذت خطط الاستعمار ، وامثلت أوامر العدوان بعد أن استبان لها ان حياتها رهن بالسمع والطاعة لأوامر الاستعمار ، وتنفيذ خططه ، وإلا تحلى عنها ، وولت إلى غير رجعة .. وإذا عقد المستعمرون وأذناهم الآمال على مخالف إسرائيل فإننا نعتد على الله ، وعلى حقنا المشروع ، واستعادة إيجابيتنا استعدادا للمعركة الحاسمة لاسترداد الحق السليب.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. أي ان من يتولى اليهود والنصارى الذين نصبوا العداء للإسلام والمسلمين فهو بحكمهم يحاسب حسابهم ، ويعاقب عقابهم ، لأن من رضي عن قوم فهو منهم ، وهذه الآية دليل قاطع على ان عملاء الاستعمار الذين يقومون بدور الحارس لمصلحته هم أشد جرما ، وأكثر خطرا من المستعمرين أنفسهم ، أو مثلهم . على الأقل . لأنهم الركيزة الأولى لاستغلالهم وعدوانهم.

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾. يظهر من سياق الآية انها قضية في واقعة ، وحكاية عن حادثة خاصة تتلخص بأن بعض المنافقين المشار اليهم بقوله : ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ كانوا يوالون اليهود الذين يضمرون العداء للإسلام والمسلمين ، ويخطبون ودهم ، وإذا عوتبوا على ذلك قالوا : ما يدرينا أن تدور الأيام ويضعف الإسلام ، وتصير القوة والشوكة لليهود والمشركين على المسلمين ، فإذا لم نخط من الآن لأنفسنا ونتخذ لنا يدا عندهم خسرنا كل شيء ودارت علينا دائرة السوء ، وهذا هو المعنى الظاهر من قوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ خَشِيَ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ .. وهكذا الانتهازيون يتذبذبون بين جميع الفئات ، حتى إذا كان الغلب لفئة على فئة قالوا لمن غلب : ألم نكن معكم؟ .. وبكلمة ان المنافقين مع الجميع بألسنتهم ، وفي واقعهم لا يستجيبون إلا لأهوائهم : ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِمَنْكُمُ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾. ٥٦ التوبة» ، أي يخافون على أنفسهم ومصالحهم.

وتسأل : لما ذا قال يسارعون فيهم ، ولم يقل يسارعون اليهم؟.

الجواب : ان فيهم أبلغ في التأكيد والثبات ، لأن الداخل في الشيء يتمكن منه أكثر

من المسارع اليه.

﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾. المراد بالفتح انتصار المسلمين على اليهود والمشركين ، والمراد بأمر من عنده اظهار حال المنافقين ، وإذلالهم وخزيهم ، والمعنى ان المنافقين أحكموا الخطة لأنفسهم عند أعداء الإسلام ظنا منهم ان الدائرة ستدور مع الكفار على المسلمين ، ولما انعكس الأمر ، ودارت الدائرة مع المسلمين على أعدائهم ندم المنافقون ، ولكن حيث لا ينفع الندم.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾. لما أظهر الله المسلمين على أعدائهم لم يستطع المنافقون أن يخفوا ما في أنفسهم من الحسرة واللوعة ، وظهر أثرها في فلتات ألسنتهم ، وصفحات وجوههم .. فتعجب المؤمنون من حال المنافقين حين تكشف حقيقتهم ، وقال بعضهم لبعض : أهؤلاء الذين كانوا يحلفون بالأمس أغلظ الإيمان مجتهدين في توكيدها انهم منا ومعنا؟. ما أجراًهم على الكذب والرياء. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾. قال الرازي وصاحب المنار : يحتمل أن تكون هذه الجملة من كلام الله ، ويحتمل أن تكون من كلام المؤمنين.

ويلاحظ بأن احتمال كونها من كلام الله غير وارد على الإطلاق ، لأن سياق الآية يدل على أنها من كلام المؤمنين ، وليست إخباراً مستأنفاً من الله سبحانه ، والمعنى ان المؤمنين بعد أن تعجبوا من حال المنافقين وألاعيبهم قالوا : لقد بطلت أعمال المنافقين التي كانوا يتظاهرون بها أمامنا كالصوم والصلاة ، وما اليهما ، ولم ينلهم من الثواب شيء ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾. خسرو الدنيا ، لأنهم خذلوا وخسروا الآخرة لما أعد لهم من العذاب الأليم.

أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين الآية ٥٤ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

اللغة :

الدّل بكسر الدال ضد الصعوبة ، والمراد به هنا التواضع واللين ، وبضم الدال ضد العز ، أي الهوان.

الاعراب :

جملة يحبهم صفة لقوم. وأذلة صفة ثانية. وأعزة صفة ثالثة. وجملة يجاهدون صفة رابعة.

المعنى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾. الارتداد هو الكفر بعد الإسلام. وذكرنا المرتد وتقسيمه إلى مرتد عن ملة وفطرة ، وحكم كل منهما عند تفسير الآية ٢١٧ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٢٥. والنهي عن الارتداد بعد النهي عن موالاة أعداء الدين يشعر بأن هذه الموالاة قد تؤدي إلى الارتداد عن الإسلام. وفي الحديث : «لو أن راعيا رعى إلى جنب الحمى لم يثبت غنمه أن يقع في وسطه».

وقال أهل السير والتاريخ : ان ثلاثة ارتدوا ، وادعوا النبوة على عهد رسول الله (ص) بعد أن آمنوا به. الأول الأسود العنسي ، تنبأ في اليمن ، وأخرج عمال رسول الله (ص) منها ، ولكنه قتل قبل وفاة النبي (ص) بيوم واحد. الثاني مسيلمة الكذاب ادعى النبوة ، وكتب إلى محمد (ص) : «من

مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد فيإني شريك معك في الأمر ، والأرض بيننا مناصفة». وقتل في عهد أبي بكر. الثالث طلحة بن خويلد ، ادعى النبوة ، ثم عاد وأسلم. أما سجاح فقد ادعت النبوة في خلافة أبي بكر ، وتزوجها مسيلمة. وقال أبو العلاء المعري في هذا الزواج :

أمست سجاح ووالها مسيلمة كذابة في بني الدنيا وكذاب
وتسأل : ان بعض الشيوخ لا تتوافر فيهم شروط المجتهد الذي عناه الإمام (ع) بقوله : «صائنا لنفسه ، حافظا لدينه ، مخالفا لهواه ، مطيعا لأمر مولاه» ومع ذلك يدعي النيابة عن المعصوم في الفتيا والقضاء ، وان الراد عليه راد على الله ، فهل حكم هذا ، تماما ، كحكم مسيلمة الكذاب ، لأن كلا منهما يفترى على الله كذبا؟.
الجواب : يكون بحكم مسيلمة الكذاب بشرطين : الأول أن يدعي النيابة عن المعصوم ، وهو يعلم بأنه مفتر كذاب ، وانه ليس أهلا لهذه الدعوى.

الشرط الثاني : أن لا يرى الاجتهاد والعدالة من الشروط الأساسية للنيابة عن المعصوم. مع علمه بأحكما واجبان بحكم البديهة الدينية .. وهذا الفرض بعيد جدا فإن من يدعي النيابة عن المعصوم يرى نفسه من أهل العدالة والاجتهاد ، حتى ولو لم يكن مطيعا لمولاه ، ومخالفا لهواه.

وليس من شك ان هذا يفترق عن مسيلمة الكذاب ، من حيث الارتداد ، ولكنه يلتقي معه من حيث الكذب والغرور .. وبديهة ان العلم والغرور ضدان لا يجتمعان ، تماما كالكذب والعدالة ، لأن الغرور يبعد صاحبه عن واقعه ، ويفصله عن نفسه ، وينتقل به الى عالم الأوهام والأحلام ، ومن كان هذا شأنه فلا يهتدي إلى صواب.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾. اختلف المفسرون فيمن هو المقصود بلفظ القوم. ونقل الرازي في ذلك ستة أقوال .. والله سبحانه لم يعينهم

بأسمائهم ، بل أشار اليهم بأوصافهم ، وعلى هذا فكل من تنطبق عليه الأوصاف الخمسة المذكورة في الآية فهو المقصود ، وهي :

١ . يحبهم ويحبونه ، وحب الله لعبده أن يرفع من شأنه غدا ، وينعم عليه بالجنان والرضوان ، أما حب العبد لله فإنه لا ينفك أبدا عن حبه لعباد الله ، تماما كما لا ينفك حب الحق عن حب العاملين به ، وكرهية الباطل عن كراهية أهله .

٢ . أذلة على المؤمنين ، لأن التواضع للمؤمن المخلص تقديس وتكريم للإيمان والإخلاص ، لا للأفراد والأشخاص ، قال تعالى يخاطب نبيه العظيم : ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . ٢١٥ الشعراء .. وبديهة انهم لم يستحقوا هذه الكرامة إلا بالإيمان والإخلاص لله ورسوله .

٣ . أعزة على الكافرين ، لأن الاستعلاء عليهم استعلاء للعقيدة والمبدأ ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ . ٢٩ الفتح .

وترشدنا هذه الآية ، وآية ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ الى حقيقتين : الأولى كل من يتذلل للأغنياء والأقوياء الطغاة ، ويتعاضم على الفقراء المؤمنين فإنه ليس من الدين في شيء ، وان قام الليل ، وصام النهار . الحقيقة الثانية ان قيم الأخلاق في الإسلام ليست مطلوبة لذاتها ، وان الله سبحانه قد أمر بها من أجل الإنسان ، ولم يأمر الإنسان بها من أجلها .. ومن هنا كان التواضع للمتكبرين ضعة ، وللمتواضعين رفعة . قال الإمام علي (ع) : ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلبا لما عند الله ، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالا على الله .

٤ . يجاهدون في سبيل الله ، وكل عمل يسد حاجة ، أو يدفع ظلامة فهو جهاد في سبيل الله . وفي الحديث : «إن النبي (ص) كان جالسا مع بعض أصحابه ، فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة ، فقالوا : ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله . فقال : إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى تفاخرا وتكاثرا فهو في سبيل الشيطان .

٥ . لا يخافون لومة لائم ، لا يظهر الايمان على حقيقته إلا عند المحنة ،

فهي المحك الصحيح لايمان المؤمن .. ينكر المنكر إرضاء لربه وضميره ، أما ما يصيبه من وراء ذلك فيهون ويزدري.

هذا هو شعار المخلصين : لا يخافون في الحق لومة لائم. أو كما قال نبي الرحمة : «إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي». ولا مصدر لهذه المشاكل التي يعانها عالم اليوم من حرب فيتنام إلى حرب الشرق الأوسط ، ومن الحكومة العنصرية في روديسيا وجنوب افريقيا إلى مشكلة الملونين في الولايات المتحدة ، لا مصدر لهذه المآسي وما اليها إلا سكوت من سكوت عن الحق في الصحف والاذاعات والأمم المتحدة ومجلس الأمن خوفا من ملوك الذهب الأسود وحماهم المأجورين.

وبالتالي ، فإن قوله تعالى : ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ يرسم صورة حية للمتدين ، وللأهداف التي يجب أن ينطلق اليها ، ويضحي من أجلها .. بقي هذا السؤال البسيط : هل يسوغ بعد هذا للقائل أن يقول : إن الدين مغيبات ، وصلاة أموات!.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. وقد رأينا بالحس والوجدان ان الله سبحانه لا يشاء أن يمنح فضله إلا لمن سار وفق الأسباب والسنن التي أقام بها جلست حكمته نظام الكون بأسره .. ولو أراد منا أن نمشي بلا رجلين ، ونعمل بلا يدين ، ونبصر بلا عينين لكان في غنى عن خلق شيء منها : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾. ٢ الفرقان.

مشكلة الأخلاق :

قال (نيتشه) فيلسوف الإنسان الأعلى : لا واقع لقيم الأخلاق ، فالحرية والعدالة والمساواة مجرد ألفاظ صنعها الضعفاء ليحدوا بها من سيطرة الأقوياء.

وقال ماركس فيلسوف الثورة ضد الإنسان الأعلى : العكس هو الصحيح ، فالزهد والصبر والوداعة ألفاظ صنعها الأقوياء ليسيظروا بها على الضعفاء.

ومعنى هذا عند الاثنين ان ألفاظ القيم لا مصدر لها إلا الهوى والمصلحة

الذاتية ، وما دام الهوى لا يتفق مع الإنسانية والمثل العليا فتكون ألفاظ القيم دجلا ونفاقا .
ونحن نؤمن بأن مصدر القيم هي المصلحة ، ولكنها المصلحة المنبثقة من طبيعة
الإنسان بما هو إنسان ، لا بما هو طبقة من الطبقات ، وفئة من الفئات ، وليس من شك
أن هذه المصلحة تتفق مع الإنسانية والمثل العليا ، بل هي هي ، ولذا سميت قيما إنسانية ،
لا طبقية . وعليه يكون لها واقع ثابت بثبوت الإنسان نفسه .. ولا ينفي هذا استغلال من
يستغلها ، وتحريف من يحرفها حسب أهوائه ومصالحه ، وإلا لم يصح تقسيم الناس إلى محق
ومبطل يحرف الكلم عن مواضعه ، وإلى مخلص ومنافق يتستر بشعار الصالحين .. هذا ، إلى
أنه ليس في تاريخ الإنسان مجتمع واحد قال للفرد : افعل ما شئت ، فإنك غير مسؤول عن
شيء قتلت أو سرت .

أجل ، هناك مذاهب شتى لتحديد القيم الأخلاقية لا يتسع المقام لذكرها .. والذي
يهمنا أن نحددها كما هي في نظر الإسلام ، وقد انطلقت أقلام الغيورين تحدد القيم
الاسلامية بأنها تهدف إلى تكوين الفرد الصالح في المجتمع الصالح .. وهذا التحديد يحتاج إلى
تحديد ، لأن القارئ لا يفهم منه شيئا واضحا يلتزمه عند التطبيق والممارسة ، وتجنبنا لهذا
المحدور نمهد أولا بذكر بعض الأمثلة ، ثم نستخرج من دلالتها التحديد الواضح الذي يمكن
ممارسته في الحياة اليومية .

أمر الإسلام بالصدق والوفاء والبذل والتواضع والصبر والعفو ، وما إلى ذلك ، ولكن
قيد وجوبها بحد لا يصح تجاوزه بحال ، وهو أن لا يؤدي الالتزام بها إلى عكس الغرض
المطلوب منها ، فالصدق واجب ، ما دام في مصلحة الإنسان ، فإذا تولد منه ضرر كإخبار
العدو بالأسرار العسكرية ، أو نقل الكلام بقصد الفتنة كان محرما ، والكذب محرم إلا في
حرب عدو الدين والوطن ، وفي الصلح بين اثنين ، وفي صيانة نفس بريئة ، ومال محرم ،
والوفاء باليمين واجب ، ما دام الحالف لا يجد خيرا من يمينه ، وإلا تركها لحديث : «إذا
وجدت خيرا من يمينك فدعها» . وبذل المال في سبيل الله حسن إلا إذا احتاج إليه صاحبه ،
والصبر راجح إلا على الظلم والعوز ، والعفو فضيلة إلا إذا كان سببا للفوضى ونشر الجرائم .

وبهذا يتبين ان قيم الأخلاق في الإسلام تقاس بمدى ما تحققه للإنسان من جلب مصلحة ، أو دفع مفسدة ، ومعنى هذا انها وجدت من أجل الإنسان ، ولم يوجد هو من أجلها ، كي يجب عليه التعبد بها على كل حال . فالقيم الأخلاقية . إذن . هي التي تحصر تصرفات الإنسان في إطار مصلحته ومصلحة الجماعة ، أو عدم الإضرار به أو بغيره على الأقل .

وتسأل : ما هو الضابط لتمييز النافع من الضار؟.

ونجيب باختصار ان الضابط هو الاحساس والشعور العام بأن هذا ضار ، وذاك نافع ، ومتى انتهى الأمر إلى هذا الاحساس والشعور ينقطع الكلام ، ولا يبقى مجال للسؤال والجواب لأن الشعور العام هو البديهة بالذات .

يؤتون الزكاة وهم راعون الآية ٥٥ . ٥٦ :

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ
(٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾

الاعراب :

الذين يقيمون الصلاة صفة للذين آمنوا ، لأنها بمعنى (المصلون) . وجملة وهم راعون حال من واو يؤتون الزكاة .

المعنى :

بعد أن نهي سبحانه عن اتخاذ أعداء الدين أولياء بين من الذي يجب اتخاذه

وليا ، فقال : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ولا يختلف اثنان في المراد بولاية الله والرسول وانها التصرف في شئون المسلمين ، وليس مجرد المحبة والنصرة ، قال تعالى : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ . ٦ الأحزاب ، والولاية في هذه الآية تفسير وبيان للولاية في الآية التي نحن بصدددها.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ . أي ان الولاية التي لله والرسول ثابتة أيضا لمن جمع بين الزكاة والركوع ، ونقل الطبري عن مجاهد وعتبة بن أبي حكيم وأبي جعفر ان هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب ، وفي كتاب غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري . من السنة . ما نصه بالحرف : «الآية نازلة في علي باتفاق أكثر المفسرين» . وفي تفسير الرازي ما نصه بالحرف أيضا :

«روي عن أبي ذر رضوان الله عليه انه قال : صليت مع رسول الله (ص) يوما صلاة الظهر ، فسأل سائل في المسجد ، فلم يعطه أحد ، وعلي كان راكعا ، فأومأ اليه بخنصره اليمنى ، وكان فيها خاتم ، فأقبل السائل ، حتى أخذ الخاتم بمراءى النبي (ص) ، فقال : اللهم ان أخي موسى سألك فقال : رب اشرح لي صدري إلى قوله : وأشركه في أمري ، فأُنزلت قرآنا ناطقا سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا ، اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك فأشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيرا من أهلي عليا أشدد به ظهري . قال أبو ذر : فو الله ما أتم النبي (ص) هذه الكلمة ، حتى نزل جبريل ، فقال : يا محمد اقرأ انما وليكم الله ورسوله .. الى آخر الآية» .

ولكن الرازي فسر الولاية هنا بمعنى الناصر ، لا بمعنى المتصرف ، وقال الشيعة : إن لفظ الجلالة والرسول ومن جمع بين الزكاة والركوع جاء في آية واحدة ، وولاية الله والرسول معناها التصرف فيجب أيضا أن يكون هذا المعنى بالذات مرادا من ولاية من جمع بين الوصفين ، وإلا لزم أن يكون لفظ الولاية مستعملا في معنيين مختلفين في آن واحد ، وهو غير جائز .

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ . هذه الآية نص صريح لا يقبل التأويل بحال على أن المعنى المراد من ولاية الله والرسول

والمؤمنين واحد لا اختلاف فيه ، وان من حافظ على هذه الولاية ، ولم يفرق بين الله ورسوله ومن جمع بين الزكاة والركوع فهو من حزب الله الغالب بمنطق الحق وحجته.

اتخذوا دينكم هزوا ولعبا الآية ٥٧ . ٥٩ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩)﴾

الاعراب :

﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ متعلق بمحذوف حال من واو ﴿اتَّخَذُوا﴾. والكفار قرئ بالجر عطفا على ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وبالنصب عطفا على ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ﴾. والمصدر المنسبك من ﴿أَنْ آمَنَّا﴾ مفعول تنقمون ، أي تنقمون إيماننا. والمصدر المنسبك من ﴿أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ معطوف على ﴿مَا﴾ أي آمننا بما أنزل إلينا وبفسق أكثركم.

المعنى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارُ أَوْلِيَاءُ» . مرة ثانية نهي سبحانه عن اتخاذ أعداء الله أولياء ، ولكنه بين هنا سبب النهي ، وهو أنهم يتخذون من دين الإسلام ، وصلاة المسلمين مادة للهزء واللعب ، شأن السفیه العاجز عن مجابهة الحجة بمثلها ، ولا يليق بالعاقل أن يوالي السفهاء ، بخاصة الذين يهزءون من دينه وأشرف مقدساته .. وأيضاً زاد سبحانه في هذه الآية انه عطف الكفار على أهل الكتاب ، وهو من باب عطف العام على الخاص ، والقرآن يعطف العام على الخاص كهذه الآية ، والخاص على العام كقوله : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ . ٢٣٨ البقرة . ويعطف النظير على نظيره كقوله : ﴿فَسَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾ . ١٧٥ النساء .

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ . فيه إشعار بأن من يوالي ويؤاخي من يهزأ بالدين فهو أبعد الناس عن الإيمان ، لأن شبيه الشيء منجذب اليه .

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا﴾ . تدعو كنائس النصارى أتباعها إلى الصلاة بضرب الناقوس ، وتدعو بيع اليهود أتباعها إلى الصلاة بالنفخ بالبوق ، أما المسلمون فيدعون إلى الصلاة بصوت المؤذن ينادي بالاستجابة إلى الله وحده لا شريك له ، وإلى العمل الصالح الفالح : الله أكبر .. لا إله إلا الله .. حي على الفلاح .. حي على خير العمل .. وكان بعض أهل الكتاب ، وما زالوا يسخرون من هذا الأذان ، وهذه الدعوة .. والأولى أن يسخروا من نواقيسهم وأبواقهم .. على أن المعتدلين من النصارى يستحسنون الأذان ، وفضلونه على ضرب الأجراس ، قال صاحب المنار :

«سمعنا من بعض النصارى المعتدلين في بلدنا . أي لبنان . كلمات الشناء على الأذان وتفضيله على الأجراس .. وقد كان جماعة من نصارى طرابلس يصطفافون في بلدنا (القلمون) ، فكان النساء والرجال يقفون في النوافذ لاستماع صوت المؤذن ، وكان ندي الصوت .. وكان بعض صبيانهم يحفظون الأذان ، ويقلدون المؤذن تقليد استحسان ، فتغضب والدته وتنهأ ، أما والده فكان يضحك ويسر لأذان ولده ، لأنه كان على حرية وسعة صدر» .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ . قال المفسرون بما فيهم الرازي وصاحب

المنار : ان المراد من قوله تعالى ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ انهم لا يدركون حقيقة الإسلام ، ولو أدركوا حقيقته لم يتخذوه هزوا.

أما نحن فنرى انهم قد عقلوا الإسلام ، وأدركوا أهدافه ، وأن الذين حاربوه إنما حاربوه لأنهم أدركوا خطره على منافعهم وامتيازاتهم .. فلقد أدركوا ان الإسلام ثورة على الظلم والاستغلال ، وعلى الفقر والتخلف ، وعلى تقسيم الناس إلى سيد ومسود ، وانه لا فضل لمخلوق على غيره إلا بخدمة الناس ، والعمل لصالحهم ومنافعهم .. هذا هو ذنب الإسلام عندهم ، ومن أجله حاربوه بجميع ما يملكون من وسائل ، حتى الهزء والسخرية.

وتتجلى دعوة الإسلام هذه بأكمل معانيها في نداء المؤذن : الله أكبر .. لا إله إلا الله .. فإن معنى الله أكبر انه لا كبير ولا عظيم إلا هو وحده لا شريك له ، ومعنى لا إله إلا الله : ان المال والجاه والأنساب ليست آلهة تعبد ، ولا قوة يخضع لها ، وإنما الخضوع للحق وحده ، والناس فيه سواء ، وان ما من أحد على وجه الأرض له أن يمس حرية إنسان كائنا من كان .. وكفى بهذا ذنبا للإسلام عند ألد أعداء الإنسان ، ومن أجل عداوتهم هذه ، لا من أجل جهلهم بحقيقة الإسلام وصفهم العليم الحكيم بأنهم قوم لا يعقلون.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾. أجل ، انهم لا يرضون إلا عما يؤمن بهم وبامتيازهم واستغلالهم .. ان هذا في مقاييسهم قدس الأقداس ، وان كفر بالله ، وجميع الأنبياء والمرسلين .. أما من يكفر بظلمهم وطغيانهم فإنه عندهم شر الأولين والآخرين ، وان كان ولي الأولياء .. ولا شيء أصدق في الدلالة على ذلك من أنهم يتهمون الوطنيين الأحرار منهم ، ويرمونهم بالمروق من الدين ، لا لشيء إلا لأنهم يستنكرون السياسة الاستعمارية ، والتفرقة العنصرية .. ومع هذه التهمة الظالمة يزعمون أنهم حماة الدين ، وحراسه من الإلحاد والملحدين.

وتسأل : ان قولك هذا هو الواقع الذي نراه ونشاهده ، ولكنه لا يصلح تفسيراً للآية ، لأن الظاهر منها انهم يعادون المسلمين لأنهم مسلمون يؤمنون بالله والقرآن والتوراة والإنجيل؟.

الجواب : ان ظاهر الآية يدل صراحة على أن الله سبحانه أمر نبيّه الكريم أن يقول لهم: هل لنا من ذنب يستوجب منكم هذا العداة إلا أننا على حق ، وأنتم على باطل ، تماماً كما يقول . الوطني المخلص لخصمه العميل الخائن . هل تنقم مني إلا أني وطني ، وانك عميل؟.

وليس من شك ان هذا المعنى يتفق مع تفسيرنا للآية ، بل هو أظهر مصاديقها وأفرادها. وقد تنبه إلى ذلك صاحب مجمع البيان ، حيث جاء في تفسيره : «معنى الآية هل تكرهون منا إلا إيماننا وفسقكم ، أي انما كرهتم إيماننا وأنتم تعلمون انّا على حق ، وانكم أقمتهم على دينكم لمحبتكم الرياسة ، وكسبكم بها الأموال . ثم قال . ومعنى فاسقون خارجون عن أمر الله طلبا للرئاسة».

وجعل منهم القردة والخنازير الآية ٦٠ . ٦٣ :

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاؤُكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْفُدُوانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٦٢) لَوْ لَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٦٣)﴾

اللغة :

المثوبة من ثاب اليه إذا رجع ، والمراد بها هنا الجزاء والثواب. والطاغوت من الطغيان. والسحت الديني المحرم. والفرق بين الإثم والعدوان ان الإثم هو الجرم ، وقد يكون مع التعدي على الغير ، وقد لا يكون معه تعد على أحد ، أما العدوان فهو الاعتداء على الغير ، والصنع العمل مع الاشعار بالجودة ، يقال : صنع الله لفلان إذا أحسن اليه.

الاعراب :

مثوبة تمييز من شر. ومن لعنه (من) في محل جر بدلا من شر ، أي هل أنبئكم بمن لعنه الله ، ويجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف ، أي هو من لعنه الله. وعبد الطاغوت (عبد) فعل ماض معطوف على من لعنه الله ، والتقدير هل أنبئكم بشر الناس من لعنه الله ، ومن عبد الطاغوت. وجملة وقد دخلوا حال من الواو في قالوا. وجملة وهم قد خرجوا حال ثانية. والسحت مفعول لأكلهم. ولو لا أداة تحضيض ، وتختص بالمضارع مثل لو لا تستغفرون. أو ما في معناه نحو لو لا اخرتني.

المعنى :

﴿قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾. ذلك إشارة إلى حال المنتقمين ، والمثوبة تستعمل في الجزاء بالخير ، والعقوبة في الجزاء بالشر ، وقد وضعت المثوبة هنا موضع العقوبة من باب تحيتهم السباب ، والمعنى قل يا محمد لأعداء الدين والحق الذين يستهزئون من الإسلام والأذان ، قل لهم : إن كان الإيمان بالله وكتبه شرا يوجب النعمة فأنا أخبركم بشر من هذا ، إن كان هذا شرا .. وهو ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ وهذه الأوصاف كلها من أوصاف اليهود ، حيث سجل الله عليهم

لعنته وغضبه في أكثر من آية ، ووصفهم بعبادة الجبت والطاغوت ، وقال لهم : كونوا قردة خاسئين ، ومن هذه الآيات :

١ . الآية ٤٦ من النساء : ﴿ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ﴾ .

٢ . الآية ٩٠ من البقرة : ﴿ قَبَاؤُ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ﴾ .

٣ . الآية ٦٥ البقرة : ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ . وما قال الله لشيء كن إلا

كان .

٤ ، الآية ٥١ . النساء : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ . وقيل المراد بالطاغوت

الشیطان . وقيل : العجل . والصحيح أن كل من أطاع عبدا في معصية الله فهو عبد له .

وقال الرازي : «احتج أصحابنا . أي الأشاعرة . بهذه الآية على ان الكفر بقضاء من

الله ، لأن التقدير وجعل الله منهم من عبد الطاغوت» . والصحيح ان عبد معطوف على لعنه

الله ، لا على جعل منهم القردة ، وان التقدير هل أنبئكم بشرّ الناس ، أو بشرّ من ذلك من

لعنه ومن عبد الطاغوت ، كما قلنا في فقرة (اللغة) ، وعليه فلا يصح الاستدلال بهذه الآية

على أن الكفر من الله ، لا من العبد .

﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ . أولئك إشارة إلى اليهود ظاهرا وتشمل

كل من حاد عن الحق واقعا ، ولا يجديه قول لا إله إلا الله محمد رسول الله .. إذ لا إيمان بلا

تقوى .

﴿وَإِذَا جَاؤُكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ . كان منافقو اليهود

يدخلون على النبي (ص) ، ويقولون له : نحن بك من المؤمنين ، وهم كاذبون في أقوالهم ،

وقد عبر سبحانه عن نفاقهم هذا بأنهم دخلوا على النبي بالكفر ، وخرجوا من عنده بالكفر

.. ويشعر هذا التعبير بأنهم لو كانوا طلاب حق لخرجوا مؤمنين من عند الرسول بعد أن سمعوا

ورأوا البينات والدلائل . ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ من الكفر والنفاق ويجازيهم عليه بما

يستحقون .

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ﴾ . المسارعة مفاعلة وتومئ إلى التسابق والتنافس في الإثم والعدوان

وأكل السحت ، أي الحرام ، وهذه سمة لا تفارق اليهود ، ومن أجلها مقتهم الناس قديما وحديثا ، إلا من يتخذ منهم أداة للشر ، تماما كالسم القاتل .. حتى في الولايات المتحدة وكر الصهاينة يوجد جماعة كثر يناهضون اليهود.

﴿لَوْ لَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّخْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. هذا التوبيخ الذي دلت عليه لو لا وبئس موجه في الظاهر لرؤساء الأديان من أهل الكتاب .. وفي الواقع موجه لكل من عرف الحق ، وسكت عنه. ان العالم بالله حقا المخلص له وحده يحتج على المظالم بشق الوسائل ، وإذا تيقن أن موته في هذه السبيل ينبه الغافلين ، ويردع الظالمين أقدم عليه ، وعبر عن احتجاجه بالاستشهاد ، وتاريخ الشهداء جميعا هو تاريخ الاحتجاج على جرائم الظلم والعدوان.

قالت اليهود يد الله مغلولة الآية ٦٤ . ٦٦ :

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦)﴾

اللغة :

لليد معان ، منها الجارحة ، أي هذه اليد العادية التي أكتب بها هذه الكلمات ، ومنها النعمة ، تقول لفلان عندي يد اشكرها ، ومنها القدرة ، ومنها الملك. وتستعمل في البذل والإمساك حسبما تنسب اليها ، تقول بسط يده إذا أردت البذل ، وتقول غلّ يده إذا أردت الإمساك. وإقامة التوراة والإنجيل العمل بما فيهما. ومقتصدة ، أي معتدلة.

الاعراب :

كيف في محل نصب على الحال ، أي ينفق على أي حال يشاء. وكثيرا مفعول أول ليزيدن ، وطغيانا مفعول ثان. وكلما نصبت على الظرف لأنها مضافة إلى ما المصدرية الظرفية. وفسادا مفعول لأجله ليسعون.

المعنى :

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾. هذه صورة من الصور العديدة التي يرسمها القرآن لليهود ، ومثلها قولهم : «إن الله فقير ونحن أغنياء» .. وعلى قياسهم ينبغي أن يكونوا هم الآلهة ، والله جلت عظمتة (...) وقد تجلت هذه الغطرسة والوقاحة بأقبح معانيها في تحديهم للرأي العام العالمي باحتلال القدس سنة ١٩٦٧.

وفي بعض الروايات ان الذي نطق بكلمة الكفر هذه رجل منهم ، اسمه فنحاص .. وقد تكون الرواية صحيحة ، وصحيح أيضا ان الواحد لا يعبر عن رأي الطائفة والجماعة ، وان بعض ضعاف المسلمين يقول هذا حين تحاصره المصائب ، ولا يجد له مهربا .. هذا صحيح ، ولكن من اطلع على سيرة اليهود يعلم انهم يقولون هذا بلسان الحال ، وإن لم ينطقوا به بلسان المقال .. إنهم يريدون من الله أن يهب الأرض ومن عليها اليهم وحدهم ، وإلا فهو بخيل مغلول

اليد ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾. وبما فعلوا من المسارعة إلى الإثم والعدوان وأكلهم المال الحرام.

الصهاينة تواطئوا مع النازيين :

قال صاحب تفسير المنار : ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ هو دعاء من الله عليهم بالبخل وما زالوا أبخل الأمم ، فلا يكاد أحد منهم يبذل شيئا إلا إذا درّ عليه رجحا . وقد كان الربح الوحيد عندهم هو المال ، ومن أجله يحل كل محرم ، أما اليوم فلا ربح أفضل من قتل عربي ، حتى ولو كان طفلا ، والشعار الديني المقدس لهيئاتهم (الخيرية) «ادفع دولارا تقتل عربيا» مسلما أو نصرانيا .. بل إنهم يسخون بأرواحهم رجالا ونساء وأطفالا ليخرجوا الفلسطينيين من ديارهم ويحلّوا محلهم .. وأغرب ما قرأت ان زعماء الصهاينة ، ومنهم وايزمان وموسى شاريت ودافيد بن غوريون تواطئوا مع النازية وزعماء الجستابو على ذبح اليهود والتنكيل بهم لهدفين : الأول دفع اليهود للهجرة إلى فلسطين. الثاني اصطناع المبررات لقيام دولة إسرائيل. (عن كتاب اطلاق الحمامة ٥ يونيو للمؤلفين : بيلياف وكوبستيشنكو وبريماكوف. ترجمة ماهر عسل).

وإذا تواطأ اليهود مع أعدى أعدائهم ، وضحوا بمئات الألوف منهم من أجل دولة إسرائيل فهل يكثر منهم القول : ان الله فقير ونحن أغنياء ، وأن يده مغلولة عن البذل والعطاء؟ وأية غرابة في قولهم : نحن حمامة السلام ، والعرب دعاة الحرب والدمار بعد أن قالوا : ان الله فقير ونحن أغنياء؟. وإذا كانت يد الله مغلولة لأنه لم يهبهم الأرض ومن عليها فبالأولى أن يكون العرب طغاة معتدين ، لأنهم لم يعتذروا لليهود عن التقصير ، وعدم عرفان الجميل .. وليس قولي هذا كلاما شعريا ، أو إحساسا عاطفيا .. ألم يلح اليهود على اعتراف العرب بإسرائيل؟. وأي معنى لهذا الاعتراف في هذا الظرف بالذات إلا الاعتذار وطلب العفو؟.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾. المراد باليد هنا عين المراد بيمينه في الآية ٦٧ من

الزمر : ﴿وَالسَّمَاءُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أي بقدرته ، وقال يدها بالثنائية لا بالإنفراد لأنها أبلغ شكلا ، وأقوى محتوى ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ بإيجاد السبب الموجب : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ . ١٥ الملك .

أجل ، قد لا تسعف الظروف أحيانا ، ويخيب المسعى . وقوله : «وإليه النشور» تهديد ووعد لمن يطلب العيش على حساب غيره .

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ . المراد بالكثير الرؤساء والمترفون الذين خافوا على مناصبهم من دعوة الحق ، وزادتهم هذه الدعوة حقدا على صاحبها محمد (ص) لأنه كشف عن عوراتهم وسيئاتهم التي منها تحريف كلام الله عن مواضعه ، وأكلهم المال الحرام ، وعدم التناهي عن المنكر .. ومن شأن الدعي الصلف أن يزداد عتوا وفسادا إذا نبه إلى عيوبه ومآثمه .

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ . قال صاحب تفسير المنار : لا نعرف في التفسير المأثور عن السلف إلا أن الضمير في قوله (بينهم) يرجع إلى اليهود والنصارى في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ .. وفي تفاسير المتأخرين احتمال أن يكون الضمير لليهود وحدهم .

ونحن على رأي السلف أولا : لأنهم أعرف بما يراد من مفردات القرآن والحديث من المتأخرين ، لأنهم أقرب إلى عهد الرسالة ونزول القرآن . ثانيا : لأن العداء بين اليهود والنصارى عداء ذاتي ، فاليهود يعتقدون ان المسيح مشعوذ محتال وابن سفاح . نعوذ بالله . والنصارى يعتقدون أنه ابنه تعالى الله ، بينما يعتقد المسلمون أنه نبي منزله عن الجهل والمعصية .. ومحال أن يزول العداء بين اليهود والنصارى : ما دامت كل طائفة على عقيدتها ، وقد حاول بابا روما عام ١٩٦٥ أن يقرب بين الطائفتين ، ولكن اليهود ما زالوا مصرين على رأيهم بالسيد المسيح (ع) .. أجل ، ان الأطماع المشتركة قربت ، بل وحدث بين أرباب الشركات لكلتا الطائفتين ، ولكن على أساس تجاري ، لا على أساس ديني .

اليهود ونار الحرب :

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾. إن كلمة الحرب وضعت أول ما وضعت للقتال ، واستعملت في هذا المعنى قرونا طويلا ، وبمرور الزمن تطورت ، حتى أصبحت تدل الآن على ضد السلم والأمن والرخاء ، فأى بلد يخشى على نفسه من احتلال دولة أقوى منه ، أو ارتفعت أسعار المعيشة فيه لقتال في بلد من البلدان فهو في حالة حرب ، وإن لم تسل الدماء على أرضه ، لأنه قد تأثر بذاك القتال ، وأفقده الكثير من أمنه وراحته.

وبعد هذه الإشارة نتساءل : هل المراد بالحرب في الآية خصوص القتال أو ما يشمل الأمن والرخاء؟ ثم إذا كان المقصود هم اليهود كما قال المفسرون فبماذا يجاب عن حرب هـ حزيران سنة ١٩٦٧ التي أوقد اليهود نارها ، ولم تخمد ، حتى الآن؟

الجواب : أما كلمة الحرب في الآية فإن المراد منها خصوص القتال ، لأن هذه الكلمة لم تحمل غير هذا المعنى يومذاك. أما حرب هـ حزيران فنجيب عنها بما يلي :

١ . اتفق المفسرون على أن المراد باليهود خصوص من كان يهيم بالكيد لرسول الله والمسلمين ، فقد جاء في كتب السيرة النبوية إن يهود المدينة تحالفوا مع المشركين ضد النبي وصحابته ، وأن منهم من سعى لتحريض الروم عليهم ، كما أن بعضهم كان يؤوي أعداءهم ويساعدهم.

٢ . لو سلمنا . جدلا . أن المراد كل اليهود في كل عصر أخذنا بظاهر العموم فإن حادثة هـ حزيران لم تكن حربا بالمعنى المعروف لهذه الكلمة ، وإنما كانت اغتالا وغدر جبان ، فحتى ليلة الغدر كانت تؤكد إسرائيل وواشنطن انهما لم تبدأ بالهجوم ، بل وبعد الغدر أذاعت إسرائيل أن العرب هم البادئون ، ثم ظهرت الحقيقة .. على أن حرب هـ حزيران لم تكن بين العرب واليهود ، وإنما كانت في واقعها بين العرب والولايات المتحدة ، فهي مهندس العدوان ، والأمر به ، ومصدر السلاح والمال ، وصانع الخديعة السياسية ، والمحامي والحارس ، أما إسرائيل فقد مثلت دور الجندي المطيع.

قال مؤلفو كتاب اطلاق الحمامة الذي أشرنا اليه منذ قريب : «نشرت الصحف الفرنسية وألمانيا الغربية أن المخابرات الأمريكية سلمت إسرائيل قبل العدوان كل ما تجمع لديها من معلومات بالإضافة إلى الدوسية الخاصة بالشرق الأوسط لدى قيادة الحلف الأطلسي .. وان الذي أصدر الأمر لإسرائيل بالهجوم على العرب باسم الرئيس جونسون هو مستشاره اليهودي الصهيوني «والت روستو» .. وكان الأميرال الأميركي يحمل في جيبه أمرا بتنفيذ الاستعداد للقتال في جميع الوحدات الخاضعة له .. أما عملية ليبرتي سفينة التجسس فقد كانت مدبرة بين الأميركيين والاسرائيليين».

٣ . ان نار الحرب التي أوقدتها واشنطن أو عملتها إسرائيل قد أخمدها الله ما في ذلك ريب .. فلقد اعترف الذين أوقدوها أكثر من مرات ، وأعلنوا بالصحف والاذاعات انها لم تحقق الهدف المطلوب منها ، وهو ضرب القيادة التحررية للعرب ، واستسلامهم دون قيد وشرط ، وبالتالي حل مشكلة إسرائيل من الناحية السياسية .. وفي الوقت نفسه كانت حادثة ٥ حزيران امتحانا قاسيا للعرب ، وتأكيذا لضرورة الإصلاح الجذري ، وتنبیها لهم الى أصدقائهم وأعدائهم .. ولو لم يكن لتلك الحادثة من فائدة إلا افتضاح المتآمرين على بلادهم وأمتهم لكفى.

(ويسعون . أي اليهود . في الأرض فسادا). لأن أهدافهم الأثيمة محال أن تتحقق إلا بالتخريب وإثارة الفتن ، وقد صرح المسؤولون في إسرائيل ان بقاء دولتهم وحياتها رهن بالخلافات القائمة بين زعماء العرب .. فهل من مذكر؟ ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ . ومن ثم تكون عاقبتهم إلى وبال ، وإن طال الزمن.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ . هذه دعوة من الله سبحانه لليهود والنصارى أن يتوبوا ويدخلوا في الإسلام ، وإن استجابوا لدعوته صفح عن جميع ذنوبهم ، وإن عظمت ، لأن الإسلام يحب ما قبله ، كما جاء في الحديث ، وإن اتقوا بعد إسلامهم أدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

الرزق وفساد الأوضاع :

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ

وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴿١٠﴾ إقامة التوراة والإنجيل العمل بهما ، والمراد بما أنزل اليهم التعاليم التي كانوا يسمعونها من الأنبياء ، وهي المعروفة عند المسلمين بالأحاديث النبوية ، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم كناية عن السعة في الرزق ، تماما كما تقول : فلان غارق في النعم من قرنه إلى قدمه .

وفي معنى هذه الآية آيات كثيرة ، منها الآية ٩٥ من الاعراف : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ . والآية ١٢ الرعد : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ . والآية ٤١ الروم : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ . والآية ٣٠ الشورى : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ . وترشدنا هذه الآيات إلى أمرين :

١ . ان ظهور الفساد ، ومنه الفقر والمرض والجهل ، إنما هو من حكم الأرض ، لا من حكم السماء ، ومن أيدي الناس الذين أماتوا الحق ، وأحيوا الباطل ، لا من قضاء الله وقدره ، وان أية جماعة عرفوا الحق ، وعملوا به عاشوا في سعادة وهناء .

٢ . ان التعبير في الآيات الكريمة بقوم وبالناس يدل على ان الشقاء يستند إلى فساد الأوضاع ، وان مجرد صلاح فرد من الأفراد لا يجدي شيئا ما دام بين قوم فاسدين ، بل يجبر صلاحه عليه البلاء والشقاء ، قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ . ٢٥ الأنفال ، أي ان الآثار السيئة لمجتمع سيء تعم جميع أفراد الصالح والطالح .. وليس من شك ان الشعب الكسول الخانع الخاضع للعسف والجور لا بد أن يعيش أفراده في الذل والهوان . وعلى هذا يكون المراد بالإيمان الموجب للرزق هو الإيمان بالله مع العمل بجميع أحكامه ومبادئه ، لا إقامة الصلاة فقط ، بل وأداء الزكاة ، وجهاد المستقلين والمحتكرين ، وإقامة العدل في كل شيء ، وليس من شك ان العدل متى عم وساد صلحت الأوضاع ، وذهب الفقر والشقاء ، وهذا ما يهدف اليه القرآن .

لقد كشف الإسلام عن الصلة الوثيقة بين فساد الأوضاع ، وبين التخلف وآلام الانسانية بشتى أنواعها ، وسبق إلى معرفة هذه الحقيقة كل عالم من علماء الاجتماع ، وكل قائد من قادة الاشتراكية والديمقراطية وغيرها .. وإذا كان لدى

هؤلاء شيء يذكر فعن الإسلام أخذوا ، ومنه اقتبسوا .. ولكن ما الحيلة فيمن ينفر من كل ما يمت إلى الدين بسبب ، لا لشيء إلا لأن اسمه دين .

﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ . الضمير في منهم يعود إلى أهل الكتاب المذكورين في الآية صراحة ، وهم اليهود والنصارى ، والمراد بالأمة الجماعة ، ومعنى مقتصدة معتدلة ، والذين أطلق الله عليهم وصف الاعتدال هم من اعتنق الإسلام من اليهود والنصارى بعد أن ظهرت لهم دلائل الحق ، وبيّنات الصدق . وقد ذكر أهل التاريخ والسير أسماء كثيرة لمن أسلم من أهل الكتاب ، أما الذين أصروا على الكفر بعد أن استبان لهم الحق فهم المقصودون بقوله تعالى : ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ .

وبلغ ما أنزل إليك الآية ٦٧ :

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)﴾

المعنى :

يدل ظاهر الآية على ان هناك أمرا هاما نزل على النبي (ص) ، وقد أمره الله بتبليغه إلى الناس ، فضاق النبي به ذرعا ، لأنه ثقیل على أنفسهم ، فتريث يتحین الظروف والمناسبات تجنبا للاصطدام مع المنحرفين .. ولكن الله سبحانه حثه على التبليغ حالا ، ودون أن يحسب حسابا لأي اعتبار ، والله سبحانه يتولى حمايته وعصمته من كل مكروه .
وتسأل ؛ إن قوله تعالى ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ لا يفيد شيئا يحسن السكوت عليه ، حيث جعل جواب الشرط عين فعله ، تماما مثل قول القائل : إن لم تفعل فما فعلت ، وإن لم تبلغ فما بلغت .. فما هو الوجه؟

الجواب : إن قوله تعالى : ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يشعر بأن هذا الأمر الذي تریث النبي (ص) في تبليغه خوفا من الناس قد بلغ من الأهمية حدا يوازي تبليغه الرسالة كلها ، بحيث إذا ترك تبليغه فكأنما ترك تبليغ جميع الأحكام ، تماما كما تقول لمن كان قد أحسن اليك : إذا لم تفعل هذا فما أنت بمحسن إليّ إطلاقا ، وعليه يكون المعنى إن لم تبليغ هذا الأمر فكأنك لم تؤد شيئا من رسالتي ، وجازيتك جزاء من كتم جميع أحكامها.

سؤال ثان : ما هو هذا الأمر الذي بلغ من العظمة هذا المبلغ ، حتى أناط الله تبليغ الرسالة جميعا بتبليغه ، وجعل الرسول يتوقف أو يترتب في تبليغه ، وهو الحريص على أن يصدع بأمر الله مهما كانت النتائج؟

الجواب : بعد أن اتفق المفسرون الشيعة منهم والسنة على تفسير الآية بالمعنى الذي ذكرناه ، بعد أن اتفقوا على هذا اختلفوا في تعيين هذا الأمر الذي تریث النبي (ص) في تبليغه ، والذي لم يذكره الله صراحة.

قال الشيعة : إن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب ، وإن هذا الأمر الهام هو ولايته على الناس ، وإن النبي (ص) تریث في التبليغ لا خوفا على نفسه ، كلا ، فلقد جابه صناديد قريش بما هو أعظم ، فسفه أحلامهم ، وسب آلهتهم ، وعاب أمواتهم ، وهم الأشداء الأقوياء ، وأهل العصبية الجاهلية .. أقدم النبي على هذا ، ولم يخش فيه لومة لائم يوم لا حول للإسلام ولا طول ، فكيف يخشى من تبليغ حكم من الأحكام بعد أن أصبح في حصن حصين من جيش الإسلام ومناعته؟ وإنما خاف النبي (ص) إذا نص على علي بالخلافة أن يتهم بالمحاباة والتحيز لصهره وابن عمه ، وأن يتخذ المنافقون والكافرون من هذا النص مادة للدعاية ضد النبي (ص) والتشكيك في نبوته وعصمته .. وبديهة ان مثل هذه الدعاية يتقبلها البسطاء والسذج.

هذا ملخص ما قاله الشيعة ، واستدلوا عليه بأحاديث رواها السنة في ذلك ، ونقل بعضها الرازي وصاحب تفسير المنار.

أما السنة فقد اختلفوا فيما بينهم ، فمن قائل : إن النبي سكت عن بعض الأحكام التي تتعلق باليهود ، ومن قائل : إن الحكم الذي سكت النبي عنه يتصل

بقصة زيد وزينب بنت جحش ، وقال جماعة من السنة ان الآية نزلت في فضل علي بن أبي طالب ، لا في خلافته ، ونقل هذا القول الرازي وصاحب تفسير المنار .
قال الرازي : «العاشر . أي القول العاشر . : نزلت الآية في فضل علي بن أبي طالب ، ولما نزلت هذه الآية أخذ النبي بيد علي ، وقال : «من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» فلقبه عمر فقال : هنيئا لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة ، وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن علي» .

صاحب المنار وأهل البيت :

وقال صاحب تفسير المنار : «أما حديث من كنت مولاه فعلي مولاه فقد رواه أحمد في مسنده ، والترمذي ، والنسائي ، والضياء في المختار ، وابن ماجه ، وحسنه بعضهم ، وصححه الذهبي بهذا اللفظ ، ووثق سند من زاد فيه : اللهم وال من والاه وعاد من عاداه الخ» ، وفي رواية انه خطب الناس ، فذكر أصول الدين ، ووصى بأهل بيته ، فقال : «إني قد تركت فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما ، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ، الله مولاي ، وأنا ولي كل مؤمن ، ثم أخذ بيد علي وقال . الحديث . أي من كنت مولاه فعلي مولاه .

ثم أطال صاحب تفسير المنار الكلام ، وقال فيما قال : المراد بالولاية في الحديث ولاية النصرة والمودة ^(١) .. ولكنه أتبع هذا التفسير بقوله : «إن مثل هذا الجدل فرق بين المسلمين ، وأوقع بينهم العداوة والبغضاء ، وما دامت عصبية المذاهب غالبية على الجماهير فلا رجاء في تحريمهم الحق في مسائل الخلاف» . هذا صحيح يقره كل عاقل ، ولو لا التعصب للباطل لم يقع الخلاف بين المسلمين ،

(١) . انظر تفسير الآية ٥٥ من هذه السورة .

وعلى افتراض حصوله فإنه لا يستمر هذا الأمد الطويل ، ولم تؤلف عشرات الكتب في مسألة واحدة.

ثم قال صاحب تفسير المنار : «أما حديث من كنت مولاه فعلي مولاه فنحن نحتدي به ، ونوالي عليا المرتضى ، ونوالي من والاهم ، ونعادي من عاداهم ، ونعد ذلك كموالاة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ونؤمن بأن عترته (ص) لا تجتمع على مفارقة الكتاب الذي أنزله الله عليه ، وأن الكتاب والعتره خليفتا الرسول ، فقد صح الحديث بذلك في غير قصة الغدير ، فإذا أجمعوا على أمر قبلناه واتبعناه ، وإذا تنازعوا في أمر رددناه إلى الله والرسول».

اقامة التوراة والانجيل الآية ٦٨ . ٦٩ :

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)﴾

الإعراب :

الصابئون مبتدأ والخبر محذوف ، أي والصابئون كذلك ، ومثله : «فاني وقيار بها لغريب» أي اني لغريب ، وقيار كذلك ، أو غريب ، والنصارى عطف على الصابئين. من آمن بالله بدل بعض من كل ما تقدم من الأصناف.

المعنى :

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ من دين الحق ، ولا تنفعكم هذه المظاهر الدينية ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ إلخ .. تقدم تفسيره في الآية ٦٤ من هذه السورة).
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ إلخ .. تقدم تفسيره في الآية ٦٢ من سورة البقرة ج ١ ص ١١٦ وما بعدها.

ميثاق بني اسرائيل الآية ٧٠ . ٧١ :

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قَالَا إِنَّا هُودَى
أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمَّوْا وَصَمُّوْا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمَّوْا وَصَمُّوْا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١)﴾

اللغة :

المراد بالفتنة هنا العقوبة.

الإعراب :

لقد اللام واقعة في جواب القسم المحذوف ، أي والله لقد. ولا تكون تامة. وفتنة فاعل ، والمصدر المنسبك من أن وما بعدها مفعول حسبوا ، أي حسبوا عدم الفتنة. وكثير بدل من واو عموا وصموا.

المعنى :

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. سبق تفسير قوله تعالى في الآية ١٢ من هذه السورة : ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾. والآية ١٣ : «فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم». وقال المفسرون : ان الله سبحانه كرر أخذ الميثاق من اليهود ، ونقضهم إياه بقتلهم الأنبياء وتكذيبهم . كرر ذلك تأكيداً لعنوتهم وشدة تمردهم .. ونضيف نحن إلى ذلك ان الله جل ثناؤه قد أراد أيضا من هذا التكرار . وهو أعلم بما أراد . أن يحذر ذراري المسلمين من ذراري اليهود ، حيث سبق في علمه تعالى ان المسلمين سيفترقون إلى طوائف وينقسمون إلى دويلات ، وان اليهود سيستغلون هذا الانقسام لإنشاء دولة لهم في قلب البلاد الإسلامية ، ويكون منها ما كان.

﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا﴾ بينوا لهم طريق الحق والهداية ، ولكن ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾. فهوى النفس وحده هو الأمر الناهي عند اليهود ، ولا جزاء لمن خالفهم . وان كان نبيا . إلا القتل ان قدروا عليه ، أو التكذيب ان عجزوا عن القتل .. وهذا الوصف لا يختص باليهود ، وان كان الحديث عنهم ، فكل من انخدع لهواه يفعل مثل ما فعلوا ، يهوديا كان ، أو مسلما ، أو نصرانيا.

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾. المراد بالفتنة هنا شذائد الأمور ، كتسلط الأقوياء عليهم بالقتل والتخريب والتشريد ، أي ظن اليهود أنهم لا يغلبون أبدا لأنهم شعب الله المختار بزعمهم .. وقد اعتمدوا على هذا الزعم فيما مضى ، أما اليوم فإنهم يعتمدون على القوى الاستعمارية ، والعناصر الرجعية ، والشركات الاحتكارية ، وعلى إثارة الفتن والخلافات ، ونشر الفساد والانحلال.

﴿فَعَمُّوا وَصَمُّوا﴾. كل من كره شيئا عمي عن محاسنه ، وقد كره اليهود كل شيء إلا ما تهوى أنفسهم ، لذا تعاموا عن منهج الحق ، وتصاموا عن صوت العدل ، فسلط الله عليهم البابليين ، فقتلوا رجالهم ، ونهبوا أموالهم ، وسبوا نساءهم وأطفالهم ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بعد أن تابوا ، لشدة ما أصابهم في أسر بخت نصر من المذلة والمهانة ﴿ثُمَّ عَمُّوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾. أي أن الله سبحانه

بعد أن أنجاهم من عذاب الأسر عاود كثير منهم الكرة إلى البغي والفساد ، قتلوا زكريا ويحيى ، وكذبوا السيد المسيح (ع) وحاولوا قتله ، وقالوا فيه وفي أمه قولا عظيما ، فسلط الله عليهم الفرس والروم ، وفعلوا بهم ما فعله بخت نصر. ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ / ٧١ من سفك الدماء ، وتزييف الحقائق ، وتدمير المؤامرات وتنفيذ الخطط التي يضع تصميمها كل طاغ وباغ .. ان الله سبحانه يعلم ذلك منهم ، وهو مجازيهم عليه بالخزي والخذلان في الدنيا قبل الآخرة.

وهذا الوصف الذي حكاه الله عن اليهود ينطبق تماما على من يتظاهر بالإسلام ، ثم يدور في فلك الذين يساندون إسرائيل ، ويناصرونها على العرب والمسلمين.

دعوة المسيح الى بني اسرائيل الآية ٧٢ . ٧٥ :

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥)﴾

اللغة :

الصديقة مبالغة في الصدق. والافك الكذب.

الاعراب؟

ثالث خبر إن. وثلاثة مجرور بالاضافة ، ولا يجوز ثلاثة بالنصب على انه مفعول لثالث ، كما يجوز لك أن تقول : ضارب زيدا على أن يكون زيد مفعولا لضارب ، لا يجوز ذلك في ثلاثة ، إذ يصير المعنى الثالث جعل الثلاثة ثلاثة ، وهذا باطل وغير مراد ، لأن المعنى المراد واحد من ثلاثة ، لا جاعل الثلاثة ثلاثة .. أجل ، إذا قلت : رابع ثلاثة يجوز أن تجر ثلاثة بالاضافة ، وأن تنصبها مفعولا لرابع على معنى جاعل الثلاثة أربعة. ما من إله (من) زائدة. وإله مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي ما إله موجود إلا الله. ولفظ الجلالة بدل من إله ، أو من الضمير في موجود. ليمسن اللام واقعة في جواب قسم محذوف ، ويمسن ساد مسد جواب القسم وجواب ان الشرطية. ومنهم متعلق بمحذوف حالا من الذين. وجملة كانا يأكلان الطعام مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، ولا يصح أن تكون صفة للمسيح وأمه ، لأن كلا منهما جاء في جملة مستقلة ، ولو قال : المسيح وأمه مخلوقان كانا يأكلان لصح إعراب الجملة وصفا. وكيف نبين (كيف) مفعول مطلق لبنين ، لأن المعنى أي بيان نبين ، ولا يجوز أن تكون كيف مفعولا لأنظر ، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله. وأنى بمعنى كيف ، وهي مفعول مطلق ، والمعنى أي افك يؤفكون.

المعنى :

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾. غالى اليهود في تحقير عيسى وأمه ، وغالى النصارى في تعظيمهما ، حتى ارتفعا بهما إلى مكان الآلهة ، والغلو في نظر الإسلام كفر بشتى صورته وأشكاله. قال الإمام علي (ع) : «سيهلك فيّ صنفان : محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق ، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق ، وخير الناس فيّ حالا النمط الأوسط فالزموه».

﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾. المسيح من بني إسرائيل

وأندر أول من أنذر قومه ، فأمرهم بعبادة الله وحده معترفا بأنه ربه وربهم ، ومنذرا من يشرك بالله بالآليم العذاب ، ولكن النصارى أبوا إلا القول بربوبية عيسى (ع) ومن جحد بها فقد جحد بخالق الكون في عقيدتهم.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾. أنكر سبحانه على النصارى أولا تأليه السيد المسيح (ع) ، ثم أنكر عليهم في هذه الآية جعلهم الله واحدا من ثلاثة ، وقولهم : إن الله هو الأب والمسيح هو الابن ، ثم حل الأب في الابن واتحد به فكوّن روح القدس ، وكل واحد من هؤلاء الثلاثة هو عين الآخر ، وهو غيره. وتقدم الكلام في ذلك عند تفسير الآية ١٧ من هذه السورة ، والآية ١٧٠ من سورة النساء.

﴿مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾. سئل الإمام علي (ع) عن التوحيد والعدل ، فقال : التوحيد ان لا تتوهمه ، والعدل أن لا تتهمه. أي من توحيد الله ان لا تتصوره بوهمك ، لأن كل موهوم محدود والله لا يحد بوهم ، والعدل ان لا تتهم الله بحكمته ، وانه فعل ما لا ينبغي أن يفعل.

﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وتسأل : ان (منهم) في الآية تدل بظاهرها ان النصارى فيهم الكافر والمؤمن ، مع العلم بأنهم جميعا يقولون بألوهية عيسى والله سبحانه يقول : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾؟ وأجاب المفسرون بأن (منهم) أخرجت من تاب وأسلم ، وأبقت من أصر على الكفر .. ويلاحظ بأن من أسلم لا يعد منهم ، والصحيح ان النصارى ظلوا على عقيدة التوحيد ، والإيمان بنبوة عيسى أمدا غير قصير ، ثم انقسموا إلى طائفتين : إحداها تؤمن بالتوحيد ، والأخرى تقول بالتعدد .. وعلى طول الأمد اتفقت كلمة الجميع على التشليث ، وعلى هذا فلفظ (منهم) اخرج الطائفة البائدة التي كانت تؤمن بنبوة عيسى ، لا بألوهيته. وتقدم الكلام عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ١٧ من هذه السورة.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. ما أوضح هذا الكلام. ورغم هذا الوضوح أبى بعض المفسرين إلا أن يفسره ويقول : «هنا فعل

محذوف ، والتقدير أفلا يسمعون ما قلنا فيتوبون» وهكذا يأتي الشيء جامدا باردا إذا كان في غير محله.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾. كنوح وإبراهيم وموسى وغيرهم ، وقد أظهر الله المعجزات على أيديهم كما أظهرها على يد عيسى ، فالقول بربوبيته من دونهم ترجيح بلا مرجح ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾. وبين الله معنى الصديقة بقوله : ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَاتِنِينَ﴾ . ١٢ التحريم.

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾. كل من افتقر إلى شيء ، أي شيء ولو إلى مكان أو زمان فهو مخلوق ، لأن الافتقار وصف لازم له ، ولا ينفك عنه بحال ، وإلا كان خالقا غير مخلوق .. كما ان الغنى عن كل شيء وصف لازم للخالق ، ومحال أن ينفك عنه ، وإلا كان مخلوقا .. وبديهية أن من يأكل الطعام فهو في أشد الحاجة اليه .. إذن ، هو مخلوق وليس بخالق .. وغريب أن تخفى هذه البديهية الواضحة على عاقل .. ولهذا المنطق ونصاعته عقّب سبحانه على موقفهم بقوله . مستنكرا . ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ . ومن هذه الآيات ان المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام ، فكيف يكونان إلهين؟ ﴿ثُمَّ أَنْظِرْ أُنَى يُؤْفَكُونَ﴾. أي معرضين عن الحق مكذبين له تمردا وعنادا.

لا يملك لكم ضرا ولا نفعا الآية ٧٦ . ٨١ :

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ

عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَا أُتْرِزَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾

اللغة :

التناهي تفاعل ، أي كانوا لا ينهى بعضهم بعضا ، ويستعمل في الكف عن الشيء ، يقال تناهى عن كذا ، أي كف عنه.

الاعراب :

غير الحق صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي لا تغلوا غلوا غير الحق. ومن بني إسرائيل متعلق بمحذوف حالا من الذين كفروا. وبئس ما كانوا (بئس) فعل ماض بمعنى الذم ، و (ما) اسم نكرة بمعنى شيء محل نصب على التمييز. وفاعل بئس مستتر يفسره ما ، أي الشيء شيئا فعلهم ، وقد تصيدنا من يفعلون مصدرا جعلناه المخصوص بالذم. وهو مبتدأ وخبره بئس وما بعدها ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، أي هو فعلهم.

المعنى :

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.
يستعمل القرآن الكريم (ما) فيما لا يعقل ، قال تعالى : ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى﴾.
وفيمن يعقل : ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

وفيها معا : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ . ومنه قوله تعالى في هذه الآية ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فإن المراد من (ما) كل ما اتخذ معبودا من المخلوقات فيندرج فيه عيسى ومريم والأصنام .. أجل ، ان استعمال (ما) فيما لا يعقل أكثر من استعمالها فيمن يعقل . على العكس من استعمال (من) .

أما وجه الاحتجاج على النصارى بهذه الآية فلأن الإله المعبود هو الذي يملك لعباده ضرا ونفعا ، أما العاجز فمحال أن يكون إلها .. وقد ذكرت الأناجيل ان عيسى الذي يدعون له الألوهية قد أھين وصلب ودفن بعد أن وضعوا اكليل الشوك على رأسه ، ومن لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا فبالأولى أن لا يملكهما غيره .. ومن كان هذا شأنه لا يعبد عاقل ، قال ابراهيم (ع) لأبيه : ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ . ٤٢ مريم . . . وكان لاعرابي صنم يقدسه ويعبد ، وجاءه ذات يوم ليسجد له كعادته فرأى ثعلبا بالقرب منه ، فظن ان الثعلب قصده ليتبرك به ، وحين أراد السجود له رأى قذارة الثعلب على رأسه ، فثاب اليه رشده ، وأخذ يحطم الصنم ، ويقول :

ارب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ . هذا الخطاب موجه بظاهره إلى أهل الكتاب ، وفي واقعه يشمل أهل الأديان جميعا .. والمظهر الأصيل المميز للإسلام انه يحصر النفع والضرر بيد الله وحده ، ويضع الإنسان أمام خالقه دون وسائط روحية أو مادية : ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ . ١٢٢ النساء .

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ . المراد بالقوم رؤساء الدين الذين يتاجرون به ، ويحرفونه كما يشتهون .. وقد وصفهم جل ثناؤه بالضلال في أنفسهم أولا ، وبإضلال أتباعهم ثانيا ، ثم بين نوع الضلال والإضلال بأنه انحراف عن قصد السبيل ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ . وسواء السبيل هو الاعتدال وترك الغلو في الدين .. وهذا هو الإسلام في واقعه ، دين قويم ، وصراط مستقيم ، وكيلا يقول المسلمون في محمد (ص)

ما قاله النصراني في المسيح (ع) أمر الله نبيه أن يقول للمؤمنين به : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. ١١١ الكهف».

ودخل رجل على رسول الله ، فارتجف من هيئته ، فربت على كتفه في حنان وقال : «هَوِّنْ عَلَيْكَ ، أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ بِمَكَّةَ».

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾. قال المفسرون : نحى داود بنى إسرائيل عن صيد الحيتان يوم السبت بوحى من الله ، ولما عتوا عن أمره لعنهم ، ودعا عليهم ، فصاروا قردة. أما عيسى فقد طلب منه خمسة آلاف رجل أن ينزل عليهم مائدة من السماء ، فبأكلوا منها ، ويؤمنوا به ، ولما نزلت أكلوا ونكلوا ، فقال عيسى : اللهم العنهم كما لعنت أصحاب السبت.

ولا شيء في الآية يَوْمِي إلى هذه التفاصيل ، والمعنى الظاهر أن داود وعيسى لعنا من كفر من بني إسرائيل ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾. وسكت الله سبحانه عن نوع العصيان والاعتداء ، ولم يسكت عنه جهلا ولا نسيانا ، ونحن نسكت عما سكت الله عنه ، وفي الوقت نفسه نؤمن بأن لعنة الله ونقمته تصيب كل من عصى واعتدى ، سواء أكان إسرائيليا ، أو هاشميا.

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. تشعر هذه الآية بأن عمل المنكر لم يكن عملا فرديا في المجتمع اليهودي ، وإنما كان عمل الجماعة كلها ، وأن المنكر قد تفشى بينهم ، حتى صار عادة من عاداتهم المألوفة التي اصطاح عليها الكبير والصغير ، ولذا لم يوجد فيهم من يستنكر المنكر ، وينهى عنه.

وعن صحيح مسلم والبخاري أن رسول الله قال : «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه». قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى؟ قال : فمن؟» القذة إحدى ريش السهم.

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. ضمير منهم يعود إلى اليهود ، والمراد بالذين كفروا. هنا. مشركو العرب ، وكان كثير من اليهود يقفون مع المشركين ضد النبي (ص) ، ويحرضونهم عليه ، بل كانوا أشد منهم عداوة

له ، مع ان النبي (ص) يؤمن بالله ، وبنبوة موسى (ع) ، وما أنزل اليه من ربه ، والمشركون يعبدون الأوثان ، ولا يؤمنون بموسى ، ولا بكتاب من كتب الله ، فكان الأولى باليهود ، وهذه هي الحال ، أن يقفوا مع المؤمنين ضد الوثنيين ، لا مع الوثنيين ضد المؤمنين.

ولكن اليهود كانوا وما زالوا يعملون على أساس الربح والتجارة ، لا على أساس الدين ، كان يهود المدينة يسيطرون على التجارة الداخلية ، ومشركو العرب يسيطرون على التجارة الخارجية ، فعمل النبي على تحرير الناس من السيطرتين ، فالتقت مصلحة اليهود مع مصلحة المشركين فتكاتفوا معهم وتضامنوا ضد المؤمنين ، تماماً كما التقت اليوم مصلحة اليهود مع مصالح أرباب الشركات الاستثمارية من المسيحيين ضد الشعوب والمستعفين .. وسبق الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٥١ من هذه السورة.

﴿لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ هُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾. هذه نتيجة فسادهم واعتدائهم ، سخطه وعذابه ، وكل امرئ مجزي بما أسلف ، وقادم على ما قدم ، مسلماً كان أو مشركاً.

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ﴾ . موسى . ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾. ذكر سبحانه في الآية السابقة أن اليهود ، أو الكثير منهم كانوا يتولون المشركين ، ويؤلبونهم على المسلمين ، مع ان المسلمين أقرب اليهم ديناً من المشركين. ثم بيّن سبحانه في هذه الآية ان أولئك اليهود لم يؤمنوا بالله ، ولا بموسى ، ولا بما أنزل في التوراة كما يدعون ، ولو صدقوا في دعواهم ما اتخذوا المشركين أولياء من دون المؤمنين ، لأن ذلك محرم في شريعة التوراة ، ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾. أي ان المسألة عندهم ليست مسألة دين وعقيدة ، وإنما هي مسألة مصلحة ومنفعة ، كما قدمنا.

الجزء السابع

عداوة اليهود ومودة النصارى الآية ٨٢ . ٨٦ :

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)﴾

اللغة :

الفرق بين القسيس والراهب ان القسيس من أهل العلم بدين النصارى وكتبهم. والراهب المنقطع في دير أو صومعة للعبادة ، مع الزهد بالزواج والولد وسائر ملذات الدنيا.

الإعراب :

عداوة تمييز ، ومثلها مودة. واليهود مفعول ثان لتجدن. وجملة تفيض حال من أعينهم ، ولا يصح أن تكون مفعولا ثانيا لترى ، لأن ترى هنا من

رؤية العين لا تعمل إلا في مفعول واحد. وما لنا مبتدأ وخبر. وجملة لا نؤمن حال من ضمير الخبر المحذوف الذي تعلق (لنا) به. وما جاءنا (ما) في محل جر عطفاً على لفظ الجلالة. والمصدر المنسبك من أن يدخلنا مجرور بفي محذوفة ، أي في أن يدخلنا ، والمجرور متعلق بنطمع.

المعنى :

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾. أي إن اليهود والمشركين أشد الناس عداوة للمسلمين .. وكثيراً ما يستشهد بهذه الآية على أن دين النصراني أقرب إلى الإسلام من دين اليهود .. وهذا خطأ إن أريد دين اليهود والنصارى قبل التحريف ، لأن الدين عند الله وأنبيائه واحد من حيث العقيدة وأصولها ، وإن أريد دينهما بعد التحريف فهما فيه سواء : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾. ١٩ آل عمران.

والصحيح ان عداوة اليهود والمشركين تتصل اتصالاً وثيقاً بالتصادم بين طبيعة الدعوة الإسلامية ، وطبيعة النظام الذي كان سائداً في جزيرة العرب أول البعثة .. كان هذا النظام يقوم على أساس التسابق لاقتناء المال والعبود عن طريق السلب والنهب ، والربا والغش ، وما إليه من أسباب القهر والمكر ، وقد انعكست طبيعة هذا النظام على الكبار من مشركي مكة الذين كانوا يسيطرون على التجارة الخارجية ، كما انعكست على زعماء اليهود في المدينة الذين كانوا يسيطرون على الصناعة والتجارة الداخلية.

وانطلقت دعوة محمد (ص) تنادي بالعدل ، وترفض الظلم والاستغلال بشتى صوره وأشكاله ، وتصدت للمستغلين من اليهود والمشركين بالذات ، وعلى هذا الصعيد التقت مصلحة الطرفين ، وتحالفوا على ما بينهما من التباعد في الدين والعقيدة ، تحالفوا وتكاتفوا يدا واحدة على حرب محمد (ص) العدو المشترك .. وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

وبتعبير أوضح ان عداوة اليهود والمشركين للمسلمين كانت بدافع دنيوي ، لا بدافع ديني ، ولكن تستر اليهود باسم الدين رياء ونفاقا ، تماما كما يفعل اليوم أصحاب الكسب غير المشروع .. هذا ، إلى أن كلا من اليهود والمشركين يشتركون في العصبية الجنسية ، والحمية القومية .. ولكن مشركي العرب كانوا على جاهليتهم أرق قلبا ، وأكرم يدا ، وأكثر حرية في الفكر ، ومن هنا آمن أكثرهم برسول الله (ص) ، وما آمن به من اليهود إلا قليل.

من هم أقرب مودة للمسلمين؟

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾. يتخذ البعض من هذه الآية وما بعدها مادة للتصويه بأن القرآن الكريم يرجح أحد المعسكرين المتطاحنين . في أيامنا هذه . على المعسكر الآخر .. وهذا ما يدعونا إلى أن نشرح هذه الآيات الأربع ، ونوضحها بما لا يترك مجالا لاستغلال الانتهازيين والمنحرفين.

ان من تأمل هذه الآيات لا يعتريه أدنى ريب بأنها متكاملة يتمم بعضها بعضا ، وانه لا يصح بحال أن تفسر واحدة منها مستقلة عن أخواتها ، وانها صريحة واضحة في ان الله سبحانه لم يفاضل بين النصارى على وجه العموم ، وبين غيرهم من الطوائف في البعد أو القرب من المسلمين ، وإنما أراد سبحانه فئة خاصة من النصارى بدليل انه تعالى لم يقف عند القول : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ بل عقبه بقوله :

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾. ومعنى هذا ان من النصارى من عرفوا الإسلام ، ودخلوا فيه طوعا ، وعن قناعة وإيمان ، والتاريخ يثبت ذلك ، كما شهد التاريخ أيضا بالأحقاد الصليبية على الإسلام والمسلمين ، وبإبادتهم من الأندلس ، وبفظائع الايطاليين في طرابلس الغرب ، والفرنسيين في الجزائر وتونس والمغرب وسورية ، وبفظائع الانكليز في مصر والعراق والسودان وغيرها .. واليوم تتحالف الولايات المتحدة مع اليهود على إبادة شعب فلسطين ، وتسليح هؤلاء

القراصنة بأحدث الأسلحة فيعتدون ، ثم يزعمون أنهم المعتدى عليهم فتدعم الولايات المتحدة هذا الزعم ، وتذب عنه بحماس في مجلس الأمن وهيئة الأمم ، ويهاجم اليهود وييطشون ، ثم يدعون أنهم معرضون للبطش والهجوم ، وتقول الولايات المتحدة : نعم هذا هو الصدق والعدل .. فهل بعد هذا ، وكثير غير هذا يقال : ان النصارى ، كل النصارى أقرب الناس مودة للمسلمين؟. ان مثل هذا لا يفوه به إلا جاهل أو مضلل ، ثم ما ذا يصنع هذا المضلل بقوله تعالى : ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾. ان الحق الذي جاءهم وآمنوا به هو الذي بشر به عيسى : ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾. ٦ الصف». ويؤكد هذا ، وينفي عنه كل ريب قوله تعالى بلا فاصل : ﴿فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾. فشهادة الله لهذه الفئة من النصارى بالإحسان وجزاؤها بالجنان . دليل قاطع على إسلامها ، وانها هي وحدها المقصودة بوصف الإحسان والثواب عليه.

أما النصارى الذين أنكروا الحق بعد أن عرفوه ، أو أعرضوا عنه ، دون أن ينظروا إلى دلائله وبياناته ، أما هؤلاء فقد هددهم الله سبحانه وتوعدهم بقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾. وتساءل : ان قوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا﴾ الخ يشمل كل من كفر وكذب فما هو وجه التخصيص بالنصارى؟.

الجواب : ان سياق الكلام يدل على ان الله سبحانه بعد أن وعد من آمن من النصارى بالجنة توعد من أصر على الكفر منهم بالنار ، وأطلق اللفظ ليشمل التهديد كل من خالف الحق وعانده ، وهذا لا يتناقض مع ما قلناه.

والخلاصة ان هذه الآيات صريحة في ان المقصود منها فئة خاصة من النصارى وهم الذين عرفوا الحق ، وآسوا به ، وان الله سبحانه قد أدخلهم الجنة بسبب إيمانهم وصالح أعمالهم ، وإذا افترضنا . جدلا . ان قوله تعالى : ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ مَوْدَّةً﴾ الخ يشمل كل من قالوا إنا نصارى ، إذا افترضنا هذا فيجب أن نصرف الآية عن ظاهرها ، ونخصصها بمن آمن منهم لأمرين :

الأول : إن الله سبحانه ذكر في العديد من آياته أن النصارى جعلوا لله

شركاء ، وكنتموا اسم محمد (ص) عن علم ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم آلهة من دون الله ، ثم نهي جل ثناؤه عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، وقال : «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء». وإذا عطفنا هذه الآية وما إليها على قوله : ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾ يكون المعنى ان النصارى ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ﴾ كما جاء في الآية ٦٧ من سورة المائدة.

الثاني : إن أهل التفاسير قالوا : إن الآيات التي نحن بصددنا نزلت في النجاشي ملك الحبشة ، وكان نصرانيا ، لأن النبي (ص) لما رأى ما حل بأصحابه من أذى المشركين في بدء الدعوة أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، وقال لهم : إن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد ، فذهبوا إليه ، وكان من بينهم جعفر بن أبي طالب ، فوجدوا عند النجاشي الأمان ، وحسن الجوار ، وكان ذلك في السنة الخامسة من مبعث الرسول (ص).

وقد تواترت الأخبار ان النجاشي وبطانته من رجال الدين والدنيا أسلموا على يد جعفر بن أبي طالب بعد أن تلا عليهم آيات من الذكر الحكيم ، وذكر محاسن الإسلام. وان أعينهم فاضت من الدمع عند ما سمعوا آيات الله.

وبعد ، فإن من يستشهد بقوله تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾ على أن النصرانية والنصارى بوجه عام أقرب من غيرهم إلى الإسلام والمسلمين ، ويسكت عن الآيات المتممة لهذه الآية ، ان من يفعل هذا فهو جاهل بكتاب الله ، أو مرء يتزلف إلى النصارى على حساب الإسلام والقرآن ، أو خائن يسمم أفكار السذج من المسلمين ليصدقوا مزاعم أعداء الدين الذين يناصرون إسرائيل ويباركون عدوانها على العرب والمسلمين.

لا تحرموا الطيبات الآية ٨٧ . ٨٨ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴿

الإعراب :

حلالا حال من (ما) ، أو صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي رزقا حلالا.

المعنى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾. قالوا : إن هذه الآية نزلت في قوم من الصحابة غلب عليهم الخوف من الله ، فحرموا على أنفسهم النساء وطيبات الطعام واللباس ، وانقطعوا إلى قيام الليل ، وصيام النهار. فدعاهم رسول الله (ص) وتلا عليهم الآية ، وقال : أما أنا فأقوم وأنا ، وأصوم وأفطر ، وآتي النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني. وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ يشعر بأن تحريم الحلال ، تماما كتحويل الحرام ، كل منهما ظلم واعتداء.

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾. تقدم تفسيره في الآية ١٦٨ من سورة البقرة ج ١

ص ٢٥٨.

اللغو في الإيمان الآية ٨٩ :

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْإِيمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ

أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ
وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

اللغة :

اللغو في اللغة ما لا يعتد به ، ولغو اليمين الحلف من غير قصد ، كما لو سبق
اللسان بقول : لا والله ، وبلى والله. وعقد الإيمان قصدها. والكفارة من الكفر بفتح الكاف
، وهو الستر والتغطية ، ثم استعملت الكفارة في الأعمال التي تكفر الذنوب ، أي تغطيها
وتخفيها. والمراد بالطعام الأوسط الأغلب من المأكول.

الإعراب :

الضمير في كفارته يعود إلى (ما) في قوله ﴿بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾. وكذلك (الكاف)
بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي يبين الله لكم تبيينا مثل ذلك ، وذلك مجرور
بالإضافة.

المعنى :

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾. يمين اللغو هي ان ينطلق اللسان بها من غير
قصد ، مثل قولك : لا والله. لمن سألك : هل رأيت فلانا؟. أو قولك : بلى والله. لمن قال
لك : لا تريد كذا وكيت .. وهذه لا عقاب عليها ، ولا كفارة لها ان خالفت الواقع لقوله
تعالى : ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾. ولازم ذلك ان قائلها لا يعد كاذبا فيها ،
وليس لأحد أن يقول : حلفت بالله

كاذبا إذا تبين العكس. وبكلمة ان هذه لا يترتب عليها شيء من آثار اليمين لأنها ليست منها في شيء إلا في الصورة ، ومع ذلك فإن الأولى تركها مع التنبيه وعدم الغفلة.

﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾. أي ان اليمين الشرعية التي يجب الوفاء بها ، ويؤاخذ الحالف على حنثها هي التي يحلفها البالغ العاقل عن قصد وتصميم ، واردة واختيار. واتفقوا على ان اليمين تتم وتنعقد إذا كان الحلف بالله ، أو باسم من أسمائه الحسنى ، كالخالق والرازق. وقال الشيعة الإمامية وأبو حنيفة : لا تنعقد اليمين بالمصحف والنبي والكعبة ، وما إليها ، لحديث : «من كان منكم حالفا فليحلف بالله أو ليذر». وقال الشافعي ومالك وابن حنبل : تنعقد بالمصحف. وتفرد ابن حنبل بأنها تنعقد بالنبي أيضا.

﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾. إذا حلف وحنث ، أي فعل ما حلف على تركه ، أو ترك ما حلف على فعله ، إذا كان كذلك وجبت عليه الكفارة مخيرا بين خصال ثلاث :

الأولى : أن يطعم عشرة مساكين وجبة واحدة لكل واحد بالجمع بينهم ، أو التفريق ، على أن تكون الوجبة من الطعام الغالب الذي يأكله هو وأهله ، ويجوز أن يعطي المسكين مدا من الطعام بدلا من الوجبة ، والمراد بالمسكين الفقير الذي تحل له الزكاة ، والمد أكثر من ٨٠٠ غرام بقليل.

الثانية : أن يكسو عشرة مساكين ، ويجزي كل ما يسمى كسوة في العرف ، لأن الشرع ورد بها مطلقا ، فتحمل على المعنى المعروف من غير فرق بين الجديد والعتيق ، ما لم يكن الثوب باليا أو ممزقا.

الثالثة : أن يعتق عبدا ، ولا عبيد اليوم.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾. أي فإن عجز عن الخصال الثلاث المتقدمة صام ثلاثة أيام ، وإن عجز عن الصوم استغفر الله ورجا عفوه. ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾. ذلك إشارة إلى الطعام والكسوة والعتق والصوم بعد العجز

عن الخصال الثلاث ، وبديهة إنما تجب على النحو المتقدم إذا حلف وحنث. ﴿وَأَخْفَظُوا
 أَيْمَانَكُمْ﴾ من الابتذال ، فإن لليمين بالله حرمتها وعظمتها ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ
 عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ . ٢٤٢ البقرة. وفي الحديث : «إن نبي الله موسى أمر أن لا يحلفوا بالله
 كاذبين ، وأنا آمركم أن لا تحلفوا بالله كاذبين ولا صادقين.
 ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. قال الرازي : «المعنى ظاهر». أجل ،
 ولكن الله سبحانه أراد أن ينبهنا إلى نعمة المعرفة بأحكامه ، كيلا تصدر عن غيرها.

الخمر والميسر الآية ٩٠ . ٩٢ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ
 فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ
 وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
 الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢)﴾

اللغة :

الميسر القمار. والأنصاب الأصنام. والأزلام قطع من الخشب على هيئة السهام كان
 أهل الجاهلية يستقسمون بها ، وتقدم شرحها في الآية ٣ من هذه السورة. والرجس الشيء
 المستقذر.

الإعراب :

من عمل الشيطان متعلق بمحذوف صفة لرجس. وفي الخمر والميسر متعلق بيقوع. وفهل أنتم منتهون أمر من صيغة الاستفهام ، وهو أبلغ من الأمر بصيغة أفعل.

المعنى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾. تكلمنا مفصلا عن تحريم الخمر والقمار عند تفسير الآية ٢١٩ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٢٨. وعن الأنصاب والأزلام عند تفسير الآية ٣ من هذه السورة : ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾. ونسب سبحانه شرب الخمر ، ولعب القمار ، وعبادة الأصنام ، والاستقسام بالأزلام ، نسب هذه إلى الشيطان لأنه يجذبها ويغري بها. ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. ضمير اجتنبوه يعود إلى الرجس ، وهو أمر بالاجتناب ، والأمر يدل على الوجوب ، بخاصة عند بيان السبب ، وقد بيّن هنا ان سبب وجوب الاجتناب هو الفلاح .. ولو لم يكن من دليل على تحريم الخمرة إلا مساواتها مع عبادة الأصنام لكفى. فكيف إذا عطفنا عليها الآية ٢١٩ من سورة البقرة ، والآية ٣٢ من الاعراف ، والأحاديث المتواترة ، وإجماع المسلمين من عهد الرسول (ص) إلى اليوم ، وإلى آخر يوم.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾. بعد أن أكد سبحانه تحريم الخمر والميسر ، وقرنهما بعبادة الأصنام ، وجعلهما رجسا من عدو الإنسان ، وبيّن ان اجتنابهما سبيل إلى الفلاح . بعد هذا أشار جل ثناؤه الى أن فيهما مفسدتين : إحداها اجتماعية ، وهي قطع الصلات ، وإيقاع العداوة والبغضاء بين الناس. وثانيهما دينية ، وهي الصد عن ذكر الله وعبادته ، ثم طلب سبحانه الانتهاء عن الخمر والميسر بأبلغ تعبير : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾. والإسلام يحرص كل الحرص على أن يصل

الإنسان بخالقه ومجتمعه ، وأن يكون عند الله والناس في مكان الرضا والتكريم.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في ترك الخمر والميسر وغيرهما من المحرمات

﴿وَاخْذَرُوا﴾ ما يصيبكم من عذاب الله إذا خالفتم أمره وأمر رسوله. قال الإمام علي (ع):

انصح الناس لنفسه أطوعهم لربه ، وأغشهم لنفسه أعصاهم لربه. ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا

عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾. وقد أداه كاملا ، وأقام الحجة على الناس ، وخرج عن عهدة

التبليغ ، ومن خالف فهو وحده المسئول.

اتقوا وآمنوا الآية ٩٣ :

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)﴾

المعنى :

اتفق المفسرون على انه لما نزل تحريم الخمر قال بعض الصحابة لرسول الله (ص) :

كيف بإخواننا الذين ماتوا ؛ وقد شربوها؟ فنزلت هذه الآية ، وهي تدل بمجموعها على أن

من شرب الخمر قبل بيان حكمها فلا بأس عليه إذا كان من المؤمنين المتقين ، ومن هنا اتفق

الفقهاء على ان كل شيء مطلق ، حتى يرد فيه نهي.

وبعد أن اتفق المفسرون على أن هذا المعنى هو المقصود من الآية ، اختلفوا في السبب

الموجب لتكرار التقوى ثلاث مرات ، حيث ذكرت أولا مع الايمان والعمل الصالح ، وثانيا

مع الايمان فقط ، وثالثا مع الإحسان .. ونقل الرازي

في ذلك خمسة أقوال. وقال صاحب مجمع البيان : المراد بالاتقاء الأول اتقاء شرب الخمر بعد تحريمها ، وبالاتقاء الثاني الدوام على ذلك ، وبالاتقاء الثالث اتقاء جميع المعاصي مع ضم الإحسان. وقال بعض المفسرين الجدد : لم تسترح نفسي لشيء من التفاسير ، ولم يفتح الله عليّ بشيء.

والذي نحتمله ، والله أعلم ، ان الغرض من هذا التكرار أن يبين الله سبحانه ان المتقي حقاً هو من اتقى الله في جميع أطواره وحالاته ، شاباً وكهلاً وشيخاً ، وفي السراء والضراء ، وان من مات على ذلك فهو في أمن وأمان.

لا صيد في الحرم ولا مع الاحرام الآية ٩٤ . ٩٦ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِلُونَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بِالْغِيبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٩٥) أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرْمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)﴾

اللغة :

الابتلاء الاختبار. والغيب ما غاب عن الحواس الخمس. والحرم جمع حرام للذكر والأنثى ، تقول : رجل حرام ، وامرأة حرام بمعنى محرم ومحرمة. والنعم الإبل والبقر والضأن. والعدل بفتح العين المساوي للشيء قيمة من غير جنسه ، وبكسرهما المساوي له مثلا ، أي من جنسه. والوبال الثقيل المكروه ، ومنه طعام وبيل وماء وبيل. والبحر الماء الكثير بحرا كان أو نهرا أو غديرا أو بئرا أو بركة. والسيارة جماعة المسافرين.

الإعراب :

ليعلم منصوب بأن مضرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك مجرور بها ومتعلق ببيلوكم. وبالغيب في موضع الحال من فاعل يخافه ، أي يخاف الله حال غيابه عن الناس. وأنتم حرم الجملة حال من واو لا تقتلوا. وفجاء مبتدأ ، وخبره محذوف ، أي فعليه جزاء. ومثل صفة جزاء. وهديا حال من الضمير في (به). وبالغ صفة هدي. وكفارة عطف على جزاء. وطعام بدل من كفارة. وصياما تمييز من عدل ذلك. والمصدر المنسبك من أن يذوق مجرور باللام ، ومتعلق بصيام. ومتاعا مفعول لأجله لأحلّ لكم.

المعنى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾. المراد بشيء من الصيد نوع منه ، وهو صيد البر فقط ، وقوله : تناله أيديكم ورماحكم كناية عن صيده بلا مشقة ، والمعنى إن الله سبحانه حرّم صيد البر في الحرم ، وحال الإحرام ، وهو سهل التناول ، تماما كما حرم على بني إسرائيل صيد الحيتان يوم السبت ، وهي بمراى منهم ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي إن الله ابتلاكم بتحريم الصيد في هذه الحال ليميز بين من يخافه ويطيعه في السر

كما يطيعه في العلانية ، وبين من يتظاهر بطاعته والخوف منه أمام الناس ، ويعصيه في الخفاء ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي من خالف أمر الله بالصيّد بعد هذا البيان وإقامة الحجة . استحق عذاب الله وعقابه .

معنى الاختبار من الله :

وتسأل : إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فما هو الوجه لقوله تعالى : ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ﴾ . وقوله : ﴿لَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ﴾ ؟
الجواب : إن الله سبحانه لا يختبر عبده ليعلم منه ما لم يكن يعلم .. كلا ، فإنه أعلم به من نفسه ، وإنما يمتحنه لأمر :

«منها» : أن يترجم العبد ما هو كامن في نفسه إلى عمل ملموس ، حيث اقتضت حكمته جل ثناؤه أن لا يحاسب الناس على ما يعلمه منهم ، ولا على ما هو كامن في نفوسهم من القوى والغرائز ، وإنما يحاسبهم على ما يقع منهم من أعمال .. إن الغرائز النفسية من حيث هي لا تستدعي حسابا ولا عقابا ، ما دامت كامنة في باطن الإنسان ، ولا يظهر لها أثر يرى بالعين ، أو يسمع بالأذن . قال الإمام علي (ع) : يقول الله : «واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة» . ومعنى ذلك إنه يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبين الساخط لرزقه والراضي بقسمه ، وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم ، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب .

و «منها» : أن يتميز الخبيث من الطيب ، وتظهر حقيقته أمام الناس ، فيعاملونه بما يستحق : ﴿وَلَيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ ١٤٠ آل عمران . وكثيرا ما يقع هذا في حياة الناس . مثلا . أنت تعلم ان زيدا من أهل العلم والمعرفة ، وصادف وجوده بين قوم لا يعرفون منه ما تعرف ، وأردت أن يعلموا مكانه من الوعي والعلم ، فتسأله بمحضر منهم ليتكلم ويعرف .. أو تعلم انه سخيّف جاهل ، وهم يظنون انه عالم حكيم ، فتمثل نفس الدور لتظهر لهم سخفه وجهله .

و «منها» : إن كثيرا من الناس يجهلون حقيقة أنفسهم ، ويقولون : لو سمحت لنا الظروف لكنا كذا وكيت ، فيمنحهم الله الاستطاعة ليلقي الحجة عليهم ، ويعرفهم بحقيقتهم وواقعهم : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ خَلَوْا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ . ٧٧ التوبة .

وطلب بنو إسرائيل من موسى (ع) أن يجعل لهم يوما للراحة والعبادة ، فجعل الله لهم يوم السبت ، وأخذ عليهم العهد أن لا يفعلوا فيه شيئا ، كما طلبوا .. ولكن ساق اليهم الحيتان في هذا اليوم ، حتى إذا ذهب السبت اختفت الحيتان ، فاحتال بنو إسرائيل لصيدها ونقضوا العهد .

وعلى الوجه الأول ، أي ظهور الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب ، على هذا يحمل قوله تعالى : ليلونكم الله .. وقوله : ليعلم الله من يخافه .. وقوله : وليعلم الله الذين آمنوا ، ونحو هذه من الآيات .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ . اتفق الفقهاء على ان الصيد في الحرم لا يجوز للمحل ولا للمحرم على السواء ، أما خارج الحرم فيجوز للمحل ، دون المحرم ، ولو ذبح الحرم الصيد يصير ميتة ، ويحرم أكله على جميع الناس .
وجاء في كتاب فقه السنة للسيد سابق : ان حد الحرم المكي من جهة الشمال مكان يدعى «التنعيم» وبينه وبين مكة ٦ كيلومترات . ومن الجنوب «أرضاه» وبينها وبين مكة ١٢ كيلومترا . ومن جهة الشرق «الجعرانة» وبينها وبين مكة ١٥ كيلومترا .

﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بِالْغُلَبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ . إذا قتل المحرم أو المحل في الحرم شيئا من الصيد البري ، وكان للمقتول مثل من الأنعام الأهلية الثلاثة ، وهي الإبل والبقر والضأن ، ان كان الأمر كذلك تخير القاتل بين أن يذبح مثل المقتول ويتصدق به ، وبين أن يقوم المثل بدراهم يشتري بها طعاما ، ثم يتصدق بالطعام على المساكين لكل مسكين مدان ، أي ١٦٠٠ غرام ،

على التقريب ، وقيل : مد ، وبين أن يصوم يوما عن كل مدين ، أو عن كل مد على قول . ومعنى قوله : «يحكم به ذوا عدل» أن يشهد اثنان من أهل العدالة بأن هذا الحيوان الأهلي هو مثل الحيوان الوحشي المقتول . ومعنى «هديا بالغ الكعبة» ان يذبح المماثل في جوار الكعبة ، ويفرق لحمه على المساكين . وان لم يوجد المماثل من النعم قوم المماثل الأهلي من غير النعم ، واشترى بثمنه طعاما ، وتصدق به ، أو صام على التفصيل المتقدم .

﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ ان الصيد في الحرم ، أو في حال الإحرام هتك لحرمات الله فعوقب الصائد عليه بالكفارة المذكورة ، ومعنى وبال أمره عاقبة فعله السيء ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ من الصيد قبل التحريم ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى الصيد ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ لإصراره على الذنب .

﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلْغِيَّارَةِ﴾ . الضمير في طعامه يعود إلى البحر ، لأن فيه ما يؤكل غير الصيد ، ويجوز أن يعود الى الصيد ، ويكون المعنى ان الله سبحانه أحل صيده ، وأحل أكله أيضا .

والمراد بالسيارة المسافرون غير المحرمين ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ . أي ان صيد البحر حلال مطلقا ، أما صيد البر فهو حلال في غير الحرم ، وغير حال الإحرام . قال الإمام جعفر الصادق (ع) : لا تستحلن شيئا من الصيد . أي البري . وأنت حرام ، ولا أنت حلال في الحرم ، ولا تدلن عليه محلا ، ولا محرما ، فيصطاده ، ولا تشر اليه ، فيستحل من أجلك ، فان فيه فداء لمن تعمده . ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ . أي اجتهدوا في طاعته وطلب مرضاته ، ليجزيكم يوم الحشر بالإحسان إحسانا .

البيت الحرام الآية ٩٧ . ٩٩ :

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٨) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾

اللغة :

القيام والقوام بمعنى واحد وفعله قام ، والمراد به هنا تأدية العبادة ومناسك الحج .
والهدي ما يذبح في الحرم من الأنعام . والقلائد أي ذوات القلائد لأنهم كانوا يقلدون الهدي بما يدل عليه .

الإعراب :

البيت الحرام بدل من الكعبة . وقياماً مفعول ثان لجعل . وذلك مبتدأ ، والمصدر المنسبك من لتعلموا متعلق بمحذوف خبر ، ويجوز أن يكون ذلك مفعولاً لفعل محذوف ، أي فعلنا ذلك من أجل اعلامكم .

المعنى :

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ . قياماً للناس ، أي محلاً للعبادة ومناسك الحج ، والشهر الحرام جنس يشمل الأشهر الأربعة ، وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وقد حرم سبحانه القتال فيها وفي حرمه إلا دفاعاً عن النفس أو المال ، قال تعالى : ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ . ١٩٠ . البقرة . وقال : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ . ١٩٣ . البقرة .

والهدي ما يهدى إلى الكعبة من الأنعام ، والقلائد الهدي الذي وضعت في عنقه علامة تدل على انه للكعبة ، كي لا يتعرض أحد له. وعلى هذا يكون عطف القلائد على الهدي من باب عطف الخاص على العام ، والقصد من ذكر الهدي مع البيت الحرام والأشهر الحرم ان الهدي يجب أن يكون آمنا هو ومن يسوقه ، لأنه قاصد الحرم الشريف ، بل ان الله سبحانه قد أمّن الطيور والحيوانات ، حرمة ما دامت في حرمة إلا الحدأة . نوع من الطير . والغراب والفأر والعقرب والكلب العقور .. وكل مؤذ في رأينا.

﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. بعد أن بيّن سبحانه حرمة الكعبة والأشهر الحرم والهدي أشار إلى أن الحكمة من هذا التشريع ان يعلم الناس ان الله يعلم تفاصيل الأمور في الأرض والسماء ، ومنها التي تصلح الناس في دينهم وديارهم ، وأية مصلحة أعظم من تأمين الإنسان على حياته وماله ، ولو في وقت من الأوقات ، أو في زمن من الأزمان .. وقد رأينا الدول الكبرى المتطاحنة في هذا العصر تتفق فيما بينها على أن تكون بعض البلاد منطقة محايدة ، لا يجوز للدول المتنازعة أن تشركها في أحلافها العسكرية ، ولا أن تتخذ من أرضها مقرا لقواعدها الحربية ، ولا ممرا لجيوشها المقاتلة.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قرن سبحانه العذاب بالرحمة والمغفرة ليكون العبد خائفا من نعمته ، راجيا لرحمته. لأنه إذا خاف ابتعد عن المعصية ، وإذا رجا اجتهد في الطاعة. قال الرازي . ونعم ما قال . : «ذكر سبحانه أنه شديد العقاب ، ثم عقب بوصف الرحمة والمغفرة ، وهذا تنبيه على دققة ، وهي ان ابتداء الخلق والإيجاد كان لأجل الرحمة ، والظاهر ان الختم لا يكون الا على الرحمة» .. هذا هو الصحيح.

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ ولا يطلب منه أكثر من ذلك ، حيث لا عذر بعد البلاغ لمن أهمل وفرط ، أما الحساب والعقاب فعلى الله وحده : ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾. ٤١ الرعد. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ من الأقوال والأفعال ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾. هذا تهديد لمن يسكت عن الحق ، وبالأولى لمن يتاجر به مستترا باسم الدين والوطنية.

كثرة الخبيث الآية ١٠٠ :

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠٠)

المعنى :

هذه الآية ترادف قوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ . ٢٠ الحشر . وكثرة الخبيث ما يملكه من جاه ومال . والعاقل لا يستوي لديه الخبيث والطيب ، وإن كثر ماله ، واتسع جاهه ، لأن الجاه والمال لا يجعلان الخبيث طيبا ، ولا الفقر وخمول الذكر يجعلان الطيب خبيثا . والرجل الخبيث في مقياس الدين من عصى أحكام الله في كتابه وسنة نبيه ، والخبيث في عرف الناس من يخافون من شره ، ولا يأمنونه على أمر من أمورهم ، ولا يصدقونه في قول أو فعل .. وبديهة إن كانت هذه صفاته فهو خبيث عند الله أيضا ، قال رسول الله : أشرف الإيمان أن يأمنك الناس . أما الطيب فعلى عكس الخبيث في جميع أوصافه .

هل الرزق صدفة أو قدر؟

وتسأل : إذا كان الخبيث مغضوبا عليه عند الله ، والطيب مرضيا لديه تعالى ، فلما ذا ينجح الخبيث في هذه الحياة ، وينعم بالجاه والثراء ، ويرسب الطيب ، ولا يكاد يتحقق له مطلب ، حتى قال من قال : «هذا الذي ترك الأوهام حائرة»؟
الجواب : إن للحياة سننا وقوانين تجري عليها ، ولا تتخطاها بحال ، لأن تصور الفوضى في الكون يرفضه الحس والمشاهدة .. وهذه السنن والقوانين من

صنع الله تعالى ، لأنه هو خالق الطبيعة وما فيها. وبديهة ان قوانين الطبيعة تأتي أن تمطر السماء مالا وصحة وعلم ، وإنما تأتي هذه وأمثالها من طرقها وأسبابها الطبيعية .. فالعلم من التعلم ، والصحة من الغذاء والوقاية ، والمال من العمل ، فمن تعلم علم ، ومن اتقى أسباب الداء سلم ، ومن انتحر مات ، ومن زرع حصدا ، سواء أكان طيبا أم خبيثا ، مؤمنا أم كافرا ، فالطيبة أو الايمان لا ينبت قمحا ، ولا يشفي داء ، ولا يجعل الجاهل عالما .. كل هذه وما أشبه تجري على سنن الطبيعة ، وسنن الطبيعة تجري على مشيئة الله ، ما في ذلك ريب ، لأنه هو الذي جعل التعلم سببا للعلم ، والوقاية سببا من أسباب الصحة ، والزراعة سببا للحصاد .. انه خالق كل شيء ، واليه ينتهي كل شيء.

أجل ، ان لكسب المال سبلا وأبوابا كثيرة ، وقد أحل الله بعضا ، وحرم بعضا ، أحل الله سبحانه التجارة والزراعة والصناعة ، وحرم الربا والغش والرشوة والسلب والنهب والاحتكار والاتجار بالمبادئ فمن يكسب المال من حله ينسب كسبه اليه ، لأنه قد جد واجتهد في طلبه ، وأيضا ينسب إلى الله ، لأنه هو الذي أوجد هذه الأسباب ، وأباحها لكل راغب طيبا كان أو خبيثا ، أما من يكسب المال من غير حله كالربا والسلب فان كسبه ينسب إلى كاسبه ، وإلى الأوضاع التي مهدت له ، ولا ينسب إلى الله ، لأنه تعالى قد حرم هذه السبل على الطيب والخبيث.

وتقول : هذا صحيح ، ولكنه لا يجيب عن السؤال ، ولا يحل المشكلة .. فلقد رأينا كلا من الطيب والخبيث يسلك الطريق المشروع للرزق ، ويطلبه من السبيل الذي أحله الله ، وأمر به ، ومع ذلك يتسع الرزق على الخبيث ، ويضيق على الطيب ، وربما بذل هذا من الجهد أضعاف ما بذله ذاك ، بل قد يأتي الرزق للخبيث من حيث لا يتوقعه ، ولا يؤهله له استعداداه وجهاده .. ويمتنع عن الطيب من حيث يتوقعه ، ويؤهله له جهاده واستعداداه.

الجواب : إن بعض الناس يلجئون في تفسير ذلك إلى الصدفة أو الحظ ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على عجزهم عن التفسير الصحيح ، وإلا لم يلجئوا إلى ما يخبط خبط عشواء ، ويرمي عن غير قصد وتصميم.

لذلك نغني نحن الحظ والصدفة من كل المسئوليات والتبعات .. ونؤمن إيماننا قاطعا بأن هناك إرادة عليا قد تدخلت لأسباب نجهلها ، لأن العلم فيها وفي أمثالها لا يزال في مراحل طفولته ، وجهل العلم بها لا يعني انها غير موجودة .. والذي يؤكد إيماننا هذا قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ . ٧١ النحل . وقوله : ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ . ٢٧ الرعد . وجاءت هذه الآية بنصها الحرفي أحيانا في سورة الإسراء رقم ٣٠ . وفي القصص ٨٢ . وفي العنكبوت ٦٢ . وفي الروم ٣٧ . وفي سبأ ٣٦ و ٣٩ . وفي الزمر ٥٢ . وفي الشورى ١٢ .

ولكن ليس معنى ييسط الرزق ، ويفضل في الرزق ، انه تعالى يمطر من السماء مالا على من يشاء .. كلا ، بل ييسط الرزق من طريقه المعروف المألوف ، ويقدر أيضا عن هذا الطريق ، فيمهد ويوسعه على بعض ، ويجعله عسيرا ضيقا على البعض الآخر .. ولكن لا علاقة بين الضيق في الرزق ، وبين الخبث ومعصية الله ، فلقد كان الرسول الأعظم (ص) يربط على بطنه حجر المجاعة ، وقال موسى : «ربي إني لما أنزلت إليّ من خير فقير» .. وأيضاً لا علاقة بين السعة في الرزق ، وبين الطيبة وطاعة الله ، فقد نادى فرعون في قومه : أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ، أم . أي بل . أنا خير من هذا الذي هو مهين . يشير إلى موسى . ولا يكاد يبين ، فلولا ألقى عليه اسورة من ذهب . ٥٣ الزخرف .

وعلى هذا ، فمن قال أو يقول : إن الله أغنى فلانا لأنه طيب فانه يتكلم بمنطق فرعون ، ويزن بميزان الشيطان .. لقد شاءت حكمته جل ثناؤه أن يثيب على الحسنة ، ويعاقب على السيئة في الدار الباقية ، لا في هذه الدار الفانية ، إن هذه دار أعمال ، وتلك لنقاش الحساب عليها .. هذا ، إلى أن كثرة الخبيث قد تكون وبالاً عليه ، وسبباً لشدة عذابه وعقابه : ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ . ٣ الحجر . ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى هُمْ﴾ . ١٢ محمد .

والخلاصة ان الرزق يستند الى أمرين : السعي وإرادة الله معا ، فمن ترك

السعي عاش كلا على الناس ، ومن سعى رزقه الله من سعيه ان شاء كثيرا ، وان شاء قليلا ، وتكمن هذه الحقيقة في فطرة الإنسان ، ويمارسها تلقائيا ، ودون أن يلتفت إليها .. فالتاجر يسأل الله سبحانه أن يرزقه بروج بضاعته واقبال الناس عليها ، والفلاح يسأله أن ينزل الغيث على زرعه ، ولا يسأله أن ينبت له الزرع بلا غيث ، وها أنا أدعو الله لولدي بالتوفيق في دراسته والنجاح في امتحانه ، ولا أدعوه أن يلهم الجامعة لتقدم له الشهادة بلا دراسة وامتحان .. وفي الأمثال «من سعى رعى» وربما خاب المسعى وطاش السهم .. ومع ذلك ينبغي إحكام التخطيط ، ومضاعفة الجهد ، لأن مضاعفة الجهد ، وإتقان العمل ، والصبر على المشاق سبب لمشئمة النجاح منه جل وعلا.

لا تسألوا عن أشياء الآية ١٠١ . ١٠٢ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)﴾

الإعراب :

قال أبو البقاء : الأصل في أشياء عند الخليل وسيبويه شيئا بهمزتين بينهما ألف ، وهي فعلاء من لفظ شيء ، وهمزتها الثانية للتأنيث ، وهي مفردة في اللفظ ، ومعناها الجمع ، مثل قصباء وطرفاء ، ولأجل همزة التأنيث منعت من الصرف ، ثم ان الهمزة الأولى التي هي لام الكلمة قدمت ، فجعلت قبل الشين كراهية وجود همزتين بينهما ألف ، فصارت أشياء. ونحن لا نؤمن بالتعليلات النحوية والصرفية ، ولا نقلد أهل التفسير فيما يقولون ..

ولكن قد يرغب بعض القراء في معرفة ما قاله النحاة في أشياء ، فروينا له ما روي عنهم ..
والصحيح عندنا ان أشياء ممنوعة من الصرف لأنها وردت كذلك في كتاب الله وعلى لسان
العرب .. ومن المفيد أن نشير الى أن كلمة شيء تطلق على المذكر والمؤنث ، وأنها تجمع
أيضا على أشاوى وأشايا وأشياوات.

المعنى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِن تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾. ان قوله تعالى : ﴿لَا
تَسْأَلُوا﴾ يومئ الى أن بعض الصحابة كانوا يلحفون في الاستفسار عن أمور لا ضرورة
لكشفها ، وربما أدى الجواب عنها الى ما يسوء السائلين. وفي رواية : ان رجلا قال للنبي
(ص) : من أي؟ قال له : أبوك فلان. فقال آخر : يا رسول الله ابن أي؟. قال : في النار.
فنزلت الآية. وفي رواية ثانية : ان النبي قال : كتب الله عليكم الحج ، فحجوا ، فقالوا : أفي
كل عام يا رسول الله؟ فسكت. فأعادوا السؤال ، فقال : لا. ولو قلت : نعم لوجبت.
فنزلت الآية. وهذه الرواية أرجح من تلك لقوله تعالى :

﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَ لَكُمْ﴾. أي لا تتكلفوا السؤال عن أشياء الا
بعد أن ينزل فيها القرآن ، فمتى ابتدأكم ، واقتضى الأمر الشرح والتوضيح سألتكم النبي (ص)
فييدي لكم ما سألتكم عنه. وبهذا يتضح ترجيح رواية السؤال عن الحج في سبب النزول على
رواية السؤال عن آباء الصحابة وسلفهم ، لأن القرآن يبتدأ النزول بالعقيدة والشريعة ، ولا
يبتدئ بآباء الصحابة وسلفهم. وفي الحديث : «ان الله حدد حدودا فلا تعتدوها ، وفرض
لكم فرائض فلا تضيعوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وترك أشياء في غير نسيان ، ولكن
رحمة منه بكم فاقبلوها ، ولا تبحثوا عنها».

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾. أي عن مسألكم السابقة ، فلا تعودوا إلى مثلها. وقيل : عفا الله
عنها ، أي أمسك وكف عن ذكر الأشياء التي سألتكم عنها ، فكفوا أنتم ، ولا تتكلفوا
السؤال عنها ، وكل من التفسيرين محتمل ، لا ياباه ظاهر

اللفظ. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يصفح عن المخطئ إذا رجع عن خطأه.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾. بعد أن نهاهم سبحانه عن السؤال عن أشياء هم في غنى عنها ضرب لهم مثلاً بمن كان قبلهم ، سألوا وشددوا على أنفسهم بالسؤال ، ولما بين الله لهم كرهوا وتمردوا فاستحقوا العذاب ، ولو تركوا السؤال لكان خيراً لهم .. وقد أطل المفسرون الكلام في بيان المراد من القوم الذين سألوا ثم أصبحوا كافرين بسبب السؤال ، ولكن الآية أبهمت ولم تبين .. ومع ذلك لنا أن نقول : إن القوم الذين سألوا وكفروا هم بنو إسرائيل لقوله تعالى حكاية عنهم : ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾. ١٥٢ النساء.

لا بحيرة ولا سائبة الآية ١٠٣ . ١٠٥ :

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فِئْتَبَتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾

الاعراب :

من بحيرة (من) زائدة ، وبحيرة مفعول جعل التي هي بمعنى شرع.

وحسبنا مبتدأ ، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل ، أي كافينا ، والخبر ﴿مَا وَجَدْنَا﴾ . و ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ اسم فعل بمعنى احفظوا ، وأنفسكم مفعول .

المعنى :

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ . البحيرة بفتح الباء الناقة المشقوقة الأذن ، وكان أهل الجاهلية يفعلون بها ذلك إذا أنتجت عشرة أبطن ، وقيل : خمسة ، ويدعوها لا ينتفع بها أحد . والسائبة الناقة يندرونها للآلهة ، ويتركونها ترعى حيث تشاء ، لا قيد لها ، ولا راعي عليها ، تماما كالبحيرة . والوصيلة الشاة تلد ذكرا وأنثى معا ، وقد كان من عادتهم إذا ولدت ذكرا يجعلونه للآلهة ، وإذا ولدت أنثى فهي لهم ، وإذا ولدتهما معا لم يذبحوا الذكر ، ويقولون : وصلت أخاها . والحامي الفحل يولد منه عشرة أبطن فيدعونه لا يمنع من ماء ولا مرعى ، ويقولون : حمى ظهره .

وقد بين سبحانه أن ذلك ليس من دينه في شيء ، وإن الفحل والناقة والشاة يفعلون بها ما يفعلون تبقى على الحل ، كما كانت من قبل ، ولا تحرم بهذه الأباطيل والأساطير .

﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ . كان أهل

الجاهلية يعترفون بوجود الخالق بدليل أنهم نسبوا إليه تحريم الحامي والسائبة والبحيرة والوصيلة ، ومع ذلك فقد نعتهم الله بالكفر ، لأنهم نسبوا إليه التحريم كذبا وافتراء . وعليه فكل من نسب إلى الله ما لا دليل عليه من كتابه أو سنة نبيه فهو كافر ، شريطة أن يعتمد النسبة مع علمه بعدم الدليل ، ويسمى هذا بلسان أهل الشرع بدعة ، وفي الحديث : «كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار» . والحق أن هذا الافتراض بعيد الوقوع ، ومن الذي ينسب إلى الله حكما من الأحكام ، مع علمه بعدم الدليل عليه؟ .. أجل ، قد يظن الشيء دليلا ، وما هو بدليل .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا

عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولُو كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ». قال الرازي : «المعنى معلوم ، وهو رد على أصحاب التقليد». وتكلمنا مفصلا عن التقليد عند تفسير الآية ١٧٠ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٥٩.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. ذكر الرازي ثمانية أوجه لتفسير هذه الآية ، وكتب بعض المفسرين الجدد ٣٣ صفحة عند تفسيرها .. والذي دعا هذين ، وغيرهما من المفسرين إلى التطويل والتأويل هو ان الأمر بالمعروف واجب ، وظاهر الآية يدل على عدم وجوبه ، وان على المرء أن يهتم بنفسه لنفسه ، أما غيرها من الأنفس فصاحبها وحده هو المسئول عنها ، ولا يجب على أحد رده ولا إرشاده.

والصحيح في تفسير الآية ان على المرء أن يأمر بالمعروف ، فان نفع أمره فذاك هو المطلوب ، وإلا فقد أدى الأمر ما عليه ، ولا يضره ضلال من ضل ، والمسئول بعد الأمر هو الضال ، وليس الأمر .. وهذا التفسير يؤكد وجوب الأمر بالمعروف ولا ينفيه.

في اثبات الوصية الآية ١٠٦ . ١٠٨ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ غُبِرَ عَلَى أَحَدِهِمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ

لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يَأْتُوا
بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴿

اللغة :

ضربتم في الأرض سافرتم. وتحبسوهما تمنعوهما من الهرب. وارتبتم شككتكم في
صدقهما. وعثر على الشيء اطلع عليه.

الإعراب :

شهادة مبتدأ ، وخبره اثنان على حذف مضاف ، أي شهادة بينكم شهادة اثنين.
وذوا عدل صفة لاثنين. ومنكم متعلق بمحذوف صفة للعدلين. ولا نشترى به الضمير في
(به) يعود الى القسم بالله ، وجملة لا نشترى جواب يقسمان بالله. وجواب ان ارتبتم محذوف ،
، والتقدير ان ارتبتم فاحبسوهما. ولو كان ذا قرى اسم كان محذوف ، وجواب لو محذوف ،
والتقدير ولو كان المشهود له ذا قرى لم نشتر به ثمنا. فآخران خبر لمبتدأ محذوف ، أي
فشاهدان آخران ، أو فاعل لفعل محذوف ، أي فليشهد آخران. والأوليان تننية الأولى بمعنى
الأحق أي الأحقن بالميت ، وهما أي الأوليان فاعل استحق ، وقيل : خبر لمبتدأ محذوف ،
أي هما الأوليان. والمصدر المنسبك من أن يأتوا مجرور بإلى محذوفة متعلق بأذن. وعلى وجهها
متعلق بمحذوف حالا من الشهادة.

المعنى :

هذه الآيات الثلاث من آيات الأحكام ، وتدخل في باب الوصية والشهادة ،

وفيها الأحكام التالية :

١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾. يريد جلت عظمته ان من أحس بدنو أجله ، وأراد أن يوصي بما أحب استحضر عدلين من المسلمين ، وأشهدهما على وصيته .. وتجدد الإشارة إلى أن الوصية مستحبة ، ولا تجب إلا على من كان عليه حقوق لله أو للناس ، وظهرت له دلائل الموت ، وخاف ضياعها من بعده.

٢. ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَرَرْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكُفُّكُمْ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَمِينِ﴾. قال الشيعة الإمامية والحنابلة : إذا أوصى رجل مسلم في السفر ، ولم يكن أحد من المسلمين عنده فله أن يشهد اثنين من أهل الكتاب ، على أن يستحلفا بعد الصلاة بين جمع من الناس إنهما ما خانا ، ولا كتما ، ولا اشتريا بشهادتهما ولا بقسمهما ثمنا قليلا ، وعندها تقبل شهادتهما كما تقبل من المسلمين ، وتجب عليهما اليمين مع الشك في صدقهما ، أما الأمين فلا يمين عليه. لقوله تعالى : ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾. هذا ما أفتى به الإمامية والحنابلة معتمدين على هذه الآية ، وقال أبو حنيفة ومالك والشافعي : لا تقبل شهادة غير المسلم على المسلم بحال ، وأولوا الآية بمعنى آخر ، وقال المالكية والشافعية : لا تقبل شهادة غير المسلمين إطلاقا ، ولو كانت من بعضهم على بعض. (المغني باب الشهادات).

٣. ﴿فَإِنْ غُيِّرَ عَلَى أَكْثَرِهِمَا اسْتَحَقَّ إِنْهَا فَاخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾. جاء في صحاح الشيعة والسنة ان هذه الآية نزلت في ثلاثة نفر خرجوا في سفر للتجارة ، أحدهم مسلم والآخران من النصارى ، وفي الطريق تمرض المسلم ، وأحس بدنو أجله ، فكتب وصيته وذكر فيها كل ما يحمل معه ، ودسها في بعض متاعه ، دون أن يعلم صاحباه بذلك ، ثم أوصى اليهما أن يدفعوا متاعه الى أهله ، ولما مات أخذوا شيئا منه ، ودفعوا الباقي الى أهله.

ولما عثر أهله على وصيته رأوا فيها ذكر الشيء الذي أخذه ، فسألوهما

فأنكرا ، وقالوا ما دفعه إلينا دفعناه إليكم ، وحلفا على ذلك .. وبعد حين رأى أهل الميت ذاك الشيء مع ثالث ، فقالوا : من أين لك هذا؟ قال : اشتريته من فلان وفلان ، أي من المتهمين ، فترافعوا الى النبي (ص) .. وقيل : ان المتهمين حين فوجئوا بذلك قالوا : اشتريناه منه. فنزل قوله تعالى : ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَثَمَآ﴾ الخ. والمعنى فان ظهرت أمارات تستدعي الريبة بالمتهمين فالواجب حينئذ أن يقوم رجلان من ورثة الميت ، ويحلفا بالله انهما أصدق من المتهمين ، وأن يقولوا في اليمين : وما اعتدينا أنا إذا لمن الظالمين ، وبعد الحلف يحكم على المتهمين.

وتسأل : لقد طال كلام المفسرين وتضارب حول قوله تعالى : ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولِيَّانِ﴾ حتى نقل عن بعض القدماء انه قال : هذه أشكل جملة في كتاب الله من حيث التركيب ، فما هو القول الصحيح في تفسيرها؟.

الجواب : ان الذي أوقع المفسرين في الارتباك هو ان ضمير (عليهم) إلى من يعود؟ والذي نراه انه يعود الى ورثة الميت ، لأن ما كان مستحقا عليه من الديون ونحوها يصير بعد موته مستحقا على ورثته ، وعليه يكون المعنى يلحف اثنان من الذين وجب عليهم ما كان واجبا على مورثهم ، والسياق يؤكد هذا ، لأن الآخرين اللذين يقومان مقام المتهمين في اليمين لا بد أن يكونا من ورثة الميت باتفاق المفسرين ولا يجوز أن يكونا من غيرهم بحال ، اذن ، يتعين أن يكون ضمير (عليهم) عائدا اليهم بالذات.

﴿ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾. ذلك إشارة إلى الحكم السابق ، وقوله : ﴿أَذْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا ..﴾ الخ) بيان لعلة الحكم ، أي ان القصد مما شرعناه أن لا يحرف الشهود شهادتهم ، ويحلفوا اليمين الكاذبة ، أو يمتنعوا عن اليمين بالمرّة خوفا أن ترد. بعد الحلف . على الورثة.

وتسأل : إن الله سبحانه حين بيّن الحكم ثنّى ، وقال : شهادتهما .. ويقسمان. وحين أشار إلى علة الحكم جمع ، وقال : أن يأتوا بالشهادة ، فما هو الوجه؟ الجواب : إن الشهود أربعة ، اثنان يشهدان ابتداء ، واثنان يقومان مقامهما إذا ظهر الإثم على الشاهدين الأولين .. هذا ، إلى أن المفروض في علة الحكم

أن تكون عامة تشمل المورد المذكور وغيره.

الرسل ويوم الجمع الآية ١٠٩ . ١١١ :

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أُوحِيتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (١١١)﴾

اللغة :

روح القدس جبريل. والأكمه من ولد أعمى ، ويطلق أيضا على من عمي بعد الولادة. والحواريون جمع حواري ، وهو من أخلص في المودة.

الاعراب :

يوم يجمع (يوم) منصوب بفعل محذوف ، أي اتقوا يوم يجمع. وما ذا كلمة واحدة بمعنى أي شيء ، وهي هنا مجرورة بحرف جر محذوف ، أي بأي شيء أجبتكم؟ وإذ قال بدل من يوم يجمع. ويجوز أن يكون على ألف عيسى

فتحة إذا أعرب ابن مريم صفة له ، ويجوز أن يكون عليها ضمة إذا أعرب ابن بدلا من عيسى ، لا وصفا. وفي المهد متعلق بمحذوف حالا من ضمير تكلم ، وكهلا عطف على الحال المحذوف ، أي كائنا في المهد وكهلا. وإن آمنوا (ان) للتفسير بمعنى أي.

المعنى :

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾. قال الرازي : «إن عادة الله تعالى جارية في كتابه الكريم انه إذا ذكر أنواعا من الأحكام أتبعها إما بالإلهيات وإما بشرح أحوال الأنبياء ، وإما بشرح أحوال القيامة ، ليصير ذلك مؤكدا لما تقدم .. ولما ذكر هنا أحكاما من الشريعة اتبعها أولا بوصف أحوال القيامة ، ثم أحوال عيسى».

والمشهد الذي ذكره هنا سبحانه مشهد رهيب ، يحشر فيه الخلائق للحساب والمحكمة قبل صدور الحكم بالعمى أو الادانة .. انه تعالى يجمع رسله الذين كان قد فرقهم ووزعهم في محافظات وأقاليمه وقراه .. وبديهة ان قراه تعالى وأقاليمه غير قرانا وأقاليمنا .. انها الأمم والأجناس والأقوام ، ثم يجابه كل أمة وكل قوم برسولهم ويقول له : ما ذا قال لك هؤلاء؟ .. يريد بهذا السؤال أن يلقي الحجة على عباده ، ويمهد للحكم وحديثاته. ويجب الأنبياء في هذا المشهد : ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ومن علم الغيوب فلا تخفى عليه الظواهر.

وتسأل : إن الأنبياء يعلمون من جحد رسالتهم ، وحاربهم من أجلها في حياتهم ، فما هو الوجه لقولهم : لا علم لنا؟.

الجواب : ليس المراد من قولهم هذا نفى العلم إطلاقا ، بل المراد ان علمهم ليس بشيء في جانب علمه تعالى ، لأنهم يعلمون من أمتهم ما أظهروا وهو يعلم ما أظهروا وأضمر.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾. بعد أن استجوب

سبحانه أنبياءه بكلمة موجزة ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ خص عيسى (ع) من

بينهم بخطاب مطول ومفصل يذكره فيه بنعمته عليه وعلى والدته ﴿إِذْ أَيْدَتْكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل ﴿تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ﴾ تنزيها لأمك من كل شبهة ﴿وَكَهْلًا﴾ أي ان كلامه في المهدي كان مثل كلامه ، وهو كهل ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ قيل المراد به الخط لأن الكتاب مأخوذ من الكتابة ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ الشريعة ﴿وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾. مر تفسير نظيره في الآية ٤٩ من سورة آل عمران. وكرر سبحانه بإذني أربع مرات للتأكيد على ان الخلق والأحياء والإبراء من الله ، لا من سواه ، وانما أظهر سبحانه هذه الأفعال على يد عيسى (ع) لتكون دليلا على صدقه ونبوته.

عيسى ونبوة الأطفال :

قد يظن أو يموه ان عيسى (ع) نبي صغير .. لأنه تكلم في المهدي ، أي في حجر أمه ، وهذا جهل أو تدليس .. لأن عيسى إنما تكلم في المهدي تبرئة لأمه من قول الآثمين ، لا لأنه رسول من المرسلين .. وإذا كان الله قد أسقط التكليف الخفيف عن الصبيان فهل يكلفهم بالأحمال والأثقال؟ .. ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ . ٥ المزمّل . ومن يسمع له ويطيع ، وهو في المهدي؟. وهل تقوم الحجة لله على عباده بطفل رضيع؟ وأين التعاليم التي بلّغها للناس عن الله ، وهو يلتقم ثدي أمه؟.

إن الأناجيل المعتبرة عند النصارى تنص على ان عيسى بعث في سن الثلاثين ، فقد جاء في إنجيل لوقا الفصل الثالث رقم ٢٣ ما نصه بالحرف : «ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة». وفي شروح على الأناجيل المقدسة المطبوعة مع الأناجيل الأربعة في المطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٣٨ ص ٥١٩ ما نصه بالحرف : «ذكر الانجيلي ان عمر المسيح كان ثلاثين سنة لما ابتدأ حياته العلنية والبشارة بملكوت الله». وفي بعض كتب المسلمين ما يؤيد ذلك.

وغريبة الغرائب أن تقول أناجيل النصارى : إن دعوة عيسى (ع) ابتدأت

في سن الثلاثين ، ثم يقول انتهازي محترف متزلفا إلى وجوه النصارى ، يقول هذا المتزلف :
«ان عيسى (ع) نبيء طفلا صغيرا ، على العكس من محمد (ص) الذي بعث بعد الأربعين^(١) ويستدل على افتراءه هذا بأن عيسى تكلم في المهدي بنص القرآن ... متجاهلا أنه إنما تكلم تبرئة لأمه الصديقة الطاهرة ، لا ليبلغ رسالة الله إلى عباده ، وهو متعلق بالثدي.

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. جاء في خطبة من خطب نهج البلاغة : «كان عيسى يتوسد الحجر ويلبس الخشن ، ويأكل الجشب ، وكان أدامه الجوع ، وسراج به بالليل القمر ، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها ، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم ، ولم تكن له زوجة تفتنه ، ولا ولد يحزنه ، ولا مال يلفته ، ولا طمع يذله ، دابته رجلاه ، وخادمه يداه».

ومع هذا لم يسلم من اليهود ، فحاولوا قتله ، ووصفوه بالكذب والسحر ، وألصقوا بأمه العار ، لا لشيء إلا لأنه نطق بالحق ، ودعاهم إليه ، وأمرهم به .. ولا يختص هذا باليهود ، فإن كثيرا من الناس ينصبون العدا لمن يرشدكم إلى الخير ، ويتمنى لهم الهداية.

﴿وَإِذْ أُوحِيتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. يطلق الوحي على معان ، منها الإلهام ، كما في قوله تعالى : ﴿وَأُوحِيَ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾. ٦٨ النحل. وقوله : ﴿وَأُوحِينَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ﴾. ٧ القصص. وهذا المعنى هو المراد بقوله : (أوحيت إلى الخواريين).

وتسأل : لما ذا ذكر الله سبحانه عيسى بنعمه عليه من دون الأنبياء ، مع ان فضله ونعمه عليهم لا يبلغها الإحصاء؟

الجواب : ان الله سبحانه أجمل الخطاب مع الرسل ، وفصله مع عيسى لأن

(١). أراد هذا المتزلف أن يفضل عيسى على محمد بطرف خفي .. ولكن للذين شاهدوا محمدا عرفوا من هو؟. انظر فقرة بين حورايي محمد وحورايي عيسى عند تفسير الآية التالية ١١٣ .

أتباعه غالوا فيه ، أما اتباع غيره فلم يدعوا الالهية لنبیهم ، فجاء التفصيل لاقامة الحجة على الغلاة.

مائدة السماء الآية ١١٢ . ١١٥ :

﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِثُونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)﴾

الإعراب :

إذ قال (إذ) ظرف متعلق بفعل محذوف ، أي أذكر إذ قال. والمصدر المنسبك من أن ينزل مفعول يستطيع. وان صدقتنا (ان) مخففة من الثقيلة ، واسمها محذوف ، أي انه. ولنا عيد (لنا) متعلق بمحذوف حال. وعيدا خير تكون ، والجملة في محل نصب صفة لمائدة. لأولنا بدل من لنا. وأعذبه الضمير يعود إلى من يكفر. وعذابا مفعول مطلق بمعنى التعذيب. ولا أعذبه على حذف حرف الجر ، أي لا أعذب به أحدا ، وعليه يكون الضمير عائدا إلى العذاب.

المعنى :

لقد كثر الكلام حول المائدة وطلابها : هل كانوا مؤمنين أو مشككين؟ وهل نزلت المائدة بالفعل ، أو انها لم تنزل ، لأن الحواريين عدلوا عن طلبها بعد أن هددهم الله بقوله : «فمن كفر منكم فاني معذبه عذابا لا أعذبه أحدا». ومع افتراض نزولها فعلى أية حال نزلت؟ وما هي أصنافها وألوانها؟ ثم هل مسخوها بعدها قردة وخنازير ، لأن بعضهم سرق منها؟ .. إلى غير ذلك من القول على الله من غير علم.

ونقف نحن في حديثنا عن هذه الآيات الأربع عند مدلول كلماتها وما يتصل به.

الآية الأولى : (إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين). وتومئ هذه الآية إلى أن الحواريين ما كانوا مؤمنين بعيسى عند ما طلبوا منه هذه المائدة ، لأنهم في غنى عنها مع التصديق والتسليم ، والذي يؤكد ذلك قولهم : (هل يستطيع ربك) فانه يشعر بالتشكيك في قدرة الله .. مع ان الآية السابقة قد شهدت لهم بالايان (وإذ أوحيت إلى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا) .. هذا ، إلى أن لفظ الحواريين يدل بنفسه على إيمانهم بعيسى وإخلاصهم له ، فما هو وجه الجمع بين الآيتين؟

وأجاب كثير من المفسرين بأن سؤالهم هذا لا يتنافى مع إيمانهم ، لأن القصد منه الايمان عن طريق الحس والعيان بعد الايمان عن طريق العقل والبرهان ، وبكلمة القصد تقوية الايمان وتثبيته ، تماما كما قال ابراهيم الخليل (ع) : «ولكن ليطمئن قلبي» .. وقد أفصح الحواريون عن هذا القصد بدلالة قوله في الآية الثانية : «وتطمئن قلوبنا» جوابا على قول عيسى لهم : «اتقوا الله إن كنتم مؤمنين». أما قولهم : «هل يستطيع ربك» فمعناه هل يستجيب ربك إن سألته أن ينزل علينا مائدة السماء.

الآية الثانية : (قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم ان قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين). يريدون أن يأكلوا ليؤمنوا ويعلموا ، أو يريدون أن يأكلوا ليقوى ويرسخ الايمان في قلوبهم ، والعلم في عقولهم ، كما قدمنا ، ثم

يخبروا من لم يحضر المائدة من قومهم ، فيؤمن الجاحد ، ويطمئن المؤمن . وإن لم يأكل .

بين حوار محمد وحواري عيسى :

كان لمحمد (ص) حواريون ، كما كان لعيسى (ع) ، ولأي نبي من الأنبياء ، ولكن صحابة محمد ما سألوه أن يطعمهم من جوع بآياته ومعجزاته كما فعل أصحاب عيسى الذين قالوا له : نريد أن نأكل منها ، ولا أن يؤمنهم من خوف كما فعل أصحاب موسى ، بل قالوا له في بعض معاركه بلسان المقداد بن الأسود : «امض يا رسول الله لما أراك الله ، فنحن معك ، ولا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون ، ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ، فو الذي بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه ، حتى تبلغه» .

وكانوا يتساقطون شهداء بين يديه ، وهم يقولون : فزنا ورب الكعبة ، وروى عنهم التاريخ في ذلك ما يشبه الأساطير . قاتل عمارة بن يزيد يوم أحد ، حتى أثخنه الجراح ، ولما أيقن بالموت رمى برأسه على قدمي رسول الله ، ولم يرفعه ، حتى فارق الحياة سعيدا بهذه الخاتمة .

وسقط سعد بن الربيع شهيدا في أحد ، فقال لأحد أصحابه : قل لرسول الله يقول لك سعد بن الربيع : جزاك عنا خير ما جرى نبيا عن أمته ، وابلغ قومك عني السلام ، وقل لهم : ان ابن الربيع يقول لكم : انه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ، ومنكم عين تطرف .

وكان عمرو بن الجموح أعرج ، وأراد الخروج مع النبي إلى حرب أحد ، فحاول أولاده أن يمنعوه من الخروج ، فاشتكى لرسول الله ، وقال : اني أرجو أن أعرج الليلة إلى الجنة ، فأذن رسول الله له ، وقتل هو وأولاده الأربعة ، وشقيق زوجته ، فجاءت أرملته بعد المعركة ، وحملت زوجها وأخاها وأولادها الأربعة على جمل ، وذهبت بهم إلى المدينة ، فقابلتها النساء يسألنها عن الأخبار .

قالت : أما رسول الله فبخير ، وكل مصيبة بعده تهون. فسألنها : وما هذه الجثث؟ قالت : هؤلاء أولادي وزوجي وأخي أكرمهم الله بالشهادة ، وأحملهم لأدفنهم. هذه أمثلة نقدمها للدلالة على مدى الفرق بين حواربي محمد ، وحواريي غيره من الأنبياء. ولا نبالغ إذا ما قلنا : ان ما من نبي على الإطلاق ظفر بما ظفر محمد رسول الله (ص) من أصحاب صدقوا ما عاهدوه عليه. أما السر فيكم في شخصيته ، وعظمته رسالته.

الآية الثالثة : (قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين). لما رأى عيسى منهم الإصرار ، وعلم أنهم لا يقصدون العنت والتعجيز دعا الله سبحانه بدعاء العبد الخاضع المتضرع لسيدته ، مناديا : يا ربنا .. ومنك .. وانت .. الخ دفعا لكل شبهة وتكذيبا لكل زاعم ان لعيسى فيها يدا ، وانها من صنعه ، لا من صنع الواحد الأحد .. والمراد بالآية المعجزة ، وبالعيد الفرحة والسرور.

الآية الرابعة : (قال الله اني منزلها عليكم فمن كفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين). استجاب سبحانه لتضرع عيسى ليزداد أصحابه ثقة به ، وإيماننا بنبوته ، وتلزمهم الحجة إذا خالفوا ، ويستحقوا أشد العقاب الذي لا يعاقب الله به أحدا ممن جحد وكفر ، لأنهم هم الذين اقترحوا المائدة ، وطلبوها بالذات ، ومن استجيب الى طلبه تقوم عليه الحجة وتنقطع منه كل معذرة إذا خالف ونكص.

عيسى والناس الآية ١١٦ . ١١٨ :

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْتِنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ

لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ
الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا
دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ
تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

اللغة :

تستعمل النفس في معان ، منها ما به حياة الإنسان والحيوان ، وهي التي عناها الله
بقوله : «كل نفس ذائقة الموت». ومنها ذات الشيء ، مثل هذا هو نفسه. ومنها الغيب ،
تقول : انا أعلم نفس فلان ، أي غيبه ، وهذا هو المقصود من النفس في الآية ، أي تعلم ما
أخفيه في نفسي ، ولا أعلم ما تخفيه من علومك.

الإعراب :

اتخذوني تتعدى الى مفعولين ، لأنها بمعنى صيروني ، والمفعول الأول الياء ، والثاني إلهين
، وأمي مفعول معه. ومن دون الله متعلق بمحذوف صفة لإلهين. وقال صاحب مجمع البيان
: من زائدة هنا. وهذا اشتباه لأن من تزداد بعد النفي ، ولا نفي هنا. والمصدر المنسبك من
ان أقول اسم يكون ، ولي متعلق بمحذوف خبرا ليكون. وبحق الباء زائدة وحق خبر ليس ،
واسمها ضمير مستتر يعود الى ما. والمصدر المنسبك من ان اعبدوا الله بدل من ضمير (به).
ولا يجوز أن تكون (ان) هنا مفسرة لأن حروف القول قد صرح بها. وأنت ضمير فصل لا
محل له من الإعراب.

المعنى :

(وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله).
ان الله سبحانه لم يقصد بهذا السؤال عيسى بالذات ، لأنه يعلم ما قال عيسى للناس ، وإنما قصد به اقامة الحجة على من ادعى لعيسى وأمه هذه الدعوى الكافرة (قال سبحانه) أنت منزّه عن الشريك (ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق) لأنه نبي ، والنبي معصوم عن الزلل ، وقد بعث لمحاربة الشرك ، والدعوة إلى التوحيد ، فكيف يدعي الألوهية لنفسه ، ويدعو الناس لعبادته.

﴿إِنْ كُنْتَ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ

الْغُيُوبِ﴾. استشهد على براءته من شركهم بعلم الله ، وكفى به شاهدا.

(ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم). جاء في إنجيل متى الفصل الرابع ما نصه بالحرف :

«حينئذ خرج يسوع الى البرية من الروح ليجرب من إبليس ، فصام أربعين يوما وأربعين ليلة ، وأخيرا جاع فدنا اليه المجرب . أي إبليس . قائلا ان كنت ابن الرب فمر أن تصير هذه الحجارة خبزا ، فأجاب قائلا مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله ، حينئذ أخذه إبليس الى المدينة المقدسة وأقامه على جناح الهيكل وقال له : ان كنت ابن الله فألق بنفسك إلى أسفل لأنه مكتوب انه يوصي ملائكته بك فتحملك على أيديها لئلا تصدم بحجر رجلك فقال له يسوع : مكتوب أيضا لا تجرب الرب إلهك ، فأخذه إبليس أيضا الى جبل عال جدا وأراه جميع ممالك العالم ومجدها ، وقال له : أعطيك هذه كلها ان خررت ساجدا لي ، حينئذ قال له يسوع : اذهب يا شيطان».

هل يصوم الإله؟ ولمن يصوم؟ وهل يجوع ، وهو الرزاق؟ وكيف يجربه إبليس ، وهو علّام الغيوب؟ وكيف استطاع حمله ينتقل به من جبل الى جبل وهو خالقه ، وخالق الكون بكامله؟.

(إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم). جاء في بعض التفاسير ان قول عيسى (ع) لله جل وعز : (ان تعذبهم فإنهم عبادك) يومئذ إلى أن عيسى طلب لهم من الله المغفرة بتأدب ورجاء ، لأن قوله : فإنهم عبادك ، يتضمن هذا الطلب ، تماما كما تقول لمن أراد القسوة على ولده : انه ولدك. أي ارفق به .. ولكن بعض المتزمتين أبى إلا أن يتمحل ويقول : «ان المعنى ان تغفر لهم بالتوبة».

ونجيب هذا القائل بأن المغفرة مع التوبة لا تحتاج إلى شفاعاة ووساطة ، لأن الله قد كتبها على نفسه لكل تائب .. ثم أي مانع يمنع عيسى ومحمدا أن يطلبوا من الله الرحمة والمغفرة لعباده ، فقد طلبها ابراهيم من قبل لمن عصاه : ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . ٣٦ ابراهيم». هذا ، إلى أن العفو عن المسيء حسن على كل حال : ﴿أَمْهُمْ يَغْفِرُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ . ٣٢ الزخرف».

صدق الصادقين الآية ١١٩ . ١٢٠ :

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ هُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)﴾

الاعراب :

هذا مبتدأ ، ويوم خبر ، والجملة مفعول قال ، وجملة ينفع مجرورة باضافة يوم ، ويجوز نصب يوم على انه ظرف متعلق بمحذوف ، والمحذوف خبر هذا ، والتقدير هذا واقع يوم ينفع.

المعنى :

(قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً). بعد أن حكى عن عيسى انه قال لقومه : (اعبدوا الله ربي وربكم) ، بعد هذا عقب بالثناء على الصادقين بوجه العموم ، وان من صدق في هذه الحياة ينتفع بصدقه في الحياة الثانية ، ويجازى بجنات تجري من تحتها الأنهار ، وفي هذا التعقيب شهادة منه تعالى بصدق عيسى في أقواله وأفعاله ، وانه أدى رسالة ربه على وجهها الأكمل ، وان من كفر وأشرك فعليه وحده تقع التبعة والمسئولية.

(رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم). ورضى الله عن عبده جنات ونعيم ، ومقام كريم ، ورضى العبد عن ربه أن يفرح بما آتاه الله من فضله. قال الرازي : «في رضى الله أسرار عجيبة تحرس الأقلام عن مثلها ، جعلنا الله من أهلها». ولن يكون أحد من أهلها إلا بعد أن يدفع الثمن ، والثمن أن يكون شعار المشتري «لا إله إلا الله» في كل شيء ، أي أن لا يغضبه في شيء ، حتى ولو قرض بالمقاريض ، ونشر بالمناشير ، تماماً كما قال سيد الكونين : إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، وكما قال سبطه الحسين الشهيد : رضى الله رضانا أهل البيت ، نصبر على بلائه ، ويوفينا أجور الصابرين. (لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير. ومن كانت له هذه المقدرة ، وهذا الملك أعطى من يرضى عنه بغير حساب.

سورة الأنعام

سورة الأنعام ١٦٥

آية مكية ، ما عدا بضع آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خلق السموات والأرض الآية ١ . ٣ :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِرَبِّهِمْ يُعَذِّبُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ
(٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)﴾

اللغة :

للعدل معان شتى ، تختلف باختلاف الموارد ، تقول : عدل القاضي في حكمه ، أي
لم يظلم المحكوم عليه ، وعدلت الشيء فاعتدل ، أي قومه فاستقام ، وعدلت عنه ، أي
أعرضت ، وعدلت به غيره ، أي جعلته مساويا له ، وهذا المعنى هو المراد من قوله تعالى :
﴿بِرَبِّهِمْ يُعَذِّبُونَ﴾. والأجل الوقت المضروب. وقضاء الأجل انتهاءؤه ، والمرية والامتراء الشك.

الإعراب :

خلقكم من طين على حذف مضاف ، أي خلق أصلكم ، وأجل مبتدأ ، ومسمى صفة له . وعنده متعلق بمحذوف خبرا للمبتدأ . وهو مبتدأ أول ، والله مبتدأ ثان ، وجملة يعلم خبر المبتدأ الثاني ، والجملة منه ومن خبره خبر المبتدأ الأول . وفي السموات والأرض متعلق بيعلم .

المعنى :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾. هذه الآيات الثلاث من الآيات الكونية الدالة على وحدانيته وعظمته ، وتشير الآية الأولى الى خلق السموات والأرض ، والظلمات والنور ، والثانية الى خلق الإنسان وبعثه بعد الموت ، والثالثة إلى علم الله واحاطته بكل شيء .

ومعنى الحمد الثناء ، وقوله تعالى : الحمد لله يريد به التعليم ، أي قولوا يا عبادي الحمد لله ، والثناء على الله حسن على كل حال ، حتى عند الضراء ، لأنه أهل للتقديس والتعظيم .. فان أصابتك مصيبة ، وقلت عندها : الحمد لله فإنك تعبر بذلك عن صبرك على الشدائد ، وإيمانك القوي الراسخ الذي لا يزعه شيء ، ويتأكد حسن الحمد ورجحانه عند السراء ودفع البلاء ، لأنه شكر لله على ما أسبغ وأنعم .

ووصف الله سبحانه نفسه بخالق السموات والأرض والظلمات والنور لينبه العقول إلى أنه لا شريك له في الخلق والألوهية ، فيكون هو وحده الجدير بالحمد والإخلاص له في العبودية ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ . ومحل التعجب والغرابة ان هذا الكون العجيب بأرضه وسمائه ، وهذه البيئات الواضحة ، والدلائل القاطعة لم تخترق ذاك الظلام الكثيف على عقل المشرك وقلبه الذي أعماه عن الحق ، وصور له ان لله مساويا في استحقاق الحمد والعبادة .

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾. أي خلق أصلكم ، وهو آدم ، وآدم من تراب وماء ، أو خلق مادة كل فرد من البشر من طين ، لأنه من لحم ودم ،

وهما من النبات ولحم الحيوان المتولد من النبات ، والنبات من الطين ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾. للقضاء معان ، منها الحكم والأمر : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي أمر .. ومنها الإخبار والإنهاء : ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي انهينا. ومنها الحتم الذي لا مفر منه : ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وهذا المعنى هو المراد هنا.

والله سبحانه قضى لكل فرد من عباده أجلين : أحدهما ينتهي بموته ، وبعده يعرف كم عاش. وثانيهما لإعادته وبعثه بعد الموت ، وعلم هذا عند الله وحده ، ولا يطلع عليه أحدا من خلقه ، كما دلت على ذلك كلمة عنده. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُمْتَرُونَ﴾. أي تشكّون ، والمعنى : أبعد ان قامت الدلالة على قدرة الله في الخلق الكبير ، وهو الكون ، وفي الخلق الصغير ، وهو خلق الإنسان وموته وبعثه ، أبعد هذا تشكّون في وجود الله ووحدانيته وعظمته! .. وخير تفسير لهذه الجملة قول علي أمير المؤمنين (ع) : عجبت لمن شك في الله ، وهو يرى خلق الله ، وعجبت لمن نسي الموت ، وهو يرى الموت ، وعجبت لمن أنكر النشأة الأخرى ، وهو يرى النشأة الأولى.

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾. ذكر سبحانه في الآية الأولى انه خالق السموات والأرض ، والنتيجة الحتمية لهذا انه موجود في السموات والأرض ، ومعنى وجوده فيهما وجود آثاره ، وذكر في الآية الثانية انه خالق الإنسان ومميته ومعينه ، واللازم القهري لذلك انه يحيط علما بسرّه وجهره ، وما يكسبه من إيمان وكفر ، وإخلاص ونفاق ، وأقوال وأفعال تعود عليه بالخير أو الشر.

الجحود بآيات الله الآية ٤ . ٦ :

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥)﴾

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦) ﴿٦﴾

اللغة :

جاء في تفسير الرازي : قال بعضهم : القرن ستون سنة. وقال آخرون : سبعون. وقال قوم : ثمانون. والأقرب انه غير مقدر بزمان معين لا يقع فيه زيادة ولا نقصان ، بل المراد أهل كل عصر فإذا انقضى منهم الأكثر قيل : انقضى القرن ، والدليل قول الرسول الأعظم (ص) : خير القرون قرني. والتمكين في الشيء جعله متمكنا من التصرف فيه. وأرسلنا السماء ، أي المطر بالنظر إلى انه ينزل من السماء ، والمدرار الغزير.

الاعراب :

من آية من زائدة ، وآية فاعل. ومن آيات متعلق بمحذوف صفة لآية. وكم استفهام في موضع نصب بأهلكننا. ومن قبلهم بيان لها. وجملة مكناهم في محل جر صفة لقرن الذي معناه الجماعة. ومدرار حال من السماء.

المعنى :

أصول العقيدة ثلاثة : التوحيد والنبوة والبعث ، والآيات الثلاث السابقة تعرضت للتوحيد ودلائله ، وتعرضت هذه الآيات إلى النبوة ، وحال المكذبين بها. ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾. المراد بالآية هنا الحجة القاطعة على وجود الله ووحدانيته ، وعلى البعث ونبوة محمد ، والمعنى

ان الكافرين يرفضون دليل الحق ، ويعرضون عنه ، دون أن ينظروا اليه .. ولو كانوا من طلاب الحقيقة لنظروا إلى الدليل وتدبروه بإمعان ، وعملوا بمؤداه ، أما الرفض والاعراض قبل النظر والدرس فعناد ومكابرة.

لا دكتاتورية في الأرض ولا في السماء :

اختلف المفسرون في تعيين المراد من الآية التي أعرض عنها ، واستهزأ بها المكذبون : هل هي القرآن ، أو غيره من معجزات رسول الله (ص) ، أو ان المراد بالآية جميع ما أتى به من المعجزات؟. وتنبهت ، وأنا أتابع هذا الاختلاف ، إلى أن الآية التي نفسرها ، وما جاء في القرآن من أمثالها تتضمن معنى أجل مما اهتم المفسرون بشرحه ، انها تتضمن الدلالة على ان الإسلام يقوم على حرية العقل والرأي ، وانه لا يحق لأحد ، كائنا من كان ، أن يطلب من غيره التسليم والإذعان لأقواله تسليماً أعمى ومن غير دليل ، حتى خالق الكون جلت كلمته لا يفرض على عباده الإيمان به وبكتبه ورسله فرضاً ومن غير دليل ، انه تعالى يقيم الحجة على ما يقوله ويدعو اليه ، ويطلب من كل عاقل أن ينظر فيها ويتدبرها بإمعان ، شأنه في ذلك ، تعالى الله علوا عظيماً ، شأن كل عالم منصف وان بعد القياس والتشبيه بين الخالق والمخلوق.

قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ٨ . الروم . وقال : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ٦ . ق . وقال : ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ٢٤ . يونس .

ان هذه الآيات وما اليها تدل دلالة قاطعة على انه تعالى يقيم الدلائل والبيانات على دعوة الحق ، ويدعو الى تدبرها والنظر فيها ، فإذا أعرض من لا يؤمن إلا بما يريد فهو وحده المسئول عن جحوده وإنكاره.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ . قد يتجاهل الإنسان الحق غير مكترث به ، لا يؤمن به ، ولكن لا يؤيده ولا يحاربه ، كما هو شأن اللامبالي ، وقد يقف منه موقف المكذب ، وهذا مكابر ،

ان كذب عن علم بالحق ، وان كذب واستهزأ فهو محارب للحق ، والأول أخف جرماً من الثاني ، لأنه أشبه بمن يمتنع عن الاقتراع ، والثاني أخف ذنباً من الثالث ، لأنه ضم صوته إلى صوت المكذبين ، أما الثالث فقد كذب وأبدى نشاطاً ضد الحق ، وهذا الثالث هو المقصود بالتهديد والوعيد ، وأنه سيلاقي جزاء عناده واستهزائه.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ﴾. كان عرب الجاهلية يعرفون الكثير عن قوم عاد وثمود ولوط وغيرهم ، وكانوا يمشون في رحلاتهم بآثارهم ، فيشاهدونها ويتحدثون عنهم وعنهم ، ويعرفون ان الله سبحانه أهلكتهم ، لأنهم كذبوا بالحق الذي جاء به أنبيائهم من عند الله.

وهذه الآية تحض الذين كذبوا محمداً (ص) ان يعتبروا بهلاك الأجيال الغابرة ، وقد كان لهم من أسباب الملك والقوة والسلطان ما لم يكن للمخاطبين من عرب الجاهلية. ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾. أي المطر الغزير ينشئ الخصب في حياتهم ويفيض عليهم الأرزاق ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ كناية عن الرخاء وكثرة الانتاج ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذُنُونَهُمْ﴾ ولم يغن عنهم المال والسلطان ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ والعاقلة من اتعظ بغيره قبل أن يتعظ الغير به.

ولو نزلنا عليك الآية ١١.٧ :

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا جَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ (٩) وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ

بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

اللغة :

القرطاس (مثلث القاف) الورق الذي يكتب فيه. واللبس الستر والتغطية. وحق به ، أي أحاط به.

الاعراب :

لو لا أداة طلب بمعنى هلا. وما يلبسون ما بمعنى الذي وهي مفعول لبسنا. وكيف خبر مقدم لكان ، وعاقبة اسمها ، ولم تؤنث كان لأن تأنيث العاقبة غير حقيقي.

المعنى :

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾. أقام النبي (ص) بمكة ثلاث عشرة سنة منذ نزول الوحي عليه إلى أن هاجر إلى المدينة ، وكان يدعو أهلها طوال هذه المدة إلى التوحيد والعدل ، وينهاهم عن الشرك والجور ، وكان أسلوبه في الدعوة الحكمة والموعظة الحسنة ، فاستجاب له أقلهم ، وامتنع أكثرهم ، ولم يكتفوا بالامتناع ، بل تألبوا عليه ، وجعلوا يؤذونه بأيديهم تارة ، وبألسنتهم أخرى ، وكان يصبر على أذاهم ، ويحرص على إيمانهم ، ولكن الله سبحانه قال له : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ . ١٠٣ يوسف. وقال : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. أي لو نزلنا عليك يا محمد الكتاب جملة واحدة في

صحيفة واحدة ، فرأوه ولمسوه وشاهدوه عيانا لطعنوا فيه ، وقالوا : انه سحر . وهذا النموذج من الناس موجود في كل جيل ، بل في عصرنا الذي نعيش فيه فئة كبيرة لا تكتفي بإنكار الملموس المحسوس ، حتى تسمي هذه الأشياء بأضدادها فتعبر عن الذئب بالحمل ، وعن الأفعى بحمامة السلام ، فهذه الولايات المتحدة تقوم بعملية حرب الابادة في فيتنام ، وتقول: أنا أبني وأعمل للحياة .. وتلك إسرائيل تعتدي ، وتقول : أنا المعتدى عليه ..

﴿وَقَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾. لو لا بمعنى هلا ، والضمير في عليه يعود إلى محمد (ص) وفي قالوا إلى مشركي قريش ، فقد سألوا النبي (ص) أن يبعث الله معه ملكا يشهد بما يدعيه ، ويكون له عوناً على تنفيذ رسالته ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْ لَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾. ٧ الفرقان. ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾. أي لو أن الله أنزل اليهم ملكا لماتوا ، ولا يؤخرون طرفة عين. وتسأل : وأية ملازمة بين إنزال الملك اليهم ، وبين هلاكهم عاجلاً؟. وأجاب بعض المفسرين بأن الناس إذا شاهدوا الملك تزهق أرواحهم من هول ما يشهدون .. ولا يعتمد هذا القول على أساس.

وقال آخرون : لقد سبق في حكمة الله أن يهلك كل من يخالف الملك .. وهذا أسوأ من سابقه ، لأن الله سبحانه لم يهلك الذين يخالفونه في هذه الحياة ، وليس الملك بأعظم شأناً منه تعالى علواً كبيراً.

والصحيح في الجواب ان وجه الملازمة سر لم يظهره الله لعباده ، ولا يدرك هذا السر بالعقل ، فيجب السكوت عما سكت الله عنه.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا جَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾. لو أرسل الله إلى الناس ملكاً فلا يخلو : اما أن يبقى على صورته ، واما أن يتمثل في صورة البشر .. ومحال أن يبقى على صورته ، وفي الوقت نفسه يكون رسولا إلى الناس ، لأن طبيعة الملائكة غير طبيعة الإنسان ، وتبليغ الرسالة يستدعي المعاشرة والمؤانسة ، وهي لا تحصل مع تباين الخلق والطباع .. هذا ، إلى أن الملائكة لم يخلقوا للحياة على هذا الكوكب.

ولو تمثل الملك على صورة البشر لقالوا له نريد ملكا رسولا ، ولا نريده بشرا .. إذن ، فالملك بصورته لا يمكن أن يبلغ الرسالة ، وبصورة البشر لا يؤمن به مشركو مكة ، فتبقى مشكلتهم من غير حل .. وتصدر الإشارة إلى أن هذه الآية صريحة الدلالة على ان الله سبحانه قد جادل المكذبين بالأسلوب والمنطق الذي يستعمله أهل المعقول لافحام خصومهم.

﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾. أي لو جعل الله الملك في صورة البشر لظن الناس أنه بشر في حقيقته ، وعليه يكون الله جل ثناؤه قد موّه في أفعاله ، تماما كما موّه الناس بعضهم على بعض ..

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. أي هوّن عليك يا محمد ما تلقى من استخفاف قومك ، فإن الاستخفاف بالأنبياء والمصلحين ليس وليد الساعة ، بل كان موجودا منذ القديم ، والله سبحانه قد عاقب المستهزئين بأنبيائهم ، وسيحل بمن استهزأ بك ما حل بمن كان قبلهم ، وفعل فعلهم .. وهكذا كان ، فإن الله سبحانه قد أهلك من سخر بمحمد (ص) ، وامتنّ الله عليه بهلاكهم ، حيث خاطبه بقوله : ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ . ٩٥ الحجر .

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾. تقدم تفسيره في الآية ١٣٧ من آل عمران.

كتب ريكلم على نفسه الرحمة الآية ١٢ . ١٦ :

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣)﴾

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ
أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
(١٥) مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦)

اللغة :

كتب على نفسه ، أي أوجب عليها إيجابا. و فاطر السموات مبدعها على غير مثال
سابق.

الإعراب :

﴿لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ لِمَنْ﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم و ﴿مَا﴾ مبتدأ مؤخر ،
والجملة مفعول ل ﴿قُلْ﴾. و ﴿لِلَّهِ﴾ متعلق بمحذوف خبرا لمبتدأ محذوف ، أي قل هو كائن
لله. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ مبتدأ ، و ﴿فَهُمْ﴾ مبتدأ ثان ، و ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبر للمبتدأ ، وهو
وخبره خبر المبتدأ الأول. ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ غَيْرٌ﴾ مفعول أول لاتخذ ، و ﴿وَلِيًّا﴾ مفعول ثان.
و فاطر صفة لله.

المعنى :

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾. أمر الله نبيه الأكرم أن يسأل مشركي
العرب : من يملك السموات والأرض؟. ثم أمره أن يجيب عنهم بأن الله وحده هو مالك
الملك ، وجاز أن يكون هو السائل والمجيب لأن كلا من المسئول والسائل متفقان على
الجواب .. فان مشركي العرب كانوا يؤمنون بأن

الله خالق الكون ومالكه : ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَيُّ يُؤْفَكُونَ﴾ . ٦١ العنكبوت.

وتسأل : ما دام الأمر كذلك فأني جدوى من السؤال؟.

الجواب : ان القصد من السؤال وجوابه استدراج الخصم إلى الاعتراف بإمكان النشر والحشر ، وإقامة الحجة عليه ، لأن الله سبحانه إذا كان هو خالق الكون ومالكه فهو . إذن . قادر على التصرف فيه فناء وإعادة.

﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ . وأعاد سبحانه هذه الجملة في الآية ٥٤ من هذه السورة. قال المفسرون : أوجب الله على نفسه الرحمة إيجاب فضل وكرم .. ونحن نؤمن بأن الله ذو فضل وكرم ، وفي الوقت نفسه نؤمن بأن رحمته نتيجة حتمية لغناه في ذاته عن كل شيء ، وافتقار كل شيء إليه تعالى ، لأن المخلوق مفتقر بطبعه إلى عناية الخالق ورحمته افتقار المعلول إلى علته ، والمسبب إلى سببه .. فرحمة الله بعباده لا تنفك عن ذاته وكماله ، وعلى هذا يكون معنى ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ ان رحمته حتم لذاته القدسية ، تماما كالقدرة والعلم.

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ . وهذا الجمع حتم أيضا ، ولذا وصفه جل ثناؤه بقوله : ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ . لأن فيه يقتض للمظلوم من الظالم ، ويجازى المسيء على السيئة بمثلها ، والمحسن على الحسنه بأضعاف مضاعفة من أمثالها ، ولو لا هذا اليوم لذهب الحق هدرًا ، وكان الأفدر هو صاحب الأمر والنهي ، وليس خالق الكون ومالكه.

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ . قال الزمخشري : لقد اختار الكافرون الخسران ، فهم لذلك غير مؤمنين. والزمخشري من أهل الاعتزال القائلين : الإنسان مخير ، لا مسير. وقال الرازي : إن الله هو الذي قضى بخسرانهم ، ولهذا امتنعوا عن الإيمان. والرازي من الأشاعرة القائلين : الإنسان مسير ، لا مخير. وقال آخرون : امتنع الكفار عن الإيمان تقليدا لآبائهم.

وفي تصورنا ان الآية تشير إلى حقيقة الإنسان ، وانها تتكون من نفسه وجسمه ، وان كلا منهما جزء متمم للآخر ، وان الإنسان لا يحيا حياة صحيحة إلا إذا عمل لهما معا ، وان من عمل للروح دون المادة ، أو للمادة دون الروح فقد خسر

كيانه من الأساس ، ومن خسر كيانه لا يكون من الايمان في شيء.

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. أي انه تعالى هو المالك لكل

شيء. وتساءل : لقد دل على هذا المعنى قوله تعالى في الآية المتقدمة : ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ فما هو الوجه لهذا التكرار؟

وأجاب المفسرون بأن الآية الأولى استقصت الخلق من حيث الزمان ، والثانية من

حيث المكان ، وهما طرفان لكل موجود ماديا كان ، أو معنويا ، فحصل العموم والشمول

بالآيتين جميعا ، وعقب سبحانه بصفتي السمع والعلم تأكيداً لهذه الاحاطة.

وتقدم أكثر من مرة ان التكرار في القرآن غير عزيز ، ولكن المفسرين يحاولون أن يأتوا

بشيء ، وإن لم تدع الحاجة اليه.

﴿قُلْ أَغْنِيَ اللَّهُ عَنْكَ وَلِيًّا﴾؟ وكيف استعين بغيره ، وهو ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾. ومن دونه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ

مَنْ أَسْلَمَ﴾. لأن محمدا (ص) هو الداعي الأول إلى الإسلام ، فيكون هو المسلم الأول من

أمته ، والا كان من الذين يأمرُونَ ولا يأتمرون .. حاشا من اصطفاه الله لرسالته. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ

مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. ومحال أن يكون منهم ، وإنما صح هذا النهي لأنه موجه من الأعلى إلى من

هو دونه ، كما قلنا أكثر من مرة.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. المعصية من النبي محال لمكان

العصمة ، ولكن فرض المحال ليس بمحال .. والغرض تقرير أو تأكيد مبدأ المساواة بين الناس

جميعا أمام الله ، وانه خلق تعالى الجنة لمن أطاعه ولو كان عبدا حبشيا ، والنار لمن عصاه ولو

كان سيدا قرشيا .. ويأتي الخوف من الله سبحانه على قدر العلم بعظمته : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ

مِنَ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. ٢٨ فاطر وبالأولى الأنبياء.

﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾. كل من يخاف الهول الأكبر

يرى النجاة منه رحمة كبرى ، وفوزا لا شيء أعظم منه.

لا كاشف الا الله الآية ١٧ . ١٩ :

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)﴾

الإعراب :

فلا كاشف ﴿كَاشِفٌ﴾ اسم لا ، وله خبر ، والتقدير لا كاشف موجود له ، ﴿وَهُوَ﴾ بدل من الضمير في موجود. و ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ متعلق بمحذوف حالا من ﴿الْقَاهِرُ﴾ ، أي هو القاهر مستعليا فوق عباده ، ويجوز أن يكون خبرا ثانيا. و ﴿شَهَادَةً﴾ تمييز. ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ في محل نصب عطفا على مفعول ﴿لِأُنذِرَكُمْ﴾. و ﴿إِنَّمَا﴾ ان كفوفة عن العمل بما ، وهو مبتدأ ، وإله خبر ، وواحد صفة لإله.

المعنى :

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾. تدل هذه الآية على ان الضر كالفقر والمرض ونحوهما من صنع الله ، لا من صنع الناس ، وكذا كشفهما والخلاص منهما ، اذن ، لما ذا السعي والعمل؟.

الجواب : أولا ان السعي واجب عقلا ونقلا ، أما العقل فلأن الحياة لا تتم

إلا بالعمل ، واما النقل فقد تجاوز حد التواتر ، من ذلك قوله تعالى : ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ . ١٠ الجمعة . وقوله : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ . ١٥ الملك . وفي الحديث : سافروا تغنموا .. تداووا فان الذي أنزل الداء أنزل الدواء . وعليه ، فمن قصر في السعي ، ومسه الضر فهو المسئول ، ومن سعى من غير تقصير ومسه الضر تقع المسئولية على مجتمعه الفاسد في أوضاعه وأحكامه ، وإن كان المجتمع الذي يعيش فيه صالحا فقد تضرر بقضاء الله وقدره .

ثانيا : إن الله سبحانه لا يريد الضر لأحد من عباده ، كيف؟ وهو القائل : ﴿وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ . ٢٩ ق . والقائل : ﴿وَاللَّهُ رُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ . ٢٠٧ البقرة . وفي الحديث : إن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها . وعلى هذا يكون المراد بالضر في الآية ما يجازى به العبد على عمله ، أو امتحانا لمصلحته وما إلى ذلك مما لا يتنافى مع عدل الله ورحمته . وتكلمنا عن الرزق مفصلا عند تفسير الآية ١٠٠ من سورة المائدة ، فقرة هل الرزق صدفة أو قدر؟
﴿وَأِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . أي لا رادّ لخيره وفضله ، قال الرازي : ذكر الله في الخير انه على كل شيء قدير ، وفي الضر انه لا كاشف له إلا هو ، ذكر ذلك للدلالة على ان إرادة الله لإيصال الخيرات غالبية على إرادته لإيصال المضار .

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ . والقاهر يشير إلى قدرة الله والخبير إلى علمه . وقهر الله عباده بإيجادهم دون إرادة منهم ، وقهرهم أيضا بالموت والفناء ، قال ابن العربي في الفتوحات المكية : إن الله سبحانه قهر عباده لأنهم نازعوه وخاصموه في مخالفتهم لأحكامه ، ومن خاصم الله فهو مقهور ومغلوب لا محالة .

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ . جاء في بعض الروايات : ان مشركي مكة قالوا للنبي (ص) : إن اليهود والنصارى لا يشهدون لك بالنبوة ، فأرنا من يشهد لك بها ، فأُنزل سبحانه ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ . أي سلهم يا محمد من

هو الذي تعلو شهادته كل شهادة ، ثم أمره تعالى بالجواب عنهم ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾. ولا جواب في الواقع غير هذا الجواب باعتراف الخصوم ، وهو ان الشاهد بيننا هو الله.

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾. القرآن هو الشهادة من الله على نبوة محمد ، وهو يتحداهم جميعا أن يأتوا بسورة من مثله ويدعوا من شاءوا ، وقد حاولوا وعجزوا ، وهذا العجز أكبر شهادة على صدق النبي في رسالته. وقوله : ﴿لَأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ معناه ان الله سبحانه أوحى إليّ القرآن لأُنْذِرْكم به يا أهل مكة ، وأنذر به كل من بلغه إلى يوم يبعثون .. قال بعض الصحابة : من بلغه القرآن فكأنه رأى رسول الله (ص) ، وتدل هذه الآية على أن من لم تبلغه دعوة محمد (ص) فهو معذور في ترك الإسلام. وتكلمنا عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ١١٥ من آل عمران ، فقرة حكم تارك الإسلام.

﴿إِن كُنتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾. الاستفهام هنا للإنكار والاستبعاد والمعنى كيف تجعلون مع الله إلها آخر بعد وضوح الأدلة على وحدانيته جل وعز ، ثم أمر الله نبيه أن يجيب بأنه لا يشهد كما يشهدون : ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾. ثم أمره بأمر آخر : ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ بعبادة الأصنام وغيرها.

يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الآية ٢٠ . ٢٤ :

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ

فَتَنَّتْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) ﴿

الإعراب :

و ﴿يَوْمَ نَخْشُرُهُمْ يَوْمَ﴾ مفعول به لفعل محذوف ، أي اذكر يوم نخشركم. و ﴿جَمِيعاً﴾ حال من ضمير ﴿نَخْشُرُهُمْ﴾. و ﴿أَيْنَ﴾ خبر مقدم ، و ﴿شُرَكَائُكُمْ﴾ مبتدأ مؤخر. و ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من ﴿شُرَكَائُكُمْ﴾. وتزعمون تحتاج إلى مفعولين ، وهما محذوفان ، أي تزعموهم شركاء ، ودل على الحذف سياق الكلام. والمصدر المنسبك من ﴿أَنْ قَالُوا﴾ خبر ﴿لَمْ تَكُنْ﴾. و ﴿كَيْفَ﴾ مفعول ﴿كَذَبُوا﴾. وجملة ﴿كَذَبُوا﴾ مفعول انظر.

المعنى :

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾. الذين آتاهم الله الكتاب هم اليهود والنصارى ، وضمير يعرفونه عائد إلى محمد (ص) ، والآية تجابه علماء أهل الكتاب بأنهم يعرفون خاتم الأنبياء حق المعرفة ، تماماً كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم يكتُمون ما يعرفون وقد تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات ، منها قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. ١٤٦ البقرة. وقوله : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾. ١٥٧ الاعراف. ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. ١٩٧ الشعراء. ومر الكلام عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ١٤٦ من سورة البقرة ، و ١٦٤ من النساء. فقرة هل الأنبياء كلهم شرفيون؟.

وليس من الضروري ليعرف أهل الكتاب صدق محمد (ص) أن يجدوا اسمه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل .. فكل من درس الإسلام دراسة جادة

وفاحصة يؤمن إيماناً لا يشوبه ريب بأنه الحق والصدق ، وأنهما جوهر الإسلام ور كيزته وهدفه من كلمة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ التي تعني المساواة بين الناس الى تقييم الإنسان على أساس العمل والإخلاص ، لا على أساس المال والجاه والنسب ، ومن التكافل الاجتماعي ومسؤولية كل راع عن رعيته الى دعوة الأمن والسلام ، والتقدم والرخاء ، الى ما لا نهاية.

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مر تفسيره قريباً في الآية ١٢ من هذه السورة. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾. المراد بالظلم هنا الكفر ، لأن كل من افترى الكذب على الله فهو كافر .. لا فرق إطلاقاً بين من جعل له شريكاً ، ومن حرف حكماً من أحكامه عن عمد وعلم ، ومن ادعى النيابة عن المعصوم ، أو الشفاعة للخلق عند الحق ، وهو يعلم انه مفتر كذاب . كل هؤلاء كفرة فجرة اجماعاً وكتاباً وسنة. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. أشارت الجملة الأولى من الآية الى من يخلق ما لا وجود له ، كمن جعل لله شريكاً أو ولداً. وتشير هذه الجملة الى من ينكر الموجود ، كمن يحده من الأساس ، وحكم الاثنين واحد ، كل منهما ظالم ، وما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾. المؤمنون بالله على نوعين : منهم من يؤمن بألوهيته وتوحيده ، ويسمون الموحدين ، ومنهم من يؤمن بألوهيته وألوهية غيره ، وهؤلاء أفسدوا إيمانهم بهذه الضميمة ، وصاروا والجاحدين سواء ، لأن جعل المثلل لله معناه في الواقع انكار الله من رأس ، إذ المفروض ان الله سبحانه لا شبيه له ولا مثيل : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ . ١١ الشورى.

وسيوأجه الله المشركين بهذا السؤال : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ، وتستعينون بهم كما تستعينون بالله ، سيواجههم بهذا السؤال على سبيل التوبيخ والتقريع ، لا على سبيل الحقيقة.

وتسأل : لما ذا قال تعالى : أين شركاؤكم ، ولم يقل أين شركائي ، مع العلم بأن الكافرين أضافوا الشركاء اليه ، لا اليهم؟.

الجواب : إن الاضافة تصح لأدنى مناسبة ، والمشركون هم الذين ابتدعوا الشرك الذي لا عين له ولا أثر في حقيقة الأمر والواقع.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. المراد بالفتنة هنا شركهم وافتتاحهم بالأوثان ، والمعنى كانت عاقبة الشرك الذي ابتدعوه هي يمينهم الفاجرة أنهم ما كانوا مشركين.

وتسأل : إن قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يتنافى مع قوله : ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾. ٤٢ النساء. هذا ، إلى أن المعروف ان الإنسان لا يستطيع الكذب يوم القيامة.

الجواب : إن في القيامة العديد من المواقف ، يستطيع الإنسان في بعضها الإنكار ، حيث لم يشهد عليه في هذا الموقف يده ورجلاه بما كان يعمل ، وعلى هذا الموقف يحمل قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وفي بعض المواقف يعترف بما كان منه ، حيث لا مجال للإنكار ، وعليه يحمل قوله : ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

أما القول : إن الإنسان يعجز عن الكذب إطلاقا يوم القيامة فتكذبه الآية ١٨ من سورة المجادلة : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا إِيَّاهُمْ هُمْ الْكَاذِبُونَ﴾.

سؤال ثان يتفرع من الجواب عن السؤال الأول ، وهو إذا قدر الإنسان غدا على الكذب ، بل والقسم عليه بالله أيضا ، تماما كما هو شأنه في هذه الحياة ، إذا كان الأمر كذلك فما هو الوجه لتسمية الآخرة بدار الصدق ، وتسمية دارنا هذه بدار الكذب؟.

الجواب : المراد بهذه التفرقة بين الدارين ان الكذب في هذه الدار قد يدفع عن صاحبه ضرا ، أو يجلب له نفعا ، أما في الدار الآخرة فلا يغنيه عن الصدق شيء .. وبكلمة ان العجز عن الكذب شيء ، والقدرة عليه مع عدم جدواه شيء آخر.

﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾. الخطاب موجه للنبي (ص) ، والمراد به العموم ، وهو تعجب من انكارهم الشرك ، وقد ماتوا عليه .. وكل من

أنكر ما هو فيه ، أو ادعى ما ليس فيه عامدا متعمدا فقد كذب على نفسه وعلى الله والناس. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾. وضل عنهم عطف على كذبوا ، والمعنى انظر يا محمد كيف غاب عن المشركين ما كانوا يرجون نصرته وشفاعته.

على قلوبهم أكنة الآية ٢٥ . ٢٦ :

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦)﴾

اللغة :

الأكنة جمع واحدها كنان ، وهو الغطاء. والوقر بفتح الواو ثقل السمع. والأساطير جمع واحدها اسطورة واسطورة ، أي الشيء المسطور في الكتب ولا دليل على صحته ، ونأى عنه بعد وأعرض.

الاعراب :

المصدر المنسبك من أن يفقهوه مفعول لأجله لجعلنا ، أي كراهية ان يفقهوه. وإذا شرط متضمن معنى الظرف ، وهو متعلق بيقول. وجملة يجادلونك حال من الواو في جاءوك. وان هذا ان نافية بمعنى ما ، ومثلها ان يهلكون.

المعنى :

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

خاطب الله نبيه بهذه الآية بعد ما أمره أن يقول للمعاندين ما تقوم به الحجة عليهم ، وبعد أن تحدث عن أحوالهم يوم القيامة ، والمعنى ان فريقا من هؤلاء الجاحدين يستمعون إلى النبي ، وهو يتلو القرآن ، ولكنهم لا ينتفعون به ولا بغيره من الدلائل والبيانات ، لأنهم صمموا منذ البداية على العناد والمكابرة ، حتى أعمى هذا التصميم عقولهم عن رؤية الحق ، وأصم آذانهم عن سماعه.

وتسأل : ان الآية بظاهرها ان الله هو الذي أعمى قلوبهم ، وأصم آذانهم ، وعليه فلا يستحقون دما ولا عقابا ، لأنهم مسيرون غير مخيرين؟.

الجواب : بما ان قلوب المعاندين لم تفقه القرآن ، وتنتفع به ، وآذانهم لم تستمع اليه سماع فهم وتدبر صح القول مجازا : ان على قلوبهم أغلفة ، وفي آذانهم صمم ، وبما ان الله سبحانه هو الذي خلق القلوب والآذان صحت نسبة الصمم والأغلفة اليه مجازا أيضا ، أما بحسب الأمر والواقع فالمشركون هم المسؤولون ، لأنهم عاندوا الحق عن تصميم وإرادة .. وتقدم الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٧ من سورة البقرة ج ١ ص ٥٣.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الآية تدل بوضوح على ان الإسلام لا يقيس الشيء بما هو في ذاته ، بل بما هو في نتائجه وآثاره ، فالسمع والبصر منفذان للعقل ، والعقل مخطط للعمل ، فإذا لم يتحقق العمل يكون وجود الحواس وعدمها سواء ظاهرة كانت أو غير ظاهرة. وبكلمة ليس في الإسلام داخلي وخارجي ، ولا براني وجوآني ، فالكل وسيلة إلى منفعة الناس في تدبير معاشهم ، وحل مشاكلهم. قال الإمام علي (ع) : يدعي بزعمه انه يرجو الله ، كذب والعظيم ، ما باله لا يتبين رجاءه في عمله ، فكل من رجا عرف رجاءه في عمله.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾. كشف محمد (ص) عن حقيقة المزيفين من

أصحاب الجاه والمال ، فاضطربوا وأحسوا بالخطر على مصالحهم ، فليجئوا إلى الأكذوبة الكبرى ، وقالوا عن آيات الله : أساطير الأولين ، وهم على يقين ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، ولكنهم كانوا يلتمسون أوجه الشبهات والمغالطات ،

ليصرفوا الناس عن أضاليلهم وأباطيلهم ، تماما كما يفعل اليوم أرباب الأنظمة الفاسدة ، والقوانين الجائرة.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾. ضميرهم يعود إلى الذين عاندوا الحق حرصا على مصالحهم ، وضمير عنه يعود إلى النبي (ص) .. نهى المزيفون عن اتباع محمد (ص) وأعرضوا عنه ، بل حاولوا إثارة النقمة عليه ، وجمعوا الجيوش لحربه ، لا لشيء إلا لأنه كشف عن أسوأهم ووبائهم. ﴿وَإِنْ يُهْلِكُوا إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾. أرادوا الكيد للإسلام ونبيه ، فدارت دائرة السوء على رؤوسهم ، حيث هلك بعضهم يوم بدر ، واستسلم آخرون أذلاء صاغرين يوم الفتح .. وهذا مصير كل من لج وتمادى في الغي والعناد.

وقفوا على النار الآية ٢٧ . ٣٢ :

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بَيَّاتٍ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢)﴾

اللغة :

وقفوا على النار الفعل مبني للمجهول ، والمراد به هنا العرض ، أي عرضوا على النار ، وقيل : يجوز أوقف ، ولكنه نادر. والساعة الزمن القصير ، والمراد بها هنا يوم القيامة لسرعة الحساب فيه. وبغته فجأة. والحسرة الندامة. والتفريط التقصير. والوزر لغة الحمل الثقيل : وديننا الإثم والذنب.

الاعراب :

ولو ترى جواب لو محذوف ، تقديره لشاهدت أمرا عظيما. ولا نكذب منصوب بأن مضمرة بعد الواو ، ومثله ونكون ، والمصدر المنسبك معطوف على مصدر متصيد من نرد ، والتقدير يا ليت لنا الرد وعدم التكذيب وكوننا من المؤمنين. ان هي إلا حياتنا الدنيا ان نافية ، وهي مبتدأ ، وحياتنا خبر ، والدنيا صفة للحياة ، لأنها بمعنى الأولى أو الدنيّة أو القريبة. وبغته مصدر في موضع الحال من الساعة ، أي باغته. وساء فعل ذم والفاعل مستتر ، وما تمييز بمعنى شيء ، والمخصوص بالذم محذوف ، والتقدير ساء الشيء شيئا وزرهم.

المعنى :

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾. عاد سبحانه إلى الحديث عن أحوال المكذبين يوم القيامة ، وانهم حين يرون ما أعد لهم من العذاب ، وما أعد للمؤمنين من الثواب يقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ﴿وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. أي نتوب ونعمل صالحا .. ولكن الحسرات والعبرات لا تغني شيئا إلا إذا كانت خوفا من الله وعذابه قبل أن يقع ، أما بعد الوقوع فهي بكاء على الأموات ولهفة على ما فات.

﴿بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾. لا ينجو غدا من عذاب الله إلا من كان واضحا صريحا في هذه الحياة ، تنسجم أقواله مع أفعاله ، وهما معا

انعكاس عن ذاته وواقعه ، حتى كأن الجميع شيء واحد عند الله والناس ، أما الغامض المبهم الذي يعرف الخالق منه ما لا يعرفه المخلوق من الرياء والنفاق ، أما هذا فسوف يبدو له جزاء ريائه ونفاقه ، وتذهب نفسه حسرات على إساءته ، ويتمنى الخلاص بالرد إلى الدنيا ، ولكن هيهات. ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم : يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين .. ولقد قرأنا عن عشرات المجرمين انهم تابوا وهم في غياهب السجن ، حتى إذا خرجوا عادوا إلى اجرامهم. وآثامهم ، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ائْتَرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ ٦٦ . الإسراء.

﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾. أي لو ردوا الى حياتهم الأولى لقالوا ما قالوه من قبل : لا بعث ولا حساب ولا جزاء. وتساءل : كيف ينكرون ، وقد شاهدوا الهول الأكبر ، وعرضوا عليه ، وتوسلوا للخلاص منه ، وقطعوا عهدا على أنفسهم ان لا يعودوا الى ما كانوا عليه. الجواب : انهم يعرفون جيدا ان الحساب والعذاب واقع لا محالة ، ولكنهم يعرفون أيضا انهم لو أعلنوا الحق وخضعوا له لفاتتهم المغامم والمكاسب ، قال تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ . ١٤ النمل.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ بعد أن كذبوا ببلقائه ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؟. قلنا في تفسير الآية الرابعة من هذه السورة : ان الله يدعو الى الايمان بالحق ، مع إقامة الدليل عليه ، فإن جحده جاحد لزمته الحجة ، وهذه الآية تؤكد ذلك ، وتذكر بالدلائل والبيانات التي أنكروها وكذبوا بها ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾. الآن ، وقد فات ما فات ، ولم يبق إلا الجزاء العادل ، والعذاب لمن كفر وأنكر ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. هذا جزاء كل من آثر العاجلة على الآجلة ، وكنتم الحق لهوى في نفسه.

وتساءل : ان قوله تعالى للكافرين : أليس هذا بالحق ، وقوله : ذوقوا العذاب لا يتفق مع الآية ١٧٤ من سورة البقرة : ﴿وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؟. الجواب : المراد ان الله لا يكلمهم بما يسرهم ، بل بما يسوءهم ، كما في

هذه الآية ، وكما في الآية ١٠٩ من المؤمنين : ﴿قَالَ احْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ .
﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ وفاز من آمن به ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾
﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ . قال الإمام (ع) : ثمرة التفريط الندامة ، وثمره الحزم
السلامة ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ . الأوزار الذنوب والآثام ،
وحملها على الظهر كناية عن ملازمتها لأصحابها ، يقال ركب الشيطان ، أي لا يفارقه ،
والمعنى ان المكذبين بالحق هم أسوأ الناس حالا في الآخرة ، قال بعض المفسرين الجدد :
بل الدواب أحسن حالا ، فهي تحمل أوزارا من الأثقال ، ولكن هؤلاء يحملون أوزارا
من الآثام ، والدواب تحط عنها أوزارها ، فتذهب وتستريح ، وهؤلاء يذهبون بأوزارهم الى
جهنم مشيعين بالتأثيم .
﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهْوٌ﴾ . تقدم نظيره في الآية ١٨٥ من آل عمران ج ٢
ص ٢٢٤ .

قد نعلم انه ليحزنك الآية ٣٣ . ٣٧ :

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ
يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا
وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيٍّ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِنْ كَانَ كِبُرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ
اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَىٰ
الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ (٣٦) وَقَالُوا لَوْ لَا نُزِّلَ

عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) ﴿

اللغة :

النبأ الخبر ذو الشأن العظيم. والنفق حفرة نافذة لها مدخل ومخرج. والسلم الدرج مأخوذ من السلامة.

الاعراب :

قد نعلم مضارع بمعنى الماضي ، أي قد علمنا. وحتى بمعنى إلى ، وان مضمرة بعدها ، والمصدر المنسبك مجرور بها ، متعلق بصبروا. وفاعل جاءك محذوف ، والتقدير جاءك نبأ من نبأ المرسلين. وجواب ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ﴾ فان استطعت. وجواب ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ﴾ محذوف أي فافعل. والموتى الواو للاستئناف والموتى مبتدأ وخبره جملة يبعثهم. ومن ربه متعلق بمحذوف صفة لآية.

المعنى :

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾. الخطاب للنبي (ص) ، وقد للتحقيق ، ونعلم بمعنى علمنا ، وضمير يقولون راجع إلى الذين كذبوا النبي (ص) ، أما الذي يقولون ، بل قالوه بالفعل فهو ما أشار اليه سبحانه في الآية ١٤ من الدخان : ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾. والآية ٢ من يونس : ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾. كل من حارب

محقا ، لأنه على حق فقد حارب الحق بالذات ، وكل من استخف برسول ، لأنه يحمل رسالة المرسل فقد استخف بمن أرسله ، لا بشخص الرسول .. وكان مشركو مكة يسمون محمدا (ص) الصادق الأمين قبل الرسالة ، ولما جاءهم برسالة الله ، وأقام عليهم الحجة تصدوا لحربه ، وقالوا : ساحر مجنون .. فتكذبيهم له ، والحال هذه ، تكذيب لرسالة الله وآياته ، ولا شيء أدل على ذلك من قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ . ١٠ الفتح.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ . يقول سبحانه لنبيه : ان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ، وأودوا في سبيل رسالته ، فصبروا على الإيذاء ، حتى أتاهم النصر ، فاصبر أنت كما صبروا ، والله ينصرك كما نصرهم .. هذا هو المحور الذي تدور عليه الحياة ، صراع بين الخير والشر ، والحق والباطل ، ومحال أن يناصر الحق مناصر ، ولا يلقي الأذى من أعداء الحق .. وأيضا لا ينتصر الحق إلا إذا وجد أنصارا يصبرون على الجهاد في سبيله ، ويدفعون ثمنه من أنفسهم وأهلهم وأموالهم ، سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ .

ولا أعرف عصرا بلغ فيه المبطلون من القوة كهذا العصر الذي نعيش فيه ، فقد أقاموا في كل بقعة قواعد للحرب ، وأوكارا للتخريب ، وتسלحوا بأشد الأسلحة فتكا ، وأكثرها دمارا ، وسيطروا على مقدرات الشعوب المستضعفة ، والبنوك والمصارف ، والصحف والمطابع ، ودور النشر والتوزيع إلا ما ندر ، حتى وجد المخلص الأمين نفسه معزولا منبوذا لا يستطيع أن ينشر مقالا حرا ، أو يذيع من وسائل الاذاعة كلمة حق ، أما الخائن فأين اتجه يجد الترحيب والإكبار .

﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَاِ الْمُرْسَلِينَ﴾ . أي لقد قصصنا عليك من قبل ما لاقى الأنبياء من أقوامهم ، وكيف صبروا على التكذيب والأذى ، وان النصر في

النهاية كان لهم على المكذبين ، وهذه السنة تجري عليك ، تماما كما جرت عليهم .. ولا مبدل لكلمات الله.

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾. هذه الآية نظير قوله تعالى مخاطبا نبيه الأكرم : ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. ٨ فاطر ، كل منهما تصور الحرقه والألم الذي كان الرسول الأعظم يعانيه من اعراض المشركين عن دعوته ، وكل منهما يهدف الى التخفيف والتسرية عنه صلى الله عليه وآله .. لاقى النبي من قومه ما يذهب بحلم الحليم ، فصبر واحتسب ، ولم يدع عليهم ، بل دعا لهم ، وقال : اللهم اغفر لقومي ، انهم لا يعلمون ومع ذلك كان يتألم ويتوجع لكفرهم ، فخطبه الله بهذه الآية ليخفف عنه ، ويأس منهم ، ويصرف النظر عنهم ، ثم ينتظر قليلا ليرى كيف تكون عاقبة المكذبين.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ جَمَعَهُمْ عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾. قال الرازي : يدل هذا على انه تعالى لا يريد الايمان من الكافر ، بل يريد إبقاءه على الكفر.

وبلاحظ بأن هذا هو الظلم بعينه ، والله سبحانه ليس بظلام للعبيد ، والصحيح في معنى هذه الجملة ان الله سبحانه لا يريد أن يلجئ أحدا الى الايمان به ، بل يدع الخيار له بعد أن يقيم الحجة عليه بالدلائل والبيانات ، ولو أراد الايمان من عباده بإرادة ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ ما كفر واحد منهم ، ولكن شاءت حكمته تعالى أن يتدخل في شئون الناس كآمر وناصح ، لا كخالق وقاهر. وسبق التفصيل والتوضيح عند تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة ، فقرة التكوين والتشريع ح ١ ص ٧٢.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. وكيف يكون الرسول الأعظم من الجاهلين ، وأخلاقه أخلاق القرآن؟. وإنما ساغ هذا الخطاب لأشرف الخلق ، لأنه من خالق الخلق ، لا من النظير والمثيل

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾. هذه الآية نظير قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾. ٨٠ التمل ، والمعنى ان الذين تحرص على هداهم يا محمد لا يسمعون

منك سماع فهم وتدبر ، لأن حب الدنيا جعلهم كالموتى .. والموتى لا ينبغي أن يخاطبوا بشيء ، بل يتركوا وشأنهم إلى يوم القيامة ، حيث يرون العذاب الذي لا يجدون عنه مهربا .
﴿وَقَالُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ . وتساءل : كيف قالوا هذا ، مع ان الله قد أنزل على محمد (ص) العديد من الآيات والبيّنات؟.

الجواب : ان المراد بالآية هنا المعجزة التي اقترحوها ، وجعلوها شرطا لإيمانهم بمحمد (ص) ، ولم يريدوا آية تقنع طالب الحق لوجه الحق ، ولو أرادوها لكانوا في غنى عن قولهم :
لو لا نزل عليه آية ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ من النوع الذي اقترحوه ، ولكنه تعالى لا ينزلها تلبية للشهوات والأهواء ، وانما ينزل الآيات على ما تقتضيه حكمته جل وعلا
﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ان الله ينزل الآية حسب حكمته ، لا حسب أهواء الناس .

الدواب والطيور الآية ٣٨ . ٣٩ :

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩)﴾

اللغة :

الدابة كل ما يدب على الأرض من انسان وحيوان وحشرة . والأمم واحدها أمة ، وهي كل جماعة ذات خصائص واحدة ، والتفريط التقصير .

الاعراب :

و ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ مِنْ﴾ زائدة ، و ﴿دَابَّةٍ﴾ مبتدأ ، والخبر ﴿أُمَّمٌ﴾ ، و ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ صفة ل ﴿أُمَّمٌ﴾. ﴿مِنْ شَيْءٍ مِنْ﴾ زائدة و ﴿شَيْءٍ﴾ مفعول مطلق ل ﴿فَرَطْنَا﴾ ، لأنها واقعة موقع المصدر ، وهو التفريط. و ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ مبتدأ ، و ﴿صَمٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، ومثله ﴿وَبُكْمٌ﴾ ، والتقدير بعضهم صم ، وبعضهم بكم ، والجملة خبر الذين. ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ متعلق بمحذوف خبرا ثانيا.

المعنى :

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾. بين سبحانه في هذه الآية ان بيننا وبين الدواب والطيور نوعا من الشبه ، ولكنه لم يصرح بهذا النوع : هل تشبهنا الدواب والطيور في أنها مخلوقة لله ، أو في إيمانها به ، وتسبيحها بحمده ، أو في أنها أصناف مصنفة تعرف بأسمائها ، كما تعرف الأسر والقبائل ، أو في تدبير معاشها ، وتصريف الأمور وفقا لمصالحها؟

وعلى أية حال ، فقد تفرغ كثير من العلماء لدرس طبائع الحيوانات والحشرات والطيور ، وغرائزها وأعمالها ، ووقفوا على أسرار غريبة تشهد بوجود مدبر حكيم ، نذكر منها على سبيل المثال ان الفيلة تعقد المحاكم للمخالفات التي تقع من بعضها ، وتصدر المحكمة حكمها على الفيل المذنب بالنفي عن الجماعة ليعيش وحيدا في عزلته. والغراب إذا أحس بالخطر على الغراب أنذرهما بصوت خاص ، أما في حال المرح فإنه يخرج صوتا قريبا من القهقهة.

وتسأل : ما هي الفائدة في قوله تعالى : ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ مع ان كلمة طائر بذاتها تدل على ذلك؟.

الجواب : لا فائدة . فيما نعلم . سوى فصاحة الكلام.

﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾. قيل : المراد بالكتاب هنا اللوح المحفوظ المشتمل

على ما كان ويكون ، وقول ثان : انه كناية عن علم الله بنوايا الإنسان

وأقواله وأفعاله ، وثالث : انه القرآن ، وان الله سبحانه بيّن فيه كل ما يجب بيانه للناس من أصول الدين وفروعه ، وما يتعلق بهما ، واخترنا هذا القول في ج ١ ص ٣٨ فقرة القرآن والعلم الحديث.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾. ظاهر الكلام يدل على ان الله يحشر الدواب والطيور يوم القيامة ، تماما كما يحشر الناس ، وكذلك الآية ٥ من التكوير : ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾. وقال كثير من العلماء بذلك استنادا الى ظاهر الآيتين ، وإلى حديث : «ان الله يقتص غدا للجماء من القرناء».

ونحن مع ابن عباس الذي قال : المراد بحشر البهائم موتها ، كما ورد في حديث : «من مات فقد قامت قيامته» لأن الحساب والعقاب إنما يكون بعد التكليف ، ومخالفته ، ولا تكليف إلا مع العقل ، ولا عقل للدواب والطيور فلا تكليف ، وبالتالي فلا حشر للحساب ، ولو حوسب الدواب لحوسب الأطفال بطريق أولى.

أما حديث «يقتص للجماء» فهو كناية عن عدل الله تعالى ، وانه لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها .. وإذا كان الله يعاقب القرناء إذا نطحت الجماء فبالأولى أن يحرم علينا ذبح الحيوان .. أما قول من قال : ان الله يعوض غدا الحيوان عن آلامه فهو قول على الله بغير علم.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾. أي انهم كالصم ، لأنهم لا يستمعون إلى دعوة الحق ، وهم كالبكم ، لأنهم لا ينطقون بما عرفوا من الحق ، وهم في ظلمات التقليد ، وظلمات الشرك والكفر والفسق والآثام. ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. تقدم الكلام عن الضلال والهداية عند تفسير الآية ٢٦ من البقرة ، فقرة «الهدى والضلال» ج ١ ص ٧٠ ، والآية ٨٨ من النساء فقرة «الإضلال من الله سلمي لا إيجابي».

قل رأيكم الاية ٤٠ . ٤٥ :

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْ لَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) ﴿﴾

اللغة :

البأساء من البؤس ، وهو المشقة. والبأس الشدة ، والمراد به هنا العذاب. والضراء من الضر ضد النفع. ومبلسون جمع مبلس ، وهو المتحسر الآيس. ودابر القوم آخرهم.

الإعراب :

أرأيتم الصيغة للاستفهام ، والمعنى اخبروني ، والكاف حرف خطاب لا محل لها من الإعراب ، ومثلها أرأيته وأرأيتم وأرأيتهن. وغير مفعول تدعون. وكذلك إياه. وإذا ظرف منصوب بتضرعوا. وبغته حال من فاعل أخذناهم على معنى مباغتين ، ويجوز من المفعول على معنى مبغوتين. فإذا هم مبلسون إذا للمفاجأة ، وهم مبتدأ ومبلسون خبر.

المعنى :

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ﴾. أمر الله سبحانه رسوله الكريم أن يقول للمشركين : اخبروني ان أتاكم عذاب الله كالذي نزل بالذين كذبوا رسلهم ، أو جاءكم الموت بسكراته والقيامة بأهوالها ، أتدعون في هذه الحال ما كنتم تعبدون من الأصنام والأوثان التي زعمتم انها تكشف عنكم الخزي والعذاب؟ والقصد من مجموع هذه الآية ان الكافرين يتبرءون غدا مما أشركوا ، ويلجئون إلى الله بعد أن يتبين لهم انه لا حول ولا قوة إلا به وحده لا شريك له.

الله والفطرة :

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾. بعد أن سألهم : أغير الله تدعون يوم الهول الأكبر قرر الجواب

بقوله : ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ وهذا هو الجواب الذي تؤمن به وتحيب دنيا وآخرة فطرة الله التي فطر الناس عليها .. وليس معنى فطرة الله ان الإنسان يدرك الخالق تلقائيا ومن غير دليل. كلا ، وإلا لم يكفر أحد بالله ، وإنما معنى هذه الفطرة ان الله أودع في الإنسان غريزة الاستعداد لتفهم الدلائل الدالة على وجوده ، وهذا الاستعداد لا يفارق الإنسان بحال ، ومن كفر فإنما يكفر مقصرا ومتهاونا بالاعراض عن النظر في الدلائل والبيانات ، فاستحق العذاب لهذا الإهمال ، إذ لا فرق أبدا في نظر العقل بين من ترك العمل بعلمه متعمدا ، وبين من ترك الحق واتبع الباطل جهلا بهما ، مع قدرته على معرفتهما والتمييز بين الهدى والضلال ، ولكنه ترك تماونا واستخفافا. أجل قد يحتجب هذا الاستعداد ، وهذا الإدراك الفطري وراء ستار من التقليد والتربية والشهوات ، تماما كما تحتجب الشمس وراء السحاب ، فيخيّل للجاهل المحجوب انه كافر بالله لعدم الدليل ، والدليل كامن في ذاته وفطرته التي فطره الله عليها. ويوم القيامة تزول الحجب الطارئة ، وتظهر الحقيقة واضحة للعيان ، ولا يبقى مجال للشك والإنكار.

﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾. ضمير اليه يعود الى الكشف ، وهو

مصدر متصيد من يكشف ، والمعنى انهم يدعون الله الى كشف العذاب عنهم : ﴿اَكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ﴾ . ١٢ الدخان ، والله سبحانه يكشف عنهم ان شاء ، وان لم يشأ لم يكشف ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي انكم أيها المشركون تتركون يوم القيامة دعوة الأصنام التي كنتم تعبدونها في الدنيا ، وتدعون الله وحده ، حيث يظهر كل شيء على حقيقته .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ . ان الله سبحانه لا يعاقب عباده إلا بعد أن يرسل اليهم رسولا يرشدهم الى طريق الهداية ، فإن لم يهتدوا منحهم الفرصة ليراجعوا أنفسهم ، وامتحنهم بالبلاء ليتضرعوا ويتوبوا ، ولكنهم أصروا على المعصية ، كما قال تعالى في الآية التالية :

﴿فَلَوْ لَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ . يقول جل ثناؤه : انهم لم يتضرعوا حين جاءهم بأسنا في الدنيا ، ولم يتذللوا لله ، وينزلوا عن عنادهم ، بل أصروا على الكفر ، وكان الشيطان من ورائهم يزين لهم ما هم فيه من ضلال وفساد .

وتدل هذه الآية على ان الله سبحانه يقبل كل من لجأ اليه ، حتى ولو كان التجاؤه لضغط الشدائد والنوازل .. وهذا هو شأن الكريم والعظيم ، لا يرد سائلا ولا يخيب أملا ، مهما كانت دوافعه .

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ . أنذرهم أولا بالقول على لسان الأنبياء وثانيا بالفعل ، حيث امتحنهم بالبلاء والضراء ، ولما أصروا على الكفر والعناد فتح عليهم أبواب الرزق والرخاء لالقاء الحجة والاستدراج بالنعم بعد الامتحان بالنقم ، ولما فرحوا بالرخاء ، وازدادوا بطرا وكبرا ، ولم يأوبوا إلى رشد أخذهم الله بالعذاب ، من حيث لا يحتسبون ، فتحسروا على التفریط ، وآيسوا من النجاة .

والخلاصة ان الله سبحانه عاملهم بالضراء تارة ، وبالسراء أخرى حبا بهدايتهم تماما كما يفعل الوالد الشفوق بولده طلبا لصلاحه .. ولكنهم لم يشكروا الرخاء ، ولم يتعظوا بالبلاء ، فاستأصلهم عن آخرهم ، ولم يبق منهم واحدا ، ليعتبر بهم

من يأتي من بعدهم ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على انعامه على المؤمنين ، ونصرهم على أهل الكفر والفساد.

ان اخذ الله سمعكم وأبصاركم الآية ٤٦ . ٤٩ :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩)﴾

اللغة :

نصّرف الآيات نكرها على وجوه مختلفة. ويصدفون يعرضون.

الاعراب :

من مبتدأ ، وإله خبر ، وغير الله صفة لإله ، وجملة يأتيكم صفة ثانية. والضمير في به يعود إلى معنى المأخوذ ، وهو السمع والبصر. وكيف حال من ضمير نصّرف. وبغته حال من ضمير أتاكم. ومبشرين ومنذرين حال من المرسلين. وبما كانوا ما مصدرية والمصدر المنسبك مجرور بالباء متعلق بيمسهم.

المعنى :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ﴾. الإنسان بسمعه وبصره وقلبه ، فلو زالت هذه عنه لم يكن شيئا مذكورا ، وكان الحيوان خيرا منه .. وليس من شك ان الله قادر على أخذها لأنه خالقها ، والقصد من هذه الإشارة أن يذكر سبحانه الكافرين ان ما يتخذون من دونه آلهة وأولياء لا يدفعون عنهم ضرا ، ولا يجلبون لهم نفعاً : ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ . ١٢ الرعد.

﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾. أي أقمنا عليهم الحجة تلو الحجة بأساليب شتى ، ليتعظوا ويعتبروا ، وقطعنا لهم كل معذرة ليدعنوا ويؤمنوا ، فما زادتهم الدلائل القاطعة إلا تماديا في الكفر والغي والعناد.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾. مرة ثانية يعظمهم الله ويهددهم بإتيان العذاب الذي لا يستطيعون له دفعا ، سواء أ جاءهم بغتة ومن حيث لا يحتسبون ، أو جهرة من حيث هم متأهبون له ، مرة ثانية في هذه الآيات يعظمهم الله ويهددهم ليتقوا العذاب قبل وقوعه ، ويثوبوا إلى رشدهم ، ولكن قست القلوب ، فلم تمل لحق ولا هداية.

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾. هذه هي وظيفة الرسول ، يبشر الطائع ، وينذر العاصي ، وهذه الوظيفة على بساطة تحديدها ، ووضوح مفهومها هي من أشق الوظائف ، وأكثرها صعوبة ، لأنها تمس حياة الطغاة مباشرة ، وتعارضهم في مصالحهم ومنافعهم. وتنتهي وظيفة الرسول بثواب من آمن وعمل صالحا ، وعقاب من كفر وكذب بآيات الله ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. لأن المجرم هو الذي يخاف ويحزن ، أما البريء فهو في أمان واطمئنان. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. الفسق أعم من الكفر ، فكل كافر فاسق ، ولا عكس ، والمراد بالفسق هنا الكفر بدليل قوله تعالى : ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

ان اتبع الا ما يوحى الى الآيه ٥٠ . ٥٥ :

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِّلْمُحْسِنِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥)﴾

اللغة :

الغداة والغدوة ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. والعشي من المغرب إلى العشاء. وفتنا ابتلينا. والسلام من أسماء الله تعالى ، وسلام عليكم تحية بالدعاء لمن تحييه أن يسلم من كل سوء ، ويأمن من كل أذى. والجهالة السفه.

الإعراب :

جملة يريدون حال من الواو في يدعون. ومن شيء من زائدة ، وشيء مبتدأ ، وعليك خبر ، ومن حسابهم حال من شيء ، ومثله : وما من حسابك عليهم من شيء. وفتطردهم منصوب بأن مضمرة لأنه جواب للنفي ، وهو ما عليك. وفتكون مثله لأنه جواب للنهي ، وهو لا تطرد. سلام عليكم مبتدأ وخبر ، والجملة مفعول القول. والمصدر المنسبك من انه من عمل بدل من الرحمة ، أي كتب انه من عمل. وكذلك الكاف بمعنى مثل في محل نصب صفة لمصدر محذوف ، أي نفصل الآيات تفصيلا مثل ذلك.

المعنى :

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾. طلب المشركون من النبي (ص) أن يخبرهم بالغيب ويفجر الينابيع ، ويأتي بالملائكة ، ويرقى إلى السماء ، ويسقطها عليهم ، وما إلى ذلك مما لا يمت إلى موضوع الرسالة بصلة ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية ، وأمره النبي أن يقول لهم : انه ليس بإله ، ولا ملك ، وإنما هو بشر يوحى إليه وكفى.

وبتعبير ثان ان لئله صفات تخصه ، ومنها انه قادر على كل شيء ، عالم بكل شيء ، وأيضا للملك صفات تخصه ، ومنها انه يرقى إلى السماء ، ولا يأكل الطعام ، ولا يمشي في الأسواق ، أما الرسول فهو بشر كسائر الناس ، وإنما يمتاز عنهم بنزول الوحي عليه من ربه ، مبشرا من استجاب له بحسن الثواب ، ومنذرا من أعرض بسوء العقاب ، وليس من موضوع الرسالة واختصاصها أن يتنبأ بالغيب ، ويأتي بالخوارق ، فالخلط بين صفات الله وصفات ملائكته ورسله جهل وعمى.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾. أي فرق بعيد بين الجاهل الضال الذي لا يفرق

بين صفات الله وصفات الرسول ، وبين من يعرف ان الرسول بشر

يجري عليه ما يجري على غيره من الناس إلا انه يوحى اليه ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ في ان الرسول ليس لها ولا ملكا ، وانه بشير ونذير ، فتتصفوا من أنفسكم ، وتؤمنوا بلا إله إلا الله محمد رسول الله؟.

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾. الضمير في يعود إلى القرآن الذي تقدمت اليه الإشارة في قوله تعالى : ﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾. واختلف المفسرون في المراد من قوله : ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ : هل هم المؤمنون ، أو الكافرون بالنظر إلى أن بعضهم كان يتأثر من تخويف النبي وإنذاره ، كما جاء في تفسير الرازي.

وفي رأينا ان النبي (ص) بعد أن أنذر الناس بما تقوم به الحجة عليهم أمره الله سبحانه في هذه الآية أن يستمر ويتابع إنذار المؤمنين بالقرآن ليزدادوا إيمانا وعلما بالدين وأحكامه ، وأيضا أن ينذر به غير المؤمنين ممن ترجى هدايته بمتابعة الانذار وتكراره.

﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. أي حين تنذرهم يا محمد يستمعون اليك ، ويتتفعون بانذارك لهم ، ويدركون انه لا ولي ينصرهم من دون الله ، ولا شفيع يشفع عنده إلا باذنه.

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾. الغداة والعشي كناية عن مداومة ذكرهم لله وعبادتهم له ، كما تقول : الحمد لله بكرة وأصيلا ، ووجه الله كناية عن الله ، لأنه تعالى ليس كمثله شيء ، وضمير حسابهم وعليهم وتطردهم يعود الى المؤمنين الذين يدعون ربهم ، ومعنى ما عليك من حسابهم ان حسابهم وحساب غيرهم لا يدخل في موضوع النبوة ، ولا هو من شئونها ، وانما حسابهم على الله وحده ، تماما كحسابك أنت يا محمد ، لا فرق بينك وبينهم من هذه الحيثية.

ان المسلم يؤمن إيمانا قاطعا بأن محمدا (ص) أشرف الخلق على الإطلاق ، وفي الوقت نفسه يؤمن بأن عظمة محمد لا تخول له أن يحاسب أحدا ، أو يعاقبه أو يثيبه ، ان الحساب والجزاء لله ومن الله وحده لا شريك له ، وبهذه الفضيلة

امتاز الإسلام عن جميع الأديان ، بنفي السبيل للإنسان على انسان كائنا من كان وبها نعتز نحن المسلمين ونفاخر الاشتراكيين والشيوعيين والقوميين والديمقراطيين ، وجميع أهل الأديان والمذاهب.

وذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية ان المترفين من قريش مروا برسول الله (ص) ، وعنده عمار بن ياسر وخباب وبلال وغيرهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا يا محمد أرضيت بمؤلاء؟ أهؤلاء نكون تبعاً ، فنحهم عنك ، حتى نخلوا بك ، ثم إذا انصرفنا فأعدهم إلى مجلسك ان شئت .. وقيل ان النبي (ص) أراد أن يجيبهم إلى ما طلبوا فنزلت الآية.

وظاهر اللفظ لا يأبى ذلك ، بخاصة قوله : ﴿فَتَطَرُّدُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لهم حيث انهم أولى بمجلسك والاستفادة منك ، وبتعبير ثان ان النبي أراد أن يقرب الأغنياء ليستفيدوا منه ، فقال له الجليل : الفقراء أولى بالاستفادة ، فإن تركت هذا الأولى ظلمت الفقراء المؤمنين من حيث الاستفادة.

وتسأل : الا يتنافى ترك الأولى والأرجح مع العصمة؟.

الجواب : ان ترك الأولى جائز ، وليس محرماً ، حتى يتنافى مع العصمة .. هذا ، إلى أن النبي لم يحاول طرد الفقراء استنكافاً من فقرهم ، بل حرصاً وطمعاً في اسلام الرؤوس ، فبهِ سبحانه النبي الى أن الإسلام غني عن هؤلاء المتكبرين الطغاة ، وان لهم يوماً يستسلمون فيه أذلاء صاغرين ، كما حدث بالفعل.

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾. معنى الفتنة هنا الاختبار ، واختبار الله لعبده أن يظهره للملأ على حقيقته عن طريق أفعاله وأعماله ، كما بينا ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٩٤ من سورة المائدة ، فقرة : معنى الاختبار من الله. واللام في ليقولوا للعاقبة ، أي اختبرنا الأغنياء بالفقراء ، ليشكروا الله على نعمته عليهم ، فال أمرهم الى التكبر والاستعلاء ، قال الإمام علي (ع) :

«لا تعتبروا الرضا والسخط بالمال والولد جهلاً بمواقع الفتنة والاختبار في مواضع الغنى والافتقار ، وقد قال سبحانه : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ . ٥٦ المؤمنون. فان الله سبحانه

يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائهم المستضعفين في أعينهم. ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون (ع) على فرعون ، وعليهما مدارع الصوف ، وبأيديهما العصي ، فشرطا إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزه ، فقال : ألا تعجبون من هذين يشترطان لي دوام العز وبقاء الملك ، وهما بما ترون من حال الفقر والذل؟. فهلا القي عليهما اسارة من ذهب؟.. إلى قوله . : ولكن الله سبحانه جعل رسله أولى قوة في عزائمهم ، وضعفة فيما ترى الأعين من حالهم.

السلام عليكم ورحمة الله :

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

قال رسول الله (ص) : أدبني ربي فأحسن تأديبي. وأي أدب كأدب خالق السموات والأرض؟. وأية نفس ينمو ويثمر فيها الأدب الإلهي كنفس محمد؟. لقد أدب سبحانه هذه النفس الطيبة الزاكية ، ليؤهلها لرسالته ، رسالة الرحمة للعالمين التي بها وبصاحبها تمت مكارم الأخلاق .. أدب الله محمدا في العديد من آياته ، ومنها هذه الآية ، وهي تعلم رسول الله وخير خلق الله كيف يسلك ويعامل الضعفاء والمساكين .. فكان يلقاها بالبشاشة والترحاب ، ويقول : سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ، ويحبس نفسه معهم ، ما داموا في مجلسه ، حتى يكونوا هم الذين ينصرفون.

وإذا كان النبي مقصود الله بهذا التأديب فنحن مقصودون بالتأسي والافتداء به ، فلا نكرم أحدا لمال أو جاه أو جنس ولون ، وإنما نكرم ونحترم للدين والخلق الكريم ، قال بعض المفسرين الجدد : كانت الحياة البشرية قبل محمد (ص) في الحضيض ، فرفعها محمد إلى القمة ، وتراجعت الآن عن القمة السامقة ، وانحدرت في نيويورك وواشنطن وشيكاغو ، حيث العصبية التتنة ، عصبية الجنس واللون.

أجل ، لا جنس ولا لون ، ولا جاه ولا ثراء ، لا فضل في الإسلام إلا بالتقوى ، وفي هذا المبدأ الإسلامي الإلهي يكمن السر لتواضع المراجع الكبار من

علماء المسلمين .. يصل اليهم الصغير والكبير على السواء ، دون بواب وحجاب ، ويخاطبهم على سجيته بما شاء ، ودون تكلف وتحفظ .. أما البابا ومن اليه من رؤساء الأديان فلا يحلم بمجالسته ومخاطبته إلا وزير وكبير ، على أن يحدّد له من قبل وقت المقابلة وأمدّها.

وعودا إلى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾. السلام عليكم ورحمة الله ، هذه هي تحية الإسلام ، دعاء بالنجاة لمن تحييه من كل سوء ، والعيش بأمان واطمئنان ، ورحمة الله ورضوانه ، إذ لا نجاة ولا أمان مع غضبه جل وعلا ، أما إذا عطفت بركات الله على رحمته فقد دعوت لصاحبك بالرزق الواسع ، والعطاء الجزيل .. وأين مرحبا وصباح الخير ونهارك سعيد من هذه التحية الإلهية الإسلامية؟! . وسبق قوله تعالى : ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ في الآية ١٢ من هذه السورة ، وقلنا في تفسيرها : ان رحمته تعالى لا تنفك عن ذاته القدسية ، تماما كقدرته وعلمه.

﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. المراد بالجهالة هنا السفاهة ، أما التوبة فقد عقدنا لها فصلا خاصا بعنوان التوبة والفرطرة عند تفسير الآية ١٨ من سورة النساء ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذا هو الرب الذي نعبده ، يغفر لمن أناب ، ويرحم العباد ، وكل من رحم الناس وعمل لصالحهم فقد عبد الله في عمله ، وان جحدته بلسانه ، وكل من اعتدى على حق من حقوقهم فقد كفر بالله . عمليا . وإن هلك وكبّر.

﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَتِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾. ذكر سبحانه في كتابه صفات الصالحين ، وأيضا ذكر صفات المجرمين ، ليظهر كل فئة بسماتها .. هذا ، إلى أن معرفة إحدى الفئتين تستدعي معرفة الأخرى ، تماما كالهداية والضلالة.

لا اتبع أهواءكم الآية ٥٦ . ٥٨ :

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ

أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِّي الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) ﴿

اللغة :

القصص تتبع الأثر ، أو ذكر الخبر ، وهذا المعنى هو المراد هنا. والفصل القضاء والحكم.

الاعراب :

إذا ، معناها الجزاء ، أي ان اتبعت أهواءكم فقد ضللت. وضمير به يعود إلى ربي. وكذبتهم به يجوز أن تكون الواو للاستئناف ، ويجوز للحال على إضمار قد قبل كذبتهم ، لأن المقرون بالواو لا يكون حالا إلا مع قد ظاهرة أو مضمرة.

المعنى :

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. في الآية السابقة أشار سبحانه إلى سبيل المجرمين ، وفي هذه بيّن هذا السبيل ، وانه عبادة غير الله ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾. لأن دعوتهم لا مصدر لها إلا الهوى والضلال ، فكيف يتبعها الرسول الأعظم؟. ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾. أي اني أعبد الله عن علم ، وأنتم كفرتم به ، وعبدتم الأصنام عن جهل ، وفي أي منطق يكون العالم تابعا للجاهل ، والمبطل قائدا للمحق.

﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾. لما دعاهم رسول الله إلى الإيمان قالوا له : ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فأمره الله سبحانه أن يقول لهم : ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ بل هو عند الله ينزله في الوقت الذي يريد ، ولا قدرة لي على تقديمه أو تأخيره ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ في تنزيل العذاب وتقديمه وتأخيره ، وفي كل شيء ﴿يُقْصُ الْحَقُّ﴾ أي يقول الحق ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ لا يظلم أحدا في فصله وقضائه.

﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ باهلاك من ظلم منكم غضبا لله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ يعجل أو يؤجل العذاب على ما تقتضيه حكمته.

وعنده مفاتيح الغيب الآية ٥٩ . ٦٢ :

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ لَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢)﴾

اللغة :

مفاتيح جمع مفتاح يفتح الميم ، وهو المخزن ، وبكسرهما المفتاح الذي تفتح

به الأقفال ، ومفاتيح جمع مفتاح. وجرحتم أي كسبتم من جوارح الإنسان ، وهي أعضاؤه التي يكسب بها الأعمال. والأجل المسمى الأمد المعلوم. والمراد بالحفظة الملائكة الذين يحفظون على الإنسان أعماله.

الاعراب :

جملة لا يعلمها إلا هو حال من مفتاح. ومن ورقة من زائدة وورقة فاعل تسقط. إلا في كتاب مبين لا يجوز أن يكون استثناء من وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، إذ يصير المعنى انه تعالى يعلم كل شيء إلا الموجود في كتاب مبين فإنه لا يعلمه ، تماما كما تقول : لا شيء إلا أنا عالم به إلا ما في الصندوق ، وعليه يتعين ان يتعلق في كتاب مبين بخبر محذوف لمبتدأ محذوف ، تقديره إلا هو موجود في كتاب مبين. بالنهار الباء بمعنى في. ومولاهم صفة لله. والحق صفة ثانية.

المعنى :

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الدَّرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. مفاتيح الغيب خزائنه ، والمعنى ان الله يعلم الكون وما حدث ويحدث فيه كليا كان أو جزئيا ، ماديا كان أو معنويا ، ولا يتقيد علمه تعالى بزمان أو مكان أو بحال دون حال ، لأن علمه ذاتي لا كسبي ، وليس لذاته زمان ومكان ، ولا هي تتغير بتغير الأحداث والأحوال. وفي الحديث : ان مفاتيح الغيب خمس : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾. ٣٤ لقمان.

وقال الفيلسوف الملا صدرا : إن جميع الأشياء الكلية والجزئية فائضة عنه ، وهو مبدأ لكل موجود عقليا كان أو حسيا ، ذهنيا كان أو عينيا ، وفيضانها عنه لا ينفك عن انكشافها لديه.

وقال العلامة الحلي المتكلم : كل موجود سوى الله فهو ممكن مستند اليه ، فيكون عالما به ، سواء أكان جزئيا أم كلياً ، وسواء أكان موجوداً قائماً بذاته أم عرضاً قائماً بغيره ، وسواء أكان في الأعيان أم في الأذهان ، لأن وجود الصورة في الذهن من الممكنات أيضاً ، فيستند اليه ، وسواء أكانت الصورة الذهنية صورة أمر وجودي ، أم عديمي ممكن أم ممتنع ، فلا يعزب عن علمه شيء من الممكنات ولا من الممتنعات .

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾. الوفاة والموت بمعنى واحد في مفهوم العرف ، وهو عدم الحياة ، وتستعمل كل من الكلمتين في النوم مجازاً ، لأن الحواس تتعطل عن أعمالها بسببه ، ومنه قوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ . ٤٢ الزمر ، أي ان الله يقطع صلة الأرواح بالأبدان ظاهراً وواقعاً حين الموت ، ويمسكها عنده ، ويقطع هذه الصلة ظاهراً لا واقعاً حين النوم ، وعند اليقظة ترجع الصلة كما كانت وتبقى إلى الوقت المضروب للموت الحقيقي .. فالنائم ميت وحي في آن واحد ، والمراد بالوفاة في الآية الموت المجازي ، قال الإمام علي (ع) : تخرج الروح عند النوم ، ويبقى شعاعها في الجسد ، وبذلك يرى الرؤيا فإذا انتبه من النوم عادت الروح بأسرع من لحظة .

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾. يريد ما كسبت جوارحكم من أعمال ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمُ فِيهِ﴾. ضمير فيه يعود إلى النهار ، ومعنى يبعثكم يوقظكم من النوم . وقال المفسرون : إن هذا الكلام دليل على صحة البعث والقيامة ، لأن النوم يشبه الموت ، واليقظة تشبه الحياة بعده . ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر في ليلكم ونهاركم .

والخلاصة ان كل إنسان يموت بانتهاء أجله المكتوب ، ثم يبعثه الله بعد الموت ، تماماً كما يوقظه من النوم ، ثم يجزي يوم البعث كل نفس بما كسبت ، وهم لا يظلمون . وإذا قال قائل : لما ذا خصت الآية النوم بالليل ، والعمل بالنهار ، مع ان الإنسان قد ينام نهاراً ، ويعمل ليلاً؟ قلنا له : إن الآية وردت مورد الغالب .

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾. وكفاهم قهرا ان يأتوا إلى هذه الحياة مسيرين ويتركوها مكرهين .. قال الإمام علي (ع) : لا شيء إلا الواحد القهار الذي اليه مصير جميع الأمور بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها ، وبغير امتناع منها كان فناؤها.

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾. وهؤلاء الحفظة من الملائكة ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ حَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾. ١٣ الانفطار. ونحن نؤمن بذلك ، لأن الوحي أخبر عنه ، والعقل لا يأباه ، ولم يرد في كلام الله ، ولا في كلام الرسول بيان لصفة الكاتب والكتابة ، والعقل لا يلزم بالبحث والسؤال عنهما ، فندعهما لعلم الله تعالى. أما من شبه الملائكة الكاتبين برجال البوليس السري ، كما في تفسير المنار والمراغي ، أما هذا التشبيه فهو من قياس الغيب على الشهادة ، والسماء على الأرض ، مع وجود الفارق البعيد.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾. وتجد تفسيره في قوله تعالى : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾. ١١ السجدة ، وهذا أيضا من الغيب الجائز عقلا ، الثابت وحيا ، تماما كالحفظة الكاتبين. ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ ليقضي فيهم بحكمه ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ يحاسب ويحكم وينفذ في أقصر أمد ، لأن الحق جلي ، والحكم مبرم ، والجزاء معد ، وكل شيء يتم بمجرد الارادة.

قل من ينجيكم الآية ٦٣ . ٦٧ :

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلِ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا

وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ
وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

اللغة :

المراد بالظلمات هنا الشدائد والأهوال ، يقال لليوم الذي فيه شدة يوم مظلم. ولبس عليه الأمر إذا لم يبينه ، وخلط بعضه ببعض. والشيع الفرق ، وكل فرقة شيع على حدة. والفقه فهم الشيء بدليله. والمستقر مكان استقرار الشيء أو زمانه.

الاعراب :

جملة تدعونه حال من مفعول ينجيكم. وتضرعا مصدر في موضع الحال ، أي متضرعين. ومن فوقكم متعلق بمحذوف صفة لعذاب. وشيعا حال من مفعول يلبسكم. وكيف مفعول نصرف. وبوكيل الباء زائدة ، وبوكيل خبر ليس ، وعليكم متعلق بوكيل. ولكل خبر مقدم ، ومستقر مبتدأ مؤخر.

المعنى :

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾. ظلمات البر والبحر كناية عما يلاقيه الإنسان من الشدائد والآلام في حله وترحاله برا وبحرا ، ونعطف عليهما جوا بعد أن صرنا في عصر الفضاء ، وهو أكثر خطرا من البر والبحر ، والمعنى : سل أيها الرسول المشركين والجاحدين ، سلهم : لمن

يلجئون في ساعة العسرة ، ويتضرعون في سرهم وعلاانيتهم ، هل يلجئون الى الله ، أو إلى من يعبدون من دونه؟.

وقلنا عند تفسير الآية ٤١ من هذه السورة : ان الفطرة تدرك خالقها تلقائيا ، ولكن حجاب التقليد والأهواء يمنع شعاعها عن العيان ، وعند الشدائد يتقشع هذا الحجاب ، وينطق الإنسان بفطرته النقية الصافية. ولا أحد ينجو من هذه الشدائد كائنا من كان ، حتى المعافى يخشى الغوائل ، ويخاف من سوء العاقبة إذا كان عاقلا ، قال الإمام علي (ع) : ما المبتلى الذي اشتد به البلاء بأحوج إلى الدعاء من المعافى الذي لا يأمن البلاء.

﴿لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾. أي انهم يخلصون لله وحده عند الشدة والخوف ، ويقطعون العهود على أنفسهم أن يوحدوا الله ويشكروه إذا أنجاهم من ظلمات البر والبحر ، فإذا انتقلوا إلى الأمن والرفاهية أشركوا وبغوا ، وقد أثبت العلم ان ضعف الشخصية والارادة يتكيف مع الظروف ، تماما كالماء يتلون بلون الإناء.

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ فكان عليكم أن تعظموا نعمة الله وتشكروها ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ولكنكم بعد أن أنعم عليكم بالنجاة بدلتهم نعمة الله كفرا وشركا.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ كالصواعق والظوفان ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كالخسوف والزلازل ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾ أي يخلطكم أو يجعلكم أحزابا متطاحنة لا تقوم لكم معها قائمة ، أو يجعل الواحد منكم في حرب وخصام مع نفسه يرضى مساء عما غضب عليه صباحا ، وبالعكس ، فتضطرب حاله ، ولا يستقيم له أمر ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾. أي يقتل بعضكم بعضا ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾. ان الله سبحانه يقيم للناس الحجج والدلائل الواضحة على الحق من الحس والعقل والوجدان ، ويضرب الأمثال من هذه بشتى الأساليب ، ليعرفوا الحق فيتبعوه ، والباطل فيجتنبوه ، ومن خالف قامت عليه الحجة ، واستحق العذاب.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾. الخطاب للنبي (ص) ، وضمير به يعود

إلى القرآن الناطق بالدلائل والبيّنات ، وبعذاب من كذب بها ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ .
بل بشير ونذير يبلغ ما أرسل به ، ويترك أمر الحساب والعقاب لله وحده .
﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ﴾ . يجوز أن يكون المستقر موضع استقرار الشيء ، أو وقت
استقراره ، والمعنى ان لكل خبر يخبره الله زمانا أو مكانا يقع فيه من غير خلف ﴿وَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ﴾ أو ان وقوعه ، وفيه تهديد ووعيد على تكذيب الحق .

حتى يخوضوا في حديث غيره الآية ٦٨ . ٧٠ :

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا
يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ
حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا هَلْهَوْا وَعَرَّهَتْهُمْ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ
كُلٌّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا هُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا
كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾

اللغة :

خاض في الماء دخل فيه ، وخاض في الحديث استرسل في قول الباطل .

والذكرى تستعمل في التذكر ، وهو المراد من ﴿بَعْدَ الذِّكْرِ﴾ وتستعمل في التذكير ، وهو المراد من ﴿وَلَكِنْ ذِكْرِي﴾. والبسل الحبس والمنع ، يقال شجاع باسل ، أي يمنع نفسه ويجبسها عن خصمه ، وان تبسل نفس ، أي تحبس وترتحن بما كسبت. وان تعدل العدل بمعنى الفداء. والحميم الشديد الحرارة.

الاعراب :

الضمير في غيره يعود إلى معنى الآيات ، وهو القرآن. ومن شيء من زائدة ، وشيء مبتدأ وخبره على الذين ، ومن حسابهم متعلق بمحذوف حالا من شيء ، والتقدير شيء كائنا من حسابهم ، وضمير حسابهم يعود إلى الخائضين الذين دل عليهم يخوضوا ، وذكرى مفعول مطلق ، أي ذكروا تذكيرا. ودينهم مفعول أول لاتخذوا ، ولعبا مفعول ثان. والدنيا صفة الحياة. وتسبك ان وتبسل بمصدر مفعولا من أجله لذكر به. وولي اسم ليس ، ولها خبرها ، ومن دون الله في موضع الحال من ولي. وكل عدل مفعول مطلق ، لأن كلا تعطى ما تضاف اليه. وأولئك الذين أبسلوا مبتدأ وخبر ، وجملة لهم شراب حال من الواو في أبسلوا.

المعنى :

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾.

مر تفسيره في الآية ١٣٩ من سورة النساء.

﴿وَإِنَّمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. الخطاب للنبي

ظاهرا ، والمقصود غيره واقعا ، لأن النبي معصوم عن المعصية والخطأ والنسيان ، والا لم يكن قوله وفعله وتقريره حجة بالغة ، ودليلا قاطعا ، لا يقبل الجدل والنقاش.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

أي ليس على المؤمنين المتقين شيء من تبعه الكافرين الذين يخوضون في آيات الله ولكن يذكروهم وينهونهم لعلهم يجتنبون الخوض في آياته تعالى .

أما الآية التالية ففيها أمور :

١ . ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَهَوًّا وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وذر الأمر موجه ظاهرا للنبي ، وواقعا له ولمن تبعه من المؤمنين ، أمرهم الله سبحانه أن يتركوا معاشره الذين اتخذوا دينهم لعبا وهوا ، ولم يأمرهم بإهمالهم وعدم إنذارهم ، لأن قوله تعالى : ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ أمر بالإنذار .

وكل من انتسب الى دين من الأديان ، ولم يحترم ويقدر جميع مبادئه وأحكامه فقد اتخذ دينه لعبا وهوا ، فمن تكسب بالدين ، أو وصف حكما من أحكامه بما يدعو إلى الهزل والسخرية فهو من المعنيين بقوله تعالى : ﴿اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَهَوًّا﴾ . وليس من شك ان من لا يدين بدين خير ممن ينتسب الى دين يهزأ بأحكامه ومبادئه ، لأن هذا في واقعه قد اتخذ اللعب واللهو بالدين دينا له .

٢ . ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ . بعد أن أمر سبحانه النبي والمؤمنين أن لا يعاشروا الذين اتخذوا دينهم لعبا ، أمرهم أن يذكروا بالقرآن أولئك الذين يخوضون في آيات الله ، ويتلاعبون بالدين كيلا يؤخذوا بما كسبت أيديهم من الجرائم والآثام في يوم لا يجدون فيه ناصرا ينصرهم من دون الله ، ولا شفيعا يشفع لهم عند الله ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ . العدل هنا الفدية ، والمعنى انه كما لا يجد الكافر وليا ولا شفيعا يوم القيامة كذلك لا تقبل منه الفدية بالغة ما بلغت ، قال الرازي : إذا تصور الإنسان كيفية العقاب على هذا الوجه يكاد يردد إذا أقدم على معاصي الله .

٣ . ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا هُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ . أولئك اشارة إلى الذين اتخذوا دينهم لعبا ، وأبسلوا بما كسبوا ، أي صاروا مرتعنين بأعمالهم ، أما قوله : ﴿هُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهو بيان للعقاب على كفرهم وعصيانهم .

قل اندعوا من دون الله الآية ٧١ . ٧٣ :

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَظِرْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأُمرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)﴾

اللغة :

الأعقاب جمع عقب ، وهو مؤخر الرجل ، وتقول العرب فيمن عجز بعد قدرة :
نكص أو ارتد على عقبه. والحيران التائه الذي لا يدري ما يصنع؟. والصور في اللغة القرن ،
وقد ثقب الناس قرون الوعول وغيرها ، وجعلوا منها أبواقا ينفخون فيها.

الإعراب :

كالذي الكاف بمعنى مثل في محل نصب صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي نرد ردا
مثل رد الذي استهوته. وحيران حال من ضمير استهوته. وله أصحاب مبتدأ وخبر ، والجملة
صفة لحيران. ولنسلم اللام بمعنى كي ، وان مضمرة

بعدها ، والمصدر المنسبك مجرور بما متعلق بأمرنا ، والتقدير أمرنا بذلك للإسلام. وإن أقيموا الصلاة عطف على لنسلم. ويوم يقول يوم منصوب بمعنى ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾. وفاعل كن فيكون ضمير مستتر يعود على الشيء المحذوف ، أي يقول للشيء كن فيكون. وعالم الغيب خبر مبتدأ محذوف ، أي هو عالم الغيب ، ويجوز أن يكون صفة للذي خلق السموات والأرض.

المعنى :

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ دعا الرسول الأعظم (ص) المشركين الى عبادة الله ، فدعوه بدورهم الى عبادة أصنامهم ، وقيل : اقترحوا عليه أن يعبد معهم آلهتهم ، ويعبدوا معه ربه لقاء عبادته لأصنامهم ، ومهما كان ، فإن الله سبحانه أمره في هذه الآية ان يقول لهم مستنكرا : كيف نترك عبادة الله النافع الضار الى عبادة ما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا؟. ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾. الرد على الأعقاب كلمة تقال لمن يرجع القهقري ، ولا أحد أكثر تأخرا ، ورجوعا إلى الوراء ممن أعرض عن الحق الى الباطل ، وعن التوحيد الى الشرك.

﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَهِ﴾. هذا مثال ضربه سبحانه لمن أعرض عن التوحيد الى الشرك أو الإلحاد ، ويتلخص بأن مثل هذا كمثل رجل كان مع قافلة تسير على طريق الأمن والسلامة فتركها ، وهام على وجهه في الفلوات ضالا ، لا يهتدي إلى شيء ، تماما كالذي يتخبطه الشيطان من المس ، فأشفق رفاقه عليه ، ونادوه : هلم إلينا .. هذا هو طريق النجاة ، ولكنه لم يستجب لدهوله وحيرته ، فكانت نهايته الوبال والهلاك.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾. هذا التركيب البياني يفيد ان هدى الله لا يتطرق اليه الشك ، كما يفيد حصر الهداية بالله وحده في كل شيء ، في العقيدة والتشريع والأخلاق والأوضاع .. وأية عقيدة أو فكرة ، أو أي عمل لا يلتقي مع هدى الله فهو جهالة وضلالة ﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. هذا من باب

ذكر الخاص بعد العام ، لأن هدى الله يدخل فيه كل ما أمر الله به ، ونهى عنه ، والقصد من ذكر الإسلام بالخصوص التنبيه الى عظمتة ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾. إذ لا هداية ، بل ولا اسلام إلا بها ، فإنها عمود الدين ، ان قبلت قبل ما سواها ، وان ردت رد ما سواها ، واتقوه : الضمير يعود إلى رب العالمين ، وأمر سبحانه بالتقوى بعد الأمر بالصلاة ، لأنه لا صلاة ولا إيمان صحيحا بلا تقوى ، فعبادة الله حقا هي السير على منهاجه ، وطاعته في جميع أحكامه ، لا في بعض دون بعض.

﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. قال تعالى : ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.

٢١ ق ، سائق يسوقها إلى محشرها ، وشاهد يشهد عليها بما أعدت لهذا اليوم.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾. الحق هنا إشارة إلى أن للكون قوانين

تحكمه ، وسننا يسير عليها باطراد ، تحول دون الفوضى التي لا يستقيم معها شيء على الإطلاق .. وفي هذا دلالة بالغة على وجود من يدبر الأمر ، ويجزي كل نفس بما كسبت.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾. في الكلام حذف وتقديم وتأخير ، وأصله

هكذا : وقوله الحق يوم يقول للشيء كن فيكون ، ومعناه ان قول الله واقع لا محالة ، ويظهر ذلك جليا واضحا للعيان يوم يقول للشيء كن فيكون ، سواء أقال هذا القول يوم بدأ الخلق ، أم يوم يعيده ، وبكلمة : ان قول الله عين فعله في إيجاد الشيء من لا شيء ، وفي إعادته إلى ما كان عليه بعد انحلاله وتفرق أجزائه ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾. والنفخ في الصور كناية عن بعث من في القبور ، ومعنى ملكه لهذا البعث انه هو الذي يعيد الموتى إلى الحياة.

مع أهل التصوف :

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾. الغيب هو الشيء الخفي المستور ، كالملائكة والبعث وما

يضمرة الإنسان في نفسه ، والشهادة ما كان ظاهرا كالأرض والسماء ، وما

يفعله الإنسان علانية ، وهذا التقسيم صحيح بالنسبة إلى الإنسان ، أما بالنسبة إليه تعالى فلا غيب عنه ، لا في الأرض ولا في السماء.

أجل ، ان أهل التصوف يدعون لأنفسهم الكشف عن الغيب ، قال ابن العربي في الفتوحات المكية ، الباب الثاني وثلاثمائة : إن لأهل الله أعينا يصرون بها ، وآذاناً يسمعون بها ، وقلوباً يعقلون بها ، وألسنة يتكلمون بها غير هذه الأعين والآذان والقلوب والألسنة ؛ فبتلك الأعين يشهدون ، وبتلك الآذان يسمعون ، وبتلك القلوب يعقلون ، وبتلك الألسن يتكلمون ، فكلامهم مصيب .. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَبِيرُ﴾ وحده لا شريك له في تدبير الخلائق على مقتضى حكمته ، وفي العلم بالخفايا والأسرار .. فليثق الله من يزعم ان له قلبين ولسانين وأربعة أعين ومثلها من الآذان.

ابراهيم مع ابيه وقومه الآية ٧٤ . ٧٩ :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾

اللغة :

ملكوت الله سلطانه وعظمته. وجنه الليل ستره. والأفول غياب الشيء بعد ظهوره. وبزوغ الشيء ابتداء طلوعه. وفطر السموات والأرض أخرجهما الى الوجود على غير مثال سابق. والحنيف المائل عن الضلال.

الإعراب :

وإذ قال ابراهيم ، أي اذكر إذ قال. وآزر بدل من أبيه ، وهو ممنوع من الصرف لوزن الفعل والعجمة أو العلمية. وكذلك الكاف بمعنى مثل في محل نصب مفعولا مطلقا لنري ابراهيم ، أي نري ابراهيم مثل ما رأى أباه وقومه. وليكون الواو للاستئناف ، ويكون منصوبة بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك مجرور باللام ، ومتعلق بفعل محذوف ، والتقدير ولجعله من الموقنين أريناه. وبازغا حال من القمر ، ولا يصح أن يكون مفعولا ثانيا لرأى ، لأن الرؤية هنا بصرية ، وليست قلبية ، ومثله بازعة.

المعنى :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلهَةً إِنَّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

ظاهر الآية يدل صراحة على ان آزر أب حقيقي لإبراهيم الخليل (ع) وانه كان مشركا يعبد الأصنام ، وان ابراهيم نهاه عن الشرك ودعاه إلى التوحيد .. هذا هو مدلول الآية الذي يتبادر إلى فهم العالم والجاهل على السواء ، من غير شرح وتفسير ، ومع هذا فقد أطلال المفسرون الكلام واختلفوا : هل آزر أب حقيقي لإبراهيم ، أو أب مجازي؟ وهذا الاختلاف يتفرع عن اختلاف آخر هو : هل جميع آباء محمد (ص) وأجداده يجب أن يكونوا موحدين ، ولا يجوز أن يكون فيهم مشرك واحد ، أو يجوز أن يكون فيهم المشرك والموحد؟ وبعض العلماء ألفوا رسائل خاصة في ذلك.

قال الشيعة : جميع آباء محمد وأجداده موحدون لحديث : ما زلت انتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات ، حتى أخرجني الله إلى عالمكم هذا. وقالوا : الأب الحقيقي لإبراهيم اسمه تارح ، وان آزر أخو أبيه ، أو جده لأمه ، وأطلق عليه لفظ الأب مجازاً^(١). وقال الألوسي في تفسيره : وعلى هذا جم غفير من السنة ، أي انهم يقولون بمقالة الشيعة. ولكن صاحب تفسير المنار والرازي قالا : ان السنة لا يوافقون الشيعة على رأيهم هذا ، ويميزون أن يكون في أجداد النبي مشرك أو ملحد .. وظاهر القرآن مع السنة ، بخاصة قوله : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ . ٤٢ مريم.

وعلى أية حال ، فلا جدوى من هذا النزاع ، وبسط الكلام فيه تكثير له من غير طائل ، لأنه لا يمت إلى عقيدة الإسلام بصلة ، فإن المطلوب من المسلم الإيمان بنبوّة محمد (ص) وعصمته ، وأنه سيد الأنبياء وخاتمهم ، أما الإيمان بأن جميع آبائه وأجداده موحدون ، وانه آزر عم إبراهيم لا أبوه ، أما هذا فليس من عقيدة الإسلام في شيء. ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. المراد بذلك ان الله سبحانه كما كشف لإبراهيم عن ضلال قومه في عبادتهم الأصنام فقد كشف له أيضا عن عجائب السموات والأرض ليستدل ببديع نظامهما وغريب صنعهما على وجود الله ووحدانيته وعظمته ﴿وَلْيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِّنِينَ﴾ فيؤمن عن حجة ودليل ، وتدل هذه الآية على أمرين : الأول : ان عقيدة الإسلام تقوم على حرية الرأي والعقل ، لأن الله سبحانه ما أوجب الإيمان به إلا بعد أن أقام الدليل عليه ، ودعاهم الى النظر فيه.

الثاني : ان الدليل الذي أقامه على وجوده ميسور وسهل على جميع الافهام

(١). لقد تواتر ان عبد المطلب جد النبي (ص) حلف إذا رزق عشرة بنين أن يضحي بواحد منهم ، وان السهم خرج على عبد الله أبي محمد (ص) ، وهذا يتنافى مع القول : ان جميع أجداد النبي كانوا على دين إبراهيم.

لا يحتاج الى جهد ، ولا إلى علم وفلسفة ، فيكفي أن ينظر الإنسان إلى عجائب الكون والنظام الذي يحكمه ليهتدي إلى خالقه وصانعه المبدع.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾. كان قوم ابراهيم يعبدون الكواكب من دون الله ، فأراد أن يستدرجهم إلى الحق ، ويلفتهم الى منطق العقل والفطرة برفق ولين ، فانتظر حتى جن عليه الليل ، وستر الأرض بظلامه ، ورأى كوكبا مما يعبدون ، فقال محاكاة لزعمهم : هذا ربي. فاطمأنوا اليه ، ولما أفل الكوكب وغاب تحت الأفق أيقظ عقولهم ، ولفت نظرهم إلى أن الآلهة لا تتقلب وتتغير ، ولا يحجبها شيء.

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ﴾ استدراجا لهم واستهواء لقلوبهم : ﴿هَذَا رَبِّي﴾ لأنه أسطع نورا وأكبر حجما من الأول ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ، يشير إلى أنه غير مطمئن النفس لهذه الكواكب ، وانه لم يهتد بعد الى الطريق ، وطلب من الله أن ينقذه من هذه الحيرة.

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾. لقد مضت التجربة الأولى والثانية والثالثة ، وبقي الشك كما كان ، اذن ، لا بد من البراءة من عبادة الكواكب ، لأنها لا تستأهل العبادة ، ولا تستحق الإكبار ، وبعد أن أعلن البراءة من آلهتهم توجه بقلبه إلى خالق الكون ، وقال : ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. هذه هي النتيجة الحتمية للنظرة الفاحصة ، والتفكير الحنيف في أي شيء من أشياء هذا الكون ، نظرة واحدة لا غير بتجرد وتدبر إلى أية صورة من صور هذا العالم تؤدي حتما إلى اليقين الجازم بأن الله وحده هو فاطر السموات والأرض.

اتحاجوني في الله الآية ٨٠ . ٨٣ :

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ﴾

بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا
أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنْكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ
إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ
(٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ
(٨٣) ﴿

اللغة :

تطلق الحجة على الدليل المثبت للحق ، وتطلق على ما يحتج به المدعي على اثبات
دعواه ، أما المحاجة فهي المجادلة والمبالغة في اقامة الحجة. والسلطان البرهان. ولم يلبسوا لم
يخلطوا.

الاعراب :

ما تشركون به ضمير به يعود إلى الله. وتسبك ان يشاء ربي بمصدر في محل نصب
على الاستثناء المنقطع ، أي لا أخاف إلا مشيئة الله. وعلمنا تمييز. وكيف تكون خبرا للمبتدأ
إذا وقعت قبل ما لا يستغنى عنه نحو كيف أنت ، وحالا أو مفعولا مطلقا إذا كانت قبل ما
يستغنى عنه ، كما في الآية ، وعليه يكون محلها النصب على انها مفعول مطلق على معنى
أي خوف أخاف ، أو حال أي على أي حال أخاف والذين آمنوا مبتدأ أول ، وأولئك
مبتدأ ثان ، والأمن مبتدأ ثالث ، ولهم خبره ، وهو مع خبره خبر الثاني ، وهذا مع خبره خبر
الأول. وتلك حجتنا مبتدأ وخبر. وجملة آتيناهما حال. ودرجات مجرورة بإلى محذوفة.

المعنى :

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ بعد أن أورد إبراهيم (ع) على قومه الحجة الدامغة من منطق العقل والفطرة ، وأثبت به فساد عبادتهم للأوثان والكواكب ، بعد هذا أوردوا عليه حججهم الواهية ، وقالوا له فيما قالوا : ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ وخوفوه من بطش آلهتهم به ، فأجابهم إبراهيم ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾. أي ما هذا الحجاج في الله ، وقد هداني إلى معرفته من نفسي ومن الكون ، وتقدم في الآية ٧١ ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ الذي لا يتطرق اليه الشك ، وان ما عداه جهالة وضلالة.

أما التخويف من آلهتهم فقد أجاب عنه بقوله : ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ من دون الله ، لأنه لا يضر ولا ينفع ، ولا يبصر ولا يسمع ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ وذلك بأن يسقط الله صنما على رأسي يشجّه ، أو كسفا من شهب الكواكب يحرقني .. اذن ، فيجب أن أخاف من الله وحده ، لا من الأصنام والكواكب. ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فلا أخاف أن يصيبني مكروه من غير علمه وارادته ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ان آلهتكم ليست بشيء ، وان الله وحده هو الضار النافع ، لأنه خالق كل شيء.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾. المراد بما أشركتم الأوثان والكواكب التي يعبدون ، والمراد بأشركتم بالله جعلهم لله شركاء ، والمعنى أتريدونني أن أخاف آلهتكم المخلوقة العاجزة ، وأنتم لا تخافون زعمكم وجعلكم لله شركاء .. هذا الزعم الذي هو افتراء محض ، لا حجة له ، ولا دليل عليه! .. وبتعبير أوضح ان إبراهيم قال لهم : أتخوفوني مما لا حول له ولا قوة ، وتأمنون أنتم ، وقد افتريتم واعتديتم على من له القوة والعزة جميعا! .. ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الفريق الذي يؤمن بالله القوي العزيز ، ويكفر بالشريك الضعيف ، أو الفريق الذي يؤمن بالضعيف الذليل ، ويكفر بالقوي العزيز! ..

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾. هذا بيان للفريق الناجي من الفريقين ، وانهم الذين أخلصوا لله في إيمانهم ولم يخلطوا

بهذا الايمان شركا في عقيدة ، ولا في طاعة هوى مخلوق كائنا من كان. هؤلاء وحدهم هم الآمنون المهتدون.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾. أي ان تلك الحجج الدامغة التي أفحم بها ابراهيم قومه . نحن ألهمناه إياها .. وفي هذه الآية دلالة واضحة على ان الأنبياء ، ومن اهتدى بهديهم من العلماء هم لسان الله وبيانه ، وان الراد عليهم راد على الله بالذات ، كما جاء في الحديث. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ تجد تفسيره في قوله تعالى : ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ . ١١ المجادلة. فالسبب لرفعة الإنسان عند الله هو الايمان والعلم ، ولكل منهما درجات ، رفيع وأرفع ، وقد بلغ ابراهيم (ع) أرفعها ، حتى صار للرحمن خليلا ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ حكيم منزه عن العبث والشهوة ، عليم بما يستحقه كل انسان من المراتب والدرجات.

ووهبنا له اسحق ويعقوب الآية ٨٤ . ٩٠ :

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ

فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

الإعراب :

كلا هدينا كلا مفعول هدينا. ونوحا مثله. وضمير ذريته يعود إلى نوح ، لأنه أقرب ذكرا من ابراهيم ، ولأن من جملة الأنبياء الآتية أسماؤهم لوط ، وهو ابن أخي ابراهيم ، وليس من ذريته. وداود مفعول لفعل محذوف ، أي ومن ذريته هدينا داود وسليمان الخ. وكذلك بمعنى مثل صفة لمصدر محذوف ، أي ونجزي جزاء مثل ذلك. وكل من الصالحين مبتدأ وخبر ، والجملة معترضة لا محل لها من الإعراب. وكلا مفعول لفضلنا. ومن آبائهم عطف على كلا ، أي وفضلنا كلا من آبائهم. والباء في بكافرين زائدة ، وكافرين خبر ليسوا. وبهداهم متعلق باقتده ، والهاء في اقتده للوقف ، وتسمى هاء السكت.

المعنى :

ذكر سبحانه في هذه الآيات ١٨ نبيا بما فيهم ابراهيم ، وأشار إلى بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ، ووصف الجميع بالإحسان والصلاح والهداية ، وأنه تعالى منّ على الأنبياء المذكورين بالحكمة والنبوة ، ومنّ على بعضهم بتنزيل الكتاب ، والقصد من ذلك أن يحتج محمد (ص) على العرب بأن جدهم ابراهيم وكثيرا من أبنائه كانوا موحدين ، وأيضا أن يتخذ الرسول الأعظم ممن تقدمه من الأنبياء قدوة في الدعوة إلى الله ، والصبر على الأذى في سبيلها. هذا ملخص ما تضمنته الآيات السبع ، وهي واضحة لا تحتاج إلى التطويل في البيان والشرح ، ولكن

بعض المفسرين أبي إلا التطويل ، فخرج عن موضوع التفسير إلى ما لا يمت إليه ولا إلى الحياة بصلة.

وتجدر الإشارة إلى أن أسماء الأنبياء المذكورين في الآيات لم تأت على حسب الترتيب في الزمان أو الفضل ، كما أنهم ذكروا على سبيل المثال ، دون الحصر.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الضمير في ﴿لَهُ﴾ يعود الى ابراهيم ، واسحق ابنه لصلبه مباشرة ، وامه سارة ، ويعقوب ابن اسحق ، وابن الابن ابن ، قال تعالى : ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ . ٧١ هود . ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ من اسحق ويعقوب ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ لأنه أقدم من ابراهيم ، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ الضمير عائد الى نوح لأنه أقرب في الذكر ، وقيل : إلى ابراهيم . ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ أي وهدينا هؤلاء كما هدينا نوحا واسحق ويعقوب ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ لأن الله سبحانه يجزي المحسن بالحسنى ، نبيا كان أو غير نبي ، كما يجزي المسيء بعمله أبيض كان أو أسود . ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ﴾ وهؤلاء أيضا ممن هداهم الله ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وكل من استغل مواهبه لخيره وخير الناس فهو صالح ، ومصلح أيضا .

الحسن والحسين ابنا رسول الله :

قال الرازي في تفسير هذه الآية : انها تدل على ان الحسن والحسين من ذرية رسول الله (ص) لأن الله تعالى جعل عيسى من ذرية ابراهيم ، مع انه لا ينتسب الى ابراهيم إلا بالأم ، فكذلك الحسن والحسين من ذرية رسول الله ، وان انتسبا اليه بالأم .. ويقال : ان أبا جعفر الباقر استدلل بهذه الآية عند الحجاج ابن يوسف .

وقال صاحب تفسير المنار : أقول في الباب حديث أبي بكرة عند البخاري مرفوعا : ان ابني هذا سيد يعني الحسن ، ولفظ ابني لا يجري عند العرب على أولاد البنات ، وحديث عمر في كتاب معرفة الصحابة لأبي نعيم مرفوعا :

وكل ولد آدم فان عصبتهم لأبيهم خلا ولد فاطمة فاني أنا أبوهم وعصبتهم وقد جرى الناس على هذا ، فيقولون في أولاد فاطمة أولاد رسول الله (ص) وأبنائه وعترته وأهل بيته .

ومعنى هذا الكلام ان ولد فاطمة (ع) ليسوا أبناء رسول الله (ص) لغة ، ولكنهم أبنائه شرعا لقول الرسول : أنا أبوهم وعصبتهم وأيضا هم أبنائه عرفا ، لأن الناس قد جروا على القول : ان ولد فاطمة هم أولاد رسول الله وأبنائه وعترته وأهل بيته .. وقد أجمع علماء السنة والشيعة قولاً واحداً على ان الشرع في مداليل الألفاظ مقدم على العرف واللغة ، وان العرف مقدم على اللغة ، لأن الحكيم يخاطب الناس بما يتبادر الى افهامهم ، لا بما هو مسطور في قواميس اللغة ، فإذا أوردت كلمة في آية أو رواية ، ووجدنا معناها تفسيراً خاصاً في كتاب الله أو السنة النبوية فتحمل الكلمة على هذا المعنى الخاص ، ويسمى بالمعنى الشرعي ، ويهمل المعنى اللغوي والعرفي ، وإذا لم نجد لها تفسيراً في الكتاب والسنة فتحمل على ما يفهمه الناس منها ، ويسمى بالمعنى العرفي ، فإن لم يفهم الناس منها معنى معيناً فتحمل على المعنى الموجود في قواميس اللغة .

وعلى هذا يأتي المعنى الشرعي في الدرجة الأولى ، والعرفي في الثانية ، واللغوي في الثالثة ، وقد ثبت شرعا وعرفا ان الحسن والحسين ابنا رسول الله فيتعين ذلك ، وتحمل اللغة ، لأنها محكومة بالشرع والعرف .

أما السر في ان الحسن والحسين ابنا رسول الله ، مع انهما ليسا من أبنائه لغة ، أما هذا السر فيجده الباحث في صفات الحسين وشمائلهما ، انهما عين صفات الرسول الأعظم وشمائله .. وحسب الباحث من سيرة الحسن ان معاوية بن أبي سفيان لم يسعه الملك الذي كان فيه ، وفي الحسن عرق ينبض ، وحسب الباحث من سيرة الحسين ان يزيد بن معاوية ضاقت به الدنيا مع وجود الحسين ، كما ضاقت بأبيه معاوية من قبل ، مع وجود الحسن .

﴿وَأَسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾ هديناهم أيضا ﴿وَكَلَّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ في زمانه ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ من ، هنا للتبويض ، أي وفضلنا البعض من كل صنف من هؤلاء ، لأن من ذرياتهم وإخوانهم كانوا

كافرين ، بل لم يكن لعيسى ويحيى نسل وذرية ﴿وَأَجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هذا المديح والثناء تمهيد لقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾. أي ان الهدى الذي يجب اتباعه هو ما جاء به الأنبياء ، ولا يتبع هذا الهدى إلا من شمله الله بلطفه وتوفيقه ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا حَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾. أي ان هؤلاء الأنبياء على فضلهم وعظيم قدرهم لو صدر منهم أدنى شيء يشعر بالشرك لبطلت جميع أعمالهم ، وذهبت سدى ، والغرض من هذه الإشارة التنبيه إلى أن الله سبحانه يعامل الناس بأعمالهم لا بمناصبهم ، وبالنهاية التي عليها يموتون ، لا بالسابقة التي ابتدأوا بها حياتهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾. أولئك إشارة إلى من تقدم ذكرهم من الأنبياء ، والكتاب جنس يشمل جميع الكتب السماوية السابقة على القرآن ، كصحف ابراهيم والتوراة والزيور والإنجيل ، والمراد بالحكم معرفة القضاء وكل ما شرعه الله من الحلال والحرام ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِكَافِرِينَ﴾. هؤلاء ، إشارة إلى مشركي قريش الذين أنكروا نبوة محمد (ص) ، ونصبوا له العداء ، وضمير بها يعود إلى النبوة ، والمراد بالقوم الذين ليسوا بها بكافرين المهاجرون والأنصار الذين آمنوا بمحمد وناصروه.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ افْتَدَاهُ﴾. أولئك إشارة إلى الأنبياء الذين تقدم ذكرهم ، وقد أمر الله نبيه الأكرم محمدا (ص) أن يسير على طريقهم في الدعوة إلى الحق ، والصبر على الأذى في سبيلها ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لأن الدين لم يشرع للكسب والاتجار به ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ضمير هو يعود إلى القرآن ، وفي الكلام دلالة واضحة على ان محمدا أرسل للناس كافة في كل زمان ومكان.

وما قدروا الله حتى قدره الآية ٩١ . ٩٧ :

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾

قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

اللغة :

قدر الشيء بسكون الدال مبلغه ومقداره. وقراطيس جمع قرطاس ، وهو ما يكتب فيه من ورق وجلد وغيرهما. وأم القرى مكة.

الاعراب :

حق صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي وما قدروا الله قدرا حق قدره. وإذ في محل نصب بقدروا. ومن شيء من زائدة وشيء مفعول لأنزل. ونورا حال من الكتاب ، أي منيرا. وجملة أنزلناه صفة كتاب ، وكذا مبارك ومصديق. وأم القرى على حذف مضاف ، أي أهل ام القرى.

المعنى :

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾. تدل هذه الآية على انه كان في عهد رسول الله (ص) قوم ينكرون الوحي من الله على أحد من الناس : ويقولون ما بعث الله بشرا رسولا .. ولكن الله سبحانه

لم يبين من الذين أنكروا وقالوا ذلك ، ومن أجل هذا اختلف المفسرون فيمن هو المعني بقوله تعالى : ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ هل المراد بهم مشركو العرب أو يهود الحجاز؟.

قال فريق من المفسرين : انهم مشركو العرب. ويرد هذا القول أولا : ان الله أمر رسوله محمدا أن يواجه المنكرين بهذا السؤال : ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾. وبديهية ان هذا السؤال انما يتجه لمن يعترف بنبوة موسى والتوراة ، والمعروف ان مشركي العرب لا يعترفون بموسى وتوراته ، وإلا كانوا من أهل الكتاب.

ثانيا : ان الله سبحانه وبّخ المنكرين بقوله : ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾. أي انكم حرفتم التوراة ، فأبديتم ما يتفق مع أهوائكم ، وأخفيتم ما لا يتفق معها ، ومعلوم ان الذين حرفوا التوراة هم اليهود ، لا مشركو العرب.

وذهب فريق آخر من المفسرين إلى أن الذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء هم اليهود ، واستدلوا بأمرين : الأول ان الله أمر رسوله محمدا أن يرد على من قال هذا بنبوة موسى والتوراة .. وهو رد صحيح ومفحم ، ثم أكد هذا الرد بلفتهم الى تحريفهم التوراة ، وخطابهم تعالى موجها : ﴿تَجْعَلُونَهُ﴾ . أي كتاب التوراة . ﴿قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.

وهذا القول أقرب الى ظاهر الآية من القول الأول. ﴿وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾. هذا الخطاب موجه إلى اليهود أيضا ، والمعنى كيف تقولون . أيها اليهود . ما أنزل الله على بشر من شيء ، مع انكم تعتقدون ان موسى بشر ، وان التوراة نزلت عليه ، وقد علمتم منها ما كنتم تجهلون من قبل أنتم وآباؤكم ، ومن ذلك انكم كنتم تقرأون في التوراة صفة محمد قبل مبعثه ، ولا تعرفون بالتفصيل من هو المقصود ، ولما بعثه الله ، وعرفتم انه هو المقصود بالذات حرفتم وحذفتم ما يدل عليه مكابرة وعنادا

قل الله. هذا جواب عن السؤال السابق ، وهو ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى﴾. وهذا الجواب هو المتعين ، ولا مفر منه ، لأن

اليهود يعترفون بأن التوراة من عند الله ، ومن أجل اعترافهم هذا تقوم الحجة والرد على قولهم : ما أنزل الله على بشر من شيء ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾. أي قل الحق - يا محمد - ودع اليهود في باطلهم ، ولا تهتم بعنادهم ومرائهم .. وفي هذا تهديد لهم ووعيد ، كما فيه استخفاف بهم واستهانة.

بعنادهم ومرائهم .. وفي هذا تهديد لهم ووعيد ، كما فيه استخفاف بهم واستهانة. وتساءل : ان اليهود يعترفون بنبوة موسى (ع) وانزال التوراة عليه ، كما قدمت . اذن . كيف نسب الله اليهم انكار الوحي والبعثة من الأساس؟.

الجواب : انهم أنكروا الوحي والبعثة في الظاهر ، دون الواقع عنادا ومكابرة لمحمد (ص) : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ . ١٤ النمل.

أنبياء الله وعلماء الطبيعة :

وبالمناسبة نشير إلى أن أكثر علماء الطبيعة في هذا العصر ، أو الكثير منهم يؤمنون بوجود الله لأنهم رأوا ان هذا الكون الذي يتعاملون معه يسير وفقا لقوانين ثابتة وصریحة تتحكم به ، ولا تحيد عنه بحال ، ومن أجل هذا أمكن رصدها وقياسها والاستفادة منها ، وهذا يحتم وجود قوة عليا وراء الكون تهندس وتبني وهذه القوة هي الله.

وبتعبير ثان ليس من الضروري ليكون الإنسان عالما بوجود الشيء أن يجربه في المعمل ، ويراه رأي العين ، بل يكفي أن يعلم علما لا يتطرق اليه الشك والاحتمال ، سواء أجهل هذا العلم والجزم من التجربة والعيان ، أم من الاستنتاج العقلي البديهي . وصاحب الفكر والنظر إذا تأمل هذا الكون تأملا علميا مجردا عن كل شائبة ينتهي حتما إلى العلم بوجود الله .. ولكن علماء الطبيعة الذين آمنوا بالله عن علم نفوا أن يكون له رسل من بني الإنسان يوحى اليهم ، وقالوا : ان الطبيعة وحدها هي كتاب الله ، وليس التوراة والإنجيل والقرآن.

ولست أشك ان هؤلاء العلماء لو أعطوا لدراسة القرآن قليلا من الوقت الذي أعطوه لدراسة الطبيعة لاقتنعوا بأن الله كتابين : الكون والوحي ، وانه لا غنى للإنسان بأحدهما عن الآخر ، فمن كتاب الكون يعلم ملكوت الله ، ويؤمن به ،

ومن كتاب الوحي يعلم شريعة الله التي تنير له طريق الحياة ومدارج التقدم فيها ، وتجنبه المهالك والمشاكل التي تعرقل سيره إلى الأمام.

لقد خلق الإنسان ليعمل في هذه الحياة ، ولا بد لكل عامل من منهج يسير عليه في عمله ، لأن الفوضى لا تؤدي إلى خير ، والله سبحانه خلق الإنسان ، ويعلم سره وجهه ، وقوته وضعفه ، وما ينفعه ويضره ، فيتحتّم ، والحال هذه ، أن يكون هو المرجع الأول للمنهج الذي يجب أن يسير عليه في عمله ، تماماً كما هو الشأن في مخترع السيارة والطائرة وغيرهما من الأدوات والآلات ، حيث يحتم الرجوع إليه في استعمالها وطريق الاستفادة منها ، لأنه أعلم بما يصلحها ويفسدها ، وليس من شك أن تبليغ المنهج الإلهي لعباده وإعلامهم به ينحصر بالأنبياء والرسل ، لأنهم لسان الله وبيانه ، وهذا هو الوحي بالذات. ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابنا : الإسلام والعقل ، قسم النبوة والعقل.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾. هذا ، إشارة إلى القرآن الكريم ، والمعنى كما أنزلنا التوراة على موسى كذلك أنزلنا هذا القرآن على محمد (ص) ، وهو كثير النفع والفائدة لمن علم أحكامه وأسراره ، وعمل بها ، وهو أيضاً يصدق الكتب السماوية التي نزلت من قبل على أنبياء الله. قال الإمام علي (ع) : تعلموا القرآن ، فانه أحسن الحديث ، وتفقهوا فيه ، فانه ربيع القلوب ، واستشفوا بنوره ، فانه شفاء الصدور ، وأحسنوا تلاوته ، فانه أحسن القصص.

﴿وَلْتُنْذِرْ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾. وأم القرى هي مكة ، وسميت بذلك ، لأن فيها أول بيت وضع للناس لعبادة الله .. وزعم بعض المستشرقين ، ومن قبلهم اليهود أن محمداً (ص) أرسل للعرب فقط ، واحتجوا بهذه الآية ، وتجاهلوا الآية ١٠٧ الأنبياء : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. والآية ٢٨ سبأ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ومصدر القرآن واحد ، وكلامه يفسر بعضه بعضاً ، وهاتان الآيتان بيان لقوله تعالى : ﴿وَلْتُنْذِرْ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وان المراد به أن تبدأ دعوة الإسلام أول ما تبدأ في بلد صاحبها مكة ، حتى إذا صار لها أتباع وأنصار بشروا بها في أرجاء

العالم ، كآية دعوة عامة تبتدى ، حيث تولد ، ثم تنطلق الى سائر الأقطار .
هذا ، إلى أنه قد ثبت بطريق التواتر ان رسول الله (ص) قد كتب الى جميع الملوك
والرؤساء يدعوهم الى الإسلام ، وفي طليعتهم كسرى ملك الفرس ، وقيصر امبراطور الروم ،
والمستشرقون يعلمون ذلك ، ولكن البعض منهم يكتُمون ما يعلمون .
﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ . الضمير في ﴿بِهِ﴾ يعود الى القرآن .. وما قرأ
القرآن أحد بتجرد وإمعان إلا خرج منه بشيء ، فإن كان مؤمنا بالله ورسوله واليوم الآخر
ازداد ايمانا ، وإن كان مؤمنا بالله فقط آمن بالوحي والبعث ، وان كان مؤمنا بالله والبعث
دون الوحي آمن بالأنبياء والكتب المنزلة من السماء ، بخاصة نبوة محمد والقرآن ، وان كان
كافرا بالله آمن به ، لأن القرآن يعرض الدلائل على ذلك ، ويحث على النظر فيها ، وهي
بطبعها تؤدي بالباحت المنصف إلى العلم والإيمان ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ . ليكونوا
على صلة دائمة وثيقة بالله .. وخص الصلاة بالذكر ، دون العبادات لأنها عمود الدين ،
وقوام الإيمان ، ومن شأها ان تردع المصلي الخاشع عن الفحشاء والمنكر .

الافتراء على الله الآية ٩٣ . ٩٤ :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ
سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ
أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ
تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ
وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ

الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) ﴿٩٤﴾

اللغة :

الغمرات جمع غمرة ، وهي الشدة. والهون بضم الهاء بمعنى الذل والهوان ، وبفتحها بمعنى اللين الهين.

الاعراب :

﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ مفعول مطلق مثل جلست قعودا. ومن قال سأنزل معطوف على من افترى ، أي ومن قال سأنزل. وإذا الظالمون إذ ظرف في محل نصب بترى ، والظالمون مبتدأ ، وفي غمرات متعلق بمحذوف خبرا للمبتدأ. والملائكة مبتدأ ، وباسطو أيديهم خبر. وجملة اخرجوا أنفسكم مفعول لقول محذوف ، أي يقولون اخرجوا. وفردى حال من الواو في جئتمونا ، وهو ممنوع من الصرف تشبيها له بثلاث ورباع. وكما خلقناكم الكاف في كما بمعنى مثل في محل نصب صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي مجيئا مثل مجيئكم أول مرة. وتقطع فاعلها محذوف دل عليه سياق الكلام ، أي تقطع الوصل ، وبينكم ظرف منصوب بتقطع.

المعنى :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾. وافتراء الكذب على الله أن يخلق عليه تعالى أشياء لا مصدر لها من كتاب الله ، أو سنة نبيه ، أو من العقل البديهي ، ويكون ذلك بأمر : منها أن يحلل ما حرم الله ، أو يحرم ما أحل ،

ومنها أن يصف الله - متعمدا - بما ليس فيه ، أو يجعل له شركاء وأندادا ، وبنين وبنات ، ومنها أن يدعي النبوة وما هو بنبي ، واليه أشار سبحانه بقوله : ﴿أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ وهذه الجملة معطوفة على قوله تعالى : ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وهي من باب عطف الخاص على العام ، ومثلها قوله سبحانه : ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ . أي ان هذا اللعين يدعي القدرة على تأليف كتاب يضاهي القرآن في عظمته ، وقيل : هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وقال آخر : بل هو النضر بن الحارث .

والخلاصة ان كل من نسب إلى الله شيئا ، دون أن يستند إلى قوله الله والرسول ، أو بديهية العقل فهو مفتر كذاب يستحق التوبيخ والعذاب .

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ . غمرات الموت سكراته وآلامه ، واختلف المفسرون في المراد ببسط أيدي الملائكة : هل المراد به مدها حقيقة إلى الإنسان حين الاحتضار ، أو هو مجرد التمثيل والكناية عن أهوال الموت؟ ونحن لا نرى مبررا لهذا النزاع ، لأن العقل لا ينفي وجود الملائكة ، ولا أن يكون لهم أيد يسطونها ، وألسنة يتكلمون بها ، وقد ورد الوحي بذلك فيجب التصديق . وهذا الأصل يعتمد عليه جميع علماء المسلمين في اثبات العقيدة والشريعة .

﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ . هذا كله من كلام الملائكة يخاطبون به المفترين ساعة فراقهم لهذه الحياة ، وهو تأنيب وتوبيخ على افتراءهم وتنكبرهم للحق .. وفي الحديث : من مات فقد قامت قيامته . ومن هنا قال بعض العارفين : ان للإنسان قيامتين : صغرى ، وهي الموت ، وكبرى ، وهي البعث . وتوبيخ الملائكة لمن افترى على الله كذبا عند القيامة الصغرى إنذار له بما سيلاقيه من الأهوال في القيامة الكبرى . قال الإمام علي (ع) : الموت للمؤمن كنز ثياب وسخة ، وفك قيود وأغلال إلى أفخر الثياب ، وآنس المنازل ، وهو للكافر كخلع ثياب فاخرة إلى أوسخها وأخشنها ، ومن المنازل الأنيسة إلى أوحشها وأعظم العذاب .

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. جئتمونا بصيغة الماضي ، ومعناها المستقبل ، أي تجيئوننا ، والمعنى ان الإنسان يلقي ربه غدا كما خرج من بطن أمه ، لا يحمل معه شيئا .. ويا حبذا لو دخل في جوف الأرض كما خرج منها ، لا له ولا عليه .. انه خرج منها ، لا سائلا ولا مسؤولا ، ويعود اليها مسؤولا عما قدمت يداه ، ولكن السائل ، والحمد لله ، عادل لا يظلم أحدا ، ويعامل كل واحد بما عامل الناس في حياته الأولى ان خيرا فخير ، وان شرا فشر.

واختلف القائلون بالحق : هل يحشر الإنسان بروحه فقط ، أو بروحه وجسمه معا ، وظاهر قوله تعالى : ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يدل على الحشر روحا وجسما ، لأنه خلق بهما معا : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ . ١٠٤ الأنبياء.

﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾. يعود الإنسان الى الأرض تاركا الأهل والأصحاب ، والمال والسلطان. ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ لله كالأصنام والكواكب وغيرها مما كنتم تعبدون وتوالون من أهل الفساد والضلال. ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ ، أي لم تبق لكم أية صلة بشيء من أشياء الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من الدعاوى الكاذبة للذين توهتهم انهم شركاء أو شفعا عند الله ، وخاب أملكم بعد أن تكشفت لكم الحقيقة .. والسعيد من فاز برضوان الله ومغفرته.

يخرج الحي من الميت الآية : ٩٥ . ٩٩ :

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَفْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ

لَكُمْ التُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

اللغة :

فلقه فلقا ، وفرقه فرقا ، وفتقه فتقا بمعنى واحد ، أي شقه شقا. والإصباح مصدر سمي به الصبح ، ومعنى فلقه أخرجه من الظلمات. والسكن المسكون فيه كالبيت مأخوذ من السكون ضد الحركة. والحسبان بضم الحاء لعد الأشياء والأوقات. والمستقر موضع القرار ، والمستودع موضع الوديعة. ومتراكب أي بعضه فوق بعض مأخوذ من الركوب كتراكب حبوب القمح والشعير في سنابلهما ، وحبوب الرمان والصنوبر في ثمارهما. والطلع أول ما يخرج من النخلة في اكمامه. وقنوان جمع قنو ، وهو العنقود من الثمر. ودانية قريبة سهلة التناول. والمشتبه والمتشابه بمعنى واحد ، وهو ان بعض النبات يشبه بعضا في اللون والطعم والصورة ، ومنه ما ليس كذلك. والينع النضج ، يقال : أينعت الثمرة إذا أدركت ونضجت.

الاعراب :

الشمس مفعول أول لفعل محذوف ، وحسبانا مفعول ثان ، أي وجعل الشمس والقمر حسبانا ، ومستقر مبتدأ والخبر محذوف ، أي فمنها مستقر ، ومثله ومستودع. وضمير منه الأولى يعود الى النبات ، وضمير منه الثانية الى الخضر. ومتراكبا صفة للحب. ومن النخل متعلق بمحذوف خبرا لقنوان. ومن طلعتها بدل من النخل بإعادة الخافض. ودانية صفة لقنوان. وجنات منصوبة عطفا على نبات كل شيء ، أي وأخرجنا جنات من أعناب. ومن أعناب متعلق بمحذوف صفة لجنات. والزيتون والرمان عطف على نبات ، أي وأخرجنا به الزيتون والرمان. ومشتبها حال من كل ما تقدم من النبات.

المعنى :

في هذه الآيات أمثلة من عجائب الخلق التي لا يملك صنعها إلا الله وحده ، ولا تنفك عن الدلالة على وجود الله وحده ، ولا تنفك عن الدلالة على وجود الله وعظمته ، وجاء ذكر الأمثلة على الترتيب التالي :

١ . ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾. إذا وضعت حبة من الحنطة ، أو نواة من نوى التمر في الأرض . مثلا . انفلقت كل من الحبة والنواة من أسفلها وأعلاها ، وخرج من الشق الأسفل عروق تهبط في الأرض ، ومن الشق الأعلى شجرة تمتد في الهواء ، ثم تذهب الحبة والنواة ، ويصير المجموع جسما واحدا ، بعضه في الأرض وبعضه في الهواء ، وليس من شك ان هذه العملية تستند مباشرة إلى أسبابها الطبيعية ، كالتربة والماء ، والشمس والهواء ، ولكنها تنتهي الى الله وحده ، لأنه خالق الطبيعة ، ومسبب الأسباب ، وموجد المادة الأولى بكلمة ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

من أين جاءت الحياة؟

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾.

لا غرابة أن يتولد من الكائن الحي مثله ، وأن ينفصل من الجماد جماد ، وإنما العجب أن يتولد الجماد من الحي ، وبالعكس. وقال قائل : إن الحياة تتولد من القوى الطبيعية.

ونسأل هذا القائل ، ومن الذي أوجد الطبيعة وقواها وتفاعلهما؟ وإذا كان مجرد التفاعل كافيا وافيا لإيجاد الحياة ، دون أن تتدخل العناية الإلهية ، فلما ذا عجز علماء الطبيعة أن يصنعوا الحياة في معاملهم ، كما يصنعون أدوات المطبخ وما إليها مع أنهم قد حاولوا وأوجدوا ألف تفاعل وتفاعل ، وبعد اليأس أعلنوا ان صنع الحياة أصعب منالا من رجوع الشيخ إلى صباه وطفولته.

ولنسلم جدلا أنهم ينجحون في خلق خلية حية ، فهل ينجحون في صنع حشرة تعمل بنظام كما تعمل أتفه الحشرات؟ ولندع الإنسان ودماع الإنسان ، والحيوان وعجائبه في خلقه ، ونضرب أمثلة من الحشرات التي ننفر منها ، ونستعمل المبيدات لها .. يقول المتخصصون بدراسة الحشرات :

إن بعضها يعيش في درجة ٥٠ مئوية تحت الصفر ، وبعضها يعيش هذه الدرجة فوق الصفر ، وبعضها يعيش في الهواء السام ، وبعضها في آبار البترول ، ولها نظم متقنة في حياتها وأعمالها ، وإذا اخترع الإنسان الصواريخ والأقمار الصناعية والعقول الألكترونية فمن المؤكد انه لا يستطيع أن يصنع في المعمل جناح بعوضة ، ولا خلية من جناحها ، فالعقل الانساني عظيم ، ولكن عظمته تصبح عجزا مطلقا أمام القدرة الهائلة التي خلقت بعوضة أو نملة أو نحلة!! وكل هذه بديهيات .. ولكن المصيبة الكبرى اننا ننسى فلا ننظر إلى ما في أعماقنا ، إلى مظهر من مظاهر القدرة الإلهية الحكيمة ، فإذا نظرنا ازددنا ايمانا بما هو أكبر ، ومن هو أكبر ، وكل ما نحتاج اليه هو الايمان ، وكل ما يحتاج اليه ايماننا هو العقل ، لأن الايمان بغير عقل كالوجه بلا عينين.

أجل ، نحن بحاجة إلى الايمان بقدرة الله لنفسر بها ما تعجز عن تفسيره عقول العباقة .. وقد اعترفت هذه العقول بالعجز عن تفسير الحياة بالطبيعة ، والتجأ الكثيرون من أربابها إلى ما وراء الطبيعة ، إلى قدرة حكيمة عليمه يفسرون بها أصل الحياة ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ فَعَنِّي تُؤَفِّكُونَ﴾. قال اينشتين : ان بصيرتنا الدينية

هي المنبع الموجه لبصيرتنا العلمية. وعلق الأستاذ توفيق الحكيم على هذا في كتابه فن الأدب بقوله : هذا الاعتراف ولا شك كسب للدين ، فما من أحد فيما مضى . أي منذ قرن من الزمان . يتصور العلماء يقولون عن الدين مثل هذا القول.

ونعلق نحن على قول الحكيم بأن السر الوحيد لاعتراف علماء القرن العشرين من أمثال اينشتين بأن البصيرة الدينية هي الأصل والمنبع للبصيرة العلمية ، ان السر لهذا الاعتراف هو تقدم العلم في هذا القرن ، وتأخره فيما مضى ، وكلما تقدم العلم اكتسب الدين أنصاراً من أمثال اينشتين يعترفون بعظمته ، ويؤمنون بأنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾. ذكر سبحانه في الآية المتقدمة مثالا على عظمته بوجود الحياة على الأرض ، وذكر في هذه الآية ثلاثة أمثلة سماوية : الأول انه تعالى أخرج الصبح من الليل ، وهو كناية عن وجود النهار الذي يسعى فيه الإنسان لرزقه وتدبير شئونه. الثاني انه تعالى أوجد الليل الذي يسكن فيه ، ويستريح من العمل بالنهار. الثالث انه سبحانه أوجد الشمس والقمر بمقدار مخصوص من السرعة والبطء بحيث يكون للأرض حركتان : حركة تتم في ٢٤ ساعة ، وعليها مدار حساب الأيام ، وحركة تتم في سنة ، وبها توجد الفصول الأربعة ، وعليها مدار حساب السنة ، قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾. ٥ يونس.

وتسأل : على هذا يكون وجود الليل والنهار نتيجة لدوران الأرض ، فما هو الوجه لاسنادها إلى الله؟.

الجواب : لأنه هو خالق السموات والأرض ، واليه تنتهي الأسباب بكاملها ، وعلى أية حال ، فان المقصود الأول من كل ما جاء في هذه الآيات انه لا شيء من أشياء الكون قد وجد صدفة وجزافا ، وإنما صدر عن عليم حكيم أعطى كل شيء خلقه ، وقدره تقديرا ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

٤ . ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ

فَصَلَّنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . النجوم هنا ما عدا الشمس والقمر من النيرات ، كما يدل عليه سياق الكلام ، وفي كتاب : القرآن والعلم الحديث ، يقول حجة الفلك في العالم السير جيمس جيننز : انه إذا أردنا أن نعرف مكان بيت في المدينة فاننا نسأل عن اسم الشارع الذي يحتويه ، ثم رقمه ، فيقال رقم كذا بشارع كذا ، وكذلك الحال في النجوم ، فإن منها ما هو معروف بأسماء خاصة .. وهي أهم علامات يهتدي بها الملاح في سفينته ، والراكب في سيارته ، والمرتل على دابته ، وكم قوافل في البحر سارت على خريطة السماء ومواقع النجوم عند ما تعطلت البوصلة.

٥ . **﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾** . والنفس التي نشأ الكل منها هي الإنسان الأول الذي تسلسل منه سائر الناس ، وهو آدم ، وتكلمنا على ذلك مفصلاً عند تفسير الآية الأولى من سورة النساء . وذكر الرازي لتفسير قوله تعالى : فمستقر ومستودع ستة أقوال : وأكثر المفسرين على ان المستقر هو استقرار النطفة في أصلاب الذكور ، والمستودع جعلها في أرحام الإناث .. وليس في الآية ما يدل على هذا المعنى ، ولا على واحد من بقية المعاني التي نقلها الرازي.

وروي عن الإمام جعفر الصادق (ع) انه قسم المؤمن إلى قسمين : مؤمن إيماناً صادقاً مستقراً حتى الموت ، وهو الذي تتفق أقواله مع أفعاله ، ومؤمن إيماناً متزلزلاً ومستودعاً يفارقه قبل الموت ، وهو الذي تخالف أقواله أفعاله **﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾** . ومن لا يفقه ويفهم هذه الدلائل الكونية على عظمة الخالق المبدع فهو من الذين عناهم الله بقوله : **﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾** .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ . المطر مصدر الماء العذب ، ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة ، وأسند سبحانه انزال الماء اليه لأنه مسبب الأسباب ، منه تبتدئ ، واليه تنتهي مهما امتدت حلقاتها **﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾** ضمير منه يعود الى النبات ، والمراد بالخضر الغض والطراوة ، أي تتشعب من النبات أغصان غضة طرية.

وقيل الخضر هنا بمعنى الأخضر ﴿مُخْرِجٌ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ ضمير منه يعود الى الخضر ، أي يخرج من الأغصان سنابل كسنابل القمح ونحوها كثمر الرمان الذي يركب بعض حبوبه بعضا ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ طلعها بدل اشتمال من النخل بإعادة حرف الجر ، أي ونخرج من طلع النخل قنوانا ، والقنوان جمع قنو بالكسر ، وهو من النخل كالعنقود من العنب ، ودانية سهلة التناول ، أو ان بعضها قريب من بعض لكثرتها.

﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾. أي ونخرج من النبات هذه الأصناف الثلاثة ، وذكرها سبحانه على سبيل المثال ، ومنها تعرف البواقي ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ ان من النبات والشجر ما يشبه بعضه بعضا في الشكل والطعم ، ومنه ما لا يشبه بعضه بعضا فيهما ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾. أي اعتبروا كيف يخرج الثمر أول ما يخرج صغيرا لا ينتفع به ، ثم ينتقل من حال إلى حال ، حتى يبلغ النضوج ، فيصير لذيذا نافعا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. ليس المراد يقوم يؤمنون المؤمنون بالفعل فقط ، بل والذين يستجيبون لدعوة الايمان ، وينتفعون بالدلائل والبيانات ، أما أصحاب القلوب المغلقة فيمرون بها مرور البهائم والسوائم.

والخلاصة ان المقصود الأول من هذه الأمثلة الأرضية والسماوية هو التنبيه إلى أن أشياء هذا الكون ، وما فيها من إبداع وتديير . محال أن تأتي صدفة وفتلة في نظر الفطرة والعقل ، فهما يحكما حكما قاطعا بأن كل ما في الوجود قد صدر عن ارادة وتصميم ، ولحكمة بالغة يعرفها العالم والجاهل ولا شيء أدل على بطلان الصدفة ، كمبدأ ، من تكرار الحادثة الواحدة كلما تكرر سببها.

وجعلوا لله شركاء الآية ١٠٠ . ١٠٧ :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ

لَهُ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِيُقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧) ﴿

اللغة :

خرقوا له بنين أي ابتدعوا له كذبا. وبديع السموات والأرض خالقها على غير مثال سابق. والوكيل الحافظ. والإدراك اللحاق والوصول ، يقال : أدرك الغلام إذا بلغ ولحق الرجال ، وأدركته ببصري لحقه بصري. وبصائر جمع بصيرة ، ولها عدة معان ، والمراد بها هنا البيئة والحجة التي يبصر بها الشيء على ما هو عليه. ونصرف الآيات تأتي بها بأساليب شتى. ودرست أي قرأت وتعلمت.

الاعراب :

شركاء مفعول أول لجعلوا والجن مفعول ثان. وبغير علم متعلق بمحذوف حالا من الواو في خرقوا. وبديع السموات خبر لمبتدأ محذوف أي هو بديع

السموات. وأنى بمعنى كيف ، وهي في محل نصب حالا من ولد ، ويكون تامة والفاعل ولد. وذلك مبتدأ والله بدل وربكم خبر ، وجملة لا إله إلا هو خبر ثان ، وخالق كل شيء خبر ثالث. وفلنفسه متعلق بمحذوف خبرا لمبتدأ محذوف ، أي فإبصاره كائن لنفسه ، ومثله فعلية أي فعماه كائن عليها. وكذلك الكاف بمعنى مثل في محل نصب صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي نصرف الآيات تصرفا مثل ذلك. وليقولوا : اللام للعاقبة أي ان أمرهم يصير الى هذا القول. ولنبينه اللام للتعليل ، وان مضمرة بعدها والمصدر المنسبك معطوف على المصدر المنسبك من ليقولوا أي للقول وللبيان.

المعنى :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾. المشركون على أنواع ، منهم من جعل الأصنام آلهة مع الله ، وآخرون أشركوا معه الكواكب ، ومنهم من عبد إبليس ، ومنهم من آله الظلمة ، وفريق جعلوا الجن شركاء لله ، والله سبحانه أخبر عن وجود الجن ، كما أخبر عن وجود الملائكة ، وانه خلقهم من مارج من نار ، وفي الآية التي نحن بصددنا أخبر الله سبحانه عن الفريق الذين جعلوا الجن شركاء له جل ثناؤه ، ولكنه لم يبين نوع هذا الجن المعبود للمشركين : هل هو جن الوهم والخيال ، أو غيرهم ، ولأجل هذا اختلف المفسرون ، فمنهم من قال : انه إبليس. وقال آخر : هو الظلمة ، إلى غير ذلك مما لا يستند إلى أساس من علم.

وأيا كان ، فان الله قد رد على هؤلاء المشركين بكلمة واحدة هي : ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾. وضمير خلقهم عائد الى الجن لأنه أقرب ، ويجوز الى المشركين واليهما معا ، لأن الله خالق الجن والانس ، والمعنى كيف يكون لله شركاء ، وهو خالق كل شيء.

﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. خرقوا أي اختلقوا وابتدعوا كذبا وافتراء .. قال مشركو العرب : الملائكة بنات الله. وقالت اليهود : عزيز ابن الله. وقالت النصارى : المسيح ابن الله. وكل هذه الأقوال رجم بالغيب ،

وزعم بلا علم ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ من المستحيلات عليه.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. أي خالقها على غير مثال سابق ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ ، من جنسه ، ولا من غير جنسه ، لأنه ليس كمثله شيء ، وهو الغني عن كل شيء ، وتقدم الكلام عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٥٠ من سورة النساء ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾. والمخلوق لا يكون شريكاً للخالق ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومع هذا لا يعلم بأن له ولداً ، ولو كان لعلم به ، فعدم العلم بالشيء لا يدل على عدم وجوده واقعاً بالنسبة إلى غير الله ، أما بالنسبة إليه تعالى فإن علمه لا ينفك عن وجود المعلوم.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾. الخطاب موجه للمشركون ، والمعنى أن الله استجمع صفات الوحدانية ، وخلق الكون بما فيه ، وتدير الأمور كلها فهو جدير بأن تفردوه بالعبادة ، ولا تشركوا معه أحداً من الأنداد ، ولا تنسبوا له الصاحبة والأولاد.

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾. تكلمنا عن رؤية الله مفصلاً عند تفسير الآية ٥٥ من سورة البقرة ج ١ ص ١٠٧ ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ وغيرها ، لأنه بكل شيء محيط ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. لطيف بعباده ، خبير بأعمالهم ومقاصدهم.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. المراد بالبصائر هنا الدلائل والبيانات على وجود الله ووحدانيته ، ومنها ما سبق ذكره تعالى فالق الحب والنوى ، وخالق الليل والنهار ، والناس من نفس واحدة ، ومنزل الماء الذي أحيا كل شيء .. وإطلاق البصائر على الدلائل من باب إطلاق المسبب على السبب ، لأن البصائر جمع بصيرة : وهي الإدراك الحاصل بالقلب ، وهذا الإدراك ينشأ من الأدلة والبراهين.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾. بعد أن أقام الدليل القاطع على الحق قال : من اتبعه إلى نفسه أحسن : ومن خالفه فإليها أساء : ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾. ٧ الإسراء. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ بل بشير ونذير ، والله وحده هو الوكيل والرقيب.

﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. كان العرب

في الجاهلية أمة أمية ، لا شيء عندهم من العلم ، ولما استمعوا الى القرآن ، ورأوا فيه من فنون البيان ، وأنواع الأدلة والبراهين الدامغة لهم ولما يقدسون ، ومع ذلك رفضوا الايمان والهداية ، لما كانت هذه حالهم لجأوا الى التعليقات الكاذبة ، وقالوا : يا محمد هذا القرآن الذي جئنا به قد درسته وتعلمته من غيرك ، وليس هو وحيا من الله.

وبهذا التمهيد يتبين معنا ان قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ﴾ معناه لقد أنزلنا في القرآن ألوانا من الدلائل والبيانات بقصد أن يهتدي بها المشركون ، ويرجعوا عن غيهم ، فكانت عاقبة ذلك ان قالوا للنبي : انك درست هذه الآيات وتعلمتها من غيرك ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿لِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾. أما قوله : ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فمعناه اننا صرفنا الآيات في القرآن لينتفع بها الذين يعلمون معانيها ، فتقودهم الى الايمان بالحق ، أما أهل الجهالة والضلالة فلا رجاء بمهديتهم ، وغاية الأمر ان هذه الآيات تقطع معذرتهم ، وتكون حجة عليهم.

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾. هذا أمر من الله لنبيه الأكرم أن ينذر ويبشر بالقرآن ، ويداوم على ذلك ، ولا يبالي ببحود المشركين وتكذيبهم واستهزائهم .. وغريب قول من قال : ان هذه الآية منسوخة بآية القتال ، ان هذا القول غريب لأن الله سبحانه لم يأمر النبي (ص) بترك قتال المشركين في هذه الآية كي يقال : انها منسوخة بالآية الأمرة بقتالهم ، وانما أمره بمتابعة الدعوة الى الحق ، وعدم المبالاة بتكذيب المشركين .. وبديهة ان الأمر بمتابعة الدعوة مع عدم المبالاة شيء ، والأمر بالقتال شيء آخر .. وأول شرط للنسخ أن يتحد الموضوع.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾. أي انه تعالى لم يرد إلقاءهم الى الايمان ، وقهرهم على ترك الشرك بكلمة ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ الذي خلق بها الكون ، ولو أراد ايمانهم بإرادته التكوينية هذه ما أشركوا. أنظر تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة ، فقرة التكوين والتشريع ج ١ ص ٧٢. ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾. الجملة الأولى والثانية بمعنى واحد ، أو متقاربتان في

المعنى ، ولا نفهم أي غرض من ذلك سوى التأكيد ، بل وهذا التأكيد تأكيد أيضا لقوله تعالى : ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ لأنه لو كان وكيلا وحفيظا عليهم لما جاز الاعراض عنهم : ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ . ٢٥ الغاشية.

لا تسبوا الآية ١٠٨ . ١١٠ :

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنَقَلِبُ أَفْئِدَهُمْ وَابْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)﴾

اللغة :

عدوا أي ظلما وعدوانا. والجهد بفتح الجيم المشقة ، والمراد به المبالغة ، وبضمها الطاقة. والعمة التردد والحيرة.

الإعراب :

عدوا مفعول من أجله ليسبوا. والكاف من كذلك بمعنى مثل صفة لمصدر محذوف ، أي زيننا لكل أمة مثل ما زيننا هؤلاء. وجهد مفعول مطلق لا قسموا

لأنه مضاف الى الايمان ، وهي بمعنى القسم. ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ إِنَّمَا﴾ استفهام في موضع رفع بالابتداء ، ويشعركم خبر. وأول مرة ظرف زمان متعلق بلم يؤمنوا به.

المعنى :

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بَغِيرَ عِلْمٍ﴾. قالوا : كان المسلمون يسبون أصنام الكفار ، فيجيبهم الكفار بسب الله جل ثناؤه ، وهذا القول ليس بعيد ، فكثيرا ما يقع ذلك بين المختلفين في الدين ، ولفظ الآية لا يأباه ، بل روي عن الإمام جعفر الصادق (ع) : انه سئل عن قول النبي (ص) : ان الشرك أخفى من دبيب النمل على صفوانة سوداء في ليلة ظلماء؟. قال : كان المؤمنون يسبون ما يعبد المشركون من دون الله ، فكان المشركون يسبون من يعبد المؤمنون ، فنهى المؤمنين عن سب آلهتهم لكيلا يسب الكفار إله المؤمنين ، فكأن المؤمنين قد أشركوا من حيث لا يعلمون .. وقوله تعالى : بغير علم. اشارة إلى جهالة المشركين وسفاهتهم .. وفي الآية دلالة واضحة على ان ما كان ضره أكثر من نفعه فهو محرم ، وان الله لا يطاع من حيث يعصى.

﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾. المعنى الظاهر من هذه الجملة ان الله سبحانه كما زين للمسلمين أعمالهم كذلك زين لغيرهم أعمالهم ، حتى المشركين .. وليس من شك ان هذا المعنى غير مراد ، لأن الشيطان هو الذي يزين للمشركين والعاصين الشرك والعصيان بنص الآية ٤٣ من الأنعام : ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. بالاضافة إلى أن الله سبحانه لا يأمر عبده بالكفر ويزينه اليه ، ثم يعاقبه عليه ، بل العكس هو الصحيح ، قال تعالى : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾. ٧. الحجرات.

ومن أجل هذا نرجح حمل الآية على ان الله خلق الإنسان على حال يستحسن معها ما يأتيه من أعمال ، ويجري عليه من عادات ، ووهبه عقلا يميز به بين الأعمال الحسنة والقيحة ، ولو خلقه على حال يستقبح معها جميع أعماله لما عمل

شيئا .. وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : ﴿زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾ تماما كمعنى قوله : ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ . ٥٣ المؤمنون. وقولنا : كل انسان راض عن عمله .
﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ . اذن ، فليدع المؤمنون سب آلهة المشركين ما دام الله سيعاقبهم عليه .

وتسأل : ان من سب الله أو رسوله يجب قتله ، وهذه الآية تشعر بأن أمره متروك الى حسابه وعذابه يوم القيامة؟.

الجواب : ان هذه الآية نزلت بمكة يوم كان المسلمون ضعافا لم يؤذن لهم بقتال ، لأن القتال كان آنذاك بالنسبة اليهم أشبه بعملية الانتحار ، أما مع قوة الإسلام وسلطانه فيجب تنفيذ حكم الاعداد بالساب ، ولا يجوز وقفه وتعطيله .

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا﴾ . أيّد الله سبحانه رسوله محمدا (ص) بالأدلة الكافية على نبوته بما لا يدع مجالا للشك عند من يطلب الحق لوجه الحق ، ولكن مشركي قريش اقترحوا على محمد (ص) معجزات خاصة ، وجعلوها شرطا لإيمانهم به ، وأقسموا أغلظ الإيمان أن يصدقوا محمدا إذا استجاب لاقتراحهم ، فأمر الله نبيه أن يقول لهم : ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ . ينزل منها ما تقوم به الحجة على الجميع ، وما زاد فينزله أو يمنعه بحكمته وقضائه .. وتمنى المؤمنون ان يستجيب الله لطلب الكافرين رغبة منهم في سلمهم وإيمانهم ، فخاطب الله المؤمنين بقوله : ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي من أين علمتم ان الله سبحانه إذا أنزل الآية المقترحة يترك الكافرون كفرهم وعنادهم؟ وتقدم الكلام عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ٣٤ . ٣٧ من هذه السورة ، وفي ج ١ ص ١٨٩ .

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ . نقلب أفئدتهم وأبصارهم كناية عن علم الله تعالى بحقيقتهم ، وضمير به يعود الى محمد أو الى القرآن ، والمعنى ان الله يعلم بأن المشركين لا يؤمنون بعد نزول الآية التي اقترحوها ، وانهم يبقون مصرين على ضلالهم الأول الذي كانوا عليه قبل نزول

الآية المقترحة .. انهم طلاب باطل وضلال ، وليسوا طلاب حق وهداية.
﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. أي بعد أن أصرروا على الضلال رغم إقامة الحجة عليهم ندعهم وشأنهم ، حتى يأتي اليوم الذي يلاقون فيه جزاء عملهم ، وقد تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات ، منها : ﴿فَذَرَهُمْ خَوْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ .
٨٣ الزخرف.

الجزء الثامن

وكلمهم الموتى الآية ١١١ . ١١٣ :

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣)﴾

اللغة :

القبل بضم القاف والباء ، والمراد به هنا المواجهة والمعاناة ، وقيل : هو جمع قبيل بمعنى الجماعة والصنف أي حشرنا عليهم من كل صنف جماعة. والزخرف الزينة. يقال : زخرفه إذا زينه. والغرور الخداع بالباطل. واقترف المال اكتسبه ، والذنب اجتراحه.

الإعراب :

قبلا حال من كل شيء ، ولا يلتفت إلى قول النحاة : ان صاحب الحال يجب أن يكون معرفة ، لأن العبرة بصحة المعنى ، لا بالتعليلات النحوية. إلا ان يشاء الله المصدر المنسبك في محل نصب على الاستثناء المنقطع ، أي ما كانوا ليؤمنوا إلا مع إكراه الله لهم على الايمان. وجعلنا ، متعدية إلى مفعولين : الأول عدوا ، والثاني لكل نبي ، وشياطين بدل من عدو ، وكلمة عدو تطلق على

المفرد والجمع والمثنى والمذكر والمؤنث. وغرورا مفعول من أجله ليوحي. والهاء في فعلوه عائد إلى زخرف القول. وما يفترون ما بمعنى الذي مفعولا معه لذرهم. والمصدر المنسبك من لتصغى معطوف على غرور ، ومثله ليرضوه وليقتروا ، أي يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول للغرور بزخرف القول ، والإصغاء اليه والرضا به واقتراف ما هم مقتطفون.

طراز من الناس :

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾. قلنا في تفسير الآيات السابقة : ان جماعة من المشركين اقترحوا على النبي (ص) أن يأتيهم بآية معينة ، وان المؤمنين تمنوا لو استجاب الله الى طلبهم ، وان الله سبحانه أجاب المؤمنين بقوله : ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وبعد هذه الإشارة أوضح جل ثناؤه لنبيه الأكرم بأن هؤلاء المشركين الذين اقترحوا عليك يا محمد ما اقترحوا من الخوارق لا يؤمنون بك بحال ، حتى ولو أنزلنا عليهم الملائكة من السماء ، وأحيينا الموتى وشهدوا لك جميعا بلسان عربي مبين انك نبي مرسل ، بل لو شهد لك الكون بأرضه وسمائه ما صدقوك ولا اتبعوك ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي يلجئهم إلى الايمان بك بالقوة والغلبة.

وتسأل : هل هذا الفرض صحيح ، وهذا الطراز من الناس يمكن أن يوجد . بحسب المعتاد ؟ وكيف تكذب فئة قليلة الكون بما فيه؟ وهل من المتصور أن يكذب الإنسان سمعه وبصره ، فيرى الموتى تحيا وتقوم من قبورها الدارسة منذ آلاف السنين ، وهي تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ويرى الملائكة تنزل من السماء أفواجا ، تشهد لمحمد بالرسالة ، ويسمع الحيوانات والطيور والأسماك والأشجار والأحجار وجميع الكواكب تنادي بأعلى صوتها : أشهد ان لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله ، هل من المتصور أن يوجد انسان يكذب بجميع هذه الخوارق والمعجزات؟ ان هذا لشيء عجاب.

الجواب : إن هذا الفرض غير صحيح ، بل هو محال في حق الذين يتأثرون بالحق ودليله ، ويسيروا بوحى من منطق العقل وفطرة الله التي فطر الناس عليها لأن هذه الخوارق دلائل قاطعة لا تبقي مجالاً للريب ، أما هذا الفرض في حق الذين تسيطر على جميع مشاعرهم المصالح الخاصة ، ويرونها هي العقل والفطرة والحق والعدل ، أما هذا الفرض في حق هؤلاء فصحيح ، لأن هذا الطراز من الناس موجود بالفعل ، وهم المستعمرون والمحتكرون ، ومن اليهم من الذين يعيشون على السلب والفساد.

والذين يستبعدون هذا الفرض لم ينتبهوا إلى واقع هذه الفئة ، وخلطوا بين منطق العقل ، وبين الموجه الأول للمتفعين والانتهازيين .. ان العقل من حيث هو ليس إلا مرشداً يأمر وينهى ، ولا يصغي اليه إلا من طلب الحق لوجه الحق ، أما الموجه والقائد للمتفعين فهو النفع الشخصي ، وهو وحده الذي يقودهم في أعمالهم وسلوكهم ، وهو دينهم وعقلهم ، بل كيانهم وحياتهم ، ومن أجل هذا لا يجدي معهم أي منطق إلا منطق القوة الذي أشار اليه سبحانه بقوله : ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ .. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ ولا ينتبهون إلى أنهم الفئة الباغية التي لا يجدي معها منطق العقل والفطرة ، ولا منطق الدين والانسانية ، ولا شيء إلا القهر والغلبة ، فمن الخطأ والضياح أن يخاطب هؤلاء بلغة العلم والانسانية.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾. شيطان الإنس معروف ، وهو كل من يغري الناس بالباطل ، ويلبسه ثوب الحق .. أما الجن فهو من غيب الله ، ونحن به من المؤمنين اجمالاً ، ومن حيث المبدأ ، ولا تعيننا التفاصيل لأننا غير مسؤولين عنها ، تماماً كما هو الشأن في الملائكة ، ولا غرابة في عدا الأشرار للأنبياء السابقين واللاحقين ، لأنه من مظاهر العدا بين الخير والشر ، وبين الحق والباطل.

وتسأل : إذا كان الله سبحانه هو الذي جعل للأنبياء أعداء من الأشرار ، كما يظهر من الآية ، فلما ذا يعاقبهم على عدايتهم للأنبياء؟ وأيضاً كيف أمر باتباع الأنبياء ، ثم جعل لهم أعداء يقاومونهم ، ويغرون الناس بالكفر بهم وبرسالتهن؟.

الجواب : ان الله سبحانه بعث الأنبياء ، وجعل مهمتهم الدعوة إلى التوحيد

والعدل ، ونبد الظلم والوثنية ، وهذه المهمة بطبيعتها تستدعي التناقض والصراع بين الأنبياء وبين عبدة الأوثان والمستغلين ، فالله سبحانه سبب البعثة ، والبعثة سبب العداء ، وبهذا الاعتبار نسب العداء اليه مجازا. جل ثناؤه. قال حكاية عن نوح : ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَبِلاً وَهَمَّاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً﴾ . ٥ نوح. فالفرار يستند إلى دعوة نوح ، ودعوته تستند إلى أمر الله. وزيادة في التوضيح نضرب هذا المثال : رجل ترك ثروة لولده ، فسيبت له عداوة الحساد ، فيقال مجازا : خلق له والده حسادا.

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾. زخرف القول هو الكلام المموه الكاذب ، ظاهره الرحمة ، وباطنه العذاب ، والمعنى ان الأشرار يوسوس بعضهم الى بعض بالباطل المموه بالحق بقصد الإغراء بعمل القبيح ، ومعاندة الحق وأهله ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ ضمير فعلوه يعود الى عملهم القبيح ، أي عداوة الأنبياء ، وإيحاء بعضهم الى بعض ، والمعنى ان الله لو أراد أن يمنعهم جبرا وقهرا عن القبح ما كان منهم ذاك العداء ، ولا هذا الإيحاء ، ولكن حكمته اقتضت أن يتركهم وشأنهم ، وأن يكونوا مختارين غير مسيرين ، فيحاسبون على ما يفعلون ، ويعاقبون بما يستحقون ﴿فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ من الكذب ، فعليك البلاغ ، وعلينا الحساب والجزاء.

﴿وَلَتَصْنَعِيَ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي يوحى الأشرار بعضهم الى بعض زخرف القول ليستمع اليه الكفار ﴿وَلَيَرْضَوْهُ﴾ بعد ان استمعوا اليه ، ويعملوا به بلا بحث وتمحيص. وهاء يرضوه تعود إلى ما عادت اليه هاء ما فعلوه. ﴿وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ من المعاصي والآثام ، ويتميز المؤمن عن الكافر ، والمخلص عن المنافق.

والخلاصة ان الأبالسة الأشرار يزخرفون القول ليخدعوا به ضعاف النفوس ، ويميلوا اليه ، ويقترفوا الذنوب ، قال أبو حيان الأندلسي : هذا الكلام في غاية البلاغة ، لأنه أولا يكون الخداع ، فيكون الميل ، فيكون الرضا ، فيكون الاقتراف ، وكأن كل واحد مسبب عما قبله.

افغير الله ابتغى حكما الآية ١١٤ . ١١٧ :

﴿أَفَعَيَّرَ اللَّهُ ابْتِغَى حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ
يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ
يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)﴾

اللغة :

الممترين المترددین الشاکین. والمراد بكلمة ربك هنا القرآن أو الإسلام. والخرص بفتح
الخاء الكذب ، يقال : تخرص واخترص أي افترى وكذب ، والخراص الكذاب.

الاعراب :

غير مفعول أول لأبتغي ، وحكما مفعول ثان ، لأن معنى أبتغي اتخذ ، وهي تتعدى
إلى مفعولين. وصدقا وعدلا مفعول من أجله لتتمت. واعلم من يضل (من) في محل نصب
بنزع الخافض ، أي اعلم بمن يسل واعلم بالمهتدين ، ويجوز أن يكون أعلم بمعنى يعلم ؛ ومن
مفعول : بل هو الأرجح عندنا.

المعنى :

﴿أَفَعَبَّرَ اللَّهُ أَبْتَعِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾. الحكم بفتح الحاء والكاف هو الحاكم الذي يحكم ويفصل بين الناس ، وتتصل هذه الآية بالصراع والعداء بين النبي والمشركون الذين اقترحوا عليه الخوارق ، والمعنى ان النبي (ص) قال للمشركون انكم تتحكمون في طلب المعجزات ، وتقترحون علي الاقتراحات ، وليس لي أن أتعدى حكم الله ، وقد أنزل عليكم القرآن كافيا وافيا بما تحتاجون من معرفة الحق والحلال والحرام ، مغنيا عن غيره بمبادئه وتعاليمه ، مثبتا لصدقه بأسلوبه المعجز ، وشريعته الخالدة ، وأخباره عن كثير من المغيبات ، فطلبكم المزيد ، والحال هذه ، إن هو إلا عناد ومكابرة.

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾. أي ان المنصفين من علماء اليهود والنصارى يعلمون علم اليقين بصدق القرآن ونبوة محمد (ص). ومر نظيره في الآية ١٤٦ من سورة البقرة ج ١ ص ١٣٣ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ معنى الامتراء الشك ، وقال كثير من المفسرين : الخطاب للنبي ، والمراد به غيره على طريق التعريض ، أما نحن فترى ان الخطاب للنبي ، وهو المراد دون غيره ، مع علمنا بأن النبي لا يشك في القرآن ، بل ومحال عليه أن يشك ، وصح توجه الخطاب اليه على عصمته لأنه من الأعلى الى من هو دونه ، من الله لا من سواه. وتقدم ذلك أكثر من مرة.

﴿وَمَتَّ كَلِمَةً رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾. المراد بكلمة الله هنا القرآن أو الإسلام الذي أظهره الله على الدين كله ولو كره المشركون ، وهذا هو المراد بتمامه ، أما معنى ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ فهو ان القرآن صادق في كل ما قال ، عادل في كل ما حكم وشرع ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لأنها صدق وعدل ، وكل ما هو صدق وعدل فهو من صلب الواقع ، ولا شيء يقال له صدق وحق وعدل إذا لم يكن له أساس واقعي ، وهذا الأساس لا يتغير ولا يتبدل ، أي لا تنفك عنه الآثار والنتائج المترتبة عليه ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقولون بما يفعلون ويضمرون.

﴿وَإِنْ تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ

وَأِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٣٣﴾. كل من دان بدين فانه يؤمن بصدقه إيماناً مطلقاً ، ويتعصب له تعصباً أعمى ، وكل من رأى رأياً فانه يعتقد بصوابه ، وبأن ما عداه وهم وخيال ، وإذا أحصينا جميع الآراء والمعتقدات ، وقسناها بمقياس الله وميزاته جاءت النتيجة ان أكثر الناس يتبعون الظن الخاطيء ، والحدس الكاذب .. ومن أجل هذا أمر الله نبيه ان لا يستمع إلى الناس ولا يقرهم على عاداتهم وتقاليدهم ، وان عليه أن يتبع ما أوحاه الله اليه ، لأنه هو طريق الحق والهداية.

وإذا كان أكثر الناس على خطأ فيما يرون ويدينون فلا وزن . اذن . لأقوالهم وأحكامهم على هذا بالهداية ، وذاك بالضلال ، وانما الحكم في ذلك لله وحده ، أي لما بينه من الأصول والضوابط في كتابه الحكيم ، وهذا هو المقصود بقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. ومن تلك الأصول الإلهية التي يتميز بها المحقون عن المبتلين قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. ٣٣ فصلت.

التسمية على الذبيحة ١١٨ . ١٢١ :

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾

الإعراب :

ما لكم ما استفهام مبتدأ ، ولكم متعلق بمحذوف خبر المبتدأ. والمصدر المنسبك من ألا تأكلوا مجرور بفي محذوفة ، والمجرور متعلق بما تعلق به لكم. وقد فصل الجملة حال من اسم الجلالة. وإلا ما اضطررتم ما في محل نصب بالاستثناء من ﴿مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾. وانكم لمشركون على حذف الفاء الواقعة في جواب الشرط أي وان أطعتموهم فإنكم لمشركون.

المعنى :

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾. كان العرب في الجاهلية يأكلون الميتة ، ويذكرون على ذبائحهم أسماء ما يعبدون من الأصنام ، فحرم الله ذلك على المسلمين ، وأباح لهم أكل الذبائح ، شريطة أن يذكروا عليها اسم الله لا اسم سواه. وتساءل : ان جواز الأكل من الذبيحة التي ذكر اسم الله عليها غير منوط بالإيمان بالله وآياته ، إذ يجوز للكافر أن يأكل منها ، كما ان الإيمان بالله غير منوط بالأكل من الذبيحة التي ذكر اسم الله عليها ، حيث يكون المؤمن مؤمنا وان لم يأكل منها .. وظاهر الآية يشعر بأن الإيمان شرط لحلية الأكل من هذه الذبيحة ، لأن معناها كلوا منها إن كنتم مؤمنين. الجواب : ان قوله تعالى : ان كنتم بآياته مؤمنين ليس شرطا لحلية الأكل من الذبيحة التي ذكر اسم الله عليها ، وإنما هو اشارة الى ان من يذكر اسم غير الله على الذبيحة فقد جعل لله شريكا ، لأنه توجه في عمله هذا الى غير الله ، كما كان يفعل مشركو العرب ، وان من ذكر اسم الله على الذبيحة فقد آمن بالله ونفى عنه الشريك ، لأنه توجه اليه وحده. ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾. يظهر من هذا ان بعض المسلمين قد امتنع عن أكل الذبيحة التي ذكر اسم الله عليها لشبهة دخلت عليه ، وهي كيف يجوز للإنسان أن يذبح الحيوان بيده ويذكر اسم الله عليه ثم يأكل

منه ، ولا يجوز له أن يأكل من الحيوان الذي أماته الله حتف أنفه! فأنكر الله ذلك على هؤلاء ، وقال : ﴿ مَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ . يشير تعالى بقوله : وقد فصل لكم الخ ، يشير الى الآية رقم ١٤٥ من هذه السورة ، ويأتي الكلام عنها ، وإلى الآية ١٧٣ من سورة البقرة ، وتكلمنا في تفسيرها عن المحرمات ، وعن حكم المضطر ج ١ ص ٢٦٤ .

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيَضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ . أي يخللون ويحرمون من غير دليل ، ووفقا لشهواتهم ، من ذلك ان مشركي العرب حللوا أكل الميتة وحرّموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وسبق الكلام عن ذلك في الآية ٣ من سورة المائدة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ الذين يخللون ويحرمون بأهوائهم وشهواتهم ، وانه سيعاقبهم بما يستحقون .

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ . المراد بالإثم فعل الحرام الموجب له ، وظاهره ارتكاب المعصية علانية ، وباطنه ارتكابها سرا ، وقد نهى سبحانه عن اقرار جميع المعاصي ما ظهر منها ، وما بطن ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ من اتباع الأهواء بغير علم ، ولا يتكون سدى من غير حساب وعقاب .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ . ضمير انه يعود إلى الأكل ، وهو مصدر متصيد من لا تأكلوا ، والفسق المعصية .. بعد أن أحل سبحانه ما ذبح على اسمه تعالى حرم ما لم يذكر اسمه عليه . واستنادا إلى ذلك أجمع الفقهاء ، ما عدا الشافعية على ان الذابح إذا ترك التسمية عامدا حرمت الذبيحة ، تماما كالمتة .. ويكفي مجرد اسم الله ، مثل : الله . الله أكبر . الحمد لله . بسم الله . لا إله إلا الله ، ونحو ذلك . واختلفوا إذا تركت التسمية سهوا . قال الحنفية والجعفرية والحنابلة : لا تحرم الذبيحة . وقال المالكية : تحرم . وقال الشافعية : لو ترك التسمية عمدا لا تحرم الذبيحة ، فبالأولى لو تركها سهوا .

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ . المراد بالشیاطین هنا أبالسة

الأنس الذين يموهون الحقائق ، ويزخرفون الأقوال ، يخدعون بها السذج البسطاء .. من ذلك ان بعض المشركين وأبالستهم كانوا يقولون لأتباعهم : اسألوا أصحاب محمد (ص) كيف تأكلون الحيوان الذي قتلتموه وذبحتموه بأيديكم ، ولا تأكلون الحيوان الذي قتله الله وأماته حتف أنفه ، مع ان قتيل الله أولى بالأكل من قتيلكم؟ هذه هي مجادلتهم التي أوحى بها الشياطين لأوليائهم بقصد أن يلقوا الشبهة في قلوب ضعاف المسلمين ، ويفتنوهم عن دينهم.

فقال سبحانه لهؤلاء الضعاف من المسلمين : ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ . أي من استمع إلى المشركين ، وأحل أكل الميتة كما أحلوها فهو مشرك مثلهم. وهذا الحكم لا يختص بأكل لحم الميتة ، فكل من جحد حكما شرعيا ، عالما بثبوته فهو كافر.

او من كان ميتاً الآية ١٢٢ . ١٢٤ :

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارًا مَجْرُمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سِصِّبُ الَّذِينَ أَجْرُمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)﴾

اللغة :

القرية المكان الذي يجتمع فيه الناس قَلَّوا أو كثَروا ، ولكن كثر استعمالها في البلد الصغير فتغلبت عليه. والصغار بفتح الصاد للدل والهوان.

الإعراب :

أو من من بمعنى الذي مبتدأ ، وخبره كمن. ومثله مبتدأ وخبره في الظلمات ، والجملة صلة كمن. ليس بخارج منها الجملة حال من الضمير في مثله. وأكابر مفعول أول لجعلنا. وفي كل قرية متعلق بمحذوف مفعولا ثانيا ، ومجرمها مجرور باضافة أكابر. الله أعلم حيث يجعل رسالته أعلم هنا بمعنى يعلم ، لأن التفاضل بين الله وغيره محال ، ومعنى حيث موضع الرسالة ، أي محمد (ص) ، وعليه تكون حيث في محل نصب مفعولا به لأعلم ، والمعنى ان الله يعلم ان محمدا أهل لرسالته.

المعنى :

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾. هذا مثل ضربه الله تعالى للمقارنة بين المؤمن والكافر ، وتوضيحه ان المقارنة بينهما تماما كالمقارنة بين الموت والحياة ، والنور والظلام ، فالكافر ميت ، فإذا آمن بعث من جديد وعادت اليه الحياة ، وإيمانه نور يمشي به في حياته على بصيرة من أمره ، ومن بقي على الكفر والشرك فهو كمن يتخبط في الظلمات ، يسير على غير هدى ، ولا يصل إلى خير مدى حياته كلها.

المسئولية والسائل الأعلى :

قد يقول القائل : ان الآية شبهت الإيمان بالحياة ، والكفر بالموت ، مع أن

الكافرين والملحدين في هذا العصر أكثر ثراء ورفاهية من المؤمنين والعابدين؟.

الجواب : ليس المراد بالحياة في هذه الآية أن يعيش الإنسان في النعيم والرفاهية ،
فيأكل طيبا ، ويلبس ثمينا ، ويشرب سائغا .. ان الرفاهية لا تناط بالكفر ولا بالإيمان ، والا
كان المؤمنون سواء في الشرق والغرب من حيث الحضارة والرفاهية ، وكذلك الملحدون
والكافرون ، ان للرفاهية أسبابا وملايسات لا تمت إلى الإيمان والكفر بسبب .. وانما المراد
بالحياة في الآية الايمان والشعور الديني الذي يدفع بصاحبه الى القيام بالواجب كإنسان
مسؤول عن سلوكه ، يحاسب عليه ويكافأ على إحسانه بالثواب ، وإساءته بالعقاب .

ولو كان الإنسان غير مسؤول عن شيء لكانت الشرائع والقوانين ألفاظا بلا معان ..
ومتى سلمنا بأن الإنسان مسؤول ، ولا يترك سدى يلزمنا حتما أن نسلم بأنه مسؤول أمام
من لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .. ولو كان هذا السائل مسؤولا لوجب وجود سائل له
، وهكذا إلى ما لا نهاية .

ومن كفر بوجود السائل الأعلى الذي يسأل ولا يسأل فقد كفر بالمسؤولية ونفاهها من
الأساس ، لأنه لا مسؤولية من غير سائل ، ومن كفر بالمسؤولية فقد كفر بالحياة الاجتماعية.
وتقول : أجل ، ان الإنسان مسؤول ، ولكن ليس من الضروري أن يكون السائل هو
الله ، فللناس أن يختاروا هيئة منهم يكون الإنسان مسؤولا أمامها .. ونسأل بدورنا : إذا
أخطأت هذه الهيئة فمن يسألها ويحاسبها ، وان قيل : الوجدان ، قلنا : أولا الوجدان أمر
معنوي لا عيني . وثانيا : ان الوجدان مشاع يدعيه كل واحد ، فلما ذا يترك هذا لوجدانه
دون ذاك؟ اذن ، لا سائل غير مسؤول إلا الله وحده ، فمن آمن بالله وألزم نفسه بشريعته
وأحكامه فقد سار على بصيرة من أمره في عقيدته وسلوكه وإلا كان مثله كمن يمشي في
الظلمات ليس بخارج منها .

﴿كَذَلِكَ زَيَّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. أي مثل ما زين للمؤمنين أعمالهم أيضا
زين للمشركين أعمالهم ، والفرق أن تزيين أولئك انعكاس عن الواقع ، وتزيين هؤلاء وهم
وخيال.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾. المراد بالقريّة كل مجتمع من الناس قل أو كثر ، والمعنى انه كما وجد في مجتمعك يا محمد رؤوس للاجرام تمكر وتنصب العدااء لدين الله كذلك وجد في المجتمعات السابقة ، ويوجد في اللاحقة أيضا رؤساء يمكرون بأمّتهم ، ويقفون موقف العدااء للحق وأهله.

وتسأل : ظاهر الآية يدل على ان الله سبحانه هو الذي جعل أكابر المجرمين يجرمون ويمكرون بأهل الحق ، مع العلم بأنه تعالى ينهى عن المكر والإجرام ، ويعاقب عليهما ، فما هو التأويل؟.

الجواب : ان القصد من هذه النسبة اليه جل ثناؤه هو الاشارة إلى أن مشيئة الله قضت بأن تقوم السنن الاجتماعية على أساس التناقض بين المحقين والمبطلين ، بين أرباب السلطان المعتدين ، وبين الناس المعتدى عليهم ، ولا مفر من هذا التناقض والصراع إلا بالقضاء على المجرمين ، ولا بد أن يتم ذلك ، وتعلو كلمة الحق على أيدي دعاة العدل والصلاح ، مهما تضخم الباطل واستطال ، وقد سجل سبحانه ذلك في كتابه ، حيث قال عز من قائل : ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾. ٤٣ فاطر. ان هذا التكرار تأكيد قاطع بأن العاقبة للمتقين على المجرمين ، مهما طال الزمن ، وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾. اختلف المفسرون في معنى هذه الآية على قولين : الأول ان أكابر المجرمين من العرب اقترحوا على محمد (ص) أن يأتيهم من المعجزات مثل ما أوتي موسى من فلق البحر ، وعيسى من إحياء الموتى. القول الثاني : انهم قالوا له : لن نؤمن حتى ينزل علينا الوحي كما نزل على الأنبياء. وقال الرازي : هذا القول مشهور بين المفسرين. ونحن نرجحه على الأول لأن سياق الآية يدل عليه ، حيث رد سبحانه على أكابر المجرمين بقوله : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾. بالاضافة إلى أن طلبهم أن ينزل الله الوحي عليهم يتلاءم مع حسدهم لرسول الله.

قال تعالى في الآية ٥٤ من سورة النساء : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. وفي مجمع البيان وغيره ، ان الوليد بن المغيرة قال للنبي (ص) : لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك ، لأني أكبر منك سناً ، وأكثر منك مالاً.

ومعنى قوله : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ واضح ، وهو انه تعالى يختار لرسالته من يصلح لها من خلقه ، ومحمد أكرم خلق الله وأشرفهم.

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ لأنهم استعلوا وتعاضموا ، فاستحقوا الجزاء بالاحتقار والاذلال ، وفي بعض الروايات : ان المتكبرين يحشرون في صورة الذر يطأهم الناس بأقدامهم جزاء على تعاضمهم في الدنيا ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾. فالصغار جزاء التكبر ، والعذاب جزاء المكر والخداع ، وبكلمة ان الله سبحانه يعامل أرباب النوايا الخبيثة ، والأهداف الفاسدة بعكس ما يقصدون ويهدفون.

يشرح صدره للإسلام الآية ١٢٥ . ١٢٧ :

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَعُدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) هُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧)﴾

اللغة :

الخرج أضيّق الضيق. ودار السلام هي دار السلامة من المنغصات والكروب ، والمراد بها هنا الجنة. والولي من يتولى الأمور.

الإعراب :

صدره مفعول أول ليجعل ، وضيقا مفعول ثان ، وحرجا صفة لضيق لأنه بمعنى شديد الضيق. ومستقيما حال من صراط ربك ، والعامل فيه هاء التنبيه في هذا أو الإشارة لأحدهما بمعنى الفعل. ولهم دار السلام مبتدأ وخبر ، وهو وليهم مثله ، وعند ربهم متعلق بمحذوف حالا من الضمير في لهم.

المعنى :

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾. قال الرازي : تمسك أصحابنا . يريد السنة الاشاعرة . بهذه الآية في بيان ان الضلال والهداية من الله تعالى .

أما أصحابنا فيقولون : لو كان الضلال والهداية من الله لسقط التكليف ، وبطل الحساب والجزاء ، لأنه تعالى أعدل من أن يفعل الشيء ، ويحاسب غيره عليه ، كيف؟. وهو القائل : ﴿وَلَا تَزِرْ وَازِرَةً وِزْرَ أُخْرَى﴾ أما الآية التي نحن في صدد تفسيرها فلا تدل على دعوى الرازي وأصحابه ، لأنها لم ترد لبيان مصدر الضلال والهداية ، وانه من الله أو من غيره ، وانما وردت لبيان ان الناس فريقان :

الفريق الأول : تتسع صدورهم للحق ، ويتفاعلون معه ، ويطمئنون اليه ، لوعيتهم وتجردهم عن الأغراض والأهداف الشخصية ، وتحررهم من التقاليد والأهواء ، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ . ١٨ الزمر. فقوله هم أولو الأبواب يشعر بأن الله هداهم لأنهم من أولي الأبواب ، وانه تعالى يمد العبد بهدايته لحكمة في ذات العبد نفسه .. وأيضا هم المعنيون بقوله ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ﴾ . ١٣ الجن. وقوله : ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ . ١٩٣ آل عمران. ولما علم سبحانه الخير من هذا الفريق زادهم الله هدى ، وأمدهم بتوفيقه وعنايته ، قال تعالى : ﴿وَيَزِيدُ

اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴿٧٦﴾ . وقال : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ .

١٧ محمد. وهكذا يهتم الأستاذ بتلميذه ويشجعه إذا علم منه الذكاء والنشاط.

الفريق الثاني : لا تتسع صدورهم للحق لجهلهم وضيق أفقهم ، أو لتناقضه مع منافعهم وأرباحهم ، أو عاداتهم وتقاليدهم ، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ . ٢٢ الزمر. وقوله : ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ . ٢ الأنبياء. وقوله : ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ . ٢٣ الأنفال. فالله سبحانه يعرض عن العبد ، ويوكله الى نفسه إذا لم يعلم الخير منه ، كما يهمل الأستاذ تلميذه بعد اليأس من نجاحه. انظر تفسير الآية ٨٨ من النساء ، فقرة : الإضلال من الله سلمي لا ايجابي ج ٢ ص ٣٩٩.

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ . كان الناس فيما مضى يضربون المثل للممتنع بالصعود الى السماء ، حيث لا وسيلة اليه بحال ، والتشبيه في الآية يتفق مع العصر الذي نزلت فيه ، والقصد منه ان فريقا من الناس . وهم الفريق الثاني الذي أشرنا اليه . يجدون الضيق والعسر لو كلفوا باتباع الحق ، تماما كما لو أمروا بالصعود الى السماء ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ . المراد بالرجس هنا العذاب ، لأنه جزاء الكافرين ، والمعنى ان الذين وقعوا في الضيق والحرج من اتباع الحق في الدنيا كذلك غدا يقعون في العذاب الذي هو أشد وأعظم عليهم ضيقا وحرجا من اتباع الحق : ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ . ٨١ التوبة.

﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ . هذا إشارة إلى الإسلام الذي تنشرح له وتستريح به صدور الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، والإسلام هو الصراط الذي لا عورة فيه ولا اعوجاج ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُدْكِرُونَ﴾ . أي أقمنا الدلائل والحجج الواضحة الكافية على صحة الإسلام وصدقه في القرآن وآياته ، وبها ينتفع الذين يعرفون دلائل الحق وبه يعملون ﴿هُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ . والذين يقيمون في دار الله هذه لا يمسهم السوء ، ولا هم يحزنون ، لأن الله

كافلهم ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الخيرات والطاعات.

ويوم محشرهم جميعا الآية ١٢٨ . ١٣٢ :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَلِكَ نُوَوِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢)﴾

اللغة :

المعشر مثل القوم جمع أو اسم جمع لا واحد له من لفظه. واستكثر من الشيء أخذ الكثير منه. والمثوى المكان. ويقصون عليكم أي يتلون عليكم.

الإعراب :

يوم مفعول لفعل محذوف ، أي أذكر يوم نحشرهم. وجميعا حال. وخالدين

حال من ضمير المخاطب في مثواكم. والا ما شاء الله ما في محل نصب بالاستثناء من خالدين. وجملة يقصون في محل رفع صفة لرسل. وذلك خبر مبتدأ محذوف ، أي الأمر ذلك. وان لم يكن ان مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، أي لأنه لم يكن. ولكل درجات مبتدأ وخبر ، أي درجات كائنة لكل واحد. ومما عملوا متعلق بمحذوف صفة لدرجات. وربك مبتدأ ، وغافل خبر والباء زائدة اعرابا.

المعنى :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي الانس والجن ، ونقول : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أي استكثرت من اغوائهم واضلالهم ﴿وَقَالَ أُولِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ الضمير في أُولِيَاؤُهُمْ يعود الى الجن ، أي ان الانس الذين تولوا الجن وأطاعوهم قالوا لله تعالى : ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي ان الجن استمتعوا بالانس ، والانس استمتعوا بالجن ، وبين الرازي وجه هذا الاستمتاع بقوله :

كان الانس يطيعون الجن ، فصار الجن كالرؤساء .. فهذا استمتاع الجن بالانس ، أما استمتاع الانس بالجن فهو ان الجن كانوا يدلون الانس على أنواع الشهوات والطيبات ، ويسهلونها عليهم.

﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ ما زال الكلام للانس الذين أطاعوا الجن ، والمعنى ان استمتاع بعضنا ببعض كان إلى أجل معين ، ووقت محدود ، وهو اليوم الذي كان فيه فراقنا للحياة الدنيا .. وها نحن بين يديك نعتزف بذنوبنا ، فاحكم فينا بما تشاء. ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ هذا هو الحكم الفاصل ، والجزاء العادل ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ يمضي قضاؤه بالناس على أساس الحكمة والعلم.

﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعُضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. لما ذكر سبحانه في الآية

المتقدمة ١٢٧ انه هو ولي المؤمنين ذكر هنا ان الكافرين من الجن والانس

بعضهم أولياء بعض ، لأنهم شركاء في الكفر والظلم ، ويوم القيامة يكونون شركاء أيضا في العذاب والعقاب.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾. هذا السؤال يوجهه الله سبحانه غدا للأشرار من الجن والإنس ، وهو للتأنيب والتوبيخ ، وليس على وجهه وحقيقته ، لأن الله يعلم وهم يعلمون بأن الله قد أرسل لهم رسلا مبشرين ومنذرين : ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ . ٢٤ فاطر . ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ حيث لا مجال للإنكار في هذا الموقف .. وفي موقف آخر أفسح لهم المجال فكذبوا ، و ﴿قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وسبق الكلام عن ذلك في الآية ٢٣ من هذه السورة . ﴿وَعَرَّهْمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ والمراد انهم هم اغتروا بالحياة الدنيا ، لأن الدنيا ما خبأت شيئا من عظامها وتقلباتها ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ذكر سبحانه أولا انهم قالوا شهدنا على أنفسنا ، ثم عقب على ذلك بأنهم شهدوا على أنفسهم ، والقصد من هذا التأكيد الردع والزجر عن الكفر والمعصية ، لأن من حاول أن يقتترف ذنبا إذا أيقن انه سيضطر الى الاعتراف به أحجم ولم يقدم ، ان كان عاقلا.

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾. ذلك اشارة الى إرسال الرسل ، والمعنى ان الله عادل لا يظلم أحدا ، ولا يعاقب إلا بعد أن يرسل رسولا يأمر وينهى ، فان لم يأت العبد وينته أخبره الرسول بما يحل به إذا لم يتب ويرتدع ، فان أصر عاقبه الله بما يستحق ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ فللمسيئين درجات حسب أعمالهم من السخرية بالغمز الى نهب الشعوب أقواتها وإلقاء القنابل الذرية على الألوف ، وللمحسنين درجات وفق أعمالهم من التحية الى الاستشهاد في سبيل الحق والصالح العام ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فكل شيء مسجل كبيرا كان أو صغيرا ، حسنا أو قبيحا.

وتجدر الاشارة الى ما سبق مرارا من اننا نؤمن بوجود الجن اجمالا ، لأن الوحي أثبتته ، والعقل لا ينفيه ، تماما كما هو الشأن بالنسبة الى الملائكة ، أما التفاصيل فما زالت في عالم الغيب.

وربك الغني الآية ١٣٣ . ١٣٥ :

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنَّ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥)﴾

اللغة :

يذهبكم أي يهلككم. والإنشاء الابتداء ، انشأ الله الخلق ، أي ابتدأه. ومكانة الإنسان الحال التي هو عليها.

الإعراب :

كما أنشأكم الكاف بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي يستخلفكم استخلافاً مثل انشأكم. ان ما توعدون ما اسم ان ولأت خبرها.

المعنى :

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ بعد أن ذكر سبحانه انه يحاسب الناس وفق أعمالهم ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أشار إلى انه غني عن العالمين ، لا تنفعه طاعة من أطاع ، ولا تضره معصية من عصى ، وان العالم كله بحاجة إلى رحمته لأنه تعالى هو السبب الأول لوجوده ﴿إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ﴾ لأنه غني عنكم ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ فيبدل بكم غيركم يكونون أطوع اليه منكم ، ولكنه أمهلكم

تفضلاً منه وكرماً ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أي كما هان عليه إيجادكم من جيل مضى يهون عليه إيجاد جيل جديد منكم أو من غيركم .. والقصد من هذه الآية أن ينذر جل ثناؤه الكافرين المعاندين بالهلاك والدمار ، تماماً كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بعد أن خوّفهم سبحانه من عذاب الدنيا خوّفهم من القيامة وعذابها وأنها آتية لا ريب فيها ، ولا مهرب منها إلا إليه وحده.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. بعد أن دعا النبي (ص) عرب الجاهلية إلى الإسلام ، واستجاب له منهم من استجاب ، وعاند من عاند أمره الله جل وعز أن يقول للمعاندين : اعملوا على شاكلتكم التي أنتم عليها ، وأنا عامل بمهذبة ربي ، وبعد حين تعلمون لمن تكون العاقبة الحسنى ، تماماً كما تقول لمن يرفض النصيحة : ابق على طريقتك ، وسترى عاقبة أمرك.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم بالكفر ، أو لغيرهم بالعدوان ، ولو أفلح الظالم لكان العادل أسوأ حالا من الظالم ، وكانت ألفاظ القيم ترادف النفاق والرياء.

فقالوا هذا لله الآية ١٣٦ . ١٤٠ :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيُرَدُّوهُمْ وَلِيلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعُمُهَا

إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٍ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِيتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠) ﴿

اللغة :

ذراً أي خلق على وجه الاختراع والإبداع. ويلبسوا يخلطوا. وحجر أي محجور وممنوع.

الإعراب :

سَاءَ ما يحكمون ، ساء فعل ماض ، وما مصدرية ، والمصدر المنسبك فاعل أي قبح حكمهم. وحجر صفة للانعام والحرث ، ويستوي فيه الواحد والكثير ، والذكر والأنثى. وافتراء مفعول لأجله ليذكرون. وما في بطون ما في محل رفع بالابتداء ، وخالصة خبر ، وأنث لفظ خالصة على معنى الانعام ، وذكر لفظ محرم حملا على لفظ ما. واسم يكن ضمير مستتر يعود إلى ما في بطون. وافتراء مفعول لأجله لحرموا.

المعنى :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ .
الواو في جعلوا يعود إلى مشركي العرب ، وذراً خلق ، والحرث الزرع ، والانعام المواشي ، والنصيب السهم ، والشركاء الأصنام .

ومحصل المعنى ان الله سبحانه بعد أن أبطل في الآيات السابقة عقيدة المشركين بمنطق العقل والفطرة تعرض في هذه الآيات الى بعض ما كان مشركو العرب يزاولونه في أموالهم وأولادهم ، وهذه الآية التي نفسرها تعرضت لشأنهم وتقاليدهم في ثروتهم المالية ، وهي الزرع والماشية ، وكانوا . كما في كتب التفسير . يعينون شيئاً من زرعهم وأنعامهم لله ، ويصرفونه الى الصبيان والمساكين ، و شيئاً لأصنامهم ، وينفقونه على سدنة الأصنام وحراسها ، وكانوا يبالغون ويجهدون في تنمية نصيب الأصنام ، ليأتي نتاجه أكثر وأوفر من نصيب الله ، لأن الله غني ، وفي الأصنام فقر ، وكانوا إذا خالط شيء مما جعلوه لله ما جعلوه للأصنام تركوه لها ، وإذا خالط شيء مما جعلوه للأصنام ما جعلوه لله ردوه الى الأصنام ، وأيضاً إذا أصابهم الجذب أكلوا من نصيب الله ، وتركوا نصيب الأصنام .. وهذه الصورة أوضح تفسير للآية الكريمة ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ في إثارة أصنامهم على الله تعالى علواً كبيراً .

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ . تقدم ان المراد بالشركاء في الآية السابقة الأصنام ، أما في هذه الآية فالمراد بهم الكهنة وسدنة الأصنام بطبيعة الحال ، لأن الأصنام لا تشعر ولا تنطق ، فكيف تزين وتغري؟ . والمعنى ان المشركين كما جعلوا في أموالهم نصيباً لله ، ونصيباً للأصنام كذلك زين لهم السدنة والكهنة ، ومن اليهم من الرؤساء ، زينوا لهم قتل أولادهم .

وتسأل : إن تصرف المشركين في أموالهم وأولادهم على النحو المتقدم كان بوحى من عرف الجاهلية ، ومعلوم ان العرف ، يضعه الناس للناس ، فإذا قتل واحد منهم ابنه خشية الفقر والاملاق ، أو وأد ابنته خوف

العار ، كما نسب الى قيس بن عاصم ، قلده من هم على شاكلته في السفاهة والجهالة ..
اذن ، فما هو الوجه في نسبة ذلك إلى الأصنام ، أو القائمين عليها؟.

الجواب : أجل ان تصرف المشركين كان بوحى من التقاليد ، ولكن السدنة والرؤساء
قد زينوا هذه التقاليد وحبذوها ، وهم الناطقون باسم الأصنام فصحت النسبة اليها.

﴿لِيُرَدُّوهُمْ وَلِيلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ الواو يعود الى الكهنة ومن اليهم ، وضمير هم
يعود الى المشركين ، والرد هنا معناه الهلاك ، واللبس الخلط ، واللام للعاقبة والمعنى ان الكهنة
زينوا للمشركين أعمالهم ، فكانت نتيجة هذا التزين هلاك المشركين ، وضياعهم عن الحق
والدين القويم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي لو شاء الله أن يمنعهم عن ذلك جبرا وقهرا ما
تصرفوا في أموالهم وأولادهم ذاك التصرف القبيح ، ولكنه تركهم وشأنهم بعد أن هداهم
النجدين. ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ من اضافة ما يخللون ويحرمون الى الله .. والأمر بتركهم
وافتراهم جاء لتهديد المشركين ووعيدهم ، وليس على وجهه وحقيقته ، تماما كالأمر في قوله
تعالى : ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ . ٤١ فصلت.

ثم ذكر سبحانه في الآية التالية ان المشركين قسموا زرعهم وأنعامهم الى ثلاثة أقسام :
القسم الأول ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾.
الحجر الحرام ، أي ان المشركين كانوا يقتطعون قسما من زرعهم وثمارهم وماشيتهم ، ويحرمون
التصرف فيه إلا على من يختارون .. ولم يبين سبحانه الذين يختارهم المشركون لهذا القسم ،
ولكن بعض المفسرين قالوا : هم الكهنة وخدم الأصنام ، وقال آخرون : هم الرجال دون
النساء.

القسم الثاني ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ فلا تركب ، ولا يحمل عليها ، وتقدم ذكرها
في الآية ١٠٣ من المائدة.

القسم الثالث ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ في الذبح ، بل يذكرون اسم آلهتهم
، وتقدم التفصيل عند تفسير الآية ١٢١ من هذه السورة ﴿افْتَرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ﴾ أي انهم نسبوا هذا التقسيم إلى الله كذبا وافتراء ، والله معاقبهم عليه.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلذَّكُورِ وَحُرْمٌ عَلَى أَرْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾. قال الرازي : هذا نوع رابع من أنواع قضايهم الفاسدة . وتقدم ذكر الأقسام الثلاثة في الآية السابقة . كانوا يقولون في اجنة البحائر والسوائب : ما ولد منها حيا فهو خالص للذكور ، لا تأكل منه الإناث ، وما ولد ميتا اشترك فيه الذكور والإناث . سيجزيهم وصفهم ، والمراد الوعيد ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ليكون الزجر واقعا على حد الحكمة وبحسب الاستحقاق .

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. وأي شيء أكثر سفاهة من أقدام الوالد على ذبح ولده بمديته ، أو دفنه حيا تحت التراب ، وقوله بغير علم تأكيد للسفاهة ، أما خسارتهم في الدنيا فتتمثل في قتل أولادهم ، وفساد حياتهم الاجتماعية ، وخسارتهم في الآخرة أدهى وأمر ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ من الأنعام والحارث التي زعموا انها حجر ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ لأن التحريم منهم وليس منه ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى شيء من الخير والرشاد .

قال الرازي : ذكر الله أمورا سبعة ، وكل واحد منها سبب تام في حصول الدم ، وهي الخسران ، والسفاهة ، والجهل ، وتحريم ما أحل الله ، والافتراء عليه ، والضلال عن الرشاد ، وعدم الاهتداء .. ثم قال الرازي : فثبت انه تعالى ذم الموصوفين بقتل الأولاد وتحريم ما أحله الله تعالى لهم بهذه الصفات السبعة الموجبة لأعظم أنواع الدم ، وذلك نهاية المبالغة . ونقول للرازي : إذا كان الله قد ذمهم على الضلال بأعظم أنواع الدم ونهايته فكيف تدعي ان الله هو الذي خلق فيهم الضلال؟ وأي منطق يجيز أن يعاقب البريء ويذم على شيء فعله الذي ذمه وعاقبه؟. لقد تكرر ذلك من الرازي في تفسيره الكبير عدة مرات ، منها ما قاله منذ قريب عند تفسير الآية ١٢٥ من هذه السورة .

الإعراب :

معروشات صفة لجنات ، والنخل الزرع أي وثمرة النخل ، وحب الزرع ، ومختلفا حال منهما ، وأكله فاعل مختلفا ، والزيتون والرمان عطف على جنات أي وأنشأ الزيتون والرمان ، ومتشابهما حال ، ومن الأنعام حمولة أي وأنشأ من الانعام حمولة ، وثمانية أزواج بدل من حمولة وفرشا ، واثنين بدل بعض من ثمانية ، والذكرين مفعول حرم ، ام كنتم شهداء أم بمعنى بل.

المعنى :

بعد أن بين سبحانه في الآيات السابقة ان المشركين حرموا ما حرموا من الزرع والانعام افتراء على الله . بين في هذه الآيات انه خلق الزرع والانعام ليتنعم الإنسان بها ، قال عز من قائل : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ ﴿١﴾ مرفوعة فروعها على دعائم ﴿٢﴾ وَغَيْرِ مَعْرُوشَاتٍ ﴿٣﴾ متروكة على الطبيعة ﴿٤﴾ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ ﴿٥﴾ عطف على جنات من باب عطف الخاص على العام ﴿٦﴾ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ ﴿٧﴾ فالحبوب على أصناف ، ولكل صنف طعم ، والثمار أشكال ألوان طعما ورائحة ، والبقول كذلك ﴿٨﴾ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ ﴿٩﴾ أيضا عطف على جنات ﴿١٠﴾ مُتَشَابِهًا وَغَيْرِ مُتَشَابِهٍ ﴿١١﴾ فثمر الرمان يشبه بعضه بعضا ، ولكن منه الحلو ، ومنه الحامض ، وكذلك الليمون ، وثمر الزيتون منه الجيد ومنه الرديء ﴿١٢﴾ كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴿١٣﴾ لأنه خلق من أجلكم ﴿١٤﴾ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴿١٥﴾ قيل : المراد بحقه الزكاة . وقيل : الصدقة المستحبة ، وكلا القولين خلاف الظاهر ، والمتبادر الى الذهن أن يجمع ولا يترك عرضة للتلف والضياع ﴿١٦﴾ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٧﴾ الإسراف تجاوز الحد ، وقد نهي الله عنه ، سواء أكان في الإنفاق على النفس ، أم الإعطاء إلى الغير .

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءٌ ﴿١٨﴾ أي وأنشأ من الانعام ما يحملكم ويحمل أثقالكم كالإبل والبقر ، وما تذبحونه وتنتفعون بلحمه وصفه وشعره ووبره ﴿١٩﴾ كُلُّوا بِمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴿٢٠﴾ كهذه الانعام وغيرها ، واشكروه على نعمه ﴿٢١﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ

كلوا من ثمرة الآية ١٤١ . ١٤٤ :

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَذْكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْإُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَذْكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْإُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) ﴿

اللغة :

الجناات البساتين والكروم. والمعروشات التي ترفع فروعها على دعائم ، كالعنب ، وغير المعروشات تترك على الطبيعة كالنخل ، والأكل بضم الهمزة والكاف ما يؤكل. ومتشابه بالنظر ونحوه ، وغير متشابه بالطعم وغيره. والحمولة ما يحمل عليه الأثقال. والفرش ما يفرش للذبح من الضأن والمعز وصغار الإبل والبقر ، أو ما يتخذ الفرش من صوفه وشعره ووبره.

الشيطان ﴿بتحليل ما حرم الله ، وتحريم ما أحله ، وبالإسراف والتبذير﴾ **﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾** يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله ما لا تعلمون.

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾. كلمة الزوج تطلق على كل واحد له قرين ، كأحد الزوجين من الذكر والأنثى ، وأحد النعلين ، ويقال للاثنتين معا : زوجان **﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾** الذكر والأنثى ، وكلمة الضأن تختص بالغنم ما نص أهل اللغة ، ولا تشمل المعز بدليل عطفه على الضأن **﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾** الذكر والأنثى : والمعز جنس له واحد من لفظه ، وهو ماعز للذكر والأنثى ، ويقال للأنثى : ماعزة ومعزة **﴿قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾** الذكر من الضأن والذكر من المعز **﴿أَمِ الْأُنثَيْنِ﴾** الأنثى من الضأن والأنثى من المعز **﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ﴾** أم حرم الأجنة في بطن الأنثى من الضأن ، وبطن الأنثى من المعز **﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** لا بحدس وهوى وتقليد. لأن التحريم يحتاج إلى دليل قاطع ، فأين هو؟.

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ﴾ الذكر والأنثى ، الجمل والناقة ، والإبل اسم جمع كالقوم لا واحد له من لفظه. **﴿وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾** الذكر والأنثى **﴿قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾** من الإبل والبقر **﴿أَمِ الْأُنثَيْنِ﴾** منهما **﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ﴾** أم الأجنة في بطن الناقة ، وبطن البقرة. **﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾** زعموا ان الله هو الذي حرّم ما حرموا من الأنعام والحرث ، فقال لهم : ان الشيء لا يثبت إلا بواحد من اثنين : اما بالعيان ، واما بشهادة الشاهد الصادق ، وأنتم لم تأخذوا التحريم من الله مباشرة ، ولا بواسطة أنبيائه ورسله ، فمن أين أتيتم بهذه الأحكام؟. **﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾** إذا لم تعينوا ، ولم يشهد لكم شاهد أمين فأنتم . اذن . مفترون ، والمفتري ظالم آثم ، بل أنتم أظلم من كل ظالم ، لأنكم على الله ، لا على سواه تفترون .. **﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾** يصدّهم عن سبيل الله ، وفي الوقت نفسه يزعم انه الهادي الى دين الله ، شأن أكثر المعتمدين في هذا العصر **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** لأنهم قطعوا كل صلة بينهم وبين الله ، بل حرموا حلاله ، وحلّلوا حرامه.

قل لا اجد فيما أوحى الى محرما الآية ١٤٥ . ١٤٧ :

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)﴾

اللغة :

طاعم يطعمه ، أي آكل يأكله. والميتة ما مات حتف أنفه. والدم المسفوح يخرج بدفق كدم العروق ، وغير المسفوح يسح سحا كدم الكبد. والرجس القذر. والإهلال رفع الصوت ، والمراد بأهل لغير الله ذبح باسم غير الله. والباغي من يرتكب الحرام من غير ضرورة ، والعادي من يتجاوز الحد. وحملت ظهورها علقته بها. والحوايا جمع حاوية ، وهي المصارين والأمعاء ، لأنها تحوي الفضلات وقيل : الحوايا كل ما تحويه البطن. وما اختلط بعظم قال الرازي : هو شحم الألية في قول جميع المفسرين. واختلاطه بالعظم هو اتصاله بالعصعص.

الإعراب :

محرما صفة لمفعول محذوف ، أي مطعوما محرما أو طعاما محرما. واسم يكون

ضمير مستتر ، وميتة خبر ، والتقدير إلا أن يكون المحرم أو المأكول ميتة ، والمصدر المنسبك من أن يكون منصوب على الاستثناء المنقطع ، لأنه مستثنى من غير المحرم. أو فسقا عطف على لحم الخنزير. إلا ما حملت ما في موضع نصب على الاستثناء المنقطع من شحومها. وذلك مفعول جزيناهم.

المعنى :

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. الرجس القذر ، والفسق الحرام ، بعد أن بيّن سبحانه افتراء المشركين على الله فيما حللوا وحرّموا من المأكولات . بيّن في هذه الآية المحرمات عند الله سبحانه مما يؤكل ، وهي أربعة : الميتة ، والدم المسفوح ، ولحم الخنزير ، وما ذبح على غير اسم الله ، ولا يجوز لأحد أن يتناول منها شيئاً إلا المضطر إلى أكلها ، فله ، والحال هذه ، أن يتناول منها ما يدفع به الضرر عن نفسه ، وتقدم الكلام عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ١٧٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٦٤ . وأجبنا هناك عن سؤال من سأل ان ظاهر الآية يدل على حصر المأكولات المحرمة بهذه الأربعة ، مع انها كثيرة ، وأيضاً سبق الكلام عن ذلك بصورة أوسع في أول هذا المجلد عند تفسير الآية ٣ من سورة المائدة.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا﴾. الذين هادوا هم اليهود .. حرّم سبحانه الأصناف المذكورة في الآية السابقة على الناس جميعاً اليهود وغير اليهود ، أما المحرم في هذه الآية فيختص باليهود وحدهم بدليل قوله : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا﴾.

أولاً : ﴿كُلِّ ذِي ظُفْرٍ﴾ بجميع أجزائه ، دون استثناء ، وقال الطبري في تفسيره : ذو الظفر من البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع . يريد منفرج الأصابع . كالإبل والنعام والأوز والبط.

ثانيا : ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾. لم يحرم على اليهود جميع أجزاء البقر والغنم ، بل اللحم الأبيض ، دون اللحم الأحمر ، بل استثنى من شحوم البقر والغنم ثلاثة أصناف : الأول ما أشار اليه بقوله : ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ وهو الشحم الملتصق بالظهر. الثاني : ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ وهي المصارين والأمعاء ، والمراد ان الشحوم الملتصقة بها غير محرمة. ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ وهو شحم الألية في قول جميع المفسرين على عهدة الرازي ، أما العظم الذي اختلط به شحم الألية فهو العصعص.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُهمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ هذا بيان لسبب حرمان اليهود من هذه الطيبات ، وانه جزاء على جرائمهم التي لا يبلغها الإحصاء ، ومنها قتل الأنبياء ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وقولهم : الله فقير ، ويده مغلولة .. وفي تفسير الآية ٩٣ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١١٤ ما يتصل بقوله تعالى : وعلى الذين هادوا حرمنا.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾. أي ان كذبوك يا محمد فلا تؤيسهم من رحمة الله ، وقل لهم : ان الله بقبلكم ويصفح عنكم ان تبتم وأنبتم ، كما انه ينتقم منكم إذا أصررتم على ما أنتم عليه ، وفي هذه الآية وعد ووعيد ، رضا الله وغضبه ، رضاه عنمن التجأ اليه طالبا المغفرة ، وغضبه على من أصر على التمرد والعناد : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾. ٧ ابراهيم.

لو شاء الله ما أشركنا الآية ١٤٨ . ١٥٠ :

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا

تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

الإعراب :

ولا آباؤنا عطف على ضمير أشركنا. ومن شيء من زائدة ، وشيء مفعول حرمننا. وهلم معناها الدعاء كتحال ، وهي هنا متضمنة معنى الحضور أي احضروا شهداءكم. قال أبو البقاء : للعرب في هلم لغتان : إحداهما أن تكون بلفظ واحد للواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث ، فتكون اسم فعل ، وبنيت لوقوعها موقع فعل الأمر. اللغة الثانية أن تصرف ، فيقال : هلمنا وهلمي وهلممن وهلموا ، فتكون فعلا.

المعنى :

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾. الذين يتقبلون النصيح ، ويتبعون أحسن القول قليلون جدا ، وأقل منهم من يرون عيوب أنفسهم ويعترفون بها .. فإن الأكثرية الغالبة يرون عيوبهم فضائل ، وسيئاتهم حسنات : ﴿كَذَلِكَ زِينٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ١٢. يونس. فإن عجزوا عن تحسين قبائحهم تبرأوا منها ، وأحالوها إلى مشيئة الله ، أو إلى أي مصدر آخر .. والله سبحانه منزه عما يصفون .. انه يأمرهم وينهاهم ، ويجعل لهم الخيار فيما يفعلون ويتركون ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة وما لأحد على غيره من سلطان ، حتى الشيطان يقول : لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ

إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴿٢٢﴾ إبراهيم.

وفي الآية التي نحن بصددھا حکى سبحانه ادعاء المشركين ان شركهم وشرك آبائهم ، وتحريم ما حرموا من الحرث والانعام إنما كان بمشيئة الله وأمره ، ولو شاء أن لا يشركوا لمنعمهم عن الشرك ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ أي لقد كذب مشركو العرب بمحمد (ص) الذي نهاهم عن الشرك والافتراء على الله ، تماما كما كذب من كان قبلهم بأنبياء الله ورسله ، ولم يصدقوهم إلا بعد أن نزل بهم العذاب جزاء على تكذيبهم.

وبعد أن حکى سبحانه ادعاء المشركين وانه في الكذب كادعاء أسلافهم أمر رسوله ان يرد عليهم بسؤال يخرسهم ، ويبطل ادعاءهم ، وهو ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ المراد بالعلم هنا الدليل ، وهو من باب اطلاق المسبب على السبب ، لأن الدليل سبب لحصول العلم ، والقصد من هذا السؤال اظهار عجزهم وكذبهم ، لأن معناه لقد زعمتم أيها المشركون ان الشرك كان برضا من الله ، فمن الذي قال هذا؟. ومن أين علمتم بمشيئته تعالى؟. انها من غيبه ، ولا يطلع على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ، والرسول لم يقل هذا لكم ولا لغيركم . اذن . كيف تحيلونه على الله جل ذكره؟.

﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾. ونحن لا نشك أبدا بأن أكابر المجرمين يعلمون انهم يخرصون ويكذبون فيما قالوا ، وانما قالوا عنادا للحق الذي يزهق أباطيلهم ، ويقضي على أغراضهم ومكاسبهم العدوانية.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ بين سبحانه في الآية السابقة ان المشركين لا حجة لهم على ما يدعون سوى الظن والتخرص ، وفي هذه الآية بين ان الحجة القاطعة هي الله وحده عليهم وعلى غيرهم ، ومعنى بالغة انها قد بلغت من القوة ما تقطع بها كل عذر ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. في المجلد الأول ص ٧٢ ذكرنا ان الله إرادتين : ارادة الخلق والتكوين ، وهي عبارة عن قوله : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ وارادة الطلب والتشريع ، وهي عبارة عن أمره ونهيهِ ، وانه سبحانه يخلق الكون بإرادته التكوينية ولا يتدخل . ان صح التعبير . بهذه الارادة في شئون الناس

الاجتماعية ، بل بإرادة التشريع والإرشاد ، وبهذا يتضح معنى قوله : ﴿فَلَوْ شَاءَ هَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لو أراد أن يتدخل في شئونكم الاجتماعية بإرادة ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ لآمنتكم جميعا ، ولكنه لا يفعل ، لأنه لو فعل لبطل التكليف ، وانتفى الثواب والعقاب .

وبتقرير ثان ادعى المشركون ان شركهم كان بمشيئة الله ، فأبطل سبحانه دعواهم هذه بأنها من غير دليل ، لأن الله لا يتدخل في شئون عباده بإرادة التكوين سلبا ولا إيجابا .. ولو سلم . جدلا . انه يتدخل بهذه الارادة التي تلجئ الإنسان إلجاء ، لو افترض هذا لألجأهم سبحانه إلى الإيمان بوحدانيتها بطبيعة الحال ، ولم يلجئهم إلى عصيانه والكفر به وجعل الشريك له .

﴿قُلْ هَلْمْ شُهَدَاءُكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ . افترى المشركون على الله الكذب في تحريم ما حرموا من الحرث والأنعام ، وأيضا افتروا عليه في نسبة شركهم اليه ، فأمر نبيه محمدا في الآية الأولى أن يقول لهم : هل عندكم دليل على ما تدعون ، فتخرجوه لنا؟ . ثم أمره في الآية الثانية أن يقول لهم : ان الدليل القاطع لكل شبهة ملك لله ، لا لكم ، ثم أمره في هذه الآية أن يقول لهم : أروني من يشهد بأن الله أوحى اليه مباشرة ، أو بواسطة نبي من أنبيائه انه تعالى حرم ما حرمت أيها المشركون ، لأن الشهادة الحقة يشترط فيها العلم القاطع للشك والاحتمال ، ولا وسيلة للعلم بحرام الله وحلاله إلا الوحي ، فأحضروا من يشهد به ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ على سبيل الفرض ﴿فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ هذا النهي كناية عن كذبهم في شهادتهم ، لأن النبي محال أن يشهد مع المشركين .. والكناية أبلغ من التصريح .

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَغْدِلُونَ﴾ . بعد أن حكم الله عليهم بالكذب والافتراء بين علة حكمه بأمور ثلاثة : الأول انهم يتبعون الأهواء والشهوات ، وعبر عن ذلك بقوله : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ لأن النبي محال أن يتبع من كذب بنبوته . الثاني انهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ومن لا يؤمن بالآخرة لا يخشى عاقبة الكذب . الثالث انهم ﴿بِرَبِّهِمْ يَغْدِلُونَ﴾ أي يجعلون له عدلا يشاركه في الخلق ، ومن يشرك بالله فلا تقبل له شهادة ، لأنه قد ارتكب أفبح القبائح .

ما حرم ربكم الآية ١٥١ : ١٥٣ :

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا
أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ
إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا
وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
(١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ
وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾

اللغة :

الإملاق الإفلاس ، ومنه الملقq والتملق لأن المفلس يتملق لأرباب المال طمعا في
العطية. وأشد بضم الشين قال صاحب مجمع البيان : هو جمع شد ، مثل الأشر جمع شر ،
والأضر جمع ضر. وأيأكان فان المراد به هنا الإدراك والبلوغ.

الإعراب :

اتل ما حرم ما مفعول اتل. وان لا تشركوا ان مفسرة بمعنى أي

ولا ناهية ، ويجوز أن تكون ان ناصبة ولا نافية ، والمصدر المنسبك بدل من ما حرم. وشيئا مفعول مطلق لتشركوا لأن المراد به الاشراك. وإحسانا مفعول لفعل محذوف أي أحسنوا بالوالدين إحسانا ، أو أوصيكم بهما إحسانا. وما ظهر منها وما بطن بدل اشتمال من الفواحش. إلا بالحق في موضع الحال ، أي الا محقين. ذلك وصاكم به مبتدأ وخبر. ولو كان ذا قرى اسم كان محذوف أي ولو كان المقول له. ﴿وَأَنَّ هَذَا﴾ المصدر المنسبك من ان وما بعدها مجرور بلام محذوفة ، والمجرور متعلق باتبعوه. ومستقيما حال من صراطي.

المعنى :

أشار سبحانه في الآيات السابقة الى ان المشركين حللوا وحرموا بالحدس والأهواء ، وانهم نسبوا الشرك اليه جهلا وافتراء ، ورد عليهم بمنطق العقل والفطرة ، وذكر من المحرمات الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل لغير الله ، وفي هذه الآيات الثلاث ذكر طرفا من المحرمات ، وهي التي لا يختص تحريمها بشريعة من الشرائع السماوية ، وذكر الى جانبها بعض الواجبات كالوفاء بالكيل والميزان ، وبعهد الله واتباع العدل .. وبديهة ان كل ما وجب فعله حرم تركه ، وكل ما حرم فعله وجب تركه ، وأطلق بعض المفسرين على محتويات هذه الآيات الثلاث الوصايا العشر.

الوصايا العشر :

١ . ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾. ابتداء سبحانه بالأصل الأول من العقيدة ، وهو نفي الشرك الذي يقابله ثبوت التوحيد ، واليه ترجع جميع الأصول والفروع ، ومنه تستمد جميع الحقوق والواجبات ، وبه تقبل الطاعات وعمل الخيرات ، ويتلخص معنى التوحيد بقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال.

٢ . ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. قرن سبحانه الوصية بالوالدين بربوبيته المتفردة

إشعاراً بأن الإحسان اليهما يجب أن يكون فريداً في بابه .. فكأنه قال : لا تشركوا بالله ، ولا تشركوا بالإحسان إلى الوالدين إحساناً. وتكلمنا بشبهه عن البر بالوالدين عند تفسير الآية ٨٣ من سورة البقرة ج ١ ص ١٤١ .

٣ . ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ . بعد ما أوصى الأبناء بالآباء أوصى الآباء بالأبناء. وسبق الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ١٣٧ من هذه السورة.

٤ . ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ . كل ما تجاوز الحد في القبح فهو فحش ، ومنه الزنا واللواط والظلم والتهتك والتبرج ، والكذب والغيبة والنميمة واللؤم والحسد ، وأعظم الفواحش كلها الإلحاد والشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس المحترمة ، وأكل مال اليتيم ، وإنما أفرد الله هذه بالذكر ، مع أنها تدخل في الفواحش للتنبيه إلى أنها قد بلغت الغاية والنهاية من القبح والفحش ، سواء اقترفت سرا أم علانية ، وعن ابن عباس إن أهل الجاهلية كانوا يكرهون الزنا علانية ، ويفعلونه سرا ، فنهاهم الله عنه في الحالين.

وعن رسول الله (ص) أنه قال : لا أخبركم بأبعدكم مني شيهاً؟ قالوا : بلى يا رسول الله. قال : الفاحش المتفحش البذيء البخيل المختال الحقود الحسود القاسي القلب البعيد عن كل خير يرجي غير مأمون من كل شر يتقى.

٥ . ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ . الأصل في قتل النفس التحريم ، ولا يحل إلا بسبب موجب ، وهو واحد من أربعة : نصت السنة النبوية على ثلاثة منها ، وهي قوله (ص) : لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق. ونص الكتاب على السبب الرابع في الآية ٣٣ من سورة المائدة : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ . ﴿ذَلِكَمُ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي تعرفون قبح الشرك وقتل النفس والفواحش ، وحسن البر بالوالدين.

٦ . ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ . والنهي عن القرب

منه أبلغ من النهي عنه بالذات ، ويعم جميع وجوه التصرف ، كما ان التي هي أحسن أبلغ من التي هي حسنة ، والمعنى المقصود هو التشدد في شأن أموال كل قاصر عن التصرف في أمواله إلا على الوجه المألوف يتيما كان أو مجنونا أو سفيها أو غائبا أو صغيرا يتولى أبوه شئونه المالية ، وان على أولياء هؤلاء أن يحافظوا على أموال القاصرين ، ويدبروها لمصلحتهم ، ومن هنا ذهب جماعة من كبار الفقهاء الى أن تصرفات الولي في مال القاصر لا تنفذ إلا مع الغبطة والمصلحة ، ونحن على هذا الرأي ، حتى ولو كان الولي أبا أو جدا لأب ، ودليلنا كلمة أحسن. أما حديث : أنت ومالك لأبيك فهو حكم أخلاقي لا شرعي بدليل كلمة انت فان الابن ليس سلعة يملكها الأب.

وتسأل : ان كلمة اليتيم يختص بمن مات أبوه ، وهو صغير ، فكيف جعلتها عامة تشمل كل قاصر؟.

الجواب : نحن نعلم علم اليقين ان السبب المبرر لوجوب التصرف بالتي هي أحسن هو القصور ، وليس اليتيم بما هو يтим ، والقصور متحقق في الجميع من غير تفاوت.

﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ وتجد تفسيره في الآية ٥ من النساء : ﴿وَابْتَئِلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ وتقدم تفسيرها في ج ٢ ص ٢٥٦.

٧. ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ بعتم أو اشتريتم ﴿لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ هذه جملة معترضة ، والقصد منها التنبيه الى ان الوفاء المطلوب بالكيل والميزان هو الوفاء الممكن المعروف بين الناس ، وهم يتسامحون بزيادة ما قل أو نقصانه ، لأن مراعاة الحد العادل فيه نحو من العسر والرجح ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. وعلى أية حال ، فإن الأساس في شتى أنواع التجارة هو رضى الطرفين ، سواء أكانت السلعة مما يكال أو يوزن أو يعد أو يذرع ، أو يقدر بالفكر كالكتاب ، أو النظر كالقطعة الفنية.

٨. ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ هذا هو المحك لمن يخاف الله ويخلص له ويشعر أمامه بالمسؤولية ، لا أمام زوجة أو أب أو أم أو ابن

أو صهر .. لا شيء إلا الحق والعدل ، أما من يتكلم باسم الدين ، ثم يميل به هواه مع قريب أو صديق فما هو من الدين في شيء .

٩ . ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ . وكل ما أمر الله به ، ونهى عنه فهو عهد الله ، أما الوفاء به فامثاله وطاعته ﴿ذَلِكَ وَمَا كَانَ لَكُمْ بِهِ لَعْنٌ﴾ ولا تغفلون عن طاعة من لا يغفل عنكم .

١٠ . ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ﴾ هذا إشارة إلى كل ما ذكر ، وهو صراط الله المستقيم ، وليس بعده إلا الضياع والضلال ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ كالشرك والإلحاد والأحزاب والأديان الباطلة ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ . فآية سبيل غير القرآن والإسلام فهي من وضع الأهواء ، وليس للأهواء حد ولا ضابط ، فإذا اتبعها الناس تفرقوا شيعا وأحزابا متناحرة ، أما إذا اتبعوا جميعا دين الله فتوحدتهم العقيدة الحقة ، والإيمان القويم ، وفي الحديث : ان النبي (ص) خط خطا بيده ، وقال : هذا سبيل الله مستقيما ، ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ، وقال : هذه ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ .. ﴿ذَلِكَ وَمَا كَانَ لَكُمْ بِهِ لَعْنٌ تَتَّقُونَ﴾ سبل الشيطان التي تميل بكم مع الأهواء والشهوات .

ثم آتينا موسى الكتاب الآية ١٥٤ . ١٥٧ :

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ

وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا
سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

الاعراب :

تماما حال بمعنى متمم. ومبارك صفة لكتاب ، والمصدر المنسبك من أن تقولوا مجرور
بإضافة مفعول من أجله محذوف ، والتقدير أنزلناه كراهية القول. وإن كنا ان مخففة من
الثقيلة مهملة عن العمل. واللام في لغافلين هي اللام الفارقة بين إن المخففة وإن النافية.
وعن دراستهم متعلق بغافلين.

المعنى :

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ حار المفسرون في ثم لأن الحديث في الآيات السابقة كان
عن القرآن ، وهذه الآية تحدثت عن التوراة ، وقد نزلت قبل القرآن ، وثم تدل على التراخي
وتأخير ما بعدها عما قبلها زمانا ، فكيف يعطف المتقدم على المتأخر في الزمان؟. وذكر
الرازي لذلك ثلاثة وجوه ، وزاد الطبرسي رابعا .. ونحن لا نرى مسوغا للاطالة في ذلك ،
لأن الترتيب هنا في القول ، لا في الزمان ، والعطف من باب عطف خبر على خبر ، لا من
باب عطف معنى على معنى.

﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ تماما بمعنى متمم ، وعلى هنا بمعنى اللام ، كما هي في
قوله تعالى : ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي لهدايتكم كما في مغني ابن هشام ، والمعنى
آتينا موسى الكتاب ، وهو يتمم نقص الذي أحسن الانتفاع به ، كقوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ
أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ . ٣ المائدة.
﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ هذه صفة ثانية لكتاب موسى (ع) وانه يشتمل على جميع الأحكام
التي يحتاج اليها ناس ذاك

العصر. قال تعالى : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ﴾ . أي لموسى . ﴿فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ . ١٤٤ الأعراف . ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ وصفان آخران لكتاب موسى . وبألهدى يعرف الناس الحق والخير ، وبالرحمة يحيون حياة طيبة هادئة ﴿لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ضمير يؤمنون يعود إلى بني إسرائيل والمعنى آتينا موسى كتابا جامعا لكل ما ذكرنا من أوصاف ، كي يؤمن قومه بالله وثوابه وعقابه ، ولكنهم أصروا على العناد ، وقالوا فيما قالوا : ﴿يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ . ٥٥ البقرة . وعلى فرض أن يروا الله جهرة . وفرض الحال ليس بمحال . فإنهم يقولون : ما هذا بإله ، لأنه ليس جنيها ولا دولارا . ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ هذا إشارة إلى القرآن الكريم ، وهو مبارك لأنه كثير الخير والنفع ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ اتبعوا ما أمركم به ، واتقوا ما نهاكم عنه ، كي تشملكم رحمته دنيا وآخرة .

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ . الخطاب في أن تقولوا موجه لمشركي العرب ، والمراد بالكتاب التوراة والإنجيل ، وبطائفتين أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، وضمير دراستهم يعود إلى أهل الكتاب ، والمعنى يا معشر العرب لقد أنزلنا القرآن بلسانكم ، وعلى رجل منكم وفيكم ، لئلا تعتذروا عن شرككم بأنه لم ينزل كتاب من السماء بلسانكم ، وإنما نزل على اليهود والنصارى ، ونحن كنا غافلين عن دراسة كتابهم وتعاليمه لا ندري ما فيه ، لأن لسانهم غير لساننا .

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ . في الآية السابقة قال تعالى لمشركي العرب : أنزلنا القرآن بلسان عربي مبين لئلا تقولوا غدا : ان التوراة والإنجيل نزلا بلغة كنا عنها غافلين ، لا نعرف شيئا منها ، وفي هذه الآية قال لهم : أو تقولوا يا معشر العرب : لو نزل الكتاب علينا وبلغتنا لكننا أهدى وأسبق من اليهود والنصارى إلى الإيمان . وبالاختصار ان هذه الآية والتي قبلها أشبه بقول القائل : ان فلانا يملك ثروة كبرى ، وأنا لا أملك شيئا ، ولو ملكت لفعلت كذا وكيت . فرد الله عليهم بجواب قاطع لكل عذر : ﴿فَقَدْ

جاءكم بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴿١٥٨﴾ والمراد بالبينة القرآن ، وفيه الدلائل والبيّنات على صدق محمد (ص) ، وفيه أيضا الأحكام والتعاليم التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور .
﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيَّاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أبدا لا أحد أشد لؤما وظلما لنفسه وللناس ممن كفر بالحق والخير ، وسعى في الأرض فسادا بصدده عن سبيل الله ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ صدف عن الشيء أعرض عنه ، وآيات الله حججه ودلائله ، والمعنى انه جل ثناؤه أقام البرهان القاطع على وحدانيته وعلى نبوة محمد وصدق ما جاء به من ربه ، ولكن المشركين أعرضوا وأبوا أن يتدبروا تلك الحجج عنادا منهم للحق وأهله ، فاستحقوا بذلك الخزي والعذاب الأليم .

لا ينفع نفسا الا ايمانها الآية ١٥٨ . ١٦٠ :

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨) إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)﴾

اللغة :

الشيعة جمع واحدها الشيعة ، ومعناها الفرقة ، قال تعالى : ولقد أرسلنا من

قبلك في شيع الأولين ، أي في فرقهم ، وقال : ثم لننزعن من كل شيعة أي من كل فرقة.

الاعراب :

يوم يأتي يوم منصوب على الظرفية متعلق بلا ينفع. أمثالها صفة لمحذوف أي عشر حسنات أمثالها.

المعنى :

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾. الاستفهام هنا للإنكار ، والمراد بينظرون ينتظرون .. بعد أن ذكر سبحانه ان المشركين أعرضوا عن دلائل القرآن ، ورفضوا أن يتدبروها قال في هذه الآية : انهم لا يؤمنون إلا بأحد أمور ثلاثة : الأول مجيء الملائكة. الثاني مجيء الرب. الثالث مجيء بعض الآيات. ولكنه سبحانه لم يبين أي الملائكة الذين يجب أن تأتيهم ، كي يؤمنوا : هل ملائكة الموت أو غيرهم ، ولا يبين المراد بمجيء الرب : هل مجيئه هو بزعمهم ، أو مجيء أمره ، كما هو الواقع؟ وأيضا لم يبين نوع بعض الآيات : هل الآيات التي اقترحوها ، أو علامات القيامة؟ وقال أكثر المفسرين أو الكثير منهم : ان المراد بالملائكة ملائكة الموت ، وبمجيء الرب مجيء عذابه وانتقامه ، وبعض الآيات أشرط الساعة ، أي أولها والعلامات الدالة عليها .. وهذا التفسير غير بعيد ، لأن الكلام الذي عقب به سبحانه هذه الأمور الثلاثة يشعر بقول المفسرين ويعززه ، وهو قوله تعالى :

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾. يقول عز من قائل : ان التوبة والإيمان عند مجيء أحد هذه الأمور لا يجدي شيئا ، وانما الذي يجدي هو الإيمان والعمل الصالح الذي يكسبه المؤمن قبل أن يلجأ إلجاء إلى ذلك ، إذ لا تكليف حين النزع والاحتضار ، ولا عند اشتراط الساعة ، أو نزول العذاب ، ومع عدم التكليف

يكون الإيمان وعدمه سواء ، وقوله تعالى : ﴿أَوْ كَسِبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ يومئ إلى أن الإيمان بالله ينجي صاحبه من الخلود في النار ، لا من عذاب النار ، أما من آمن وعمل صالحا فلا تمسه النار إطلاقا. ﴿قُلِ انتَظِرُوا﴾ هذه الأمور الثلاثة ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . ٣٩ هود.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾. الخطاب في لست موجه للنبي (ص). وكما اختلف الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كذلك المفسرون صاروا شيعة في تفسير المراد بالذين فرقوا دينهم. قيل : هم المشركون بالنظر إلى أن بعضهم يعبد الأصنام ، وبعضهم الكواكب ، وبعضهم النور والظلام. وقيل : هم أهل الكتاب فاليهود افترقوا إلى الصادوقيين والفريسيين والحسديين ^(١) أما النصارى فقسموا الكنيسة إلى شرقية وغربية. وقيل : هم الفرق الاسلامية. وقيل : كل أهل الملل والنحل بلا استثناء .. وخير ما قرأته في تفسير هذه الآية ما قاله صاحب تفسير المنار : ان المراد بالذين فرقوا دينهم وكانوا شيعة هم أهل الكتاب ، والمراد ببراءة الرسول منهم تحذير المسلمين من مثل تفرقة أهل الكتاب وفعلهم ليعلموا انهم إذا فعلوا فعل أهل الكتاب فإن محمدا (ص) بريء منهم بطريق أولى.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ فهو وحده يتولى حساب وعقاب من يعمل على التفريق بين عباده ، ويشير العداوة والبغضاء في الدين وغير الدين ﴿ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ من الاستجابة الى الدسائس المفتنين : ﴿قَالَتْ أَخْرَاهُمِ لَأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ . ٣٨ الاعراف.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. كل ما فيه الله رضا وللناس صلاح فهو حسنة ، وكل ما فيه

(١). من أقوال الفريسيين ان الأموات يرجعون الى هذه الدنيا ليشتركوا في ملك المسيح الذي سيأتي ، ومن أقوال الصادوقيين انه لا حياة بعد الموت إطلاقا لا الى الدنيا ولا الى الآخرة ، ومن أقوال الحسديين المساواة بين الناس. الأسفار المقدسة لعلي عبد الواحد وافي.

سخط لله وفساد للناس فهو سيئة ، والله سبحانه عادل وكريم ، ومن عدله ان يجزي فاعل السيئة بما يعادلها من العذاب ، ومن كرمه أن يعفو ، وان يضاعف لفاعل الحسنة أضعافاً تزيد إلى عشرة أمثال ، أو إلى سبعمائة ، أو إلى ما لا يبلغه العد والإحصاء وفقاً لنوايا المحسن وصفاته وأوضاعه. انظر تفسير الآية ٢٦١ من سورة البقرة ج ١ ص ٤١٢ .

ومن أحاديث النبي (ص) في هذا الباب قوله : ان الله تعالى قال : الحسنة عشر أو أزيد ، والسيئة واحدة أو عفو ، فالويل لمن غلب آحاده أعشاره. وقال : يقول الله : إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة وان لم يفعلها ، فان فعلها فعشر أمثالها ، وان هم بسيئة فلا تكتبوها ، وان فعلها فسيئة واحدة.

قل انني هادي ربي الآية ١٦١ . ١٦٥ :

﴿قُلْ إِنِّي هَادِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْعِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)﴾

اللغة :

القيم الذي يقوم بأمر الناس .. والحنيف المائل عن الأديان الباطلة الى دين الحق .
والنسك العبادة . والوزر الحمل الثقيل والمراد به هنا الذنب . وخلائف جمع خليفة ، وهو الذي
يخلف من قبله . والابتلاء الاختبار .

الاعراب :

دينا بدل من صراط مستقيم على المحل ، لأن كل مجرور لفظا منصوب محلا ، والمعنى
هداني صراطا مستقيما ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ . وقىما صفة لدين .
وملة ابراهيم بدل من دين . وحنيفا حال من ابراهيم . أغير الله غير مفعول أول لأبغي ، وربا
مفعول ثان ، لأن أبغي تتضمن معنى اتخذ ، وهي تتعدى إلى مفعولين . ودرجات مجرورة بإلى
محذوفة .

المعنى :

﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ بعد أن ذكر سبحانه الذين فرقوا دينهم
وكانوا شيعا . أمر رسوله أن يعلن للمشركين وأهل الكتاب وغيرهم ان الله جل ثناؤه قد هداه
بالفطرة الصافية ، والعقل السليم ، والوحي من عنده إلى السبيل الذي يتعد به عن الباطل ،
ويوصله إلى الحق ﴿دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ الملة الدين ، والحنيف من ترك الأديان
الباطلة ، واتبع دين الحق ، والمعنى ان الصراط الذي هدى الله به رسوله محمدا هو دين
ابراهيم خليل الرحمن الذي يعظمه أهل الأديان جميعا ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بل من
أعدى أعداء الشرك وأهله ، وهذا رد على مشركي قريش الذين زعموا انهم على دين ابراهيم .
﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . موضوع الآية السابقة
أصول الدين والعقيدة بقرينة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وموضوع هذه الآية فروع الدين
والشريعة لمكان الصلاة والنسك ، وعطف النسك على الصلاة

من باب عطف العام على الخاص ، مثل قوله تعالى : ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ ٨٣ آل عمران. والمحيا والممات هنا كناية عن الثبات والاستمرار ، والمعنى ان عبادة محمد (ص) وجميع ما هو عليه في حياته عقيدة ونية وعملا يتجه به إلى الله وحده ، ولا يحيد عنه حتى الممات.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾. هذه الآية توضيح وتأکید لما تضمنته الآية السابقة من التوحيد والإخلاص .. ومحمد (ص) أول المسلمين من أمته بطبيعة الحال ، لأنه صاحب الدعوة.

﴿قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ أْبْغِي رَبًّا﴾. ومن طلب هذا الرب فأين يجده؟! : ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ ومن توهم وجهها غير وجهه الكريم صدق عليه قول الشاعر :
سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أو حمار
﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾. ورب كل شيء واحد لا ضد له ولا ند.

ولا تزر وازرة وزر أخرى :

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾. كل ما يفعله الإنسان من خير أو شر فهو وليد غرائزه وظروفه وأوضاعه ، ومن نسب فعل الإنسان إلى غيره فهو تماما كمن ينسب الولد إلى غير أمه ، والثمرة إلى غير شجرتها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ المراد بالوزر هنا الذنب ، قال تعالى : ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي ما يفعلونه من الذنوب والآثام ، وهذه الجملة توضيح وتأکید للجملة قبلها ، ومعناها ان كل نفس ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ دون ما كسب أو اكتسب غيرها ، وهذا أصل ديني وعقلي لا يمكن نسخه ولا تعديله ، وقد فرع عليه علماء الكلام والفقهاء كثيرا من المسائل والأحكام.

وتسأل : ان هذه الآية تومئ إلى ان الإنسان مسؤول عن نفسه وكفى ، اذن ، أين وجوب الجهاد ، وبذل النصح ، والتعاون على البر والتقوى؟.

الجواب : ان موضوع الآية خاص بالمؤاخذة فقط ، وان الإنسان لا يؤخذ

بجريرة غيره ، ولا صلة لها بالجهاد والنصح ، ولا بغيرهما من قريب أو بعيد ، لأن عدم المؤاخذه على ذنب الغير شيء ، ووجوب الجهاد وإصلاح الفاسد شيء آخر .

سؤال ثان : لقد اعتاد الناس أن يبذلوا المال والطعام عن أرواح أمواتهم ، وإن يقرءوا سورا من القرآن ، ويهدوا اليهم ثوابها ، فهل مثل هذا جائز شرعا؟ وهل ينتفع به الأموات؟ كيف؟ والمفروض ان الأموات لا يعذبون بسيئات الأحياء ، فينبغي أن لا يتمتعوا بحسناتهم؟. الجواب : قلنا : ان كلا من العقل والشرع يأبى أن يؤخذ البريء بجرم المذنب ، وإن يشاركه فيما يستحق من العقاب ، أما بالنسبة إلى الثواب فلا مانع في نظر العقل أن يشارك غير المحسن المحسن في الثواب الذي استحقه على عمله ، وقد ورد الشرع بذلك ، فوجب التصديق ، قال رسول الله (ص) : إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له .. وقال : من مات وعليه صوم فليصم عنه وليه .. وقال : من دخل المقابر وقرأ سورة يس خفف عنهم يومئذ ، وكان له بعدد من فيها حسنات. وعن الإمام جعفر الصادق (ع) : ما يمنع الرجل منكم أن يبر والديه حين وحين؟.

فهذه الأحاديث وغيرها تدل على ان الميت ينتفع باهداء الثواب على عمل الخير والعقل لا يأبى ذلك إطلاقا ، لأنه يتفق مع فضل الله وكرمه ، ولكن الناس توسعوا كثيرا ، وتجاوزوا الموارد المنصوص عليها ، وقد اتفق الفقهاء على ان كل من أتى بما لا نص فيه بقصد انه راجح شرعا فقد ابتدع في الدين ، وافترى على الله ورسوله .. فالأولى أن يهدى الثواب إلى الميت رجاء أن ينتقى به من غير قصد الرجحان دينا وشرعا.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ دون أن تستندوا إلى عقل أو وحي ، فاعترفتم بما هو معروف عندكم ، لا عند الحق ، وأنكرتم ما هو منكر عند أهوائكم وشهواتكم.

الأرض والبيت :

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ

﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ خلق الله سبحانه هذه الأرض ، وجعلها مقرا صالحا لنشأة الإنسان بجوها وتركيبها ، وحجمها وبعدها عن الشمس والقمر ، وجهازها بجميع ما يحتاج اليه الإنسان ، حتى وسائل الانس والترفيه ، تماما كالدار التي حوت خيرات كل شيء ، ثم اسكن الإنسان فيها بعد أن زوده بالمؤهلات والاستعداد الكامل للانتفاع بخيرات الأرض وبركاتها ، وشاءت حكمته تعالى أن يتفاوت الناس في تلك المؤهلات ، وأن يكون بعضهم فوق بعض في العقل والعلم وقوة الجسم ، واختط لهم منهجا قويا ليختبر الأقوياء ^(١) : هل يؤدون شكر هذه النعمة ، ويتجهون بقوتهم ومؤهلاتهم الى صالحهم وصالح إخوانهم من بني الإنسان ، أو يتخذون منها أداة للظلم والاستغلال والتعاضم والتكاثر؟. وقد دلت هذه الآية ان الله سبحانه قد أوجد الإنسان على هذه الأرض للعلم والعمل النافع.

وتسأل : كيف تجمع بين هذه الآية ، وبين الآية التي تقول : **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾**؟.

الجواب : لا تنافي بين الآيتين ، لأن العلم والعمل النافع عبادة لله ، بل من أفضل العبادات ، وأكمل الطاعات.

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ ابتلى عباده ليتميز الخبيث من الطيب ، فيعاقب هذا ، ويثيب ذاك **﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** وليس لرحمته حد ، ولا لعفوه قيد .. أجل ، ان التوبة تجعل العفو جزاء وفاقا ، ويبقى عفو السخاء والكرم ، وعطاء الجود الذي لا موجب له إلا ذاته القدسية ، وهذا هو الدليل : **﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾** . ٣٠ . الشورى. أي كثير مما كسبت أيدينا.

اللهم انا نستغيث بك من أنفسنا ، ونسألك العفو عن أوزارنا.

(١). عند تفسير الآية ٩٤ من المائدة بينا معنى الاختبار من الله لعباده.

سورة الأعراف

سورة الأعراف

مكية ، وآياتها ٢٠٥ ، وفي مجمع البيان ان قوله تعالى : ﴿وَسَأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ . إلى قوله . ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ نزل بالمدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب أنزل اليك الآية ١ . ٣ :

﴿المص (١) كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنَذِرَ بِهِ وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾

اللغة :

الخرج الضيق. والمراد بالذكرى للمؤمنين التذكير النافع لهم مثل هدى للمتقين.

الاعراب :

كتاب خبر لمبتدأ محذوف ، أي هذا كتاب. ولتنذر الفعل منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك متعلق بأنزل ، وذكرى عطف عليه.

وأولياء مفعول تتبعوا ، ومن دونه متعلق بمحذوف حالا من أولياء. وقليلًا صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي تذكرًا قليلًا ما تذكرون ، وما حرف زائد يؤكد معنى القلة ، وتذكرون أي تتذكرون ، حذفت إحدى التائين للتخفيف.

المعنى :

﴿المص﴾ هكذا تكتب وتلفظ بأسماء حروفها : ألف. لام. ميم. صاد. ومضى الكلام عن هذه في أول سورة البقرة. ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. الخطاب لمحمد (ص) ، والمراد بالكتاب القرآن ، وبالمؤمنين من ينتفع بالقرآن ، سواء أكان سببًا لإيمانه أم لتشبيثهم واستمرارهم على الإيمان ، والمعنى ان الله سبحانه أنزل القرآن إلى النبي (ص) لينذر به الملحدين والمشركين وأهل الأديان الباطلة ، ولينتفع به أصحاب الفطرة السليمة .. وهذه مهمة شاقة يلقي النبي (ص) صعبًا جسامًا من الكافرين الذين يجابههم بالقرآن ، لأنه يستهدف إبطال عقائدهم ، وتغيير تقاليدهم وأوضاعهم التي توارثوها أبا عن جد مئات السنين .. ومن ثم وجد النبي ضيقًا بما يلاقه من عنادهم ومقاومتهم : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ . ٩٧ الحجر . ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ . ٥ المزمل . وقد أمره الله سبحانه أن يصبر ويمضي يتذكر ويذكر.

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾. في الآية السابقة أمره الله أن يبلغ ولا يحفل بمقاومة المعاندين ، وفي هذه الآية أمر الناس أن يتابعوا الرسول ، ويعملوا بالقرآن. قال علي المرتضى ع : ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا والعكس صحيح أيضا ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ لأنه ليس دون القرآن إلا الضلال والأهواء ﴿فَلْيَلَا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ وتتعضون بمواعظ الله ونصائحه ، لأنكم لا تتورعون عن شيء ولا تخشون العواقب : وإنما يتذكر من يخشى ، وقوله : ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيه إيماء إلى قلة من اتعظ وتذكر منهم.

وكم من قرية أهلكناها الآية ٤ . ١٠ :

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْتَلِزَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلِزَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بَعْلَهُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠)﴾

اللغة :

يطلق البأس على الشجاعة والقوة ، وعلى الضرر والحر ، يقال : لا بأس به أي لا ضرر ولا حرج به ، والمراد به هنا العذاب . والبيات الليل . وقائلون من القيلولة في النهار ، والمراد بالكلمتين ان الهلاك نزل بهم حين دعوتهم واستراحتهم . فلنقصن أي نتلون . والوزن مقابلة أحد الشئتين بالآخر . ومعاش جمع معيشة ، وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب .

الإعراب :

كم في موضع رفع بالابتداء ، وجملة أهلكناها خبر . وقيل : ان بياتا مصدر في موضع الحال ، أي بائتين ، وهم قائلون عطف على بياتا أي بائتين أو قائلين ، والأرجح ان بياتا مفعول فيه لأنها بمعنى ليلا . ودعواهم اسم كان ، والمصدر

المنسبك من ان قالوا خبرها. ويعلم في موضع الحال أي عالمين. والوزن مبتدأ ، ويومئذ خبر ، والحق صفة للوزن. وبما كانوا ما مصدرية تسبك وما بعدها بمصدر مجرور بالباء متعلقا بخسروا ، أي خسروا أنفسهم بسبب ظلمهم. ومعايش مفعول جعلنا. وقليل ما تشكرون قليلا صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي شكرا قليلا ، وما حرف لتأكيد القلة.

المعنى :

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾. بعد أن أمر جل ذكره النبي الأكرم أن ينذر بالقرآن ، وأمر الناس أن يتبعوه. ذكرهم في هذه الآية بمصارع الغابرين الذين أهلكهم الله بسبب اعراضهم عن ذكره وتكذيبهم لأنبيائه ، وانه تعالى أنزل العذاب بهم في الليل أو وقت القيلولة في النهار ، حيث الراحة والأمان ، ليكون العذاب أعظم وقعا عليهم ، وأشد تنكيلا بهم ، وقال كثير من المفسرين : ان قوم لوط جاءهم العذاب ليلا .. ولا أدري من أين جاءهم هذا العلم ، والله سبحانه يقول : ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ . ٨١ هود.

وقال فريق من المفسرين : ان في الآية قلبا ، لأن الإهلاك يأتي بعد مجيء البأس ، ومن حق التعبير أن يكون هكذا : وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها .. وذكر الرازي لتأويل الآية ثلاثة أوجه ، وزاد الطبرسي رابعا. والصحيح انه لا يجب ترتيب الكلام حسب ترتيب المعنى في الواقع إذا كان الترتيب الواقعي واضحا ، ومعروفا للجميع ، كما هو في الآية ، والفاء كما تأتي للتعقيب فإنها تأتي أيضا زائدة وفي صدر الكلام ومفسرة ، والبأس الذي دخلت الفاء على مجيئه مفسرة لنوع الإهلاك الذي حل بالمشركين.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾. كان المشركون يهتفون باسم الأصنام ، وهم آمنون مطمئنون ، ولما رأوا العذاب تبرأوا من آلهتهم ، واتجهوا لله مقربين على أنفسهم بالكفر والشرك ، ولكن بعد أن انقطع التكليف ، وانسد باب التوبة.

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾. بعد أن أشار الى إهلاكهم في الدنيا أشار إلى أنهم يسألون في الآخرة ، ويسأل المرسلون اليهم ، ويشهدون عليهم ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ ولا يكتفي جل شأنه بسؤال المرسلين اليهم ، بل هو أيضا يتلو عليهم كل شيء قالوه وفعلوه : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَمْثَلُ اللَّهِ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ . ٦ المجادلة. والقصد من ذلك ان تشتد بهم الحنة ، ويشعروا بنقمة الله وغضبه عليهم جزاء على عصيانهم وتمردهم.

ميزان الأعمال :

﴿وَالْوِزْنُ يُوَمِّدُ الْحَقَّ﴾. كثر الكلام حول حقيقة الميزان الذي يزن الله فيه أعمال الناس ، حتى ان بعضهم قال : ان لهذا الميزان لسانا وكفتين .. والذي نفهمه من هذا الميزان . والله أعلم بمراده . انه المقياس الذي يميز الطائع من العاصي ، والخبيث من الطيب ، وهذا المقياس هو أمر الله ونهيهِ ، فإذا جاء أوان الحساب ينظر إلى ما فعل الإنسان وما ترك ، ويقارن بينهما وبين أمره ونهيهِ تعالى ، فإذا انطبق فعله وتركه على أمر الله ونهيهِ فهو من الذين ثقلت موازينهم ، وكان عند الله من المفلحين والراجحين ، وإلا فهو من الذين ثقلت موازينهم ، وكان من الظالمين الخاسرين أنفسهم بعذاب الحريق. وبتعبير ثان : ان لكل شيء في هذه الحياة أصولا ، وضوابط علما كان أو أدبا أو فنا أو غير ذلك ، وبها يتميز الشيء عن غيره ، بل ويعرف جيده من رديئه ، وتسمى تلك الأصول والضوابط ميزانا ومقياسا ومنهاجا وحكما ، وكذلك الحساب في الآخرة له أصول وضوابط ، أو أطلق القرآن عليها كلمة الميزان ، وكلمة الصراط ، وهذه الأصول والضوابط ، أو الميزان لأعمال الناس وأهدافهم هو أمر الله ونهيهِ ، فشأنهما في محاكمة الإنسان غدا كشأن الفقه والقانون في محاكمة المدعى عليه في هذه الحياة.

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ وهم الذين محصت أعمالهم على أساس أوامر القرآن ونواهيه فجاءت كاملة وافية ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لأنهم لم يعثروا في الامتحان

﴿وَمَنْ حَقَّ مَوَازِينُهُ﴾ وهم الذين ظهر البعد والتباين بين أعمالهم ، وبين أحكام الله وتعاليمه ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾. قال كثير من المفسرين: ان المراد بالظلم هنا الكفر ، والصحيح انه التكذيب بآيات الله مطلقا ، كما هو ظاهر الآية ، سواء أدلت تلك الآيات على وحدانية الله ، أم على رسالة رسله ، أم البعث ، أم على حاله وحرامه.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾. بعد أن أمر سبحانه المشركين بقوله : ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وخوفهم من عذاب الدنيا بقوله : ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ ومن عذاب الآخرة بقوله : ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ بعد هذا كله ذكرهم سبحانه بنعمه عليهم ، وانه هو الذي مكنهم في هذه الأرض ، وأعطاهم القدرة على تطويعها واستخدامها في مصالحهم ، قال أحد المفسرين الجدد : لو لا تمكين الله للإنسان في هذه الأرض ما استطاع هذا المخلوق الضعيف أن يقهر الطبيعة .. وإلا كيف يمضي ، والقوى الكونية الهائلة تعاكس اتجاهه ، وهي بزعم الملحدين والماديين التي تصرف نفسها بنفسها ، ولا سلطان وراء سلطانها.

ولقد خلقناكم الآية ١١ . ١٨ :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥)﴾

قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

اللغة :

الهبوط الانحدار والسقوط. والصغار الذلة والهوان ، والصاغر الذليل. والإنظار والإمهال والتأخير والتأجيل بمعنى واحد. وذأَم الشيء عابه ، والذام والذيم أشد العيب. والمدحور المطرود.

الاعراب :

ما منعك ما استفهام انكاري ، ومحلها الرفع بالابتداء ، وجملة منعك خبر. وان لا تسجد لا زائدة ، والمصدر المنسبك من أن والفعل مجرور بمن محذوفة ، والتقدير ما منعك من السجود؟ وقيل : صراطك منصوب بنزع الخافض ، أي لأقعدن لهم على صراطك. ومذووما حال ، ومدحورا مثله. لمن اتبعك اللام للابتداء ، ومن شرطية مبتدأ ، ولأملأن اللام واقعة في جواب قسم محذوف واملأن جواب القسم ، وسادة مسد جواب الشرط ، وهو من ، والجملة من القسم والجواب خبر المبتدأ.

حول أصل الإنسان :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾. الخطاب لبني آدم ، ومعنى خلقناكم انه جل

ثناؤه أنشأ أصلنا الأول من تراب ، وأنشأنا نحن من النطفة التي تنتهي إلى التراب ، والمراد بصورتناكم انه جعل المادة الأولى التي خلقنا منها بشرا سويا على الهيئة التي هو عليه : ﴿كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ . ٣٧ . الكهف ، فالفرق بين الخلق والتصوير ان خلق الشيء معناه إيجادُه وإنشأؤه ، أما التصوير فهو إعطاء الشيء صورة خاصة بعد إيجادِه .

وتسأل : ان أتباع دارون يقولون : إن الإنسان وجد أول ما وجد على غير صورته هذه ، ثم انتقل من نوع إلى نوع ، حتى انتهى إلى ما هو عليه الآن؟ الجواب : نحن مع الدليل العلمي الذي لا يقبل الشك ، والاحتمال المضاد ، لأنه متى طرأ الاحتمال بطل الاستدلال ، وهذه حقيقة يقينية بديهية ، لا ينكرها حتى التجريبيون الذين حصروا مصدر المعرفة بالخبرة الحسية .. وأهم الأدلة التي اعتمدها أصحاب نظرية النشوء والارتقاء هي الحفريات ، حيث كشفت عن وجود أنواع من الحيوان بعضها أرقى من بعض ، وان زمن الأرقى متأخر عن زمن الأدنى ، وان بينها وبين الإنسان شبها في كثير من المزايا .

ونحن لا ننكر هذه الكشوف ، ولكنها لا تثبت نظرية دارون ، لأنها لا تحتم أن يكون الأرقى متطورا من الأدنى في يقين لا يقبل الشك ، بل لا يجوز ذلك ويجوز أن يكون كل من الأرقى والأدنى نوعا مستقلا بذاته عن الآخر أوجدته ظروف ملائمة له ، ثم انقرض حين تغيرت ظروفه ، كما انقرض غيره من أنواع الحيوان والنبات .. وإذا جاز الأمران ، فالأخذ بأحدهما دون الآخر تحكّم .

وقرأت فيما قرأت ان كثيرا من العلماء ، وفيهم الملحدون ، كانوا يؤمنون بالنظرية الداروينية ، ولما تقدموا في ميدان العلم عدلوا عنها ، لما ذكرنا ، ولأن في الإنسان خصائص عقلية وروحية تجعله مستقلا عن جميع المخلوقات وأنواعها .

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ . تقدم

نظيره في الآية ٣٤ سورة البقرة ج ١ ص ٨٢ .

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ . ولا هنا زائدة ، ويدل على زيادتها سقوطها

من الآية ٧٥ من سورة ص : ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ ولأن المعنى لا يستقيم مع وجودها اللهم إلا أن تكون

كلمة منعك متضمنة معنى حملك ، ويكون تأويل الكلام هكذا : ما حملك على ترك السجود ، والمراد بالسجود سجود التحية ، لا سجود العبادة ، وهو طاعة الله تعالى ، لأنه بأمره .

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ . وما فعل إبليس فعلة إلا ابتدع لها مبررا ، والشرط الأساسي لكل مبرر في منطقهِ أن يخالف إرادة الله ومرضاته ، هذا هو الأصل الأول الذي يعتمد عليه إبليس في جميع أقواله وأفعاله .. يجتهد الفقيه في البحث ليهتدي الى ما شرع الله من أحكام ، أما إبليس فيشرع أحكاما ترتكز على ما قال الله .. وأقول .. أمره الله بالسجود لآدم فرفض ولم يعتذر ، بل اعترض بجرأة وصلافة ، وقال : كيف اسجد لمن أنا خير منه؟! وكأنه يقول لله تعالى علوا كبيرا : كان الأولى ان تأمر آدم بالسجود لي ، دون أن تأمرني بالسجود له .. وابتدع مبررا لهذه الأولوية ، وهو افتخاره بخلقه ، وتعصبه لأصله : ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ .

فالعزة والكرامة في منطق إبليس بالتعصب للأصل ، لا بتقوى الله وطاعته ، وعند الله بالفعل والتقوى ، لا بالأصل ، والعلم عند إبليس هو القياس والأهواء ، وعند الله هو الوحي وحكم العقل الذي لا يختلف فيه اثنان لبدايته ووضوحه . فمن تعصب لأصله ، أو قاس الدين برأيه فقد اقتدى بإبليس ، من حيث يريد أو لا يريد ، قال صاحب تفسير المنار : روي عن جعفر الصادق عن أبيه عن جده ان رسول الله (ص) قال : أول من قال قاس أمر الدين برأيه إبليس ، قال الله تعالى له : اسجد لآدم ، فقال : أنا خير منه الخ . ثم قال جعفر : فمن قاس أمر الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة إبليس .

وتسأل : تدل هذه الآية على ان الحياة توجد من النار ، ومثلها الآية ١٥ من سورة الرحمن : ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ . المارج الشعلة ذات اللهب الشديد .. وكيف يجتمع هذا مع قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ .؟

الجواب : ان الكائنات الحية التي جاء ذكرها في القرآن الكريم على أنواع ، منها عالم الملائكة ، ومنها عالم الجان ، ومنها ما يعيش في هذه الأرض ، وهذا

النوع الثالث منه ما يحيا بالماء كالحیوان والنبات والإنسان ، وهو المقصود من التعميم بقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ ومنه ما يحيا بالنار .. وبكلمة ان الماء ضرورة حياة الإنسان . بموجب طبعه وتكوينه . وكذلك سائر أفراد الحيوان وأنواعه ، والنبات وأصنافه ، وهذا لا يمنع أن يكون هناك مخلوقات تكون النار ضرورة حياتها ، قال أهل الاختصاص بعلم الحشرات : ان نوعا منها لا يحيا إلا بالهواء السام ، وآبار البترول .

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ . قيل : ضمير منها يعود الى الجنة . وقيل : إلى السماء .. ونحن لا نهتم بالتفاصيل إذا لم يرد لها ذكر في الكتاب أو السنة ، ونكتفي بالإجمال ، وسياق الكلام يدل على ان الضمير يعود الى الدرجة الرفيعة عند الله ، والمعنى ان الله سبحانه طرد إبليس من رحمته الى لعنته جزاء على تكبره وامتناعه عن طاعته ، فان السجود لآدم بأمر الله هو طاعة لله ، وليس لآدم .. وكل من يرى لنفسه الحق في ان يرفض حكم الله فقد حقت عليه اللعنة الى يوم الدين .

﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ . حاجة في نفس إبليس . سيصرح بها . طلب الامهال إلى يوم يبعثون قال . تعالى . ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ . قيل : ان إبليس طلب الامهال الى اليوم الذي تحيا فيه جميع الأموات للحساب والجزاء ، فرفض الله طلبه هذا ، وأمهلته الى اليوم الذي تموت فيه جميع الأحياء ، وهو المشار اليه بالآية ٣٨ من الحجر : ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وهذا اليوم هو ساعة النفخ في الصور الذي دلت عليه الآية ٦٨ من الزمر : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ .

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ . قطع إبليس عهدا على نفسه انه سينتقم لمأساته من هذا المخلوق الذي كان السبب لطرده من رحمة الله الى لعنته ، ويبين نوع هذا الانتقام بأنه سيقعد على الطريق المؤدية الى الله وطاعته ، ويصد عنها آدم وذريته .

﴿ثُمَّ لَا تَبِخُنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمَنْ خَلْفَهُمْ وَعَنْ يَمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ . وإتيانه لهم من هذه الجهات الأربع كناية عن وسوسته ،

وجده في اضلالهم واغوائهم ، بحيث لا يدع معصية إلا أغراهم بها ، ولا طاعة إلا ثبطهم عنها .. فان أمرهم الله بالجهد والتضحية بالنفس حبب إبليس اليهم الحياة ، وان حثهم سبحانه على بذل المال في سبيله خوّفهم اللعين من الفقر ، وان نهّاهم الجليل عن الخمر والزنا والميسر ونحوه زين لهم الخبيث الملهيات وحب الشهوات ، وان توعدهم الله بالنار ، ووعدهم بالجنة قال لهم عدو الله وعدوهم : لا جنة ولا نار .. وهكذا يعد لكل حق باطلا ، ولكل قائم مائلا .. وتنطبق هذه الصورة كل الانطباق على الذين باعوا دينهم للشيطان ، يبررون أعمال المستعمرين ، وقتل النساء والأطفال ، وتشريد الآمنين من ديارهم.

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا﴾. الذّام العيب والاحتقار ، والدحر الطرد ، وقد خص الله بهما إبليس ، حيث أنزله الله سبحانه من المقام الذي كان فيه ، أما جهنم فإنها له ولحزبه الذين أطاعوه ، وعصوا أمر الله ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ونحو هذه الآية قوله تعالى : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وهنا تساؤلات تطلب أجوبتها ، وهي أولا : هل كان خطاب الله لإبليس بواسطة أو بلا واسطة؟ ثانيا : ان قول إبليس : ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ يدل على ان إغواءه كان من الله ، فكيف يعاقبه عليه؟ ثالثا : لما ذا أمهل سبحانه إبليس وهو يعلم فسادة وإفساده؟ ونجيب عن هذه التساؤلات الثلاثة بإيجاز شديد .. فعن التساؤل الأول : نحن نؤمن بوجود هذا الحوار ، لأن الوحي دل عليه ، والعقل لا يأباه ، وما علينا أن نبحت عن هيئته وكيفيته ، ما دام الوحي لم يصرح به.

وعن التساؤل الثاني : ان الغواية من إبليس ، وليست من الله تعالى ، وقد اعترف إبليس بنفسه على انه هو الغاوي في الآية ٣٩ من الحجر : ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾. وكيف يغوي الله العبد ، ثم يعاقبه على الغواية؟! تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، أما قول إبليس : ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ فمعناه بما امتحنتني به من الأمر بالسجود لآدم الذي أوقعني في الغي والعصيان فاني سأفعل كذا وكيت .. وبكلمة ان قول إبليس هذا هو تعبير ثان عن قوله :

لأنك أمرتني وعصيت أمرك فسوف لا أدع أحدا يطيع لك أمرا.

وعن التساؤل الثالث : ان مشيئة الله اقتضت أن يمد الإنسان بالعقل والتذكير على أيدي الرسل ، وبالقدرة على فعل الخير والشر ، وأن يدع له الخيار ، وأن يتلييه بالشهوات والمغريات التي يوسوس بها إبليس وجنوده تميزا للطيب من الخبيث ، والمخلص من الخائن .. أنظر تفسير الآية ٩٤ من المائدة ، فقرة معنى الاختبار من الله ، والمجلد الثاني من تفسيرنا هذا ص ٣٢٤ ، فقرة قرين الشيطان.

ويا آدم اسكن وزوجتك الآية ١٩ . ٢٥ :

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسَّوسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاءِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)﴾

اللغة :

الوسوسة الصوت الخفي ، وقد يكون المراد بها هنا ما يجده الإنسان في نفسه من الخواطر الضارة. ووري الشيء غطي وستر. والسوء ما يسوء الإنسان ، والمراد بها هنا العورة ، حيث يسوؤه ظهورها. وقاسمهما أي أقسم لهما. ودلاهما استنزلهما. والغرور الخداع بالباطل. وطفقا أخذا وشرعا. ويخصفان أي جعلنا يلصقان ورقة على ورقة ، من قولهم خصف الاسكافي النعل.

الإعراب :

فتكونا يجوز الجزم عطفا على لا تقربا ، والنصب بأن مضمرة بعد الفاء. والمصدر المنسبك من أن تكونا مجرور بإضافة مفعول لأجله محذوف ، أي ما نحاكما الا مخافة كونكما ملكين. تلكما المشار اليه الشجرة ، والمخاطب بالاشارة اثنان ، ولذلك ثنى حرف الخطاب. وبعضكم مبتدأ وعدو خبر ، ولبعض متعلق بعدو. ولكم في الأرض مستقر مبتدأ وخبر.

المعنى :

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. مر تفسيره مفصلا عند الآية ٣٥ من سورة البقرة ج ١ ص ٨٤.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾. ووري من المواراة أي الستر ، والسوء العورة ، وعنهما أي لا يرى أحدهما عورته ، ولا عورة الآخر ، أما وسوسة الشيطان فلا ندري كيف كانت ، ولكننا نؤمن بأن أي خاطر أو قول أو عمل يقف في طريق الحياة وتقدمها فهو من وحي الشيطان .. ومهما يكن ، فان الشيطان أظهر النصيح لآدم وحواء ، وأبطن الغدر ، ويوحى ظاهر الآية بأن إبليس كان يعلم ان من أكل من هذه الشجرة تبدو عورته ،

وان من بدت عورته يطرد من الجنة ، ومن أجل هذا احتال لاجراجهما من الجنة ، ﴿وَقَالَ مَا تَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾. عكس اللعين الآية رأسا على عقب .. فحلف انه لهما من الناصحين ، وهو العدو اللدود ، وحلف انهما إذا أكلا من الشجرة يكونان من الخالدين ، وهو على علم اليقين ان عاقبة الأكل هو الطرد والشقاء والموت .. وهكذا يفعل شياطين الإنس يوهمون البسطاء بأن السراب ماء ، والماء سراب.

﴿فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ دلاهما من التدلية ، أي اسقطتهما ، والغرور الخداع بالباطل ، والمعنى ان الشيطان بعد أن حلف لآدم وحواء انه ناصح أمين استجابا لاغرائه ظنا منهما انه لا أحد يجرأ على الحلف بالله كاذبا ، لأن اللعين هو أول من تجرأ على اليمين الكاذبة ، كما انه أول من تعصب لأصله ، وقاس برأيه ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾. طفقا شرعا ، ويخصفان يضعان ، والمعنى حين أكلا من الشجرة ظهرت لكل واحد منهما عورته وعورة صاحبه ، وكانت من قبل في حجاب ، فخرجلا ، وشعرا بالحاجة إلى سترها ، فشرعا يجمعان من ورق شجر الجنة ، ويضعانه على العورة.

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾. هذا تقرير من الله لآدم وزوجه على اغترارهما بقول إبليس ، وضعفهما تجاه اغوائه وإغرائه ، وفي الوقت نفسه فيه تنبيه إلى وجوب التوبة والالابة ، ولذا سارعا إلى الاعتراف بالذنب وطلب الاستغفار ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. وقد غفر الله ورحم بدليل الآية ٣٧ من سورة البقرة : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾. الخطاب في اهبطوا لآدم وزوجه وإبليس ، والمراد ببعضكم إبليس وقبيله ، وببعض آدم وذريته ، وسبب هذا العداء هو إبليس ، لأنه تعمد إغواء الإنسان وإفساده انتقاما منه لمأساته ، أما الإنسان فانه لا يرى إبليس كي يناله بأذى ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ

مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴿٢٧﴾ الأعراف. وقال : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ ٦ . فاطر .

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ . وهكذا كتب الله علينا ، بعد أن كان من آدم ما كان ، ان نحيا ونموت في هذه الأرض ، ثم نخرج منها للحساب والجزاء بعد الذي قاسيناه من الشقاء والعناء .

قصة آدم كما هي في القرآن :

ذكر الله سبحانه قصة آدم في الآية ٣٣ وما بعدها من سورة البقرة ، وفي الآية ١٨ وما بعدها من سورة الأعراف ، وفي الآية ١١٥ وما بعدها من سورة طه ، وتتلخص القصة كما جاءت في هذه الآيات :

بأن الله جلّت عظمته أنبأ ملائكته انه سينشئ خلقا في هذه الأرض ، يمشون في مناكبها ، ويأكلون من رزقه ، وان الملائكة قالوا له : كيف تجعل في الأرض من يفسدون ويسفكون الدماء تنافسا على خيراتها ، ونحن دائبون على العبادة لك؟! فأجابهم سبحانه بما اطمأنت له قلوبهم ، وطلب منهم أن يسجدوا لآدم إذا سواه بشرا. وبعد أن خلقه من تراب ، وأعطاه الصورة النهائية أقبل الملائكة على آدم معظمين له وساجدين إلا إبليس جهر بالعصيان ، وأعلن التمرد.

ولما سأله الله قال : أنا خير منه عنصرا .. فجازاه الله بالطرد واللعنة .. وعلم سبحانه آدم أسماء الكائنات كلها ، وكانت الملائكة تجهلها ، فأمر الله آدم أن ينبئهم بها بيانا لفضله ، وإظهارا لحكمة استخلافه في الأرض ، فأخبرهم آدم بما كانوا يجهلون ، وحينئذ تبينوا فضله ، وأدركوا حكمة الله في خلقه .

وجعل الله لآدم زوجة من جنسه ، وأسكنهما جنة من نعيمه ، وأطلق لهما العنان في اجتناء ما يريدون من ثمارها ، ونهاهما عن شجرة واحدة من أشجارها ، وضمن لهما إذا هما امتثلا أن لا يجوعا ولا يظمئا ولا يعريا ، ثم حذرهما من إبليس واغوائه .. وعز على اللعين أن يشقى هو ، وينعم الذي كان السبب لشقائه

وطرده من رحمة الله ، فدخل إلى الجنة ، وجدّ في استمالة آدم وزوجه ، فافتتنا بزخرف قوله وزلا باغوائه ، وكان عليهما لباس يوارى عورتهم لا يراهما من أنفسهما ، ولا أحدهما من الآخر .. ولما أكلا من ثمر الشجرة تخافت اللباس عنهما وظهرت العورة منهما ، فبادرا إلى سترها بورق الجنة.

فناداهما الجليل معاتباً ومؤنباً على اغفال نصيحته ، ونسيان تحذيره من إبليس ، فتضرعا إليه بالاعتراف والندم ، وطلبا الرحمة والمغفرة ، فرحم وغفر ، ولكنه طردهما من نعيم ما كانا فيه ، وأسكنهما هذه الأرض التي جعل فيها طريقين : هدى وضلالاً ، ووعد من اتبع هداية الجنة ، وتوعد من ضل بالنار ، وأنبأ آدم وذريته بأن العداوة بينهم وبين إبليس ستظل قائمة إلى آخر يوم ، وحذرهم من فتنه وغوايته.

هذا تلخيص ما في القرآن لقصة آدم وزوجه ، والناس فيها على قولين : بين جاحدين بالوحي ، وبين مؤمنين به ، وهؤلاء على فئتين : فئة تجاوزت ظاهر النص القرآني ، واعتمدت الاسرائيليات في تفسير جنة آدم وغيرها ، وإن هذه الجنة كانت في الدنيا ، وتسمى جنة عدن ، وإن الشجرة التي أكل منها آدم وحواء هي شجرة الخنطة ، وانهما سترتا سوءاتهما بورق التين ، وإن إبليس دخل الجنة ، وهو في جوف حية ، إلى غير ذلك مما لا حديث فيه ، ولا وحي .. وفئة شطحت إلى ما وراء الحس ، وفسرت الشجرة بالامتحان ، والشيطان بالشهوة ، والسوءة بالرديلة ، إلى غير ذلك من فراسة الصوفية وأذواقهم.

ونحن نقف موقفاً وسطاً بين الفئتين ، فنؤمن اجمالاً بما أوحى به ظاهر النص من أن الشجرة والسوءة والورق ، كل ذلك كان من الكائنات الحسية ، لأنها هي المدلول الحقيقي للفظ ، ولا موجب للتأويل ، ما دام العقل يتقبل المعنى الظاهر ، ولا يرفضه .. ولا نتحدث عن حقيقة جنة آدم ، وانها كانت في هذه الدنيا أو في غيرها ، ولا عن نوع الورق الذي ستر به آدم وحواء عورتيهما ولا عن شخص الشجرة ، ولا كيف دخل إبليس إلى الجنة ، لأن هذه التفاصيل من علم الغيب ، ولم ينزل بها وحي والعقل يعجز عن إدراكها .. وعن الإمام أحمد انه قال : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازي يريد

التفسير بغير المعنى الظاهر من كلام الله تعالى ، لأنه من الذين يستدلون بهذا الظاهر في الأصول والفروع.

اللباس الحسي والمعنوي الآية ٢٦ . ٢٧ :

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) ﴿

اللغة :

المراد بالريش هنا ما كان فاخرا من اللباس والأثاث ، ومثله الرياش. والفتنة الابتلاء والاختبار. والقبيل الجماعة كالقبيلة.

الاعراب :

لباس التقوى مبتدأ أول ، وذلك مبتدأ ثان ، وخير خبره ، والجملة خبر المبتدأ الأول. لا يفتننكم مضارع مبني على الفتح لفظا لاتصاله بنون التوكيد ، ومحله الجزم لمكان لا الناهية. كما أخرج الكاف بمعنى مثل ، صفة لمفعول مطلق محذوف ، وما مصدرية ، والمصدر المنسبك مجرور باضافة مثل ، والتقدير لا يفتننكم فتنة مثل فتنة إخراج أبويكم. وجملة ينزع عنهما حال من أبويكم.

المعنى :

ذكر سبحانه في الآية ١٤١ من الأنعام ما تفضل به على عباده من الطعام ، فقال : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾. وذكر تعالى في الآية التي نحن بصددھا ما أنعم به على عباده من اللباس ، فقال : ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾. الخطاب لجميع بني آدم ، وأنزلنا عليكم ، أي أعطيناكم ، قال تعالى : ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾. وقال : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ .. قد امتن سبحانه على عباده بما أنعم عليهم من اللباس على اختلاف أنواعه ، من الأدنى الذي يوارى السوءة إلى الريش ، وهو ما كان فائرا من اللباس والأثاث ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ وهو الخوف من الله والعمل الصالح ، وأطلق اللباس على التقوى ، لأنها تقي صاحبها من عذاب الله ، كما يقي اللباس من الحر والبرد ، قال تعالى : ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَائِلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ . ٨١ النحل ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ أي ان الله أعطاكم اللباس تفضلا منه لتعملوا بطاعته ، وتنتهوا عن معصيته.

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَآتِهِمَا﴾. لا يفتننكم الشيطان أي لا تغفلوا عن فتنته وخداعه ، وينزع عنهما لباسهما ، أي كان الشيطان سببا لنزع اللباس عنهما ، وإظهار عورتيهما.

أشار سبحانه في الآية السابقة إلى عداوة الشيطان لآدم ، وكيف كاد له ، حتى أخرجه وزوجه من حياة الراحة والهناء إلى حياة التعب والعناء ، وفي هذه الآية حذر جل ذكره أبناء آدم أن يوقعهم الشيطان في شباكه وفتنته ، ويحملهم على معصية الله ، ليصدهم عن دخول الجنة ، كما خدع أبويهم من قبل ، وكان سببا لكشف عورتيهما ، وإخراجهما من الجنة .. وبديهة ان المنع من دخول الجنة أيسر من الإخراج منها بعد الدخول ، فان طرد المحتل أكثر صعوبة من صد من يحاول الاحتلال ، قال بعض الواعظين : ان ذنبا واحدا أخرج آدم من الجنة بعد أن دخلها آمنا ، فكيف يدخلها أبناؤه ، وقد تراكمت عليهم الذنوب.

﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ﴾. يرانا الشيطان وجنوده ، ونحن لا نرى واحدا منهم ، بهذا خبر الوحي ، ونحن به من المؤمنين ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. تومئ هذه الجملة إلى جواب عن سؤال مقدر ، وتقرير السؤال : إذا كان الشيطان يرانا ولا نراه فمعنى هذا انه يقدر علينا ، ونعجز عنه ، وانه يستطيع اغتيالنا متى شاء ، ولا نستطيع التحفظ منه ، فكيف صح الأمر بالحذر منه ، والنهي عن الإصغاء اليه؟.

وتقرير الجواب بنحو من التفصيل : أجل ، نحن لا نرى الشيطان بشخصه ، ولكننا نحس بآثاره ، وهي وسوسته ان لا جنة ولا نار ، ونحو ذلك .. فمن آمن بالله واليوم الآخر يعرض عن هذه الوسوسة ، ولا يستجيب لها ، ويتعوذ منها وممن يوسوس بها ، فينقلب الشيطان عنه خاسئا خاسرا ، ومن كفر بالله واليوم الآخر يندفع مع هذه الوسوسة ، ويستولي الشيطان عليه ، فيقوده حيث شاء ، ومتى شاء ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أما المؤمنون فلا ولاية للشيطان عليهم ، لأنهم أسلموا بقيادهم لله وحده : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾.

وقال بعض المفسرين : ان الشياطين التي لا نراها هي المكروبات يحملها الذباب والبعوض إلى جسم الإنسان ، فتتوالد فيه وتنمو بسرعة ، وتسبب الأمراض المستعصية .. وهذا تفسير لمعاد الله تعالى بالحدس والتخمين .. وما هو من منهجنا في شيء.

واذا فعلوا فاحشة الآية ٢٨ . ٣٠ :

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ

الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

اللغة :

الفاحشة المعصية الكبيرة ، والفعلة المتناهية في القبح . والقسط العدل .

الإعراب :

وأقيموا معطوف على معنى الأمر بالقسط ، أي أقسطوا وأقيموا . ومخلصين حال من
واو ادعوه . والدين مفعول لمخلصين . كما بدأكم الكاف بمعنى مثل صفة لمحذوف ، أي
تعودون عودا مثل بدئكم . فريقا هدى وفريقا حق ، الفريق الأول مفعول هدى ، والفريق
الثاني مفعول أضل المحذوفة ، ودل السياق على الحذف .

المعنى :

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ ضمير فعلوا يعود إلى الذين لا يؤمنون المذكورين في آخر الآية
السابقة ، وقال جماعة من المفسرين : ان المراد بالفاحشة ما كان يفعله عرب الجاهلية من
الطواف بالبيت عراة نساء ورجالا . والصحيح انها تعم جميع المحرمات التي كانوا يقتربونها ،
وإذا نكحوا عنها ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ وفعل الآباء حجة ودليل عند
المشركين وغيرهم ، حتى عند أكثر علماء الدين ، ولكنهم لا يشعرون .. أما زعم المشركين
بأن الله أمرهم بالفاحشة فقد استدلوا عليه بما حكاه سبحانه عنهم في الآية ١٤٩ من سورة
الأنعام : ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ . ورد الله عليهم

هناك بقوله ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾. وفسرنا كلا من الزعم ودحضه.

أما هنا فقد رد عليهم سبحانه بقوله : ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ بل ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾. ٢٦٨ البقرة. ﴿اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وكل من قال من غير علم فهو مفتر كذاب ، وقد خاب من افتري.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ وهو العدل والاستقامة ، وقال الطبرسي : القسط اسم جامع لجميع الخيرات ، وأيا كان معنى القسط فان الأمر به يكذب زعمهم بأن الله أمرهم بالفاحشة ﴿وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. المراد بأقيموا وجوهكم العبادة لله ، وكلمة المسجد اسم لمكان السجود وزمانه ، ولكن كثر استعمالها في البناء المعروف المختص بالعبادة ، حتى صار اسما لا يشاركه فيه سواه ، وليس المراد بكل مسجد جميع المساجد ، بل المراد مسجد من المساجد أيا كان ^(١) ، والمعنى ان الله يأمركم باقامة العبادة في أي مسجد اتفق ، على أن تخلصوا له في دينكم وعبادتكم ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ اليه يوم القيامة للحساب والجزاء ، وفي هذا تهديد وإنذار لمن يخالف ما أمر الله به من العدل واقامة العبادة والإخلاص.

﴿فَرِيقًا هَدَى﴾ وهم الذين اتخذوا الله وليا ، وامثلوا أمره ونهي ، ولم تحدهم زخارف الشيطان وأباطيله ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، ذلك ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ في ارتكاب الفواحش ، وتقليد الآباء ، والافتراء على الله الكذب ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾. ١٠٥ الكهف.

(١). للعموم معنيان : استغراقي مثل جاء كل رجال البلد ، اي لم يتخلف منهم احد ، وعموم بدلي مثل أريد رجلا من البلد أي أي رجل كان ، وكلمة كل وضعت للاستغراق ، وقد تستعمل للبدل كما في الآية.

يا بني آدم خذوا زينتكم الآية ٣١ . ٣٤ :

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)﴾

الإعراب :

عند ظرف لخذوا. وكل على حذف مضاف أي قصد كل مسجد. ومن حرم مبتدأ وخبر. والطيبات عطف على زينة. وهي مبتدأ ، وللذين متعلق بمحذوف خبرا للمبتدأ ، والتقدير هي مستقرة للذين آمنوا. وخالصة حال من الضمير في الخبر المحذوف ، وهو مستقرة. ويجوز رفع خالصة على أن تكون خبرا لهي ، وللذين آمنوا متعلق بخالصة. وما ظهر وما بطن بدل من الفواحش.

المعنى :

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾. قال المفسرون : كان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت عراة نساء ورجالا ، وكانوا لا يأكلون في أيام حجهم

دسما ، ولا ينالون من الطعام إلا ما يقيم الأود تعظيما للحج ، فنزلت هذه الآية ، وإن النبي (ص) قال : لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فنودي بقوله في الموسم ، ومن روايات هذا الباب أن امرأة جميلة من العرب نزع ثيابها ووضعت يدها على فرجها وطافت ، ولما صوبت إليها الأنظار أنشدت وهي تطوف :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله
جهم من الجهم عظيم ظله كم من لبيب عقله يضله
وناظر ينظر ما يمله الجهم العبوس ، تريد أن فرجها عظيم في مكانه ، له هيبة وصيانة ، ولا أحد يستطيع الوصول إليه ، وأنه يضجر من ناظره ويكرهه.

وأيا كان سبب النزول فإن الله حرم نظر الأجنبي إلى عورة غيره رجلا كان أو امرأة ، وأوجب ستر العورتين في الصلاة والطواف .. والمراد بكل هنا العموم البدلي ، دون العموم الاستغراقي ، ومثلنا للفرق بين العمومين في التعليق على الآية السابقة ، والمقصود هو الحث على النظافة والتطهير من الأوساخ والأحداث ، والتزين بجميل الثياب في صلاة الجمعة والجماعة والأعياد والطواف ، حيث يجتمع الناس ، فلا ينفر بعضهم من ريح بعض ومنظره ، والتجمل حسن حتى للفقير يتجمل حسب وضعه وحاله ، وفي الحديث : إن الله جميل يحب الجمال.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ هذا رد على من حرم بعض المأكول والمشرب ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في الأكل والشرب ، ولا في التزين باللباس والمظهر ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾. وفي الآية ٢٧ من الإسراء : ﴿إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾. وفي الحديث : المعدة بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء ، وعودوا كل جسم ما اعتاد .. وقال الإمام علي المرتضى (ع) : كم أكلة منعت أكالات.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾. ظاهر اللفظ الاستفهام ، ومعناه المبالغة في نفي التحريم ، وأنه من وساوس الشيطان ، لا من وحي الرحمن ، وإضافة الزينة إليه تشعر بالحل ، أما لفظة الطيبات فتدل

بذاتها عليه ، لأن كل ما هو محرم فهو خبيث وليس بطيب ، والزينة تشمل جميع أنواعها من مسكن وملبس ومركب وأثاث ، وتشمل الطيبات جميع المأكولات والمشروبات ، والتمتع بالطيب والنساء ، والصوت الجميل والمنظر الجميل ، وكل ما لذ وطاب مما لم يرد النهي عنه في الشريعة ، واتفق علماء الإسلام قولاً واحداً على أن كل شيء حلال ، حتى يرد فيه نهي ، واستدلوا بحكم العقل بأنه لا عقاب بلا بيان ، وبقول الرسول الأعظم (ص) : الناس في سعة ما لا يعلمون. وقوله : ما حجب الله علمه عن العباد فهو موضوع عنهم. وقوله : كل شيء مطلق ، حتى يرد فيه نهي.

﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. أي أن الذين آمنوا الآن وفي هذه الحياة سوف يتنعمون غداً بزينة الله والطيبات من الرزق وحدهم لا يشاركونهم فيها أحد من الذين كفروا وأشركوا ، أما في الحياة الدنيا فيتنعم بها الجميع المؤمنون والكافرون. ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ من تتبع أي الذكر الحكيم يرى أن الله سبحانه يطلق كلمة العالم على من علم أحكام الله وعمل بها ، وأيضاً يطلقها على من يرجى منه أن يعلمها وينتفع بها إذا فصلت له ، والمراد بقوم يعلمون هنا هم النوع الثاني الذين ينتفعون ببيان حكم الزينة والطيبات وغيرها ، ويصيرون بمعرفة حكم الله علماء بالدين ، ويستدلون بآيات الله سبحانه على حلاله وحرامه.

وبعد أن أنكر سبحانه على من حرم الزينة والطيبات بين أصول المحرمات ، وهي : ١ . ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾. تقدم بيانها عند تفسير الآية ١٥١ من الأنعام ، فقرة الوصايا العشر ، رقم ٤.

٢ . ﴿وَالْإِثْمَ﴾ وهو كل ما يعصى الله به من قول أو فعل ، وعطف الإثم على الفواحش من باب عطف العام على الخاص ، نحو قوله تعالى : ﴿كَمَا أُوحِيَ إِلَى نُوحٍ وَالتَّبِيِّينَ﴾. ١٦٣ النساء.

٣ . ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهو الظلم ، وفي الحديث : لو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغي منهما دكا. وقال الإمام أمير المؤمنين (ع) : من سلّ سيف البغي قتل به.

٤ . ﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ وليس بعد الكفر والشرك ذنب ،
والشرك ضد التوحيد الذي يتلخص بقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وتقدم الكلام عنه في
الوصايا العشر الآية ١٥٣ من الأنعام.

٥ . ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ومن ذلك ما كان عليه أهل الجاهلية الذين
أشارت اليهم الآية ٢٨ الأعراف : ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا
بِهَا﴾. ولا رذيلة أقبح من القول بلا علم ، ولا فرق بين الافتراء على الله ، وبين الشرك به من
حيث الحكم ، قال الإمام علي (ع) : من ترك قول لا أدري أصيبت مقاتله.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾. المراد بالأمة هنا الجماعة ، كما في الآية ٢٣ من القصص :
﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ .. بعد أن ذكر سبحانه في الآية
السابقة ٢٨ ان المشركين يفعلون الفواحش ، ويقولون : الله أمرنا بها وذكر في الآية ٣١ ما
أحل الله ، وفي الآية ٣٣ ما حرم ، بعد هذا قال : ولكل أمة أجل. أي لكل جماعة ، ومنهم
المشركون الذين افتروا على الله الكذب . أجل معين في هذه الحياة ، ثم يردون الى الله ،
فينبئهم بما كانوا يعملون .. وفي هذا تهديد ووعيد للمشركين ومرتكبي الفواحش ولأهل البغي
والإثم ، ولكل من قال على الله بغير علم.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ تقدم تفسيره في الآية ١٤٥
من آل عمران ، فقرة الأجل محتوم ج ٢ ص ١٧١ .

في اتقى وأصلح الآية ٣٥ . ٣٩ :

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)﴾

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَإِنِّ مَ كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآخِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

الإعراب :

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ إما مركبة من كلمتين ان الشرطية ، وما زائدة مؤكدة ، ولدخولها على ان دخلت النون الثقيلة على يأتي. فمن اتقى جواب الشرط. حتى إذا حتى تفيد معنى الغاية ، ولا عمل لها هنا ، وكذلك إذا دخلت على الجمل. وإذا ظرف في محل نصب بقالوا. و ﴿إِنِّ مَ كُنْتُمْ تَدْعُونَ﴾ أين مبتدأ ، وما خبر ، أي أين الآلهة التي كنتم تعبدون. وكلما منصوبة على الظرفية ، واكتسبت هذه الظرفية من ما التي هي بمعنى وقت. وجميعا حال من واو ادركوا. وضعفا صفة لعذاب بمعنى مضاعف ، ومن النار متعلق بمحذوف صفة ثانية. ولكل متعلق بمحذوف خبرا لمبتدأ محذوف ، وضعف صفة للمبتدأ المحذوف ، والتقدير لكل من الأخرى والأولى عذاب ضعف.

المعنى :

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. خلق الله سبحانه آدم وذريته ، وسنّ لهم منهجا يسرون عليه ، وأرسل اليهم من يبلغهم إياه ، وجعل الرسل المبلغين من أبناء جنس المرسلين اليهم ، لأن ذلك ادعى في التأثير ، وأبلغ في الحجة ، فمن سمع وأطاع فهو في أمن وأمان من غضب الله وعذابه ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. كان أستاذنا رضي الله عنه وأرضاه يقرأ لتلاميذه مقطعا مقطعا من الكتاب المقرر للتدريس ، ويشرحه لهم بكلام يفهمه كل الناس ، فإذا كان المقطع واضحا ومفهوما للجميع علق عليه بكلمة : توضيح الواضحات من أشكال المشكلات. ومشى الى غيره.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ تقدم في سورة الأنعام الآية ٢١. ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أولئك اشارة إلى من تقدم ذكرهم ، وهم الذين اختلفوا في ما لا وجود له ، وكذبوا بما هو موجود ، والمراد بالكتاب النصيب المكتوب من الآجال والأرزاق ، والمعنى ان الله يدع الكاذبين والمكذبين يستوفون ما كتب لهم في هذه الحياة من العمر والرزق ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا﴾ وهم ملائكة الموت ﴿يَتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَإِنَّا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ لا نحن نعرف أين هم؟. ولا هم يأتون لخلاصنا من العذاب ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ والاعتراف بالذنب يجدي حيث يمكن اخفاؤه والفرار من الجزاء عليه ، أما بعد ظهوره كالشمس ، وحين تنفيذ العقوبة فلا يجدي الاعتراف والندم شيئا. بعد ان يشهد الكافرون على أنفسهم تنتهي المحاكمة ، ويصدر الحكم عليهم بعذاب الحريق.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾. المراد بالأمم أهل الملل الكافرة ، أي ان الله يقول لمن كفر بنبوة محمد (ص) : ادخلوا النار جزاء على كفركم ، كما دخلها من كذب بالأنبياء من قبلكم.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ يتلاعنون ، وقد كانوا اخوة في الدين ، وتجمعهم الأنساب والاصهار .. وهكذا أهل الأهواء والضلال يتحابون ويتعاطفون حين الدعة وأيام الأمل ، ويتباغضون ويتلاعنون حين لا يدرك أمل ، ويرجى نوال.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اذْأَرْكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي تلاحقوا ، وأدرك بعضهم بعضا ، وعندها يبدأ الخصام والجدال ﴿قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾. قال بعض المفسرين : المراد بأولاهم الأولى دخولا في النار ، وبأخراهم المتأخرة دخولا فيها. وقال آخرون : بل المراد بأولاهم القادة المتبوعون ، وبأخراهم الأتباع. وهذا القول أقرب وأنسب لقول أخراهم : هؤلاء أضلونا مشيرين لأولاهم ، لأن المضل متبوع والمضلل تابع .. طلب التابعون من الله سبحانه أن يضاعف العذاب للمتبعين ، لأنهم السبب في ضلالهم ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ان لكم ولهم عذابا مضاعفا ولكن لا يعلم كل فريق ما للآخر من مقدار العذاب وشدته.

﴿وَقَالَتْ أَوْلَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ طلب التابعون أن يزيد في عذاب المتبعين ، فقال هؤلاء لأولئك : ولما ذا هذا الطلب؟ وكلنا في الجزاء سواء ، ولا تفاوت في شيء ، حتى يزيد الله في عذابنا دون عذابكم ، ثم توجه المتبوعون إلى التابعين ، وقالوا لهم جوابا عن طلب المزيد في عذابهم : ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ مختارين من الآثام ، وما كان لنا عليكم من سلطان.

الجمل وسم الخياط الآية ٤٠ . ٤٣ :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُجْرِمِينَ (٤٠) هُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴿﴾

اللغة :

السم بفتح السين وضمها الثقب. والخياط الابرة. والمهاد الفراش. والغواشي جمع غاشية ، وهي ما يغطي الشيء ويستتره. والوسع الشيء المقدور. والنزع قلع الشيء من مكانه. والغل الحقد.

الاعراب :

يلج منصوب بأن مضمرة بعد حتى. ومحل الكاف من كذلك النصب صفة لمصدر محذوف ، أي نجزي المجرمين جزاء مثل ذلك. ولهم من جهنم مهاد مبتدأ وخبر. ومن فوقهم غواش مثله ، والتنوين في غواش عوض عن الياء المحذوفة ، وهي ممنوعة من الصرف مثل مساجد. والذين آمنوا مبتدأ أول ، وأولئك مبتدأ ثان ، وأصحاب الجنة خبره ، والجملة خبر المبتدأ الأول. وجملة لا نكلف نفسا معترضة بين المبتدأ والخبر. وتسبب ان وهدانا بمصدر مرفوع بالابتداء ، والخبر محذوف ، أي لو لا هداية الله حاصلة لنا. وان تلكم ان مفسرة بمعنى أي ، وتلكم مبتدأ ، والجنة عطف بيان ، وجملة أورثتموها خبر المبتدأ.

المعنى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾. آيات الله تشمل الدلائل على وجوده ، ونبوة أنبيائه ، وكل ما جاء على ألسنتهم نقلا عن الله تعالى ، والتكذيب بآيات الله معروف ، وعطف الاستكبار عنها من باب عطف التفسير ، وقوله : ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ كناية عن رفض أعمالهم ، وانها لا تقبل منهم كما تقبل أعمال الصالحين ، قال تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ . ١٠ . فاطر .

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾. هذا تعليق على محال ، تماما كقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ . ٨١ الزخرف . ووجود ما علق على المحال محال .. والعرب تضرب المثل لما لا يكون بقولهم : لا أفعله ، حتى يشيب الغراب ، وحتى يدخل الجمل في سم الخياط ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أي نجازيهم بالحرمان من الجنة .

ومع هذا الحرمان ﴿هُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾. المهاد الفراش ، والغواشي الأغشية ، والمعنى ان جهنم محيطة بالمجرمين من جميع الجهات . ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. لما توعد العاصين بعذاب جهنم وعد المطيعين بنعيم الجنة ، يتمتعون به إلى ما لا نهاية ، وأشار بقوله : ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلى أن الجنة على عظمتها يمكن الوصول إليها بغير مشقة وحر ، وان من دخل جهنم انما دخلها لأنه سلك طريقها بإرادته واختياره .

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾. ولما ذا الغل؟ وقد كان في الدنيا غل وحسد ورياء وكذب ونفاق ، لأن فيها فقيرا وغنيا ، وظالما ومظلوما ، وخاملا وشهيرا ، ولا فقر في الجنة ولا ظلم ولا شهرة بعد أن وضع الله كلا في درجته التي يستحقها ، ومرتبته التي عمل لها .. ان كل واحد من أهل الجنة يشعر بالغبطة والسعادة لخلاصه من نار جهنم ، ولا ينظر إلى من فوقه إطلاقا : ﴿فَمَنْ زُجِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ .

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ أي أرشدنا إلى طريق هذا النعيم ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ هذا شكر الله على نعمه ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أخبرهم الرسل بالجنة ، فآمنوا بالغيب ، ولما شاهدوها عيانا فرحوا ، حيث أصبح الغيب مشهودا ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ . وكلمة الإرث بسبب العمل توحى بأن الجنة حق لازم للعاملين ، تماما كالميراث لأهله ، وبكلمة ان الآية تدل على ان الثواب حق لا تفضل.

ونادى أصحاب الجنة الآية ٤٤ . ٤٥ :

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥)﴾

اللغة :

العوج بفتح العين مختص بالمرئيات ، وبكسرهما مختص بما ليس بمرئي ، تقول : في ساقه عوج ، وفي رأيه عوج.

الاعراب :

ان قد وجدنا أن مفسرة بمعنى أي ، ومثلها ان لعنة الله . وحقا حال من ﴿مَا وَعَدَنَا﴾ ويجوز أن تكون مفعولا ثانيا لوجدنا على ان تتضمن معنى

علمنا. وعوجا حال من واو ييغونها أي ييغونها معوجين أو ضالين ، وقال الطبرسي في مجمع البيان : ان عوجا مفعول به على معنى ييغون لها العوج.

المعنى :

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾. ان أصحاب الجنة على علم اليقين بأن أصحاب النار قد وجدوا صدق الوعيد والتهديد ، ولكنهم وجهوا اليهم هذا السؤال شكرا لله على ما أنعم عليهم ، وتقريعا لأهل النار على كفرهم وعنادهم ، وتذكيرا لهم بما كانوا يقولونه من الهزؤ والاستخفاف بدين الحق وأهله.

﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ حيث لا وسيلة للإنكار ﴿فَأَذَنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ بهذه اللعنة يرفع المؤذن صوته يوم القيامة واصفا الظالمين بثلاثة أوصاف :
١ . ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يمنعون الناس من اتباع الحق بشتى الوسائل .
٢ . ﴿وَيَبْغُوهَا عِوَجًا﴾. لا يريدون الصدق والإخلاص والاستقامة ، وانما يريدون الكذب والنفاق والخيانة.

٣ . ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ فلا يخافون حسابا ولا عقابا على جرائمهم وآثامهم.

وعلى الاعراف رجال الآية ٤٦ . ٤٩ :

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ﴾

الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُوهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

اللغة :

الحجاب المانع والحاجز. والأعراف جمع عرف ، وهو المكان المرتفع ، ومنه عرف الديك والفرس. وسيما وسيماء وسيمياء بمعنى واحد العلامة. والتلقاء جهة اللقاء ، وهي الجهة المقابلة ، ولذلك كان طرفا من ظروف المكان ، مثل حذاءك.

الأعراب :

تلقاء منصوب على الظرفية ، والعامل فيه صرفت. وما أغنى ما نافية ، وأغنى فعل ماض ، وجمعكم فاعل ، وما كنتم ما مصدرية ، والمصدر المنسبك معطوف على جمعكم ، أي وكونكم تستكبرون. وهؤلاء مبتدأ ، والذين خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة خبر هؤلاء ، أي هؤلاء هم الذين أقسمتم ، ولا يجوز أن يكون الذين عطف بيان لهؤلاء ، لأن المبتدأ يبقى بلا خبر.

الأعراف :

نحن نؤمن بيوم القيامة وحسابه جزائه . اجمالا . كأصل من أصول الدين ، أما التفاصيل والجزئيات فإنها من عالم الغيب ، ولا يثبت شيء من هذا العالم إلا بآية صريحة واضحة ، أو بحديث صريح واضح ثبت عن المعصوم بالخبر المتواتر ، لا بخبر الآحاد ، لأن خبر الآحاد حجة في الفروع ، لا في الأصول ، والخبر

المتواتر هو الذي يرويه كثيرون يمتنع عادة تواطؤهم على الكذب ، ويقابله الخبر الواحد.

وقد ثبت بالوحي ان في الآخرة مكانا يقع بين الجنة والنار يسمى الأعراف ^(١) ، وما هو بالنعيم ، ولا بالجحيم ، ولكن باطنه فيه الرحمة ، وهو ما يلي الجنة ، وظاهره فيه العذاب ، وهو مما يلي النار : ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ . ١٤ الحديد . وعلى هذا المكان المسمى الأعراف رجال يعرفون جميع أهل الجنة ، وجميع أهل النار ، يعرفونهم لا بأسمائهم ولا بأشخاصهم ، بل بعلامات فارقة تدل عليهم ، وهم يتعمدون النظر إلى أهل الجنة ، ويسلمون عليهم ، ويطمعون أن يكونوا في وقت من الأوقات معهم ، وإذا وقع طرفهم على أهل النار سألوا الله أن لا يجعلهم مع القوم الظالمين الهالكين . ثم تنتهي الحال بأهل الأعراف إلى دخول الجنة لأنهم من أهل لا إله إلا الله ، والله عناية خاصة بأهلها .

هذا مجمل ما نزل به القرآن في الأعراف وأهلها ، ولكن كثيرا من المفسرين تجاوزوه إلى تفاصيل لا نعرف لها أصلا .. وبعد هذا التمهيد نشرع في تفسير مداليل ألفاظ الآيات :

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي بين الجنة والنار ، أو بين أهليهما ، والحجاب هو الأعراف الذي أشار إليه بقوله : ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ . أي ان رجال الأعراف يعرفون كلا من أهل الجنة وأهل النار بعلامات تدل عليهم .. وغير بعيد أن تكون هذه العلامات هي المشار إليها في الآية ١٠٦ من آل عمران : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ . والآية ٣٨ وما بعدها من سورة عبس : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ . أي سواد وظلمة . ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ . وقيل : ان هذه علامات عامة يعرفها كل الناس ، وظاهر الآية يدل على ان تلك العلامات يعرفها رجال الأعراف فقط . ومهما يكن ، فان الأمر سهل جدا ، ما دنا غير

(١). الاعراف اسم لهذا المكان ، أما البرزخ فهو الزمان الذي بين الموت والبعث .

مكلفين ولا مسؤولين عن معرفة تلك العلامات بكنهها وحقيقتها ، ولا بصفاتھا الخاصة أو العامة.

وتسأل : من هم رجال الأعراف؟

الجواب : للمفسرين فيهم أقوال ، أرجحها . ذوقا . ما عليه الأكثر : انهم الذين تساوت كفتا ميزانهم ، ولم ترجح حسناتهم على سيئاتهم ، ولا سيئاتهم على حسناتهم ، ولو زادت إحداهما على الأخرى مثقال ذرة لتعين مصيرهم ، إما إلى جنة ، وإما إلى نار .

سؤال ثان : ان أهل الجنة يعرفون بدخولها ، وكذلك أهل النار ، فأية حاجة إلى

العلامات؟

الجواب : قد تكون تلك العلامات للتمييز بين الفريقين قبل الحساب والعقاب كما

يعرف المجرم من ملامح وجهه ، وهو يساق إلى المحاكمة.

﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ ضمير نادوا يعود إلى رجال الأعراف ،

والمعنى انهم حين ينظرون إلى أهل الجنة يسلمون عليهم تسليم تحية وإكرام ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ

يَظْمَأُونَ﴾ في دخول الجنة ، لأنهم من أهل لا إله إلا الله ، وكل من آمن بالله يطمع في رحمته

ومغفرته : ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ . ٨٧ يوسف . وفي الحديث : ان

رجلا قال : والله لا يغفر الله لفلان . فقال الله تعالى : من هذا الذي تألى عليّ . أي أقسم

عليّ . أن لا أغفر لفلان؟ .. فاني قد غفرت لفلان ، وأحببت عمل المتأليّ .

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

وبناء ﴿صُرِفَتْ﴾ للمجهول يوحي بأن نظر رجال الاعراف إلى أهل النار كان من غير قصد

، والمراد بالظلم هنا الشرك والكفر ، والمعنى انهم إذا صادف ورأوا ما عليه أهل النار خافوا

وتضرعوا إلى الله تعالى أن لا يجعلهم مع الكافرين الهالكين.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا

كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ . كان الذين استكبروا في الأرض يسخرون من

المؤمنين ، ويتعاضمون عليهم بما كانوا يملكون من مال وجاه ، ويقولون لهم : لا تنالكم أبدا
رحمة الله ، ولما جاءت ساعة الحق ، ولاقى المترفون جزاء أعمالهم ذكرهم أهل الأعراف بأمرين
: الأول بما كانوا يجمعون ويستكبرون به من مال ونحوه ، واليه الإشارة ب ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ
عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾. الثاني بما قالوه للمؤمنين : لا تدخلون الجنة ، واليه
الإشارة ب ﴿أَهْوُلَاءِ الَّذِينَ أَفْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾. فهؤلاء اشارة الى المؤمنين
المستضعفين ، والخطاب في أقسمتم موجه من أهل الأعراف الى المترفين المستكبرين ، ﴿لَا
يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ من قول المترفين.

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. أي ان المؤمنين الذين قال لهم
المترفون : لا تنالكم رحمة الله ولا تدخلون الجنة ، ان هؤلاء المؤمنين قيل لهم : ادخلوا الجنة الخ
، وبطبيعة الحال قيل للمترفين المستكبرين : ادخلوا النار خاسرين خاسئين. وسلام على من
قال : الغنى والفقر بعد العرض على الله.

بين أهل الجنة وأهل النار الآية ٥٠ . ٥٣ :

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ
قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هُوءًا وَلَعِبًا وَغَرَّهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ
بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي
تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ

فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

اللغة :

المراد بالكتاب هنا القرآن. وفصلناه بيناه. وينظرون ينتظرون. والتأويل ما يؤول اليه حال الشيء.

الإعراب :

ان أفيضوا ان مفسرة بمعنى أي. وقال حرّمهما ولم يقل حرّمه مع ان العطف السابق بأو ، لا بالواو ، لأن المعنى حرّم كلا منهما. والذين اتخذوا في محل جر صفة للكافرين. وهوا مفعول ثان لاتخذوا. على علم متعلق بمحذوف حالا من فاعل فصلناه ، وهدى حال من المفعول أو مفعول لأجله ، ويوم منصوب بيقول. فيشفعوا منصوب بأن مضمرة بعد الفاء الواقعة في جواب الاستفهام. ونرد بالرفع لأن التقدير أو هل نرد. ونعمل بالنصب بأن مضمرة.

المعنى :

جاء في الحديث : ان فرحة أهل الجنة بالخلاص من الجحيم تزيدهم نعيما على نعيم ، وان حسرة أهل النار على ما فاتهم من النعيم تزيدهم عذابا على عذاب ، وهم يعلمون ان أهل الجنان في نعيم مقيم ، ولذا ﴿نَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ فأجابهم أهل الجنة ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وبعد اليأس من أهل الجنة يستغيث أهل النار بخزنتها ، كما في الآية ٤٩ من

غافر : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ فيجيب الخزنة : ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

وبعد اليأس من الخزنة يستغيثون بالله رب العالمين ، وقد كان أهون شيء عليهم في ساعة اليسر والرخاء : ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ. رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فيجيبهم الباري جل اسمه : ﴿اٰخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوْنَ﴾ ١٠٨ . المؤمنين.

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ تقدم تفسيره في سورة الأنعام الآية ٧٠ ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ المراد بالنسيان هنا الإهمال : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ والمعنى يهملهم الله يوم القيامة كما أهملوا العمل له ، وكما جحدوا ما أنزل على رسله من الآيات والحجج.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. ذكر سبحانه فيما سبق أهل الجنة ، وأهل النار ، وأهل الأعراف ، وهذه الآية والتي تليها مختصتان بأهل النار الذين غرهم الحياة الدنيا .. قال سبحانه : لقد جئنا هؤلاء بالقرآن يهدي الى الرشده ، ويبين عن علم ما يحتاج اليه الناس في معاشهم ومعادهم ، وضمن لمن آمن وعمل بتعاليمه الهداية الى الخير في الدنيا ، ورحمة الله وثوابه في الآخرة.

أما من أعرض ، واتبع هواه فماله جهنم وساءت مصيرا ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ ينظرون أي ينتظرون ، وضمير تأويله يعود الى الكتاب ، ومعنى تأويله هنا ان كل ما نطق به القرآن يؤول أمره الى الوقوع لا محالة ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ بوقوع ما أخبر عنه ، ويتبين للكافرين صدقه بالعيان ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ قالوا هذا بعد أن شاهدوا العذاب ، ومن قبل قالوا للرسول : سحرة مفترون .. وأيضا قالوا بعد أن رأوا العذاب : ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ عند الله في غفران خطايانا ، ولا يعاملنا بما نستحقه من الخزي والعقوبة.

﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾. لو استجاب الله لدعوتهم هذه لبطلت جميع المقاييس والقيم ، وتساوى الخبيث الذي لا يؤمن إلا والسيف وصلت على رأسه مع الطيب الذي يؤمن بالحق بملء ارادته ، ويضحى في سبيله بالنفس والنفيس ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾. وهكذا تذهب أعمال المبطلين سدى ، ويغيب عنهم الشفعاء والأولياء الذين كانوا يعملون من أجلهم ، ويدخرونهم لساعة العسرة.

في ستة أيام الآية ٥٤ . ٥٦ :

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)﴾

اللغة :

استوى هنا بمعنى استولى. والعرش كناية عن الملك والسلطان. والغشاوة الغطاء ، وقيل: المراد بها الذهاب ، أي ان الليل يذهب بنور النهار. وحثيثا مسرعا. والمسخر الخاضع المنقاد. وتبارك الله ، أي تعالى بعظمته ، وهو فعل غير منصرف لا يصاغ منه أمر ولا مضارع. والتضرع التذل. والخفية لغة ضد العلانية.

الاعراب :

جملة يطلبه حال من الليل. وحيثا صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي طلبا حيثما ، ويجوز أن يكون حالا. والشمس مفعول لفعل محذوف ، أي وخلق الشمس. ومسخرات حال من الشمس وما عطف عليها. وتضرعا في موضع الحال من واو ادعوا ، أي متضرعين ومخفين. ومثله خوفا وطمعا أي خائفين وطامعين. وقريب على وزن فاعيل يستوي فيه المذكر والمؤنث.

المعنى :

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾. للمفسرين في هذه الآية أقوال متضاربة ، ويرجع سبب الاختلاف إلى أمرين : الأول ان أفعال الله تعالى لا تقدر بالزمان : ﴿وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ . ٥٠ القمر. أي كلمة واحدة وهي ﴿نُفْيَكُونُ﴾. الأمر الثاني ان الزمان انما يقدر بعد وجود السموات والأرض وما يقع فيها من حوادث ، فقبل الكون لا زمان ولا أيام ، فكيف يمكن إيجاده من أيامه وفي أيامه؟ وهل هذا إلا كقول القائل : بنيت بيتا من سقفه وحيطانه؟.

اذن ، لا بد من تأويل الأيام بمعنى مقبول ومعقول ، وقد اختلفوا في تعيين هذا المعنى المجازي ، فمنهم من قال : ان في الكلام حذفاً أي في مقدار ستة أيام ، ومنهم من قال : ان الأيام هنا كناية عن المراحل والدفعات ، وانه تعالى لم يخلق الكون دفعة واحدة ، بل على ست مراحل ، ليكون لكل شيء حد محدود ، ووقت مقدر. ومن قائل : ان الأيام كناية عن الأطوار ، وانه سبحانه لم يخلق الكون ابتداء كما هو عليه الآن ، بل انتقل بخلقه من طور إلى طور وفقا لنظرية النشوء والارتقاء ، حتى الطور السادس والأخير ، وهو الذي نراه الآن. وهذه الوجوه كلها محتملة ، وليس لدينا ما يعين أحدها ، أو يرجحه برغم تتبعنا لكثير من التفاسير القديمة والحديثة ، ولذا نقول مع القائل :

ان الأيام قد تكون ست مراحل ، وقد تكون ستة أطوار ، وقد تكون ستة أيام من أيام الله التي لا تقاس بمقياس زماننا .. وقد تكون شيئا آخر ، فلا ينبغي أن يجزم أحد ما ذا يعني هذا العدد على وجه التحديد .. والظن باسم العلم محاولة تحكيمية ، وهزيمة روحية أمام ما يقال له علم ، وهو لا يتجاوز درجة الظنون والفروض.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾. هذه الجملة تفسرها الجملة التي بعدها ، وهي ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي انه يملك الكون ويدبر أمره ، ومثلها الآية ٣ من سورة يونس : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾. وانما عبر سبحانه عن ملكه وتدبيره بالاستواء على العرش لأن الملك يستولي على مملكته ويدبرها : وهو على عرشه ، والقصد التقريب ، دون التشبيه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾. هذا من تدبيره تعالى لشؤون الكون ، ومعناه ان الليل يتبع النهار ، ويتعقبه مسرعا في طلبه ، ويتغلب على المكان الذي كان فيه ، فيصير مظلما بعد ان كان منيرا ، ومثله قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى﴾ أي يتغلب على ضوء النهار ، وقوله : ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ أي يتغلب على ضوء الشمس.

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾. أي وخلق هذه الكواكب تنقاد لمشيئته ، وتسير على مقتضى الحكمة والمصلحة .. والكلام عن هذه الكواكب يحتاج الى علم الفلك ، ولا نعرف منه شيئا ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ هذا بيان وتفسير لقوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ كما أسلفنا ، وفي الحديث : من زعم ان الله جعل للعباد من الأمر شيئا فقد كفر بما أنزل على أنبيائه بقوله : الا له الخلق والأمر. ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. تعالى بوحدانته وملكه وتدبيره.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾. وليس معنى دعوة العبد ربه أن يقول : اللهم رحمتك وغفرانك ، كلا .. وانما دعوة الحق أن يخافه ويتقيه ، ويلتزم أوامره ونواهيه ، وليس المراد بالتضرع أن يقول : اللهم أتضرع اليك تائبا ،

وأعوذ بك مستجيرا ، بل المراد به أن يكون صادقا مخلصا لله فيما يقول ويفعل ، أما خفية فمعناها أن لا يباهي بما يفعل من خير ، ويعلنه على الملأ ، فان هذا ضرب من الاعتداء ، والله يقول : ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي المتجاوزين ما أمر به ، وما نهي عنه ، وقد نهي سبحانه عن المباهاة بالعبادات ، وفعل الخيرات .

الله أصلح الأرض والإنسان أفسدها :

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ . أصلح الله هذه الأرض بما أودع فيها من كنوز لا تحصى كثرة من الطيبات والمتع الروحية والمادية .. فمن مباهج الطبيعة إلى جمال المرأة ، ومن وفاء الأصدقاء إلى بر الأبناء ، ومن نشوة المعرفة والاطلاع إلى وشوشة الألمان والأنعام .. إلى ما لا نهاية .

أما الطيبات المادية فمن المأكول الحبوب والخضار واللحوم والفواكه ، وفي كل نوع من هذه أشكال وألوان ، ومن الملبوس الصوف والقطن والجلد والحرير ، ثم اكتشف الإنسان النايلون ، وسيكتشف بعد ما نظنه من الممتنعات والمستحيلات ، تماما كما اكتشف واخترع الأعاجيب لطى الأرض والسماء ، وعبر القارات في دقائق ولحظات ، أما الوقود فمن الشجر إلى الفحم الحجري ، ومن البترول الى الكهرباء ، إلى حرارة الشمس والذرة .. وقرأت فيما قرأت ان العلم استخرج من البترول المطاط الصناعي للطائرات ، والزجاج غير القابل للكسر ، وقنابل النابالم والنايلون ، والأسمدة الكيماوية ، والأطباق ؛ وأنابيب الري بالرش ، ومساحيق التجميل ، ومناضد الحدايق ، وأغطية الموائد ، والزهور الصناعية ، وأحمر الشفاه وكحل العيون ، وطلاء الأظافر ، والملابس الداخلية ، وفرشاة الأسنان ، وحب المطابع ، والأفلام ، إلى ثلاثة آلاف صنف أحصاها الخبراء ، بل إلى ما لا يحصى عدا إلا من أحاط بكل شيء علما : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ . ٣٤ ابراهيم .

ان الإنسان لظلوم كفار .. جاءت الآية بصيغة المبالغة ، مع تأكيدين لهذه المبالغة : أولهما بأن ، وثانيهما باللام .. وأي شيء أكثر ظلما وكفرانا ، وأعظم

فسادا وطغيانا من تحويل الطيبات من الرزق إلى قنابل النابالم ، تقتل الصغار وتشوه الكبار ، وإلى نفايات السموم واللهب يحرق الأخضر واليابس ، أما القنابل الذرية والهيدروجينية فإنها لا تبقي ولا تذر.

لقد بدّل الإنسان نعمة الله كفرا ، وحوّل نعيم أرضه إلى جحيم ، وربط مصير الانسانية كلها بمصير القنابل الذرية والهيدروجينية .. لقد أودع الله في هذه الأرض المتع والطيبات من الرزق لعباده وعباله ، وأودع الظلوم الكفار القنابل الذرية في مخازنه وطائراته ، تجوب أجواء القارات ليل نهار ، يرقب الفرصة المؤاتية ليحوّل الأرض ومن عليها إلى رماد وهباء .. وهذا هو تأويل قوله تعالى : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾. فيجب أن نعرف الذي أفسد علينا الأرض بعد أن أصلحها الله لنا ، وأن نقطع عليه الطريق بكل ما نملكه من وسائل ، وأقلها أن نعلن حقيقته للملأ ، ونسميه باسمه الذي وضع له ، وهو عدو الله والانسانية ، ليحذر الناس ، كل الناس من مكروهه وخداعه.

﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾. ان بث روح اليأس خيانة ، لأنه لا حياة مع اليأس ، وبث روح الأمل مع ترك التحفظ والحذر أيضا خيانة ، لأنه تغيير وتخدير ، وطريق النجاة وسط بين الاثنين ، قال تعالى : ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾. ٥٧ الإسراء. وقال : ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾. ٥٠ الحجر. فالملؤمن العاقل يعمل ، وهو خائف من الله أن لا يقبل منه لخلل في عمله ، وفي الوقت نفسه يرجو النجاح والقبول ، وكل من الخوف والرجاء يدعو إلى التحفظ والإتقان ، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. فيه إيماء إلى أن من يخاف الله ويرجوه فهو من أهل الإحسان ، وانه تعالى يجازي الإحسان بمثله.

يرسل الرياح بشراً الآتية ٥٧ . ٥٨ :

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَفْلَتْ سَحَابًا

ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَاهُ بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِداً كَذَلِكَ
نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

اللغة :

بشرا بسكون الشين وأصله بضم الشين بشرا جمع بشير ، ومعناه مبشرات. والمراد
بالرحمة هنا المطر. وثقال جمع ثقیل ، والمراد به هنا المثلث ببخار الماء. والبلد الميت أرض لا
نبات فيها. والبلد الطيب هو الجيد التربة. والنكد بكسر الكاف كل شيء يخرج بتعسر
ومشقة.

الاعراب :

بشرا حال من الرياح أي مبشرات. وأهملت حتى بدخولها على إذا. ونكدا حال من
ضمير يخرج.

المعنى :

﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ
مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَاهُ بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ لبلد ميت على حذف مضاف أي حياة
بلد ميت ، وضمير به الأولى يعود الى بلد ميت ، وضمير به الثانية يعود الى الماء ، وكل
الثمرات المراد به العموم العربي ، لا العموم الواقعي.

ان الرياح تهب ، والشمس تبخر ماء البحار ، وترتفع الرياح بهذا البخار إلى العلو ، ثم تجذبه الأرض اليها ، فيساقط عليها قطرات متراكبة ، كل ذلك وما اليه يأتي وفقا لسنن الطبيعة ، ما في ذلك ريب .. ولكن من هو الذي أوجد هذه الطبيعة ، وأودعها هذه السنن التي تسير على وتيرة واحدة مدى ملايين القرون ، لا تتغير ولا تتبدل؟. هل وجدت الطبيعة عفوا؟. وهل حكمتها القوانين والسنن من البداية الى النهاية صدفة ومن غير سبب؟. اذن ، فبالأولى أن يكون هذا الزعم جزافا ومن غير سبب؟. وكيف ينتج الانظام نظاما ، واللاوعي وعيا؟.

وبالتالي ، هل لهذه التساؤلات جواب معقول ومقبول إلا وجود خالق قدير ، ومدير حكيم؟ .. هو الذي أوجد الطبيعة ، وأودعها السنن والقوانين ، واليه ينتهي كل شيء ، ويفتقر كل شيء ، ولا يفتقر الى شيء.

فالرياح والمطر وحياة البلد الميت تنسب إلى سنن الطبيعة مباشرة ، وبالواسطة إلى خالق الطبيعة ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. يقول الجاحدون : كيف نؤمن بالبعث ، وما رأينا واحدا عادت اليه الحياة بعد موته؟ يقولون هذا ، وهم يرون رأي العين حياة الأرض بعد موتها ، ولكنهم ذهلوا ان السبب واحد ، وانه لا فرق إلا في الصورة ، فذكرهم الله بذلك لعلهم ينتفعون بالتذكير ، أو تلزمهم الحجة.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِداً﴾. بإذن ربه كناية عن عطاء الكثير بيسر وسهولة ، والنكد كناية عن عطاء القليل بعسر وصعوبة ، وأكثر المفسرين ، أو الكثير منهم على ان هذا تمثيل لقلب المؤمن والكافر ، والبر والفاجر بالأرض التي خلق الجميع منها ، ووجه الشبه ان الأرض كلها واحدة من حيث الجنس ، ولكن منها الطيبة إذا شربت الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ومنها القاسية المغلقة تصد وتنأى عن الخير والصلاح ، وإذا أتت بشيء منه فكالذي يساق الى الموت ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾. ان الله يضرب هذه الأمثال وغيرها للجميع ، للخبث والطيب ، ولكن الطيبين هم الذين ينتفعون بها ويشكرون الله عليها ، أما بالنسبة إلى الخبثاء فإنها حجة قاطعة لأعذارهم وعلاقتهم.

نوح الآية ٥٩ . ٦٤ :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)﴾

اللغة :

الملأ من القوم أشرفهم. والفلك بضم الفاء يطلق على السفينة والسفن. وعمين جمع عم ، وهو من عمى البصيرة ، والأعمى من عمى البصر.

الإعراب :

من زائدة ، وإله مبتدأ ، ولكم خبر ، وغيره صفة لإله على المحل. ويا قوم أصلها يا قومي ، حذفت الياء تخفيفا ، وكسرت الميم للدلالة على الياء. ولينذركم منصوب بأن مضمرة ، والمصدر المنسبك متعلق بجاءكم. ومعه متعلق بمحذوف صلة الذين ، أي والذين استقروا معه في الفلك. وعمين صفة لقوم ، وأصله عميين.

المعنى :

بعد أن قال سبحانه في الآية ٣٥ من هذه السورة : ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أشار في هذه الآيات وما بعدها الى قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وأوجز سبحانه قصة نوح هنا أشد الإيجاز ، حيث اكتفى بذكر الحوار بينه وبين قومه ، وإعراضهم عن دعوته ، وكيف عجبوا ان يختار الله رسولا منهم ، وانه سبحانه أغرق المكذبين ونجى المؤمنين .

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ . قال الطبرسي في مجمع البيان : هو نوح ابن ملك بن متوشلخ بن أخنوخ النبي إدريس ، ونوح أول نبي بعد إدريس ، وقيل : انه كان نجارا ، وانه ولد في العام الذي مات فيه آدم .. ونحن لا نعلم لهذا القيل مصدرا .

﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ . أوجز الرسالة التي حملها إلى قومه من الله ، أوجزها نوح بكلمة : وهي أن يعبدوا الله وحده ، لأنه لا إله سواه ، وان دعوته هذه اليهم إنما هي لإشفاقه عليهم من عذاب يوم القيامة .
﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ . رموه بالضلالة والسفاهة لا لشيء إلا لأنه نهاهم عما ألفوه وورثوه من عبادة الأحمجار .. وهكذا كل سفیه وضال يرمي بدائه من سار على طريق الهداية والرشاد .

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَبْلِغْكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ . رد عليهم بنفي الضلالة عن نفسه ، ووصفها بأشرف الصفات ، وصفها بأنه رسول الله أرسله لينقذهم من الهلاك والضلالة ، وانه ناصح لهم وأمين ، وانه يعلم من الله وحدانيته وعدله ، ومن كانت له هذه الصفات فلا يكون ضالا .

﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ . قال له قومه : ما أنت إلا بشر مثلنا ، ولو أراد الله أن يبعث رسولا لبعثه ملكا ، فرد عليهم بأنه لا عجب أن يرسل الله رجلا إلى قومه لا مصلحة له ولا هدف إلا أن يرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم ، وإنما العجب

أن يهملهم ويتركهم سدى من غير مرشد ، قال الرازي : هذا الترتيب في غاية الحسن ، فان المقصود من البعثة الإنذار ، والمقصود من الإنذار التقوى ، والمقصود من التقوى الفوز برحمة الله في دار الآخرة.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾. تفتحت أبواب السماء بالماء ، وتفجرت به عيون الأرض ، فأغرق الله الظالمين المكذبين ، ونجى نوحا ومن معه من المؤمنين ، ويأتي الكلام مفصلا عن نوح وقومه في السورة المسماة باسمه إن شاء الله.

هود الآية ٦٥ . ٧٢ :

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا

مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١) فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ
الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

المعنى :

جاء في تفسير المنار نقلا عن اسحق بن بشر وابن عساكر : ان هودا أول من تكلم بالعربية ، وكان له أربعة أولاد : قحطان ومقحط وقاحط وفالغ ، وهو أبو مضر ، وأما قحطان فأبو اليمن ، ولا نسل لقاحط ومقحط.

وقال المفسرون : كان قوم هود من ذراري نوح ، وكانوا على دينه ، ولما طل عليهم الأمد لعب بهم الشيطان ، فعبدوا الأصنام ، وأفسدوا في الأرض .. وفي تفسير الطبري ان الإمام عليا (ع) قال لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيبا أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت؟ قال الرجل : نعم ، يا أمير المؤمنين ، والله انك لتنتعته نعت رجل قد رآه. قال الإمام : لا ، ولكني حدثت عنه. قال الرجل : وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال : فيه قبر هود (ع).

وإذا صح هذا الخبر وجب أن تزال القطعة المعلقة على قبر الإمام التي جاء فيها : السلام عليك وعلى جاريك هود وصالح الا ان يكون الجوار في الآخرة ، لا في الدنيا أو نقل جثمان هود بعد وفاة الإمام.

وهذه الآيات التي نزلت في قصة هود موافقة للآيات السابقة التي نزلت في قصة نوح لفظا ومعنى إلا في أشياء نشير اليها فيما يلي :

١ . قال نوح لقومه : ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ . وقال هود لقومه : ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ذلك انه قبل نوح لم يظهر في العالم مثل ذاك العذاب ، وهو الطوفان ، وكان قوم هود على علم به ، فحذروهم وأمرهم أن يتقوا الله بترك الشرك والإقرار له بالوحدانية.

٢ . قال قوم نوح له : ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وقال قوم هود له :

﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ لأن نوحا كان يصنع الفلك ، حيث لا بحر ولا نهر ، وهذا العمل بظاهره جهل وضلال ، أما هود فلم يفعل شيئا من هذا النوع ، وإنما سقّه قومه بعبادتهم الأصنام ، فقابلوه بالمثل ، ونسبوه الى السفاهة.

٣ . قال نوح لقومه : ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وقال هود لقومه : ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وأراد نوح بالرحمة دفع العذاب عنهم ، وأراد هود بالفلاح الهداية الى الصواب ، والمعنيان متشابهان لا ينفك أحدهما عن الآخر.

٤ . ان الله سبحانه ذكر في هذه الآيات أشياء قالها قوم هود لنبيهم ، ولم يذكر هنا جل ثناؤه أن قوم نوح قالوها لنبيهم ، وهي ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾. عبارة مطروقة يجترها كل جاهل ومقلد ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ استعجلوا العذاب استعجال من يهزأ بالناصح الأمين .. وجاء الجواب من الرسول حاسما وسريعا ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَذَابٌ﴾ ومعنى وقع هنا وجب ، والمراد بالرجس العذاب ، وبالغضب السبب الموجب للعذاب.

﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾. لا وجود للالهة التي يعبدونها ، وكل ما لا وجود له لا أثر له ، ولا دليل عليه ، وعلى هذا يكون الاسم الذي وضع له كلاما فارغا بلا معنى ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ هذا جواب قولهم : فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين.

﴿فَأْتَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ الدابر هو الآخر ، وقطع دابر القوم استأصلهم بالهلاك عن آخرهم .. وبين سبحانه نوع العذاب الذي أهلك به قوم هود في الآية ٦ وما بعدها من سورة الحاقة : ﴿وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ ، فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾.

ويأتي ان شاء الله مزيد بيان لحال هود ، مع قومه في السورة المسماة باسمه.

صالح الآية ٧٣ . ٧٩ :

﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ (٧٣) وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)﴾

اللغة :

البينة العلامة الفاصلة بين الحق والباطل. وبوأكم أنزلكم. والعثي مجاوزة الحد. وعقروا الناقة نحروها. والعتو التمرد. والرجفة من الرجف ، وهو الحركة والاضطراب. والجثوم البروك على الركبة ، والمراد به هنا الهلاك.

الاعراب :

إلى ثمود متعلق بمحذوف ، أي وأرسلنا إلى ثمود ، ومنع ثمود من الصرف للعلمية والتأنيث ، وهي القبيلة. وصالحا بدل من أخاهم. وآية حال من ناقة الله. وتأكل مجزوم جوابا للأمر ، وهو فذروها. فيأخذكم جواب للنهي ، وهو ولا تمسوها ، والناصب ليأخذكم ان مضمرة بعد الفاء. وقصورا مفعول أول لتتخذون ، ومن سهولها مفعول ثان. وتنتحون بمعنى تتخذون ، وعليه تكون الجبال مفعولا أولا ، والبيوت مفعولا ثانيا. ومفسدين حال من الواو في تعثوا. ولمن آمن بدل بعض من للذين استضعفوا باعادة العامل مثل مررت بزيد بأخيك. وجاثمين خبر فأصبحوا ، وفي ديارهم متعلق بجاثمين.

المعنى :

﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾. ثمود قبيلة من العرب سميت باسم جدهم ثمود بن عامر ، وكانت مساكنهم الحجر بكسر الحاء بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ . ٨٠ الحجر. وقوله تعالى : ﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ نظير قوله : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ وقوله : ﴿وَالِى عادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ومر التفسير في الآية ٥٩ و ٦٥ من هذه السورة. ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾. قال جماعة من المفسرين : ان قوم صالح سألوه أن يخرج لهم ناقة من الصخرة ، وانه سأل ربه ذلك ، فتمخضت الصخرة كالمرأة يأخذها الطلق ، فولدت ناقة عشراء وبراء .. ونحن نؤمن إجمالا بأن الناقة كانت بينة وآية من الله ، وانها لم تأت بسبب معتاد ، وان الله سبحانه أضافها اليه تعظيما لشأنها .. نؤمن بهذا ولا نزيد شيئا ، حيث لم ينزل به وحي ولا جاء به خبر متواتر عن المعصوم. ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾. أمر صالح (ع) قومه أن يتركوا الناقة وشأنها تأكل من أرض الله ، وحذرهم من

سوء العاقبة ان تعرضوا لها بأذى ، ثم قال لهم : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ .
 أهلك الله عادا بذنوبهم ، وأورث ثمود أرضهم وديارهم ، فذكرهم صالح بنعمة هذا
 الاستخلاف ، وأيضا ذكرهم قائلًا : ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا
 وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ . ويدل هذا النص على إيجازه ان ثمود كانت تعيش في حضارة
 عمرانية واضحة المعالم ، وانها كانت في نعمة ورفاهية ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ
 مُفْسِدِينَ﴾ . آلاء الله نعمه ، ومعنى لا تعتوا في الأرض مفسدين لا تسعوا في الأرض فسادا
 .. بعد أن ذكر صالح قومه بما أسبغ الله عليهم من النعم أمرهم أن يتذكروا ويشكروا نعم الله ،
 ونهاهم عن الفساد .. وفي ذلك تحذير لهم من بأس الله وعذابه .

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ . أصر
 المترفون من قوم صالح على التماذي في الطغيان ، والتعصب لعبادة الأوثان ، أما
 المستضعفون فمنهم من آمن ، ومنهم من بقي على الشرك تبعا للمترفين ، فقال هؤلاء لمن
 آمن من الفقراء المستضعفين :

﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ؟ . سألوا المستضعفين هذا السؤال مستنكرين
 ومهددين ، أو ساخرين مستهزئين .

﴿قَالُوا﴾ . أي المستضعفون . ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ . قالوا هذا غير مكترئين
 بالتهديد والاستهزاء ، لأنهم على يقين من دينهم ، وثقة من أمرهم .

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ . للمؤمنين المستضعفين . ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ .
 على الرغم من الدلائل والبيانات القاطعة على نبوة صالح ، لأن مصالحهم فوق الأديان
 السماوية ، والبراهين العقلية ، قال الرازي : هذه الآية من أعظم ما يحتج به على ان
 الاستكبار انما يتولد من كثرة المال والجاه ، لأن هذه الكثرة هي التي حملتهم على التمرد
 والإباء والكفر .

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ . وكشف هذا العتو عن حقيقتهم وذات أنفسهم
 ، وانهم لا يكثرثون إلا بصالحهم وحده لا شريك له .. وقد تحدوا صالحا باستعجال العذاب
 ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ . ولم يمهلهم سبحانه جزاء لهذا العناد
 ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ .

أي هالكين ، والمراد بالرجفة الصاعقة ، قال تعالى : ﴿وَفِي ثُودٍ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ
فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ . ٤٥ الذاريات.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ
النَّاصِحِينَ﴾. لما رأى صالح ما حل بقومه من العذاب تولى عنهم كئيباً ، وتبرأ من مصيرهم
هذا الذي جلبوه على أنفسهم بالعتو والتمرد.

قال الرازي : قال رسول الله (ص) : يا علي أشقى الأولين عاقر ناقة صالح ، وأشقى
الآخرين قاتلك.

وسنعود إلى النبي صالح (ع) مرة أخرى ان شاء الله.

لوط الآية ٨٠ . ٨٤ :

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ
لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ
قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ
الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)﴾

الاعراب :

ولوطا أي وأرسلنا لوطا وهو منصرف لخفته. وجملة ما سبقكم حال من الفاحشة.
وشهوة مفعول لأجله لتأتون. وجواب خبر مقدم لكان ، والمصدر المنسبك من ان قالوا
اسمها. ومطرا مفعول مطلق.

المعنى :

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾. نقل صاحب تفسير المنار عن كتب الأنساب العربية وسفر التكوين ان لوطا ابن أخي ابراهيم الخليل (ص) وانه ولد في اور الكلدانيين وهي في طرف الجانب الشرقي من جنوب العراق الغربي من ولاية البصرة ، وكانت تلك البقعة تسمى أرض بابل ، ثم سافر لوط مع عمه ابراهيم إلى ما بين النهرين ، وهو مكان تحيط به دجلة ، حيث كانت مملكة آشور ، ثم أسكنه ابراهيم في شرقي الأردن.

﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾. يدل على ان قوم لوط أول من ابتدع هذا النوع من الفساد ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾. هذا تفسير للفاحشة ، وان المراد بها هنا اللواط المعبر عنه اليوم بالشذوذ الجنسي ، والفعل الشنيع ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾. قد تجاوزتم الحد في كل شيء ، حتى بلغت إلى هذا الانحراف الذي يمجحه الطبع ، وتأباه الفطرة ، ويخالف سنن الحياة.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْتَهَرُونَ﴾. أجل ، ان الطهر والعفاف ذنب عند العاهر الفاجر ، والأمانة جريمة عند العميل الخائن .. أخرجوهم لأنهم يتطهرون .. وهكذا المجتمع القذر يرفض الأطهار والأبرار ، لا لشيء إلا لأنهم يتطهرون ، والعكس صحيح أيضا.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾. المراد بأهله من آمن معه ، سواء أكان من أرحامه ، أو من غيرهم ، وغبر تأتي بمعنى مضى ، وبمعنى بقي ، وهذا المعنى هو المراد هنا ، أي ان امرأة لوط بقيت مع الهالكين ، ولم يصحبها معه حين سرى بأهله بقطع من الليل فرارا من العذاب ، لأنها كانت منافقة تتآمر على زوجها مع المشركين ، وقيل : ان اسمها واهلة .. وقال تعالى : ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ، ولم يقل من الغابرات تغليبا للرجال على النساء ، لأن الذين أهلكهم الله كانوا من الفئتين.

وهكذا أصاب امرأة لوط من العذاب ما أصاب المشركين لأنها منهم ، ولم يجدها القرب من نبي الله والتصاقها به شيئا. وفي الحديث : المرء مع من أحب.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾. بين سبحانه العذاب الذي أنزله بهم بأنه نوع من المطر ، ولكنه بالحجارة ، لا بالماء كما جاء في الآية ٨١ من سورة هود : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ ويأتي التفصيل في محله ان شاء الله ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾؟ انها العذاب الأليم ، والعاقلة من اتعظ بغيره. وتساءل : ان كلا من نوح وهود وصالح دعا قومه الى عبادة الله وحده فيما تقدم من الآيات ، أما لوط فقد دعا قومه في هذه الآيات الى الامتناع عن الفاحشة ، فهل معنى هذا ان قوم لوط كانوا موحدين ، ولكنهم فسقوا بهذا الفعل الشنيع؟.

الجواب : ان قوم لوط كانوا كفارا ، وقد دعاهم الى التوحيد ، ونهاهم عن الكفر والشرك كما نهاهم عن اللواط بدليل قوله تعالى : ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾. ١٦٣ الشعراء. وانما اهتم بهذه الرذيلة لأنها كانت فاشية فيهم ، وأدت بهم الى غيرها من القبائح والرذائل ، وحملتهم على التمرد والعناد للحق ، وجراهم على تكذيب أنبياء الله ورسله.

وقد أجمعت المذاهب الإسلامية قولاً واحداً على تحريم اللواط ، وانه من الكبائر ، واختلفوا في عقوبته ، قال الحنفية : انها التعزير بما يراه الحاكم ، وقالت بقية المذاهب : انها القتل لحديث : من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به.

وأباححت الحكومة الانكليزية اللواط ، وأقره مجلس العموم البريطاني سنة ١٩٦٧ ونقلت جريدة الأهرام تاريخ ٦ . ٩ . ١٩٦٧ عن التايمز اللندنية ان جماعة من كبار الشخصيات في انكلترا أقاموا احتفالاً عاماً ابتهاجاً بإباحة اللواط ، وتعاطوا فيه هذه العملية أمام المئات من المتفرجين .. وليس من شك ان وجود السيدات والآنسات في هذا الحفل يزيد من بهجته وروعته.

شعيب الآية ٨٥ . ٨٧ :

﴿وَالِى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧)﴾

اللغة :

الكيل تقدير الشيء بالكيل. والوزن تقديره بالميزان. والمساحة تقديره بالمترو والذراع. والبخس النقص. والعوج بفتح العين يكون فيما يرى كالعود والحائط ، وبكسر العين يكون فيما لا يرى كالدين وما اليه.

الإعراب :

إلى مدين متعلق بفعل محذوف أي وأرسلنا إلى مدين ، ومدين مجرور بالفتح للتعريف والتأنيث ، وشعيبا بدل من أخاهم. ولا تبخسوا يتعدى إلى مفعولين : الأول الناس ، والثاني أشياءهم. وجملة توعدون حال من واو لا تقعدوا. ومن آمن مفعول به لتصدون. وضمير تبغونها يعود إلى سبيل الله.

المعنى :

﴿وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾. مر نظيره في الآية ٥٩ من هذه السورة. وشعيب من أنبياء العرب كهود وصالح ، وأهل مدين عرب ، وكانوا يسكنون أرض معان من أطراف الشام.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. البينة كل ما يتبين به الحق ، سواء أكان برهانا عقليا ، أم معجزة خارقة للعادة ، وليس من شك ان شعيبا قد جاء قومه بمعجزة تدل على نبوته ، والا كان متنبئا ، لا نبيا. ولا نص في القرآن يدل على نوع هذه المعجزة ، فتعيينها بالذات كما في بعض التفاسير قول على الله بغير علم.

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾. ويومئ هذا النص إلى أنهم كانوا يسيئون المعاملة في البيع والشراء ، وان ذلك كان فاشيا فيهم ، ولذلك أمرهم بايفاء الكيل والميزان بعد أن أمرهم بتوحيد الله ، ثم أمرهم بالعدل وعدم البخس في جميع الحقوق مادية كانت كالمبيعات ، أو معنوية كالعلم والأخلاق ، فلا يصفون العالم بالجهل ، والأمين بالخيانة.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾. مر تفسيره في الآية ٥٦ من هذه السورة ، فقرة الله أصلح الأرض والإنسان أفسدها ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ذلك إشارة إلى الخمسة المتقدمة ، وهي عبادة الله ، والوفاء بالكيل والوزن وعدم البخس والإفساد.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عَوْجًا﴾. هذا بيان وتفسير لقوله : ولا تفسدوا في الأرض لأن معناه دعوا الناس وشأنهم ، ولا تلقوا عليهم الشبهات ، ولا تتوعدوهم وتهدوهم ان أرادوا الإيمان بالله ورسوله ، ولا تمنعوا من آمن أن يقيم شعائر الدين ، وتصدوه عن طريق الله القويم ، وتحاولوا أن تحملوا الناس على سلوك الطريق العوجاء التي تسيرون عليها .. وأوضح تفسير لهذه الآية وأجزء ما روي عن ابن عباس أنهم كانوا يقعدون على الطريق ، ويخوفون الناس أن يأتوا شعيبا ، ويقولون لهم انه كذاب ، فلا يفتنكم عن دينكم.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُكُمْ﴾. جعلهم الله أغنياء بعد أن كانوا فقراء ،

وأقوياء بعد أن كانوا ضعفاء ، وكثيرين بعد أن كانوا أقلاء ، فوجبت عليهم الطاعة والشكر لله ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي وإلا أصابكم ما أصاب من أفسد الأرض مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط.

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾. آمن بشعيب جماعة ، وكفر به آخرون ، فدعا الجميع إلى التعايش السلمي ، وان تترك كل طائفة وشأنها ، ولا يتعرض أحد لأحد بأذى ، سواء اختار الكفر ، أم الإيمان ، ثم تنتظر الطائفتان الى ان يحكم الله بينهما ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾. ولا رد لهذا المنطق ، وبأي شيء ترد من يقول لك : انتظر فيك حكم الله؟.

الجزء التاسع

لنخرجنك يا شعيب الآية ٨٨ . ٨٩ :

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾

اللغة :

الملة الديانة. وللفتح معان ، منها الحكم ، وهو المراد هنا.

الإعراب :

أو لو كنا كارهين ، الهمزة للإنكار ، والواو للحال ، ولو بمعنى ان ، والجملة بمعنى الحال ، والتقدير كيف نعود في ملتكم ، ونحن كارهون لها؟. وربنا بدل من الله ، والمصدر المنسبك من أن يشاء الله مجرور بإضافة ظرف محذوف ، أي إلا عند مشيئة الله ، أو مع مشيئة الله. وعلما تمييز محول عن فاعل ، أي وسع علم ربنا كل شيء.

المعنى :

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ

مِنْ قَرِينَتَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴿١٠﴾. قدمنا ان شعبيا دعا المترفين الكافرين الى المسالمة والتعايش مع الذين آمنوا به ، وان يترك الخيار لمن يشاء أن يدخل في الدين الذي يشاء .. ولكن المترفين رفضوا دعوته ، وخيروه بين أمرين لا ثالث لهما : اما أن يخرج هو ومن آمن معه من بلدهم ، واما أن يعود الذين آمنوا به الى الكفر ، ويعود هو إلى موقفه السابق . قبل النبوة . لا مؤيد لدينهم ولا مفند ، وبكلمة ان قولهم : **﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾** معناه أن يرجع الوضع الذي كان قبل النبوة إلى ما كان.

﴿قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ ؟. هذا هو منطق المنصف المخلص ، لا يحمل أحدا على ما يكره ، ولا يجب أن يحمله أحد على ما لا يريد ، ثم هل يكون الإيمان بالإكراه؟. وهل المؤمن حقا يؤثر الإقامة في الوطن على دينه وعقيدته؟.

﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ . طلب المشركون من شعيب (ع) أن يرتد عن الإيمان إلى الشرك ، فقال لهم : ان الارتداد افتراء على الله ، وعاقبة الافتراء عليه تعالى وبال وعذاب ، وقد أنجانا الله منه ، فكيف نفتري عليه؟ .. اما ان الارتداد افتراء على الله فواضح ، لأن معناه ان الشرك بالله خير وأبقى من الإيمان بوحدايته **﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾** . ضمير فيها يعود إلى ملة الكفر والشرك ، والتعليق هنا على مشيئة الله تعليق على المحال ، لأن الله لا يشاء الكفر والشرك ، فهو تماما كقوله تعالى : **﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾** .

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ تقدم نظيره في الآية ٨٠ من سورة الأنعام. **﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾** . ومن توكل عليه لا يخشى التهديد والوعيد ، لأنه على علم اليقين بأن المخلوق لا يضر ولا ينفع. **﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾** . بعد أن يئس شعيب منهم وتأكد من إصرارهم على الكفر التجأ إلى الله ، وتضرع اليه أن يحكم ويفصل بينه وبين من كفر من قومه ، لأنه تعالى هو مصدر القوة والعدل.

لئن اتبعتم شعيباً الآية ٩٠ . ٩٣ :

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ (٩٠)
فَأَخَذَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ
كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي
وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)﴾

اللغة :

غني بالمكان أقام به . وآسى عليه حزن عليه .

الإعراب :

لئن تدل اللام على قسم محذوف ، وجملة انكم إذا لخاسرون جواب للقسم ، وسادة
مسد جواب الشرط ، وإذا ملغاة لاعتراضها بين اسم ان وخبرها . والذين كذبوا شعيبا الأولى
مبتدأ ، وكأن اسمها ضمير الشأن محذوف أي كأنه ، وجملة كأن واسمها وخبرها خبر المبتدأ ،
والذين كذبوا شعيبا الثانية بدل من الأولى . وهم ضمير فصل بين اسم كان وخبرها ، ولا محل
له من الإعراب .

المعنى :

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾.

توجه المشركون أولا إلى شعيب صاحب الدعوة يهدون ويتوعدون ، ولما يئسوا منه تحولوا الى الذين آمنوا به يحاولون فتنهم عن دينهم ، وقالوا لهم فيما قالوا : انكم لخاسرون في اتباعكم شعيبا ، وهذا دأب من لا حجة له إلا الإغواء والإضلال.

﴿فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾. هذا هو الجواب الصحيح لمن عاند

وتمرد ، وأبى إلا الضلال والفساد ، وتقدمت هذه الآية بالحرف ٧٨ من هذه السورة.

﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾. لقد أتى العذاب عليهم وعلى ديارهم وجميع

آثارهم ، حتى كأنهم لم يعرفوا هذه الحياة وتعرفهم .. وكل امرئ مجزي بما أسلف عاجلا أو

أجلا. ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾. قال الذين أشركوا للذين آمنوا : انكم

لخاسرون فكانت العاقبة خسراهم وهلاكهم ، وربح المؤمنين ونجاتهم .. والعاقل لا يقول

للمترف الهناء لك ، وللمستضعف الويل لك ، لأن للدهر مخبات ومفاجآت ، والأمر

بخوانيمها ، وإنما كرر ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا﴾ تأكيداً لخسراهم وهوانهم.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى

قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾. كيف أحزن على من أهلك نفسه بنفسه مصرا على الكفر بالله وكتبه ورساله ،

والاستهزاء بمن آمن به واتبع صراطه القويم. وتقدم نظيره في الآية ٧٩ من هذه السورة.

وما أرسلنا في قرية الآية ٩٤ . ٩٥ :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ (٩٤)

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)﴾

اللغة :

البأساء الشدة. والضراء ما يضر الإنسان ماديا أو أدبيا. والتضرع الخضوع. والعفو الترك ، والمراد به هنا الكثرة والنمو ، أي تركوا حتى تناسلوا وكثروا. والبغته الفجأة.

الإعراب :

يضرعون أصلها يتضرعون ، فأدغمت التاء في الضاد. وحتى عفو أي الى أن عفو. وبغته نعت لمصدر محذوف أي اخذة بغته ، ويجوز أن تكون بغته مصدرا في موضع الحال ، أي مباغتين.

المعنى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾. المراد بالقرية البلدة الجامعة التي يسكنها. في الغالب . الرؤساء والزعماء ، ولعل هنا بمعنى كي. في الآيات السابقة أشار سبحانه الى الهلاك الذي حل بالمكذبين من قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وإلى ما في نهايتهم من عبر وعظات ، وان الخير كان عاقبة المتقين ، وان دائرة السوء دارت على المبطلين ، وبيّن في هذه الآية ان ما جرى لأقوام أولئك الأنبياء لا يختص بهم وحدهم ، ولكنها سنة الله. تجري على كل قوم كذبوا نبيهم .. يأخذهم الله بالشدة والمشقة في أنفسهم وأبدانهم وأموالهم ، لا لشيء إلا ليتعظوا ويرتدعوا ، ويعتبر بهم من يأتي من بعدهم.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ﴾.

المراد بالسيئة هنا الضيق والعسر ، وبالحسنة السعة واليسر ، وبالعفو الكثرة. والمعنى ان الله سبحانه ابتلاهم بالضيق والشدة ليتعظوا ، وبالسعة والعافية ليذكروا ، ولكن قل من يتعظ ، وأقل منه من يشكر ، ولما كثروا بالنعم والنسل استخفوا

بالحق ، وهزأوا بأهله ، وأخذوا يفسرون سنة الله بجهلهم وعلى أهوائهم ، ويقولون : ما أصاب آباءنا من الضراء لم يكن عقوبة على ضلالهم وفسادهم ، وما نالهم من السراء لم يكن مثوبة على صلاحهم وهدايتهم ، وانما هي الصدفة تحبط خبط عشواء.

وإذا غفل هؤلاء واضراهم عن حكم الله وحكمته فان الله جل ثناؤه ما هو بغافل عنهم وعن أعمالهم ﴿فَأَخَذْنَا هُمْ بِغَتَّةٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جزاء على اغترارهم وانطلاقهم مع الأهواء والأغراض .. وهكذا يحذر القرآن الذين لا يتورعون ولا يتحرجون عن شيء ، يحذرهم من الأخذ بغتة ، وهم لا يشعرون.

ولو ان أهل القرى آمنوا الآية ٩٦ . ١٠٠ :

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِدُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾

اللغة :

البركات بوجه عام الخيرات النامية ، وبركات السماء كثيرة ، وأظهرها المطر ،

وبركات الأرض كثيرة أيضا ، وأظهرها الخصب والمعادن ، بخاصة الذهب الأسود. والمراد بالبأس هنا العذاب. والبيات وقت المبيت وهو الليل. والضحي انبساط الشمس.

الإعراب :

أفأمن الهمزة للاستفهام على وجه التوبيخ والإنكار ، والفاء لعطف الجملة على ما قبلها. وبيات منصوب على الظرفية بيأتهم لأن المراد به الليل. والمصدر المنسبك من أن يأتيهم مفعول لأمن ، أي امنوا إتيان بأسنا. ان لو نشاء ان مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، والجملة بعد لو خبرها ، والمصدر المنسبك فاعل يهد ، والتقدير أو لم يهد لهم هذا الشأن ، وهو انا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم.

المعنى :

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾. أظهر

بركات السماء المطر ، وأظهر بركات الأرض النبات والمواشي والمعادن بشتى أنواعها. وقد بينا عند تفسير الآية ١٠٠ من سورة المائدة ، فقرة هل الرزق صدقة أو قدر : ان مجرد الإيمان بالله لا ينبت قمحا ، وبيننا أيضا في تفسير الآية ٦٦ من سورة المائدة ، فقرة الرزق وفساد الأوضاع : ان المراد بالإيمان الموجب للرزق هو الإيمان بالله مع العمل بجميع أحكام الله ومبادئه ، واقامة العدل في كل شيء ، وانه متى عمّ العدل وساد صلحت الأوضاع ، وذهب البؤس والشقاء. ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. أي لم يعملوا بأحكام الله ، بل سعوا في الأرض فسادا بالظلم والجور ، والسلب والنهب ، وتكديس الثروات على حساب الضعفاء والبؤساء ، وقد أخذهم الله بالهلاك والعذاب ، لأنهم كفروا واستأثروا.

﴿أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾؟. هذا تخويف وإنذار منه

تعالى للمتمردين والمستأثرين أن يفاجئهم الله بعذابه ، وهم في غفلة من غفلاتهم ، كما فعل بمن كان قبلهم .. وهل يملك الإنسان أن يدفع عنه قضاء الله في صحوه وحذره؟ فكيف يملكه ، وهو أشبه بالموتى؟.

﴿أَوَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾؟ ويلعبون هنا كناية عن

ذهولهم عن المفاجئات والمخبات ، وعن محاسبتهم لأنفسهم. وتساءل : لا فرق أبدا بين يقظة الإنسان وغفلته أمام بأس الله ، فما هو القصد من ذكر النوم واللعب؟.

الجواب : ان يتنبه الإنسان إلى جهات الضعف فيه لعله يتذكر أو يخشى .

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾. المراد بمكر الله هنا العذاب

الذي يأتيهم بغتة دون سابق إنذار ، وسبق الكلام عن مكر الله تعالى في تفسير الآية ٥٤ من آل عمران ج ٢ ص ٦٨ وانه سبحانه يصف نفسه بالماكر لأنه يطل مكر الماكرين ، وبالشاكر لأنه يثيب الشاكرين ، وبالتواب لأنه يقبل من التائبين .. أما انهم الخاسرون فلأنهم أوقعوا أنفسهم في الخسران بسبب عنادهم واستهتارهم.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْنَانَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾. أي ان

هؤلاء المشركين الذين ورثوا الأرض ممن أهلكناهم بذنوبهم ، وقد كانوا أشد منهم قوة . ان هؤلاء المشركين ألم يتبين لهم ان شأننا فيهم تماما كشأننا فيمن كان قبلهم لو نشاء أصابهم عذابنا كما أصاب غيرهم من قبل؟ .. فان سنة الله واحدة في جميع خلقه .. والغرض من هذه المبالغة في النصيحة والتحذير أن يراقب الإنسان نفسه ، ولا يذهل عنها ، وان يتعظ بغيره ، ولا يغتر بالمظاهر الجوفاء .. ولكن : ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ . ١٠١ يونس .

﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾. تقدم الكلام عنه في الآية ٧ من سورة البقرة

ج ١ ص ٥٣ .

تلك القرى نقص عليك الآية ١٠١ . ١٠٢ :

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا
بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ
وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)﴾

اللغة :

نقص عليك أي نتلو عليك. والنبأ الخبر عن أمر عظيم الشأن. والمراد بالعهد هنا
الالتزام بالأدلة الدالة على التوحيد والنبوة وكل ما أمر الله والعقل به ، ونهيا عنه.

الإعراب :

تلك مبتدأ ، القرى عطف بيان ، وجملة نقص خبر. ومن عهد من زائدة وعهد
مفعول لوجدنا ، ولأكثرهم متعلق بمحذوف حالا من عهد. وإن مخففة من الثقيلة يجوز أن
تكون ملغاة ، وإن تكون عاملة ، واسمها محذوف أي إنا وجدنا ، ولفاسقين مفعول ثان
لوجدنا ، ودخلت عليه اللام للفرق بين ان المخففة وإن النافية.

المعنى :

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾. تلك القرى اشارة الى أهل القرى

الخمس ، وهم قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، والخطاب في نقص عليك موجه الى رسول الله محمد (ص) ، والقصد منه أن يخبر المسلمين بأحوال الغابرين ليعتبروا ويحذروا ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾.

ذكر الرازي ثلاثة وجوه لتفسير هذا المقطع من الآية ، وزاد الطبرسي رابعا ، ولم يرجحها وجها منها ، وتركها القارئ العادي في تيه ، مع ان المعنى واضح. لا غموض فيه ، ويتلخص بأن أهل تلك القرى كانوا قبل أن يرسل الله اليهم رسله على الشرك والضلال ، وانهم استمروا في شركهم وضلالهم بعد أن جاءتهم الرسل بالدلائل والمعجزات ، ولم تؤثر فيهم شيئا ، حتى كأن الله لم يرسل اليهم بشيرا ونذيرا ، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ ، والطبع هنا كناية عن قسوة قلوبهم ، وانها لا ترعوي عن ضلالها ، ولا يرجى خيرها.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾. فلا يؤمنون بدين الله ، ولا يلتزمون بشيء يمت الى الانسانية بصلة .. أجل ، لهم عهد واحد يلتزمون به ، ولا يحيدون عنه ، وهو اتباع المصالح والأهواء. ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾. أي وانا وجدنا أكثرهم منحرفين عن قصد السبيل.

موسى وفرعون الآية ١٠٣ . ١١٢ :

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ

مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

اللغة :

ظلموا بها أي جحدوا بها. وحقيق بمعنى جدير. والنزع إخراج الشيء من مكانه. والمراد بتأمرون هنا تشيرون. وأرجأ الشيء أخره وأجله. ومدائن ومدن جمع مدينة. وحاشرين أي ان الشرطة يجمعون السحرة ، ويحشرونهم ضد موسى (ع).

الإعراب :

كيف خبر مقدم لكان ، وعاقبة اسمها ، والجملة مفعول فانظر. وحقيق مبتدأ ، وعلي متعلق به ، والمصدر المنسبك من إلا أقول خبر المبتدأ ، أو فاعل حقيق ساد مسد الخبر ، والتقدير حقيق علي قول الحق على الله. فإذا للمفاجأة. وهي ثعبان مبتدأ وخبر. وفما ذا تأمرون يجوز أن تكون ما مبتدأ وذا اسم موصول خبر ، ويجوز أن تكون ما ذا كلمة واحدة منصوبة بنزع الخافض مفعولا لتأمرون ، والتقدير بأي شيء تأمروني؟. وأرجه أصله أرجئه بالهمزة ، أو أرجيه بالياء حيث يجوز فيه الأمران. كما قيل. وعلى الياء يكون الحذف على الأصل ، وعلى الهمزة يكون حذفها إلحاقا لها بالياء أو للتخفيف ، وأخاه مفعول معه. وحاشرين مفعول به لأرسل.

تلخيص القصة :

لقد مر بنا العديد من الآيات التي عرضت قصة موسى (ع) مع بني إسرائيل ، والآن تعرض هذه الآيات التي نفسرها قصة موسى (ع) مع فرعون. وكلمة فرعون لقب للملوك مصر القدماء كلقب قيصر للملوك الروم ، وكسرى للملوك الفرس ، والنجاشي للملوك الحبشة ، ونقل عن الكثيرين ممن يعنون بالتاريخ المصري القديم : ان اسم فرعون موسى منفتح ، وكان يلقب بسليل الإله ، وقد كتب بجانب هيكله الذي بدار الآثار المصرية هذه الآية : ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً﴾.

اسم ام موسى والأسطورة :

أما موسى (ع) فهو ابن عمران ، وأهل الكتاب يقولون عمram ، وفي المجلد الأول من هذا التفسير ص ١٠١ ذكرنا ان اسم موسى مركب من مو اسم الماء ، وسى اسم الشجر ، لأن أمه وضعت في صندوق ، واقلته أقبالا محكما ، وألقته في النيل خوفا عليه من فرعون الخ.

ومن الطريف أن يخترع مخترع من هذا القفل الذي أقفلت به ام موسى صندوق وليدها ، أن يخترع منه اسطورة شاعت وذاعت مدى قرون من الزمن ، وآمن بها كثيرون من البسطاء السذج .. وهي ان ما من قفل إلا ويفتح تلقائيا إذا قرئ عليه اسم ام موسى ، ومن أجل هذا لا يعرفه إلا الخواص من أهل الأسرار .. وفي ذات يوم دخلت على أحد رجال الدين ، وله اسم وشأن بين قومه ، فوجدته يبحث وينقب مهتما في مجلدات بحار الأنوار للمجلسي ، فقلت له : ما شأنك؟ قال : أريد؟؟؟ أن أعرف اسم ام موسى ..

ومنذ سنتين قصدي رجل يظن اني من أهل الأسرار ، وسألني عن اسمها ، فقلت له : ليس المسئول بأعلم من السائل ، فلم يقتنع ، فقلت له : ان هذه خرافة .. فاعتقد اني أتقرب منه ، ولا أريد أن اطلعه على هذا السر العظيم .. ولما يؤست منه قلت له : لا يجوز لي أن اطلعك عليه لأني لا آمن أن تسرق

أموال الناس ، فأقسم وأغلظ في القسم انه لن يفعل ، فتظاهرت بعدم الثقة به ، ومضت الأيام ، وشرعت في تفسير القرآن الكريم ، ولما بلغت هذه الآيات راجعت مصادرها ، ومنها كتاب قصص القرآن وضعه أربعة من الكتّاب المصريين ، وهم محمد أحمد جاد المولى ، وعلي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل ، والسيد شحاته ، وإذا فيه ان اسم ام موسى يوكابد ولكن المؤلفين لم ينسبوه إلى مصدر.

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى قصة موسى مع فرعون ، كما جاءت في الآيات التي نحن بصدد تفسيرها ، ويتلخص معناها بأن فرعون كان يدعي الربوبية من دون الله ، ويضطهد بني إسرائيل ، فأرسل الله اليه موسى وهارون ، فذهبا واقتحما عليه مجلسه لا يخشيان سلطانه وطغيانه ، وجابهه موسى بقوله : يا فرعون اني رسول من رب العالمين اليك والى كل جاحد ، ولديّ ما يثبت رسالتي ، وعليك أن تطلق بني إسرائيل من أسرك ، وتدعهم أحرارا يذهبون حيث يشاءون .. فاستخف به فرعون ، وقال : هات ما يثبت رسالتك ، فألقى موسى عصاه ، فإذا هي ثعبان ، ووضع يده في جيب قميصه ، وأخرجها فتلاّأت ناصعة لكل ناظر ، وكان موسى أسمر.

فقال رجال فرعون وأهل مشورته : ان هذا ساحر ماهر .. وجمع فرعون السحرة لموسى ، وقبل أن يشرعوا بالأعيبهم قالوا لفرعون : ألنا أجر ان غلبنا موسى؟ قال : لكم أجر وقرى ، وألقى السحرة حبالهم وعصيهم ، فخيّل للنظارة انها حيات تسعى ، وألقى موسى عصاه ، فإذا هي تلقف ما يأفكون ، فأسلم السحرة ، وآمنوا برسالة موسى ، فتهددهم فرعون بالعذاب والتنكيل ، فلم يعبثوا وثبتوا على إيمانهم .. وجاء في العديد من الروايات ان فرعون نفذ فيهم تهديده ووعيده ، وطبيعة الحال ترجح ذلك.

وراح فرعون ينزل بموسى ومن معه صنوف العذاب ، ويشتط في التنكيل والتعذيب ، ولكن موسى استمر في دعوته الى الله لا يثنيه عنها شيء ، فضج بنو إسرائيل وقالوا لموسى : أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، فأمرهم بالصبر ، ومناهم الفوز.

وأخذ الله آل فرعون بالجذب والضيق ، وأرسل عليهم أمطاراً تهلك زرعهم وثمارهم ،
وجراداً يأتي على ما تبقى من أثر السيول ، وقملاً ينهك أجسامهم ، وضفادع تفسد عليهم
حياتهم ، وفوق هذا كله تحولت مياههم إلى دماء .. وعندها فزعوا إلى موسى ، وقالوا له :
لئن كشف ربك عنا العذاب لنكونن من المؤمنين ، وكشف الله عنهم إلى حين لعلمهم يرجعون
.. ولكن نكثوا العهد ، وأصرروا على الكفر ، فأغرقهم الله في البحر ، وقطع دابر الكافرين .
هذا تلخيص سريع لما جاء في الآيات التي نحن بصددنا ابتداء من الآية ١٠٣ إلى
نهاية الآية ١٣٧ . وفيما يلي نشرح دلالة هذه الآيات على ما ذكرنا .

المعنى :

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ . ضمير بعدهم يعود
إلى الأنبياء الخمسة : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، أو إلى قومهم ، والآيات التي بعث
بها موسى هي المعجزات الدالة على نبوته ، وملاً فرعون أشراف قومه الذين بيدهم الحل
والعقد ، وليس لغيرهم إلا الانقياد والتسليم ، ومعنى ظلموا بها جحدوا وكفروا بما جاء به من
الآيات والمعجزات . ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ . وهم فرعون وأنصاره الذين
يتحكمون في رقاب العباد ، وهذه العاقبة ستجيء في السياق .

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . بهذا النداء خاطبه موسى ﴿يَا
فِرْعَوْنُ﴾ من غير تبجيل وتعظيم ، لأنه يتكلم بلسان الله ، ويبلغ رسالات الله التي يصغر
عندها كل كبير .. وبهذا ندرك السر لسيرة الصالحاء الذين يترفعون على الفاسقين ويخفضون
جناح الذل من الرحمة للمؤمنين .

﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ شأن كل نبي ائتمنه الله على وحيه ،
واختاره لرسالته ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تدل على أني رسول من رب العالمين ﴿فَأَرْسَلْ
مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كان فرعون يستعبد بني إسرائيل ، ويستخدمهم في أشق الأعمال ،
فطلب منه موسى (ع) أن يطلقهم ، ويدعهم وشأنهم يذهبون إلى حيث يشاءون .

﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. يظهر ان فرعون كان يظن ان موسى كاذب في دعواه ، فأراد أن يفتضح أمام الملأ ، فقال له : فأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، فألقمه موسى حجرا بحجته الدامغة ومعجزته القاطعة ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ ظاهرا وواقعا ، لا تمويه وإيهاما ، ففزع فرعون ، ولكنه تمالك لأنه كان يدعي انه هو الرب الأعلى ، وفاجأه موسى بالثانية كما فاجأه بالأولى ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾. ويد موسى سمراء ، لأنه كان يميل إلى السمرة ، فكيف صارت بيضاء من غير سوء ، أي من غير مرض وعلة؟.

فشعر فرعون بالمدلة والهوان ، وصغر شأنه عند نفسه ، فأدرك جلساؤه وحاشيته منه ذلك ، وان موسى أنزله من عليائه ، فحاولوا أن يخففوا عن سيدهم ، وكذبوا عليه وعلى أنفسهم ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾. هذه حجة العاجز إلصاق التهم بالأبرياء ، والنيل من كرامة الأصفياء.

ثم قال الملأ من قوم فرعون : ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾. أي ان موسى يريد أن ينزع منهم الحكم والسلطان ، ولما سمع فرعون ما سمع قال : ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فبماذا تشيرون؟ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ ، أخرهما ولا تقتلها ، لأنك ان فعلت ذلك غضب الرأي العام ، وعرضت نفسك وسلطانك للتهديد والخطر ﴿وَأَرْسَلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ المدائن جمع مدينة ، والحاشرون الشرطة ﴿يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾. قال المؤرخون : ان أرض مصر كانت تموج بالسحرة على عهد الفراعنة ، وكان كهنة الديانات وسدنة الآلهة هم الذين يزاولون أعمال السحر ، قال العقاد في كتاب إبليس فصل الحضارة المصرية :

كان الفراعنة أنفسهم يلجئون إلى السحر لمغالبة الأرواح الخفية .. ولدينا من بقايا قصص السحر نخبه لم يتخيرها جامعو الآثار ، ولكنها اجتمعت لهم من حيث اتفق بين الانقراض والمحفورات ، وكلها تروي أعمال السحر في مجازاة الأشرار .. وكانوا يقسمون السحر إلى أقسام ، منها ما يستعان فيه بقدرة إله الخير على إله الشر ، ومنها ما يستعان فيه بقدرة الشيطان الكبير على الشياطين الصغار.

وانتشار السحر في عهد فرعون يفسر لنا عصا موسى ، ويؤيد المبدأ القائل : ان معجزة كل نبي تأتي من النوع السائد في عصره ، ليكون التحدي أبلغ في الحجة وقاطعا لكل عذر ، فموسى أبطل السحر لرواجه في عصره ، وعيسى أحيا الموتى ، ومحمد أخرس البلغاء للغاية نفسها من المشاهدة.

وجاء السحرة الآية ١١٣ . ١٢٦ :

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا نَنقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)﴾

اللغة :

استرهبوهم أي أرهبوهم وخوفوهم من أعمال السحر. وتلقف الشيء تناوله بحذق وسرعة. والإفك صرف الشيء عن وجهه ، ومنه الكذب. والمكر الخديعة ، ومنه مذموم إذا قصد به الشر ، ومنه ممدوح إذا كان وسيلة للخير ، ولا شائبة فيه للشر. وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، والعكس بالعكس.

الاعراب :

والمصدر المنسبك من إما أن تلقي وإما أن نكون مفعول لفعل محذوف ، أي اختر اما القاءك واما القاءنا. ان ألق ان مفسرة لأوحينا ، فهي هنا ترادف كلمة أي ، ويجوز أن تكون مصدرية على أن يكون المصدر المنسبك مجرورا بباء الجر المحذوفة أي وأوحينا باللقاء. وهنالك في محل نصب على الظرفية متعلقا بـغلبوا ، لأنه إشارة إلى المكان الذي غلبوا فيه. وصاغرين حال ، ومثلها ساجدين. ورب موسى وهرون بدل من رب العالمين. وما تنقم ما للاستفهام مع الإنكار ، ومحلهما الرفع بالابتداء ، وجملة تنقم خبر ، والمصدر المنسبك من ان آمننا مفعول تنقم أي لا تنقم منا إلا الإيمان.

المعنى :

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ، قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾. ان هؤلاء السحرة الذين ساوموا فرعون ضد موسى (ع) كانوا يمثلون الدين في عصرهم .. ولهم أشباه ونظائر في كل عصر ، يساومون على دينهم وضميرهم كل من يدفع الثمن .. ففي عصرنا هذا اشترى الصهاينة والمستعمرون الكثير من أرباب القلانس والعمائم ، ودفعوا لهم الثمن ، فقبضوا وتطوعوا يناصرون الاستعمار والاستغلال بالتمويه والتضليل ، وألفوا لهذه الغاية

الهيئات والجمعيات باسم الدين والمبادئ ، ولكن سرعان ما افتضحوا ، وصاروا سبة على لسان كل واع مخلص.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ خَنُ الْمُلقِينَ﴾. خيروه بين أن يبدأ ، أو يبدءوا ثقة منهم بسحرهم وقدرتهم على الغلبة ، وعدم مبالاهم بموسى (ع). وغريب قول الرازي : ان السحرة خيروا موسى تأديبا واحتراما. قال . موسى . ﴿أَلْقُوا﴾ مستخفا بهم وبسحرهم ﴿فَلَمَّا أَلْقُوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾. ونسبة السحر إلى الأعين دليل على ان سحرهم لا واقع له ، وإنما هو مجرد تمويه وتضليل ، واسترهبوهم أي ان سحرهم لا واقع له ، وإنما هو مجرد تمويه وتضليل ، واسترهبوهم أي ان السحرة خوفوا وأرهبوا النظارة ، وجاءوا بسحر عظيم في التمويه والتضليل ، لا في الحقيقة والواقع.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. خاف موسى أن يغتر الجاهلون بتمويه السحرة وتضليلهم ، فشد الله من عزمه ، وأوحى إليه انه معه ، وأن ما جاء به السحرة ليس بشيء ، وإنما هو افتعال وتزوير. وأمره أن يلقي العصا ، ولما ألقاها ابتلعت ما زوروا ، وأبطلت ما افتعلوا ، وظهر الحق عيانا للجميع. وذهل فرعون من هول الصدمة .. انه حشد الجماهير ، وأتى بالسحرة من كل مكان ليدعم بهم عرشه وسلطانه ، ويثبت للناس كذب موسى وافتراءه .. وإذا بالآية تنعكس رأسا على عقب ، ويؤمن الجميع بما فيهم السحرة بصدق موسى وأمانته ، وكذب فرعون وخيائته ﴿فَعُلبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾. بعد ذاك الزهو ، وتلك الكبرياء ، ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكان الخطب على فرعون بعض الشيء ولكنه فوجئ بما هو أدهى وأمر ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ، قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾. هؤلاء هم السحرة الذين تحدى بهم فرعون موسى وهرون يستسلمون طائعين ، ويسجدون لرب العالمين رب موسى وهرون ، لا لفرعون الذي جاء بهم لإبطال دعوة الله والحق.

وتسأل : ما هو القصد من قول السحرة : رب موسى وهرون ، مع العلم بأن قولهم : آمنا برب العالمين يغني عنه؟.

الجواب : ان فرعون كان يقول للناس : ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى .. مَا عَلِمْتُ

لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي . ولو اكتفى السحرة بقولهم : رب العالمين لدّسّ فرعون وحرف ، وقال : اياي يعنون رب العالمين ، فقطعوا الطريق على تدليسه وتحريفه بقولهم : رب موسى وهرون .

حول السحر :

في المجلد الأول ص ١٦٤ تكلمنا عن السحر بعنوان السحر وحكمه ، وقلنا فيما قلنا : نحن مع الذين لا يرون للسحر واقعا ، وأقمنا الدليل على ذلك ، ونعطف الآن على ما سبق ما يلي :

ان قوله تعالى : سحروا أعين الناس دليل واضح ان السحر لا واقع له ، وانه شعوذة وتمويه ، أما قوله سبحانه : وجاءوا بسحر عظيم فمعناه ان ما جاءوا به عظيم في ظاهره ، وفي أعين الناس ، وانهم قد بلغوا النهاية في الشعوذة والتزوير ، ويوضح هذا المعنى ويؤكداه الآية ٦٦ من سورة طه : **﴿فَإِذَا جِئْتُمْ بِهِمْ يَخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَى﴾** . انها لا تسعى حقيقة وواقعا ، بل توهمها وتخيلها .. وعن الرسول الأعظم (ص) : من مشى الى ساحر أو كاهن أو كذاب يصدقه فقد كفر بما أنزل الله .

وقال كثير من المفسرين : ان سحرة فرعون احتالوا لتحريك الحبال والعصي بما جعلوا فيها من الزئبق حتى تتحرك بحرارة الشمس .. وأيا كان السبب فنحن نؤمن إيمانا لا يشوبه ريب بأن الساحر كذاب لا يصدقه إلا مغفل ، وان ما أتى به سحرة فرعون ، ويأتي به الهنود وغير الهنود من الأعمال المدهشة لها سبب من غير شك ، ونحن وان كنا نجهل نوع هذا السبب فاننا نعلم علم اليقين بأنه لا يغير الواقع ، ولا يبدل منه شيئا ، والا استطاع الساحر أن يدفع عن نفسه الضر ، ويملك لها النفع ، ويحكم العالم بأسره بمجرد ارادته وتمتماته ، وكان شريكا لله في ملكه تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ . رأيت الى هذا المنطق؟ انه يريدهم أن

يستأذنوه في شئون قلوبهم من الإيمان والحب والبغض .. ولا انسان

في الكون له سلطان على قلبه ، ولكنه منطق الطغاة ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ . يوجه فرعون بقوله هذا التهمة إلى السحرة بأن إيمانهم بموسى لم يكن عن حجة واقتناع ، وإنما هو مجرد حيلة وخديعة تواطؤوا عليها مع موسى من قبل ، وإن الغاية من هذا التواطؤ إخراج الحاكمين من مصر وانتزاع الملك منهم .. قال هذا فرعون ، وهو يعلم انه كاذب في قوله ، ولكن أراد التمويه على الناس خوفاً أن ينتقضوا عليه ، ويؤمنوا بموسى ، ولكن الناس يعلمون ان السحرة كانوا يؤهلون فرعون ، ويمكنونه من رقاب العباد باسم الدين ، وإن السحرة لم يؤمنوا الا عن بصيرة واقتناع ، وأيضا يعلم الناس ان موسى لم يجتمع بواحد من السحرة ، لأن فرعون جمعهم من هنا وهناك .

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ . هذا هو سلاح الطغاة في مواجهة الحق ، قال المسعودي في مروج الذهب : جمع معاوية الناس في سنة ٥٩ هـ ليبيعوا ولده يزيد ، فقام رجل من الأزد خطيبا ، وقال : ان مات هذا . مشيرا الى معاوية . فهذا مشيرا إلى يزيد ، ومن أبى فهذا ، وهز السيف . فقال له معاوية : اقعد أنت من أخطب الناس .

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ . افعل ما شئت فلا نأبه بك ولا بقتلك فنحن على يقين من لقاء ربنا وعدله .. وكل من يؤمن بلقاء الله يقف هذا الموقف ، بل يرى الاستشهاد سعادة ووسيلة لمرضاة الله وثوابه ، أما الذين يخافون الموت في سبيل الله ، ويتهربون منه فهم يؤمنون بلقاء الله نظريا فقط ، أما عمليا فإنهم به كافرون .

﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا﴾ . ان قولهم هذا يتضمن التهديد لفرعون ، لأن معناه انك لا تنقم منا نحن ، وإنما أنت تنقم من الله ورسوله بالذات ، لأنه لا ذنب لنا إلا الإيمان بالله ورسوله موسى : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ . ٦٤ التوبة .

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ . في هذا الموقف يحمد الصبر على القتل والتعذيب

لأنه في سبيل الله ، وقد سألوا الله سبحانه ان يرزقهم هذه الفضيلة خوفا أن تنهار أعصابهم ،
وتتلاشى عزائمهم ان أحسوا بوقع السيف في أجسادهم.
﴿وَتَوْفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ لك ولنبيك راضين بالتعذيب والتنكيل في سبيلك.

انذر موسى وقومه الآية ١٢٧ . ١٢٩ :

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ
قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا
بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا
مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمَنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)﴾

المعنى :

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾. بعد ان انفض
ذلك المشهد الرهيب الذي انتصر فيه موسى ، وافتضح فرعون مضى موسى يدعو إلى عبادة
الله وحده ، ودليله ما حدث بالأمس بينه وبين السحرة ، فاجتمع حوله خلق كبير ، فخاف
الأشراف من قوم فرعون أن تتغير الأوضاع ، وتدور الدائرة عليهم وعلى سيدهم فحرضوه
على موسى ، وقالوا : إلى متى تسكت عن موسى ، وتدعه يفسد في الأرض؟. وهم يريدون
بالإفساد في الأرض عبادة الناس لله وحده التي تؤدي بطغيانهم وطغيان فرعون.

﴿وَيَذَرُكَ أَهْلُكَ﴾. ان هذا القول من الملأ لفرعون يدل على انه كان له آلهة يعبدوها ، وهو يتنافى بظاهره مع قول فرعون : ما علمت لكم من إله غيري .. أنا ربكم الأعلى ، وأجاب المفسرون بأجوبة أرجحها انه كان لفرعون آلهة يزعم انه الابن الحبيب لها ، وانه يستمد منها حكمه وسلطانه ، فقوله : ما علمت لكم إلهاً غيري يريد به انه لا حاكم للمصريين باسم الإله والرب إلا هو وحده لا شريك له ، ويؤيد هذا المعنى قوله : ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَمْثَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾. ٥١ الزخرف.

﴿قَالَ سَنَقْتِلَ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾. كان فرعون قبل ولادة موسى يقتل الذكور من نسل بني إسرائيل ، ويستبقي الإناث ، ولما حرضه الأشراف من قومه على موسى أجازهم بأنه سيعيد فيهم سيرته الأولى من قتل الأبناء واستبقاء النساء ، حتى ينقرضوا ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾. أي انه قادر عليهم الآن كما كان قادراً عليهم من قبل موسى.

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. لما سمع بنو إسرائيل تهديد فرعون ووعيدة جزعوا فسكنهم موسى (ع) ، وأمرهم بالصبر والتوكل على الله ، ومناهم بالنصر إذا هم صبروا واثقوا ، لأن الأرض والملك لله لا لفرعون ، والله مع المتقين.

﴿قَالُوا أَوَدِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾. كان فرعون يضطهد بني إسرائيل قبل مجيء موسى ، وأوغل في اضطهادهم بعد مجيئه ، ولما قالوا ذلك لموسى ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. ان موسى على علم اليقين انه سيهلك فرعون ، وانه سيمن على بني إسرائيل بالنجاة منه ، ويمكن لهم في الأرض ، وعبر عن ذلك بالرجاء دون الجزم لئلا يتكلوا على وعده .. ثم أوماً موسى (ع) إلى قومه انه ليس المهم أن يهلك الله عدوهم ويستخلفهم في الأرض ، وانما المهم أن يتقوا الله ، ويحسنوا خلافتهم في أرضه ، فينظر أيصلحون أم يفسدون؟ .. وقد عملوا الكثير في الأرض ، حيث قتلوا الأنبياء والمصلحين من قبل ، وأقاموا دولة من بعد لا شريعة لها إلا شهوة القتل والتشريد.

في هذه السنة ١٩٦٨ صدر كتاب في إسرائيل ، اسمه سياخ لوخاميم أي أحاديث الجنود ، ترجمت جريدة الأهرام بعض ما جاء فيه في عدد ٢٣ / ٨ / ٦٨ ، من ذلك :
من لا يستطيع أن لا يقتل أولاً يدمر بيتا وينسفه على من فيه فالأفضل له أن يقعد في بيته ، ان الحركة الصهيونية تقوم على هذا الأساس ، عند ما جئنا إلى أرض فلسطين كان هناك شعب آخر يسكنها ويعيش فيها ، ولم يكن لنا أن نتوقع انه سوف يترك مزارعه وبيوته لنا بالرضى والقبول ، فكان لا بد أن نقتلهم لنأخذ البيت والمزرعة ، أو نخيفهم بالقتل لكي يهربوا ، ويتركوا لنا البيت والمزرعة.

هذه هي شريعة إسرائيل ، وهذا هو هدفها : القتل والتشريد .. انها ليست مجرد دولة كغيرها من الدول ، وانما هي عصابة مسلحة صهيونية استعمارية تهدف إلى قتل أو تشريد أصحاب البيوت والمزارع من النيل إلى الفرات لتحتل بيوتهم ومزارعهم .. فماذا أعد لها العرب؟. لا وسيلة ولا حل إلا المبدأ الفيتنامي القائل : اما الموت ، واما الحياة ، اما لا إسرائيل تقتل وتشرد ، واما لا عرب إطلاقاً على سبيل مانعة الجمع.

ولقد أخذنا آل فرعون الآية ١٣٠ . ١٣٣ :

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) ﴿١٣٣﴾

اللغة :

الأخذ هو التناول باليد ، والمراد به هنا الابتلاء. والسنة تطلق على الحول ، وتطلق على الجذب ، يقال : أسنت القوم إذا أجدبوا ، وهذا المعنى هو المراد في الآية. والتطير التشاؤم. والمراد بطائرهم نصيبهم الذي قدر لهم.

الاعراب :

يطيروا أصلها يتطيروا فأدغمت التاء بالطاء ، وبه عائد إلى مهما. ومؤمنين الباء زائدة ، ومؤمنون خبر لنحن. وآيات حال من الأشياء المذكورة.

المعنى :

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾. كانت مصر تفيض بالخصب والعطاء ، وقد فاخر فرعون بخصبها هذا ، حيث قال : ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾. وقال المتنبي عن ثعالبها : فقد بشمن وما تفنى العناقيد. وأخذها الله بالجذب وضيق العيش على عهد فرعون موسى ليرعوي عن غيه ، ويستجيب لدعوة الحق .. وفي بعض الروايات إذا جار الولاة حبس المطر. وسواء أكان هناك علاقة بين ظلم الوالي والجذب على وجه العموم أم لم يكن ، فإن الله عاقب آل فرعون لظلمهم لعلهم يذكرون قبل أن يقذف بهم في أعماق اليم.

﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ

مَعَهُ ﴿﴾ معه. بهذا المنطق يفسرون الأحداث .. كل ما أصابهم من خير فهم مستحقون له ، لأنهم يتحكمون في رقاب العباد ، وكل ما أصابهم من سوء فسببه من يدعوهم الى الحق ، أما الله والطبيعة التي خلقها الله فبمعزل عن الخصب والجذب ، فرد الله عليهم بقوله : ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. طائرهم كناية عما أصابهم من الجذب ، وانه بارادة الله التي تنتهي اليها جميع الأسباب ، وان تطيرهم بموسى خرافة وجهل.

وتسأل : لما ذا قال الحسنة بالتعريف وقال سيئة بالتنكير؟.

الجواب : غير بعيد أن يكون تعريف الحسنة اشارة إلى أن خير الطبيعة كالخصب ونحوه كثير ، وان تنكير السيئة اشارة الى ان شرها كالزلازل والظوفان قليل.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾. هذا اعتراف صريح بأنهم يرفضون الحق ، وفي الوقت نفسه اعتراف بالعجز عن مواجهته بالحجة والبرهان .. فكان جزاء عنادهم هذا ان ابتلاهم الله بخمسة أنواع من العذاب :

١. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ من مطر السماء ، فأغرق الزرع وأهلك الضرع.

٢. ﴿وَالْجَرَادَ﴾ جاء بعد الطوفان بطبيعة الحال ، وأكل البقية الباقية من كلاًهم

وزرعهم.

٣. ﴿وَالْقُمَّلَ﴾ بضم القاف وتشديد الميم دواب صغار كالقردان تركب البعير الهزيل ، ويفتح القاف وتخفيف الميم القمل المعروف ، وكلاهما ينزل البلاء ، وينشر الوباء.

٤. ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾ تنغص عليهم الحياة.

٥. ﴿وَالدَّمَ﴾. قيل : تحول ماؤهم إلى دم ، ولم يقدروا على الماء العذب ، وقيل :

أصيبوا بمرض الرعاف.

ولما وقع عليهم الرجز الآية ١٣٤ . ١٣٧ :

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)﴾

اللغة :

الرجز الانحراف عن الحق ، ومنه والرجز فاهجر . ونكث العهد نقضه . واليم البحر .
يعرشون ان أخذ من العرش فمعناه البناء ، وان أخذ من العرش فمعناه الكروم .

الإعراب :

إذا هم إذا للمفاجأة . وأورثنا يتعدى الى مفعولين لمكان الهمزة ، الأول القوم ، والثاني
مشارك الأرض . وما كان يصنع ما بمعنى الذي ، واسم كان ضمير مستتر يعود الى ما .

المعنى :

ذكر سبحانه في الآية السابقة انه ابتلى آل فرعون بخمسة أنواع من العذاب ، وكانوا كلما نزل بهم نوع منه يتوسلون بموسى في الكشف عنهم لكرامته عند الله ، ويقطعون العهود على أنفسهم انه إذا فعل استجابوا لدعوة الحق ، وكان سبحانه يكشف العذاب عنهم إلى أجل معلوم ليمهد لهم سبيل التوبة ، و يقيم عليهم الحجة ، ولكنهم كانوا ينكثون العهد ولا يفون بما يقولون ، فينزل الله العذاب الثاني ، فيعودون إلى التضرع والتوسل ، ويعود سبحانه إلى الكشف عنهم ، وهكذا إلى العذاب الخامس ، أو التجربة الخامسة ، ولا شيء بعدها إلا الأخذ الحاسم ، فانتقم الله منهم ، وألقاهم في أعماق البحر .

وبعد أمد طويل من إغراق فرعون ، ووفاة موسى وهرون خرج من بني إسرائيل داود وسليمان (ع) ، وأوجدا دولة لها حدودها شرقا وغربا .. ولكن سرعان ما ذهبت ، وحكم رقاب الإسرائيليين بخت نصر ، ثم الفرس ، ثم خلفاء الإسكندر ، ثم الرومان .

وجاوزنا بني اسرائيل البحر الآية ١٣٨ . ١٤١ :

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنَجْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)﴾

اللغة :

تجاوز الشيء تعداه. وعكف عليه واطب عليه ولزمه. والتبار والتبر الهلاك ، والتتبير الإهلاك والتدمير.

الإعراب :

قال الزمخشري والبيضاوي : ان ما في ﴿كَمَا هُمْ﴾ كافة للكاف عن العمل. وما هم فيه ما بمعنى الذي فاعل متبر ، وهم فيه مبتدأ وخبر ، والجمله صلة الموصول. وما كانوا يفعلون ما فاعل لباطل. وابغي تتعدى إلى مفعولين الأول ضمير المخاطبين كم والثاني إلهما ، وغير الله حال مقدم من إله.

المعنى :

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ هُمْ يَقُولُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا هُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾. جاء في بعض الروايات ان موسى بقي ثلاثة وعشرين عاما يجاهد فرعون من أجل كلمة التوحيد وتحرير بني إسرائيل من الاضطهاد ، وقد شاهدوا المعجزات الباهرة التي ظهرت على يد موسى ، وأخيرا رأوا انفلاق البحر بضربة من عصا موسى ، وكيف جعل منه اثني عشر طريقا ييسر لكل سبط من بني إسرائيل طريق معلوم ، وأيضا رأوا كيف انطبق البحر على فرعون وجنوده ، شاهدوا ذلك كله ، وقبل أن تمضي فترة ينسون فيها ما رأوه من المعجزات وقعت أبصارهم على قوم وثنيين يعبدون الأصنام ، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم صنما يعبدونه ، طلبوا هذا ، وهم يعلمون ان موسى رسول الله ، وان مهمته الأولى الدعوة الى التوحيد ، ومحاربة الشرك ، ويعلمون أيضا ان الله أغرق فرعون وجنوده لشركه ، قال بعض المفسرين : لو انهم بأنفسهم اتخذوا لهم آلهة لكان الأمر أقل غرابة من أن يطلبوا إلى رسول رب العالمين أن يتخذ لهم آلهة ، ولكنما هي إسرائيل.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرِّ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. بدأ موسى (ع) جوابه لقومه بأنهم من أهل الحماقة والجهالة ، وثنى بإخبارهم ان نهاية المشركين وعبداء الأوثان إلى الخسران والهلاك.

﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِهَاءً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾. مر تفسيره في الآية ٤٧ من سورة البقرة ج ١ ص ٩٥. وعلى أية حال ، فإن تفضيلهم على فرعون وقومه لا يعد منقبة وفضيلة.

﴿وَإِذْ أَجْبَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾. تقدم نظيره في الآية ٤٩ من سورة البقرة ج ١ ص ٩٩.

وواعدنا موسى ثلاثين ليلة الآية ١٤٢ . ١٤٥ :

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً

وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكِ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

اللغة :

المِيقَاتِ الوقت المعين الذي يقرر فيه عمل من الأعمال. واخلفني أي كن خليفتي من بعدي. وتجلي الشيء ظهوره بنفسه أو بآثاره ودلائله. وخرّ سقط. وصعقا : مغشيا عليه.

الإعراب :

ثلاثين ليلة مفعول ثانٍ لواعدنا على حذف مضاف أي تمام ثلاثين. وأربعين ليلة متعلق بمحذوف حالا من مِيقَاتِ ، أي كاملاً أربعين ليلة. وهرون بدل من أخيه. ودكا مفعول ثانٍ لجعله. وصعقا حال من موسى. وموعظة وتفصيلاً بدل من كل شيء على المحل ، لأن كل شيء مفعول أو بمعنى المفعول لكتبتنا ، ولأن المراد بكل شيء عموم الموعظة وتفصيل الأحكام.

المعنى :

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتَمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾. طلب موسى (ع) من ربه أن ينزل عليه كتاباً يهدي الناس به إلى ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ، فوعده سبحانه أن ينزل عليه الكتاب بعد ثلاثين ليلة ، ويستمر إنزاله عشر ليال ، فيكون المجموع من أمد الوعد وأمد الانزال أربعين ليلة ، فصلّها هنا ، وأجملها في الآية ٥١ من سورة البقرة ، حيث قال : ﴿وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾. لما

ذهب موسى (ع) استخلف أخاه هرون على بني إسرائيل ، ونصحه أن يقوم على شئوهم ويصلح أمورهم ، وحذره من طبيعتهم التي هي إلى الفساد أميل ، فبالأمس القريب اشرأبت نفوسهم إلى عبادة الأوثان ، وقال لهم موسى : انكم قوم تجهلون كما سبق في الآية ١٣٨ . فتقبل هرون النصيحة عن طيب خاطر ، كما يتقبلها المرءوس المخلص من رئيسه الناصح الأمين.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ الذي وقته سبحانه لاعطاء التوراة ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ من

وراء حجاب : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾

. ٥١ . الشورى ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾. قال بعض العلماء : ان موسى لم يسأل رؤية الله

من أجل نفسه ، وإنما سألها من أجل قومه. وهذا القول يتنافى مع قول موسى : ﴿سُبْحَانَكَ

تُبْتُ إِلَيْكَ﴾. ومهما يكن ، فان موسى قد طلب الرؤية ، سواء أكان من أجله أم من

أجلهم .. ونحن لا نرى أي بأس في هذا الطلب ، فان نفس الإنسان تتشوف إلى ما يكون

وإلى ما لا يكون ، بخاصة إلى الرؤية التي تزيد النفس اطمئنانا وتأكيدا ، وقد طلب ابراهيم

(ع) ما يشبه ذلك : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تَأْمِنُ قَالَ بَلَى

وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾. ٢٦٠ البقرة.

﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾. لأن رؤية الله بالبصر محال ، وتكلمنا عن ذلك مفصلا عند تفسير

الآية ٥١ من سورة البقرة ج ١ ص ١٠٢ فقرة رؤية الله ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ

مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾. تلفت موسى إلى الجبل ليرى الله فإذا به قد غار في الأرض ، ولم يبق

له عين ولا أثر. وقد أراد الله بهذا أن يفهم موسى (ع) ان رؤية الله ممتنعة عليه وعلى غيره ..

علق سبحانه إمكان رؤيته على استقرار الجبل ، والمفروض انه لم يستقر ، اذن ، فالرؤية ممتنعة

وغير ممكنة .. وهذا الأسلوب من باب افعل هذا إذا شاب الغراب ، وإذا دخل الجمل في

سم الخياط.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾. أي فلما ظهر أمر ربه ، تماما كقوله تعالى :

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي جاء أمر ربك ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾. غاب عن وعيه

لهول المفاجأة ، فلطف الله به وشمله برحمته ، فأفاق

من غشيته ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من سؤالي رؤيتك ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأنك أعظم من أن ترى بالعيان. وليس المراد انه أول المسلمين بحسب الزمان ، وإنما المراد الثبات والتأكيد على الإسلام.

﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾. بعد أن تضرع موسى (ع) إلى خالقه ذكره الله بنعمه وأعظمها النبوة والتكليم ، والمراد بالناس ناس زمانه بدليل قوله : ﴿بِرِسَالَتِي﴾ فان الله قد اختار رسلا كثيرين قبل موسى وبعده ، أما تخصيصه بالتكليم فلا دلالة فيه على الأفضلية ، وان دل على الفضل ، فان إرسال الروح الأمين الى خاتم الرسل وسيد النبيين هو أعلى المراتب وأفضلها على الإطلاق.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾. المراد بالألواح التوراة لأنها هي التي أنزلها على موسى ، وفيها الموعظة وتفصيل الأحكام. وكل شيء لفظ عام ، والمراد به خاص ، وهو ما يتعلق بموضوع الرسالة من المواعظ والحكم ، وأصول العقيدة كالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، والأحكام الشرعية كالحلال والحرام ، فقوله : ﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا﴾ هو بيان وتفسير لقوله : ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لأن المراد بالتفصيل بيان الأحكام الشرعية. ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي حافظ على التوراة ، واعمل بها بنية صادقة.

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾. كل ما أنزل الله في كتابه فهو حسن ، ولكن منه الأحسن ، قال تعالى : ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾. ثم قال . ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. ١٩٤ البقرة. وقال : ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾. ٤٥ المائدة. أي من تصدق بالقصاص.

﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾. أي على الفاسق والباغي تدور الدوائر. هذا ما فهمته من هذه الجملة قبل أن أرجع الى التفاسير ، وبعد الرجوع اليها وجدت أقوالا في تفسيرها ، ومنها ان الله سيربهم دار فرعون وقومه بعد إهلاكهم. ومنها انه سيربهم أرض الشام التي كانت في ذاك الزمان بقبضة الوثنيين.

سأصرف عن آياتي الآية ١٤٦ . ١٦٩ :

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَاهُمُ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيْيِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)﴾

اللغة :

كل من لا يخضع للحق فقد تكبر عليه. والحلي بضم الحاء وتشديد الياء جمع حلى بفتح الحاء وتخفيف اللام. والخوار صوت البقر. وسقط وأسقط في يده كناية عن الندم.

الإعراب :

جسدا صفة لعجل ، أي مجسدا ، وليس رسما بالألوان ، وقيل : بدل منه ، والمعنى واحد.

المعنى :

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾. المتكبرون في الأرض هم الذين يعاندون الحق ، ولا يخضعون لسلطانه ، وقوله : ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ للتوضيح ، لا للاحتراز تماما مثل ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾. أما آيات الله فيطلقها القرآن تارة على الآيات المبينة لأصول العقيدة وأحكام الشريعة ونحوها ، وتطلق تارة على الحجج والدلائل المثبتة للألوهية والنبوة ، فإن تكن الأولى هي القصد في الآية التي نفسرها فالمعنى ان الله سبحانه يحفظها ويصونها من يد التحريف ، تماما كقوله : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. ٩ الحجر. وان تكن الثانية أي الدلائل والبيّنات فالمعنى ان المعاندين بعد أن أعرضوا عنها ورفضوا الإصغاء اليها فإن الله سبحانه يدعهم وشأنهم ، ولا يلجئهم إلى الإيمان بها إجماء ، وتقدم الكلام عن ذلك مرات ، منها عند تفسير الآية ٨٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٩٩ فقرة الإضلال من الله سلمي لا إيجابي.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾. هذا بيان لحقيقة المتكبرين ، وللسبب الموجب لتكبرهم أيضا ، أما حقيقتهم فهي انهم لا يرتدعون عن غي ، ولا يميلون إلى رشد ، أما السبب الموجب فهو ان الله سبحانه قد جاءهم بالحجج والبراهين ، وطلب اليهم أن ينظروا اليها ويتدبروها ويعملوا بموجبها ، فرفضوا وأصروا على الاعراض وعدم النظر .. ولو انهم استجابوا ودرسوا تلك الدلائل لأدى بهم الدرس والنظر الى الإيمان والاعتراف بالحق ، ولم يتكبروا ويفسدوا في الأرض.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. كل من لا يؤمن بالله ولقاء ربه فهو من الهالكين غدا ، ويذهب ما كان يفاخر به ويكاثر سدى وهباء جزاء على كفره وعناده .. وأعجبني ما قاله هنا بعض المفسرين غفر الله له ، وشمله برحمته ، ولذا أنقله بالحرف ، قال : حبوط الأعمال مأخوذ من قولهم : حبطت الناقة إذا رعت نباتا ساما ،

فانتفخ بطنها ثم نفقت ، وهو وصف ملحوظ في طبيعة الباطل يصدر من المكذبين بآيات الله ولقاء الآخرة ، فالمكذب ينتفخ حتى يظنه الناس من عظمة وقوة ، ثم ينفق كما تنفق الناقة التي رعت ذلك النبات السام.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلاً لَّهُ خُوارٌ﴾. تقدم في الآية ١٤٢ ان موسى (ع) ذهب لميقات ربه ، وانه استخلف على قومه أخاه هرون ، وأيضا تقدم في الآية ١٣٨ أن بني إسرائيل بعد أن تجاوزوا البحر طلبوا من موسى أن يجعل لهم صنما يعبدونه ، لا لشيء إلا لأنهم رأوا عبدة الأصنام ، وما أن غاب موسى حتى اغتنموا فرصة غيابه ، فجمع السامري حلي النساء ، وصنع منها عجلا ، وجعله على هيئة بحيث يخرج منه صوت الثيران ، وقال لهم : هذا إلهكم وإله موسى ، فتهافتوا على عبادته ، ونهاهم هرون ، ولكنه لم يملك ردهم عن الضلال ، ولم يستجب له إلا قليل منهم. وتقدمت الإشارة إلى ذلك في الآية ٥١ من سورة البقرة ج ١ ص ١٠٢. وأيضا يأتي الكلام عنه .. وهذه الآية تغرز ما كررناه في المجلد الأول والثاني من ان إسرائيل لا تثبت إلا على مبدأ الشهوات والأهواء ، ان صح ان تكون الأهواء مبدأ.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾. هذا هو منطق الفطرة والعقل الذي يأبى أن يعبد الإنسان إلها من صنع يده .. ولكن ما لاسرائيل والعقل والفطرة والدين؟.

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. هذه هي المنقبة الوحيدة والأولى والأخيرة التي سجلها القرآن لاسرائيل من حيث هي وعلى وجه العموم ، وبصرف النظر عن القلة القليلة التي آمنت منهم بموسى وثبتت معه حتى النهاية .. وقد استظهر بعض المفسرين من توبة بني إسرائيل انه كان فيهم آنذاك بقية من الاستعداد للصالح ، ثم ذهب هذه البقية ، ولم يبق أي أثر فيهم للاستعداد إلى الخير. وهذا الاستظهار غير بعيد ، وتومئ اليه الآية ٧٤ من سورة البقرة : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ وهذه الآية بالذات نزلت بعد قصة ذبح البقرة ، وهذا الذبح متأخر عن عبادتهم العجل.

ولما رجع موسى الى قومه الآية ١٥٠ . ١٥٤ :

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشِمْتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبَ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)﴾

اللغة :

تأتي أسف بمعنى غضب ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾. وتأتي بمعنى حزن ، ومنه ﴿وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ وهذا هو المراد من الآية. والشماتة الفرح بالمصيبة ، ولا تكون إلا من العدو. وفي نسختها أي ما نسخ وكتب منها.

الإعراب :

غضبنا حال من موسى ، وأسفا حال ثانية. ابن أم قرئ بفتح الميم على

أن تكون ام وابن بمنزلة خمسة عشر ، وقرئ بكسر الميم ، والكسرة تدل على الياء المحذوفة لأن الأصل يا ابن أُمي. والذين عملوا السيئات مبتدأ ، والخبر جملة ان ربك من بعدها لغفور رحيم. واللام في لربهم تقوية لوصول الفعل إلى مفعوله ، مثل للرؤيا تعبرون.

المعنى :

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾. حين كان موسى على الطور يناجي ربه أخبره المولى جل ثناؤه بأن قومه قد عبدوا العجل من بعده ، كما دلت الآية ٨٧ من طه : ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ .. وظهر هذا الغضب بقوله : ﴿بَنَسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾. تركهم على التوحيد ، ولما عاد وجدهم على الشرك .. أما أمر ربهم الذي لم يصبروا له فهو انتظار موسى أربعين ليلة ، ويدل هذا على قول موسى لهم كما في سورة طه : ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾؟ وكما بدا غضبه في قوله فقد بدا أيضا في فعله ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾. قال جماعة من العلماء : ألقى موسى التوراة ، وفيها اسم الله ، وأخذ برأس أخيه هرون ، وهو العبد الصالح الطيب ، وموسى معصوم فكيف حدث منه ذلك؟ .. وبعد هذا التساؤل أخذوا يؤوّلون ويعلّلون.

أما نحن فلا نؤوّل ولا نعلل ، بل نبقي الكلام على ظاهره ، لأن العصمة لا تحوّل الإنسان عن طبيعته ، وتجعله حقيقة أخرى ، ولا تسلبه صفة الرضا والغضب ، بخاصة إذا كان لله ، وبصورة أخص إذا فوجئ بما فوجئ به موسى (ع) ، فلقد لبث في قومه عمرا يلقنهم التوحيد ، ويؤدّبهم على دين الله ، حتى إذا اطمأن الى إيمانهم جابهوه بالردة والشرك ، دون أي سبب موجب.

وقال آخرون : ان موسى كان حديدا ، أما هرون فكان لنا .. ونقول : ان موسى كان شديد العزيمة ، قوي الارادة ، عظيم الثقة بنفسه ، وكان هرون دونه بمراحل ، على صلاحه وفلاحه ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا

يَقْتُلُونِي فَلَا تُشِمْتُ فِي الْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. يريد بالأعداء الذين عبدوا العجل ، لأنهم اتخذوا هرون عدوا ، وأرادوا قتله حين نهاهم عن الشرك وعبادة العجل ، فكأنه يقول لأخيه موسى : أتكون عليّ مع أعدائي وأعدائك ، فتأخذ برأسي ولحيّتي أمامهم ليشتمتوا بي؟ وكيف تغضب مني كغضبك منهم ، وأنا بريء منهم ومن أفعالهم ، ووقفت منهم موقف المعارض والمفند ، ولم أقصّر بما وجب عليّ من النصح والتحذير.

وهنا يلين موسى (ع) ، وتأخذه عاطفة الرحمة والأخوة ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. استغفر لنفسه لما كان من قسوته مع أخيه ، واستغفر لأخيه مخافة تقصيره في هدايتهم وردعهم عن الشرك والارتداد .. وليس من شك ان الله قد استجاب لدعوة موسى (ع) لأنه أرحم الراحمين ، ولعلمه بإخلاص موسى وهرون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾. وتساءل : تدل هذه الآية بظاهرها على ان الذين اتخذوا العجل قد غضب الله عليهم ، وأذلهم في الحياة الدنيا الى يوم يبعثون ، مع العلم بأنهم تابوا واستغفروا الله وسألوه الرحمة كما نصت الآية السابقة ١٤٩ . والله سبحانه هو القائل : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . ١١٩ النحل. اذن كيف لزم الغضب الأبدي واللعنة الدائمة من تاب عن عبادة العجل؟.

وأجاب البعض بأن الذين عبدوا العجل انقسموا بعد رجوع موسى اليهم إلى فرقتين : فرقة تابت توبة صحيحة ، وهؤلاء قد غفر الله لهم. وفرقة أصرت واستمرت على الشرك كالسامري وأشياعه ، وهؤلاء هم الذين غضب الله عليهم وأذلهم في الحياة الدنيا. ويلاحظ بأنه لا شيء في الآية يدل على هذا التقسيم .. وأنسب الأجوبة ان الله قد علم ان اليهود لا يتوبون ولن يتوبوا أبدا عن الضلال واتباع الشهوات توبة خالصة ، لا ردة بعدها ، ويدل على هذه الحقيقة طبيعتهم وسيرتهم ، فإنهم كانوا وما زالوا لا يزدجرون من الله والضمير بزاجر ، ولا يرتدعون عن الضلال والفساد برادع إلا القوة وحدها.

سؤال ثان : ان ليهود اليوم دولة باسم إسرائيل .. وبها زالت عنهم الذلة في الحياة الدنيا ، وهذا يتنافى مع ظاهر الآية؟.

الجواب : كلا ، وألف كلا ، ما قامت ولن تقوم أبدا دولة اليهود ، تماما كما سجل الله في كتابه الحكيم .. أما إسرائيل فليست دولة كغيرها من الدول ، وإنما هي عصاة مسلحة ، تماما كجيش المرتزقة .. أوجدتها الاستعمار لحماية مصالحه وضرب القوى الوطنية ، وليس لها من الدولة إلا الاسم ، وقد أثبتنا ذلك عند تفسير الآية ١٠٩ من آل عمران ، وغيرها في المجلد الأول والثاني من هذا التفسير ، وفي كتاب من هنا وهناك فصل : باع دينه للشيطان ، وغيره من الفصول.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
معنى الآية واضح ، وتقدم نظيرها أكثر من مرة ، والقصد من ذكرها بعد الآية السابقة هو التأكيد بأن من تاب وأتاب مخلصا ، ولم يعاود المعصية كما يفعل بنو إسرائيل فان الله سبحانه يرحمه ويغفر له اسرائيليا كان أو قرشيا.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.
ان موسى نبي معصوم ، ما في ذلك ريب ، ولكنه انسان يحزن ويفرح ، ويرضى ويغضب .. وقد تملكه الغضب حين فوجئ بارتداد قومه عن دين الله ، وتركه الغضب حين استعطفه أخوه هرون ، ووعد الله بالانتقام من المرتدين ، وبعد أن عاد موسى (ع) إلى وضعه الطبيعي عاد الى الألواح التي ألقاها حين غضبه ، واطمأن إلى ما فيها من الهدى لمن يتفتح قلبه للخير ، وإلى ما فيها من الرحمة لمن يخشى نقمة الله وعذابه .. ان حكمة الله جل ثناؤه اقتضت أن يهب الرضوان والرحمة لكل من أطاعه مخافة نقمته ، وان ينزل النعمة والعذاب بكل من عصاه اتكالا على رحمته.

ان هي الا فتنتك الآية ١٥٥ . ١٥٧ :

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ

رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ أَهْلَكْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَكَتُبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَجِئُوا هُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

اللغة :

المراد بالفتنة هنا العذاب ، ويأتي البيان ، وهدنا اليك أي تبنا اليك. والإصر الثقل الذي يمنع حامله من الحركة. والأغلال جمع غل بالضم حديدة تجمع يد الأسير أو الجاني إلى عنقه. والمراد بها هنا المشقة. والمراد بالتعزير الإعانة والتوقيف.

الاعراب :

قومه منصوب بنزع الخافض ، أي واختار من قومه. وسبعين مفعول اختار.

ورجلا تمييز. ولو شئت مفعول شئت محذوف أي لو شئت إهلاكنا. وأهلكتهم جواب لو ، وإياي معطوف على الضمير المنصوب في أهلكتهم. وان هي ان نافية بمعنى ما ، وهي ضمير عائد الى الرجفة. والذين يتبعون الرسول بدل من للذين يتقون.

المعنى :

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾. لقد أطل المفسرون الكلام حول هذه الآية ، وتضاربت أقوالهم في تفسيرها. فاختلفوا في بيان الميقات هل هو ميقات نزول التوراة أو غيره؟ وأيضا اختلفوا لما ذا اختار موسى من قومه سبعين رجلا للخروج الى الميقات : هل لأنهم اهتموا موسى ، وقالوا له : لن نؤمن لك حتى نسمع كلام الله كما سمعته أنت ، فصحبهم معه ليسمعوا كما سمع ، أو لسبب آخر؟ وأيضا اختلف المفسرون في السبب الذي من أجله عاقبهم الله. وبالتالي اختلفوا : هل أدت الرجفة بهم الى الموت ، أو انها كادت أن تقصم ظهورهم ، وتقطع مفاصلهم ، ولم تبلغ بهم الى الموت.

وليس في الآية أية اشارة الى شيء مما اختاره جماعة من المفسرين ، وكل ما دلت عليه ان موسى (ع) اختار من قومه سبعين رجلا ، ليذهب بهم الى ميقات ربه ، وبطبيعة الحال كان هذا الاختيار بأمر من الله لأن موسى لا يفعل إلا بما يؤمر ، وان الله قد أنزل بالسبعين نوعا من العذاب لحكمة استدعت ذلك ، وليس لدينا ما يثبت تحديد الميقات ، ولا السبب الموجب للاختيار ، ولا للعذاب .. أجل ، ان قول موسى الله : ﴿أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ يدل على أنهم فعلوا ما يوجب الهلاك ، ولكنه لم يبين الشيء الذي فعلوه ، وليس لنا أن نقول ما لا نعلم.

﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّيَّ﴾. لقد اصطفى موسى من خيار قومه سبعين رجلا ، وذهب بهم إلى ميقات ربه ، حتى إذا بلغوه هلكوا جميعا ، وبقي فريدا .. انه لموقف حرج يضعف فيه الفؤاد ،

وتقل فيه الحيلة؟. فما يصنع؟. هل يرجع وحده إلى بني إسرائيل؟. وبماذا يجيبهم إذا سألوه عن رجالهم؟. لا ملجأ أبداً من الله إلا إليه ، فتضرع إلى الله أن يكشف عنه ما هو فيه ، وتمنى لو أهلكه معهم من قبل أن يأتي بهم إلى هذا المكان .. ثم قال مخاطباً العلي الأعلى : ﴿أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ أي انك أجل وأعظم من أن تفعل ذلك ، لأنك حلیم كريم.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾. للفتنة معان ، منها الإضلال والإفساد ، ومنه ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾. ٢٦ الأعراف. ويقال : هذا مفتن أي مفسد. ومن معاني الفتنة القتال ، يقال : افتتن القوم أي تحاربوا وتقاتلوا. ومنها الابتلاء والاختبار ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾. وتستعمل الفتنة كثيراً في العذاب ، ومنه الآية ٢٥ من الأنفال : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وهذا المعنى أي العذاب هو المراد من الفتنة في قوله : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ وضمير هي يعود الى الرجفة التي تقدم ذكرها صراحة ، ومعنى ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ ان الله يصيب بالرجفة التي هي العذاب من يشاء من عباده ، ومعنى ﴿وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ انه تعالى يصرف الرجفة عمن يشاء. والمعنى الجملي ان الله سبحانه ينزل العذاب بمن يشاء ممن يستحقه ، ويصرفه عمن يشاء ممن لا يستحقه .. وبهذا يتبين معنا ان قوله : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ يرتبط بمعناه بما تقدم عليه ، وتأخر عنه من السياق ، وانه لا يجوز الاستدلال به على ان الإضلال من الله ، وكيف يضل الله الإنسان ، ثم يعاقبه على الضلال؟. وما الله يريد ظلماً للعباد .. ان الشيطان هو العدو المضل ، وكفى بربك هادياً ونصيراً^(١).

﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَكُتِبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ﴾. ولا ترجمان لهذه المناجاة أفضل من قول سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي (ع) حين أحاط به الألوفاً من كل جانب ، وهو وحيد فريد فلاذ إلى ربه ، وعاذ به من أعدائه قائلاً :

(١). راجع فصل الهدى والضلال ج ١ ص ٧٠ من هذا التفسير الآية ٢٦ سورة البقرة.

اللهم أنت ثقتي في كل كرب ، وأنت رجائي في كل شدة ، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة ، كم من كرب يضعف فيه الفؤاد ، وتقل فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ، ويشمت فيه العدو أنزلته بي ، وشكوته اليك رغبة مني اليك عمن سواك ، وفرجته عني وكشفته ، فأنت ولي كل نعمة ، وصاحب كل حسنة ، ومنتهى كل رغبة.

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ من يستحق العذاب ، لأن مشيئة الله لا تجري إلا بالحق والعدل ، ولا عبث ولا ظلم عند الله ، قال الرازي : قرأ الحسن أصيب به من أساء بالسين لا بالشين ، واختار الشافعي هذه القراءة.

رحمة الله تسع إبليس :

يطلق القرآن رحمة الله على عنايته ، وعلى ثوابه ، ومعنى العناية منه جل ثناؤه ان الموجودات بكاملها ، حتى إبليس تفتقر اليه سبحانه في بقائها واستمرارها ، كما تفتقر اليه في أصل وجودها ، وانه هو الذي يمدّها بالبقاء في كل لحظة من لحظات استمرارها في الوجود ، بحيث لو تخلّى عنها طرفة عين فما دونها لم تكن شيئاً مذكوراً ، وأوضح تفسير لهذه الرحمة والعناية الآية ٤٥ من سورة فاطر : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾.

وهذه الرحمة هي المراد من قوله تعالى : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ حتى إبليس اللعين. أما الرحمة بمعنى الثواب فان الله سبحانه يمنحها لمن آمن واتقى ، وإليها أشار بقوله : ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي ، ويمثلون أمر الله ونهيهِ ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ وذكر الزكاة دون الصلاة ، لأن الإنسان يطغى ان رآه استغنى. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾. أي ان رحمة الله التي هي بمعنى الثواب لا ينالها إلا من اتقى الله ، وآتى المال على حبه ، وآمن بنبوة محمد (ص) إذا بلغت اليه رسالته .. وخص المال بالذكر لما أشرنا اليه ، ولأن الحديث عن اليهود ، والمال ربحم الذي لا إله سواه عندهم وقد وصف الله محمداً (ص) في هذه الآية بالصفات التالية :

١ . ﴿الرَّسُولَ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ﴾ والامية وصف خاص به ، دون الأنبياء إشعارا بأنه على أميته أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأثر في حياة الأمم في كل عصر ومصر .
٢ . ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ . راجع تفسير الآية ١٤٦ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٣٣ . وفقرة هل الأنبياء كلهم شريون؟ ج ٢ ص ٤٩٢ الآية ١٦٣ من سورة النساء .

٣ . ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ . راجع ج ٢ ص ١٢٣ و ١٣٢ الآية ١٠٤ و ١١٠ من آل عمران .

٤ . ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ .

٥ . ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ . الإصر الثقل الذي يمنع من الحركة ، والمراد بالأغلال المشقة . . لقد حرم الله على بني إسرائيل بعض الطيبات التي أشار إليها في الآية ١٤٦ من سورة الأنعام ، كما ان شريعة موسى كانت شديدة وشاقة ، حتى ان التائب من بني إسرائيل لا تقبل توبته الا إذا قتل نفسه : ﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ . ٥٤ البقرة . ويقول الله لبني إسرائيل الذين أدركوا محمدا (ص) : انهم إذا أسلموا تحل لهم طيبات ما حرم عليهم ، وترتفع عنهم المشقة في التكليف ، لأن محمدا قد بعث بالشرعية السهلة السمحة .

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ المراد من آمن بمحمد (ص) من اليهود وغيرهم ﴿وَعَزَّزُوهُ﴾ أعانوه في دعوته ، ووقروه لعظمته ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ على عدوه ﴿وَاتَّبَعُوا النَّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ أي عملوا بالقرآن ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ في الدنيا والآخرة .

رسول الله اليكم جميعاً الآية ١٥٨ . ١٥٩ :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ

الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

الاعراب :

جميعا حال من الرسول. والذي له خبر لمبتدأ محذوف ، أي هو الذي له ملك الخ. قال أبو البقاء في كتاب الاملاء : لا يجوز أن يكون الذي بدلا ولا صفة من رسول الله لوجود فاصلين هما إليكم وجميعا. لا إله خبر لا محذوف تقديره موجود إلا هو وهو بدل من الضمير المستتر في موجود.

المعنى :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. هذه الآية مكية في سورة مكية ، وهي تكذب الذين قالوا : ان محمدا حين كان ضعيفا قال : أنا رسول الله لأهل مكة ومن حولها ، وبعد أن صار قويا قال : أنا رسول الله للناس أجمعين. وأجبنا هؤلاء بردود قاطعة عند تفسير الآية ٩٢ من سورة الأنعام.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. تؤكد هذه الآية وكثير غيرها من الآيات انه لا واسطة بين الله وعباده ، وان الملك والأمر لله وحده .. فمحمدا ، وان كان مرسلًا لجميع الناس في كل زمان ومكان وأشرف الخلق وخاتم النبيين وسيدهم ، ولكنه لا يملك لنفسه شيئا فضلا أن يملك لغيره : ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾. ٤٩ يونس. وقد تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات ، والقصد هو تعريف المسلمين بحقيقة محمد (ص) وانه بشر مثلهم ، كيلا يغالوا فيه ، كما غالى النصارى بالسيد المسيح (ع). وكفى بكلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله التي يكررها المسلم ليل نهار ، كفى بها دليلا على تنزيه المسلمين من الغلو ، وإيمانهم بأن محمدا لا

يملك من الأمر إلا الرسالة والتبليغ.

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. ان

قوله : فاتبعوه بعد قوله : فآمنوا بالله ورسوله ، دليل على ان مجرد الإيمان لا يجدي شيئا ما لم يكن معه عمل بكتاب الله وسنة رسوله. راجع فقرة لا إيمان بلا تقوى ج ١ ص ٣١٤ الآية ٢١٢ من سورة البقرة.

بين الصهيونية واليهودية :

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾. قال الرازي : اختلفوا في ان هذه

الأمّة متى حصلت؟. وفي أي زمان كانت؟. ف قيل : هم اليهود الذين آمنوا بمحمد (ص) كعبد الله بن سلام ، وابن صوريا .. وقيل : انهم قوم ثبتوا على دين موسى ، ولم يحرفوه كما فعل غيرهم من بني إسرائيل الذين أحدثوا البدع.

ونحن نميل إلى أن هؤلاء كانوا في عهد موسى ، ثم انقروا كما يومئ قوله تعالى :

﴿مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ أما ابن سلام وابن صوريا فلا يقال لهما ولا لعشرة مثلهما أمّة وطائفة .. وعلى أية حال ، فإن القرآن قد نعت اليهود بكل قبيح ، وألصق بهم وبتاريخهم العار والشنار في العديد من آياته .. وان دل قوله : ﴿مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ على شيء فإنما يدل على ان لكل قاعدة شواذ ، وبديهة ان الشاذ النادر لا ينقض القاعدة ، بل يؤكدّها؟.

وبصرف النظر عن الذكر الحكيم وآياته فهل الفساد والضلال بعيد عن طبيعة اليهود وسيرتهم؟. وهل اليهود منزهون عن الضلال والافتعال؟. بل هل في تاريخ اليهود بادرة واحدة فقط لا غير تعشر بالخير :.

ورب قائل : ان الفساد والضلال وصف لازم للصهيونية لأنها حركة عنصرية فاشية سياسية تهدف إلى خدمة الاستعمار وانتشاره ، أما اليهودية فإنها ديانة كغيرها من الديانات! ..

ونجيب أولا : ما يدرينا ان المصدر الذي أوحى بهذا الفارق هم اليهود أنفسهم

ليدفعوا عنهم ما لصق بهم وبتاريخهم القديم والحديث من العار والشنار على وجه العموم ..
راجع فقرة الصهاينة تواطؤوا مع النازية في تفسير الآية ٦٤ من المائدة.

ثانيا : على فرض وجود الفارق بين اليهود والصهيونية . وهو فرض محل نظر . فهل اليهود بوجه العموم راضون أو ناقمون على الصهيونية التي أوجدت عصابة مسلحة باسم إسرائيل لا تهدف إلى شيء إلا إلى حماية مصالح الاستعمار ، وضرب القوى التحررية؟ ..
ولما ذا ناصر اليهود هذه العصابة الصهيونية ، ومدوها بالأموال والأرواح ، وتطوعوا بالألوف ذكورا وإناثا في حرب ٥ حزيران سنة ١٩٦٧ بعد أن تدربوا وتمرنوا على استعمال الأسلحة الجهنمية؟. ثم الا يؤمن اليهود ديناً وعقيدة بأنهم شعب الله المختار ، وان الله متحيز معهم ضد جميع الناس ، وانه قد حرم دمائهم ، وأحل لهم دماء البشرية جمعاء ، وانهم وضعوا قوانينهم ونظمهم على هذا الأساس ، والقوة المنفذة عصابة إسرائيل؟.

وبعد ، فإن اليهودية كديانة نزلت من السماء على موسى (ع) قد ذهبت وباد أهلها ، ولم تبق منهم باقية ، كما باد غيرها من الديانات ، وان يهود اليوم صهاينة إلا من شذ ، والشاذ . كما قدمنا . لا يقاس عليه .

وقطعناهم اثنتي عشر اسباطاً الآية ١٦٠ . ١٦٢ :

﴿وَقَطَعْنَا لَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِكُكُمْ وظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ

سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

اللغة :

السبط ولد الولد ذكرا كان أو أنثى ، ويغلب على ولد البنت مقابل الحفيد لولد الابن. وقطعناهم صيرناهم قطعاً ورفقاً. والاستسقاء طلب الماء للسقيا. والانبجاس الانفجار. والمن مادة بيضاء تنزل من السماء. والسلوى طير يشبه السمان.

الاعراب :

اثنتي عشرة مفعول ثانٍ لقطعنا ، لأنها بمعنى صيرنا ، والمميز محذوف أي اثنتي عشرة فرقة ، ولهذا أنث العشرة. وأسباطا بدل من اثنتي عشرة ، لا تميز لأنه جمع ، وتميز العدد المركب مفرد. وأما صفة لأسباط. وان اضرب بمعنى أي لأن ما بعد ان وهو اضرب تفسيرا لأوحينا. وحطة خبر لمبتدأ محذوف أي أمرنا حطة. ونغفر على الجزم جوابا للأمر ، وهو قولوا وادخلوا.

المعنى :

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾. أي فرقنا بني إسرائيل اثنتي عشرة فرقة ، وكل فرقة تنتمي إلى سبط من الأسباط الاثني عشر ليعقوب بن اسحق ابن ابراهيم ، فقد كان له ١٢ ولدا ، ولكل واحد نسل.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَهُمْ﴾ تقدم نظيره في الآية ٦٠ من سورة البقرة ج ١ ص

. ١١١

﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. سبق مثله في الآية ٥٧ من سورة البقرة ج ١ ص ١٠٦.

وقوله : ﴿وَإِذ قِيلَ لَهُمْ﴾ الى قوله : ﴿يَظْلِمُونَ﴾ مذكور مع التفسير في ج ١ ص ١٠٨ الآية ٥٨ . ٥٩ من سورة البقرة.

وأسألهم عن القرية الآية ١٦٤ . ١٦٦ :

﴿وَسَأَلْنَاهُم عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْتَفِقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)﴾

اللغة :

حاضرة البحر أي على شاطئه. ويعدون أي يتجاوزون حكم الله. وشرعا ظاهرة على وجه الماء. والمعذرة والعذر بمعنى واحد. والبئيس الشديد. والعنو العصيان. وخاسئين صاغرين.

الاعراب :

شرعا حال من الحيتان. ومعذرة خبر لمبتدأ محذوف أي موعظتنا معذرة. وبئس صفة لعذاب.

المعنى :

﴿وَسَلَّلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾. الخطاب موجه لمحمد (ص) ، والقرية على حذف مضاف أي أهل القرية ، وضمير هم في واسألهم يعود إلى يهود المدينة الذين عاصروا رسول الله (ص) ، لأن هذه الآية نزلت في المدينة لمواجهة اليهود بها ، وضمت الى السورة المكية تكملة للحديث عن اليهود ، ولم يذكر الله سبحانه اسم القرية ، وقيل : انها كانت على شاطئ البحر الأحمر .. وعلى أية حال فهي معروفة عند اليهود الذين سألهم النبي عنها ، أما الباعث على هذا السؤال فأمران : الأول أن يجابه النبي يهود المدينة بأنهم أنكروا نبوته ، وهم على يقين منها في أنفسهم ، لأنه قد أخبرهم عن الكثير من تاريخ أسلافهم ، ومنها قصة أهل القرية التي كانت حاضرة البحر ، مع العلم أنه لم يقرأها في كتاب ، ولم يسمعها من أحد ، فما هي . اذن . إلا وحي من الله .. الأمر الثاني : أن ينبههم النبي الى أنهم مكابرون معاندون للحق ، وان عنادهم هذا ليس غريبا عن طبيعة اليهود وسيرتهم ، وانما هو دأبهم وديدهم منذ القديم.

والدليل قصة أهل تلك القرية التي أشار اليها بقوله : ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. وتتلخص هذه القصة بأن الله حرم على اليهود العمل يوم السبت ، ومنه صيد الأسماك ، ولأجل أن يعاملهم الله معاملة المختبر لحالهم ، ويظهرهم للملأ على حقيقتهم كان يرسل الحيتان اليهم بكثرة ظاهرة على وجه الماء يوم السبت ، ويمنعها عنهم في سائر الأيام ، فتوصل جماعة منهم إلى حيلة يخللون بها ما حرم الله ، فحفروا أخاديد ، ومسارب تتصل بالماء تنفذ الحيتان منها إلى الأخاديد ، ولا تستطيع الخروج ، فكانوا يأخذونها يوم الأحد ويقولون ،

نحن نصطاد يوم الأحد ، لا يوم السبت ، فأنكر عليهم جماعة منهم ، وزجروهم عن هذا الاحتفال والتلاعب بالدين ، وحذروهم من بأس الله وعذابه فلم يتعظوا.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾. أي

قالت جماعة من بني إسرائيل أيضا للجماعة الناهية عن المنكر ، قالت لهم : ما الفائدة من نهيكم العصاة ، وتحذيركم إياهم ، ما داموا لا ينتهون ولا يحذرون؟! دعوهم .. فان الله سيستأصلهم عن آخرهم من هذه الأرض ، أو يقيهم مع العذاب الأليم. فقالت جماعة الأمر بالمعروف : ﴿مُعَذِّبَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. أي نهيهم عن المنكر ليعلم الله انّا لهم مخالفون ، ولأعمالهم كارهون ، وفي الوقت نفسه نرجو أن ينتفعوا بنهينا ومواعظنا.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ اتَّخَذْنَا مِنَ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ

بَيِّسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. الضمير في نسوا وذكروا وظلموا ويفسقون عائد إلى العصاة ، وضمير ينهون عائد إلى جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ووصف الله العصاة بالفاسقين لأنهم فسقوا عن أمر ربهم ، وبالظالمين لأن كل من فسق عن أمر ربه فهو ظالم لنفسه ، والمعنى ان الله سبحانه أخذ المذنبين بذنبهم ، وأنجى المطيعين لطاعتهم.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾. عاقب سبحانه أولئك

العصاة بمسخهم على هيئة القردة ، وفي رواية انهم بقوا كذلك ثلاثة أيام ، ثم هلكوا ، لأن المسوخ لا يعيش أكثر من هذه المدة ، ولا يولد له شيء من جنسه.

وتسأل : لقد جرت سنة الله أن لا يأخذ المذنب بذنبه في الدنيا بشهادة الوجدان

والعيان بالاضافة إلى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ يُوَاقِحُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾. ٤٥ فاطر. فكيف عاقب أولئك الذين خرجوا عن طاعته في صيد الحيتان ، وترك الذين أجروا من دماء الأبرياء أنفرا في فلسطين وفيتنام ، ومن قبلهما الكونغو واليابان ، وغيرها كثير مما لا يبلغه الإحصاء؟.

الجواب : أجل ، لقد جرت سنته تعالى بأن لا يأخذ المذنب بذنبه في هذه الحياة ،

مهما عظم .. ولو فعل لما تميز الخبيث من الطيب ، ولما كان لتارك

الشر من فضل ، لأن الترك كان بدافع الخوف ، لا حبا بالخير ، وكرها للشر .. ولكن
حكمة الله سبحانه قد اقتضت أن يستثني من هذه السنة معجزات الأنبياء ، واستجابة
دعائهم في أهل المعصية والفساد لكرامتهم عند الله ، ولا ثبات نبوتهم.

وقال أهل التفاسير في تفسير الآية ٧٨ من المائدة : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي
إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾. قالوا : ان داود
(ع) لعن أهل ايلة من بني إسرائيل لما اعتدوا واصطادوا في في سبتهم ، وقال : اللهم ألبسهم
اللعنة مثل الرداء ، فمسخهم الله قردة خاسئين. اذن ، فسبب مسخ الصيادين المحتالين هو
دعاء النبي داود ، ولا نبي في هذا العصر يدعو على سفاكي الدماء ، وناهبي مقدرات
الشعوب .. ومهما يكن ، فنحن نؤمن بعدل الله ، وبأن الحق لا يذهب عنده هدرا ، وان
الإنسان مجزي بأعماله ، مهما طال الزمن ، وانما يعجل من يخاف الفوت.

اليهود وسوء العذاب الآية ١٦٧ :

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ
لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧)﴾

اللغة :

تأذن من الأذان ، وهو الاعلام. ويسومهم أي يذيقهم.

المعنى :

لقد تحدث القرآن طويلا عن بني إسرائيل ، تحدث عن كفرهم وافسادهم في الأرض ،
وتمردهم على الحق ، وتكلمنا نحن كثيرا عنهم تبعا لأي الذكر

الحكيم ، وذكرنا عشرات الأمثلة من سيرتهم كشرح وتطبيق للنص القرآني في شأنهم ، ولكن هنا سؤال قد يرتفع إلى مستوى الحيرة والشك حول هذه الآية : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾.

وحول الآية ١١٢ من سورة آل عمران : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا﴾. وأجبنا عن هذا السؤال في المجلد الثاني صفحة ١٣٤ عند تفسير الآية ١١٢ من سورة المائدة ، وأيضا أجبنا عنه بأسلوب آخر قريبا عند تفسير الآية ١٥٣ من السورة التي ما زلنا في تفسيرها ، ونشير هنا الى الجواب بإيجاز .. لقد سلط الله من قبل علي بنى إسرائيل الفراعنة ، ثم البابليين ، ثم الفرس ، ثم خلفاء الإسكندر ، ثم النصارى.

ومن الطريف ما جاء في تفسير البحر المحيط ان طائفة من النصارى أملت ، فباعت اليهود الذين في بلدهم لبلد مجاور .. وأخيرا فر اليهود من الذل والنكال لاجئين الى بلاد العرب ، فعاشوا بها آمنين ، ولكنهم نكثوا العهد الذي أعطوه لرسول الله (ص) ، فقتل بعضا ، وأجلى عمر بن الخطاب البقية الباقية ، فتشتتوا في شرق الأرض وغربها موزعين مع الأقليات تابعين غير مستقلين يسمعون الأوامر فيطيعون صاغرين.

وأخيرا أدرك اليهود انه لن يكون لهم اسم يذكر إلا إذا أخلصوا للاستعمار ، ومن أجل هذا باعوا أنفسهم لكل مستعمر قوي ينفذون مؤامراته ودسائسه .. وفي أيامنا هذه . نحن الآن في صيف سنة ١٩٦٨ . اكتشفت بعض الدول ان المستعمرين أوعزوا إلى يهود أوروبا الشرقية أن يقوموا بمحاولات تهدف إلى سير هذه البلاد في ركاب المستعمرين ، وباشر اليهود بتنفيذ الخطة ، ولكنهم افتضحوا قبل إتمامها وكادوا يجرون العالم إلى حرب ثالثة. وعلى هذا المخطط ، مخطط سير الشعوب في ركاب الاستعمار أوجد المستعمرون عصابة مسلحة من اليهود على أرض فلسطين ، وأطلقوا عليها اسم دولة إسرائيل.

وكل عاقل يتساءل : هل يصح أن تسمى إسرائيل دولة بالمعنى الصحيح ، مع العلم بأنه لو تخلى الاستعمار عنها يوما واحدا لزال من الوجود؟. وهل من دولة في العالم كله لا تعترف بها دولة واحدة من الدول المجاورة لها؟. وإذا

كانت إسرائيل دولة بالمعنى الصحيح فلما ذا تقيم علاقاتها مع الدول والشعوب المجاورة لها على أساس الغدر والاعتداء والتوسع؟.

ان الدولة حقا ليست غدرا وسلاحا ، وإنما هي قبل كل شيء كيان يقوم على أساس السلم ، ونظام يركز على أساس الحق ، وقيم تباعد بها عن العنصرية والتعصب ، وكيان إسرائيل عسكري يقوم على أساس الحرب ، ونظامها عدم التوقف عن العدوان ، وقيمها الصهيونية العنصرية ، والحقد والمكر والغدر ، قال الكاتب الانكليزي كرسنوفر مارلو في مسرحية اليهودي المالطي : ان تخيل إمكانية معاشة اليهود ضرب من الجنون ، ولا دواء لنفوسهم إلا السيف البتار. أبعد هذا يقال للعرب عيشوا مع اليهود بسلام ، أو يقال : ان اليهود أعزاء لأن منهم عصابة مسلحة تسمى باسم دولة إسرائيل تقتل وتشرد مئات الألوف بمساندة الاستعمار؟. أجل ، إذا كانت القرصنة عزا ، والرذيلة مجدا فان اليهود في أوج المجد والعز.

وبالتالي ، فان الله وحده هو الذي يعلم الخطوة التالية ، والعقل لا يخدع بالظواهر ، ولا يستبق الأحداث.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ للذين حقت عليهم كلمة العذاب ﴿وَأَنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن أقلع عن ذنبه وأناب.

وبلوناهم بالحسنات واليسئات الآية ١٦٨ . ١٧١ :

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّاحُونَ وَمِنْهُمْ ذُوْنَ ذِكِّ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَى وَيَقُولُونَ سُبْحَنُ رَبِّنَا إِنَّ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا ما فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ

يَتَّقُونَ أَفْلا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ
الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ
بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

اللغة :

وقطعناهم أمّا أي فرقناهم جماعات. والخلف بسكون اللام قوم لاحقون أشرار ،
وبفتحها أخيار. وعرض بفتح الراء الشيء الزائل الذي لا ثبات له. والمراد بالأدنى هنا الدنيا.
ودرسوا ما فيه قرأوا ما فيه. ويمسكون بالكتاب يعملون به. والتقى قلع الشيء ، والمراد هنا
رفع الجبل فوقهم بعد قلعه. والظلة مفرد وجمعها ظلل وظلال ، وكل شيء يظلك من سقف
ونحوه فهو ظلة بضم الظاء.

الاعراب :

يجوز أن تعرب أمّا مفعولا ثانيا على أن تكون قطعناهم بمعنى صيرناهم ، ولك أن
تعربها حالا على أن تكون قطعناهم بمعنى فرقناهم. ومنهم الصالحون مبتدأ وخبر ، ومثله
ومنهم دون ذلك على أن يكون المبتدأ محذوفا ودون صفة له أي قوم دون ذلك ، ولفظ
ذلك مفرد ومعناها هنا الجمع أي دون أولئك لأنها تستعمل للمفرد والمثنى والجمع. والذين
يمسكون مبتدأ وجملة إنا لا نضيع خبر.

المعنى :

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾. فرّق الله بني إسرائيل في الأرض فرقا وجماعات شتى لا
وطن يجمعهم ولا دولة تحفظهم ، وحاولت الصهيونية أن تقيم

لهم دولة من النيل الى الفرات بالقرصنة والاغتيال ، وخيل اليها ان العدوان الاسرائيلي يحقق لها ما تريد ذاهلة ان إسرائيل تقوم على الألغام ، وان الأمر يحدث بعده الأمر ، وان مصائر الخلق بيد الله وحده لا بيد الصهيونية والاستعمار.

﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾. الطاهر ان المراد بالصلاح هنا الايمان. وان المراد بدون ذلك غير المؤمنين ، وتقدم نظيره الآية ١٥٩ من هذه السورة ﴿وَيَلْسُونَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ المراد بالحسنات الصحة والرخاء ، والسيئات ضدهما ، والغرض من تقلبهم بين النعماء والضراء أن يثوبوا إلى رشدهم ويتوبوا إلى بارئهم.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾. المراد بعرض هذا الأدنى المال الحرام كالربا والرشا. بعد أن ذكر سبحانه انه كان على عهد موسى (ع) جماعة من بني إسرائيل صالحون ، ومنهم دون هؤلاء قال : لقد ترك هؤلاء وأولئك نسلا عرفوا حلال التوراة وحرامها ، ولكنهم كانوا يجرمون ما أحل الله ، ويحللون ما حرم ، ويقولون : سيغفر الله لنا ، ولا يؤاخذنا على شيء ، لأننا أبناؤه وأحبائه وشعبه المختار.

وتسأل : لما ذا قال سبحانه : ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ بعد أن قال : ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ مع ان القولين في معنى واحد؟ فما هو الغرض من هذا التكرار في آية واحدة؟.

الجواب : الغرض الرد عليهم بأنهم يصرون على كبائر الذنوب ، ويعودون اليها مرات ومرات غير مكترئين ولا مستغفرين ، ومع هذا يقولون : ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾؟ .. ان الإصرار على الصغائر معصية كبرى ، فكيف بالإصرار على الكبائر؟.

﴿أَلَمْ يُوْحَدْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾. هذا رد ثان عليهم ، ووجه الرد انهم يزعمون الإيمان بالله وبالتوراة ، وقد درسوها وفهموا كل ما فيها ، ومما جاء في التوراة ان الله يغفر لمن تاب وأقلع عن المعصية ، أما من أصر عليها فهو من الهالكين ، وأيضا قد أخذت التوراة عهدا وميثاقا على كل من آمن بالله وبها أن لا يفترى على الله الكذب ، والعصاة

على علم من هذه الحقيقة ، ومع هذا يصرون على كبائر الذنوب قائلين : سيغفر الله لنا .. وهذا نقض للعهد والميثاق ، وكذب على الله وافتراء : وقد خاب من افترى ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ولا يتهافتون على عرض هذا الأدنى ، ولا يقولون كذبا وافتراء : سيغفر الله لنا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وكيف يعقل من أعشت الشهوات عقله ، وأمرضت الأهواء قلبه؟ ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾. الذين يمسكون بالكتاب هم الذين يعملون به ، ويمسك أبلغ من يعمل لأنه يشعر بالجد والعزم الثابت على العمل ، وعطف أقاموا الصلاة على يمسكون من باب عطف الخاص على العام ، لسر في الخاص أوجب النص عليه بالذات ، والآية تعريض باليهود الذين آمنوا بالتوراة ، ولم يعملوا بأحكامها ، وأيضا هي تعريض بكل من انتسب إلى دين وتهاون في أحكامه ، بخاصة الصلاة التي هي عمود الدين .. ولكنها عند أبناء هذا الجيل تأتي على الهامش لأن الدين كذلك عندهم.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. رفع الله الطور فوق بني إسرائيل كأنه سقف أو غمامة تظللهم ، وأمرهم في ظل هذه المعجزة ، وهذا التخويف ان يتقوا الله .. ولكن إسرائيل هي إسرائيل .. وتقدم نظيره في سورة البقرة الآية ٦٣ ج ١ ص ١١٩ .

ألست بربكم الآية ١٧٢ . ١٧٤ :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)﴾

اللغة :

الظهور جمع ظهور ، وهو معروف. والذرية سلاله الإنسان من ذكور وأناث.

الإعراب :

من ظهورهم بدل اشتغال من بني آدم مع إعادة حرف الجر ، والمعنى أخذ ربك من ظهور بني آدم ذريتهم. وبلى حرف جواب تبطل النفي ، فإذا قال لك قائل : ليس لي عندك درهم ، وأجبت بلى كان إقراراً منك بالدرهم ، وإن أجبت نعم لا يلزمك شيء ، ولذا قيل : لو قالوا : نعم في جواب أليست بربكم لكفروا. والمصدر المنسب من أن تقولوا مجرور بإضافة مفعول من أجله محذوف أي مخافة قولكم.

عالم الدر :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بلى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾. في المسلمين فئة تؤمن بعالم الدر مستندة إلى هذه الآية ، وإلى بعض الروايات ، ومعنى عالم الدر عند هذه الفئة أن الله بعد أن خلق آدم أخرج من صلبه كل ذكر وأنثى يوجدان. فيما بعد. منذ آدم الأول إلى نهاية الكون ، وجمعهم دفعة واحدة على هيئة الدر ، ثم قال لهم : أليست بربكم؟. قالوا : بلى أنت ربنا ، وبعد هذا الاعتراف ردهم إلى صلب آدم .. ونحن مع الذين يؤمنون بعالم الدر أن أجابوا عن التساؤلات التالية :

أين جمع الله هذه الذرية؟. هل جمعها في هذه الأرض أو في غيرها؟. وهل تتسع هذه الأرض لهم جميعاً؟. ولنفترض أنها اتسعت ، لأنهم على هيئة الدر ، فهل كان آدم من الضخامة بحيث يستوعب كل من خرج منه مباشرة وبالواسطة إلى يوم يبعثون؟. ثم هل يتذكر واحد من الجمل الذي يفوق عدد

الرمال ، هل يتذكر واحد فقط هذا الخطاب والعهد الذي أعطاه الله مشافهة؟. وان كان قد أنساه طول العهد ، فكيف يحتج الله عليه بشيء لا يتذكره .. هذا من جهة العقل ، أي بعض ما يدور في ذهن العاقل.

أما من جهة نص الآية فانه يدل على عكس عالم الذر الذي أخذ من صلب آدم الأول ، لأن الله سبحانه قال : ﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ ولم يقل من آدم ، مع العلم ان ابن آدم يقال له : آدم ، ولا يقال لآدم الأول : ابن آدم .. وأيضا قال تعالى : ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل من ظهره. وقال : ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ولم يقل : ذريته .. هذا ، الى ان الله قال في الآية الثانية : انه فعل ذلك لئلا يحتج عليه أحد بشرك الآباء ، مع ان أول من أشرك لا مبرر لاحتجاجة بشرك أبيه ، لأن المفروض ان أباه لم يشرك .. وان دل هذا على شيء فانه يدل على ان العهد قد أخذ من كل واحد واحد مستقلا بعد وجوده حتما ، بل وبعد رشده وإدراكه.

ونحن لا نفهم معنى لهذا العهد المأخوذ من الإنسان لله تعالى الا الفطرة ، وغريزة الاستعداد التي أودعها الله في كل عاقل ، والتي بها . لو قصد التفهم والتدبر . يميز بين الهدى والضلال ، وبين الحق والباطل ، وبها يهتدي الى الإيمان بالله ودينه الحق .. وبكلمة ان على كل امرئ ان يتفكر في آيات الله ودلائله. واتفق المسلمون قولاً واحداً على ان السنة النبوية تفسير وبيان للآيات القرآنية ، وقد ثبت بالتواتر قوله (ص) : كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. وقوله : يقول الله اني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتاحتهم عن دينهم.

﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾. كل من السؤال والجواب قائم الى اليوم ، وإلى آخر يوم ، لأنهما بلسان الحال والواقع ، تماماً كقوله تعالى : ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ . ١١ فصلت. ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي مخافة أن تقولوا أو لئلا تقولوا : ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾. هذا اشارة إلى التوحيد الذي دل عليه قوله : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾. لا تعليل ولا معذرة أبدا ، لا في هذه الحياة ولا

في الآخرة لمن منحه الله الاستعداد الكامل لتفهم الدلائل والبيانات على وحدانية الله وعظمته ، ثم كفر وأشرك.

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾. يقلد الإنسان في الأشياء التي تحتاج إلى التخصص ، وتستغرق سنوات من الدراسة كالطب والهندسة ، وما اليهما ، أما الإدراكات الفطرية التي لا تكلف الإنسان أكثر من اليقظة والتنبه كوجود الله ووحدانيته ، أما هذه فالكل فيها سواء .. وقد أقام الله سبحانه البراهين الوافية الكافية على وحدانيته ، ومنح كل عاقل الاستعداد لتفهمها بيسر ، ولم يبق عذرا لمعتذر بأنه جحد أو أشرك تقليدا لغيره من المبطلين .. ولا فرق أبدا في نظر العقل بين من يعمل بغير علمه متعمدا وبين من يتبع الباطل جهلا به ومن غير قصد مع قدرته على معرفته وتمييزه عن غيره.

﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى عقولهم التي تؤدي بهم حتما بمعونة الدلائل إلى عقيدة التوحيد. أنظر تفسير الآية ٤١ من سورة الأنعام ، فقرة الله والفطرة ص ١٨٨.

آتيناه آياتنا فانسلخ منها الآية ١٧٥ . ١٧٧ :

﴿وَإِذْ أَخْبَرْنَا نَبَأَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا بَنَاتَهُنَّ مَثَلًا لَكُم مِمَّا كَفَرْتُمْ أَنَّ كَلْبًا إِذَا حَمَلَ عَلَيْهُ يُلْهَثُ أَوْ تَتَرَكُّهُ يُلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَافْضُصْ الْقُصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧)﴾

اللغة :

النبا الخبر الذي له شأن. فانسلخ منها تجرد منها. وأخلد إلى الأرض لصق بها ، والمراد به هنا الركون الى الدنيا. واللهث بفتح اللام ، واللهث بضمها ، ومعناها واحد ، وهو التنفس الشديد مع إخراج اللسان عطشا أو اعياء. والمراد بالمثل هنا الصفة.

الإعراب :

ساء بمعنى بئس ، والفاعل مستتر يفسره مثلا المنصوب على التمييز ، والقوم مجرور بإضافة اسم محذوف أي مثل القوم ، وهذا المحذوف هو المخصوص بالذم ، وهو مبتدأ ، وجملة ساء خبر.

المعنى :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾. اتل الخطاب موجه لمحمد (ص) ، وضمير عليهم يعود الى اليهود. أما الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها فلا نعرف من هو ولا ندخل في شيء ليس في القرآن والسنة المتواترة نص عليه ، ولكن القصاصين وأكثر المفسرين أو الكثير منهم قالوا : ان اسم الرجل بلعام بن باعور ، وانه كان على دين موسى وعالما بأحكامه ، ثم ارتد ، ونحن ننظر الى هذا النقل والى غيره أيضا بحذر ، ولا نطمئن إلا للنص القرآني ، وقد دل هذا النص على ان الله سبحانه أمر رسوله أن يخبر اليهود بقصة الرجل الذي كان عالما بدين الله وآياته ، وبطبيعة الحال كان علماء اليهود على علم من هذا الرجل ، ثم أغواه الشيطان ، فترك علمه ودينه ، ولزم الغواية فكان من الغاوين الهالكين.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي بما آتاه الله من العلم بآياته ، ولكن الله لم يشأ أن يلجئه إلى العمل بآياته قهرا ، لأنه جل ثناؤه لا يعامل الناس بمشيئته الخالقة

التي تقول للشيء كن فيكون ، وانما يعاملهم بمشيئة النصح والإرشاد التي يعبر عنها بأمره ونهيهِ ، ولهذا ترك للذي انسلخ من آيات الله ، ترك له الحرية والاختيار ، فاختار العاجلة على الآجلة ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾. معنى الإخلاد اللزوم ، والمراد بالأرض هنا متاع الحياة الدنيا ، لأن الأرض مصدرها ، ومنها الطيبات والملذات ، والمعنى ان هذا المنسلخ المتجرد قد عصى مولاه ، وأطاع هواه ملازما له لا يفارقه أبدا ، قال الرازي : هذه الآية أشد الآيات على أصحاب العلم ، قال رسول الله (ص) : من ازداد علما ، ولم يزد هدى لم يزد من الله الا بعدا.

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ﴾. الكلب الذي يلهث من العطش أو الاعياء يستمر في اللهاث زجرته أو تركته ، فانه لاهث على كل حال .. وكذلك من لزم هواه يستمر في ضلاله وعظته أو أغفلته فهو ضال على كل حال ذلك مثل الذين كذبوا بآياتنا. أي هذه هي صفة كل من أصر على المعصية .. أبدا ، لا ينتفع بآية ، ولا يصغي لموعظة ، وضرب الله مثلا للعاصي المصر بالكلب اللاهث اشارة إلى خسته وضعته.

﴿فَأَفْضُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. أي حدث يا محمد اليهود عن المكذبين من أسلافهم ، وما آل اليه أمرهم كأهل القرية التي كانت حاضرة البحر ، وهذا المنسلخ ليكون ذلك عبرة لهم ، ورادعا عن التكذيب بنبوتك.

﴿سَاءَ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾. الكذب على الله ، والتكذيب بآيات الله كلاهما بدعة ، لأن الأول يثبت في الدين ما ليس منه ، والثاني ينفي عنه ما هو منه ، وهذه هي البدعة بالذات ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار . اذن . من ابتدع نقد ظلم نفسه ، حيث عرضها للعذاب والهلاك.

وتسأل : من يحرف الحق خوفا على نفسه من ظالم : هل يعد مبتدعا؟.

الجواب : أجل ، انه مبتدع يستحق الدم والعقاب ، ما في ذلك ريب ، لأن عليه أن يخاف من غضب الله لتحريف الحق ، لا من غضب الظالم للثبات على الحق .. أجل ، قد يسوغ للإنسان ترك العمل بالحق دفعا للضرر عن نفسه ، أما

تحريف الدين بالكذب على الله فلا مبرر له على الإطلاق ، مهما تكن النتائج.

من يهدي الله فهو المهتدي الآية ١٧٨ . ١٨١ :

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)﴾

اللغة :

الذراً الإنشاء والخلق. والإلحاد الانحراف عن الطريق القويم.

الاعراب :

اللام في لجهنم للعاقبة مثل فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا. وجملة لهم قلوب صفة لكثير. وجملة لا يفقهون صفة للقلوب. وممن خلقنا خبر مقدم ، وأمة مبتدأ مؤخر.

المعنى :

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. ليس المراد

ان من يخلق الله فيه الهداية فهو المهتدي ، ومن يخلق فيه الضلال فهو الضال .. كلا ، ان هذا المعنى تأباه الفطرة والبديهة .. لأن الله ليس بظلام للعبيد ، وأيضا يأباه النص القرآني : ﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ . ١٠٨ يونس . وكيف يجمع الله تعالى بين وصفي العدالة والإضلال؟. ان الشيطان هو المضل : ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ . ١٥ القصص . ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ .

والذي نراه ان المعنى المقصود من الآية ان المهتدي حقا هو من كان عند الله مهتديا ، ولو كان عند الناس ضالا .. وليس من شك ان الإنسان لا يكون من المهتدين في الميزان الإلهي إلا إذا آمن وعمل صالحا : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ . ٩٠ يونس . ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ . ٦٩ العنكبوت . وكذلك الضال فإنه من كان ضالا في حساب الله ، لا في حساب الناس . وبكلمة ان الآية تحدد معنى كل من المهتدي والضال بأنه من كان كذلك عند الله ، تماما كما قال الإمام علي (ع) : الغنى والفقر بعد العرض على الله .

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ . ذرأنا خلقنا .. والله سبحانه لم يخلق ولن يخلق أحدا بقصد تعذيبه ، كيف؟. وهل يلتذ جلت عظمتة بتعذيب المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلا؟. في بعض ما قرأت ان الامريكيين كانوا إذا أرادوا الترويح عن النفس جاءوا بأحد الملونين ، وتحلقوا حوله ، وأمطروه بوابل من رصاص مسدساتهم ، فيسقط على الأرض متخبطا بدمائه ، وهم يرسلون القهقهات عاليا .. والله لن يشوي البشر بناره إلا إذا تجنس بالجنسية الأمريكية أو الصهيونية .. تعالى الله عما يصفون .

ان الله سبحانه خلق الإنسان للعلم النافع ، والعمل الصالح ، وزوده بجميع المؤهلات لذلك ، وأعطاه العقل المميز بين الهدى والضلال ، وأرسل الرسل لايقاظه وإرشاده ، وترك له الخيار في سلوك الطريق الذي يشاء منهما ، لأن الحرية هي قوام حقيقة الإنسان ، ولو سلبها منه لكان هو والجماد سواء ، فان اختار طريق الهدى أدى به الى مرضاة الله وثوابه ، وان سلك طريق الضلال فمآله جهنم

وساءت مصيرا .. وعلى هذا تكون اللام في لجهنم لام العاقبة مثل اللام في ليكون من قوله تعالى : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا ، ومثل : لدوا للموت وابنوا للخراب .

وتسأل : ان الله سبحانه قال : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وأنت تقول : خلق الله الإنسان للعلم النافع ، والعمل الصالح .

الجواب ان العلم النافع والعمل الصالح من أفضل الطاعات ، فقد جاءت الرواية : عالم واحد أفضل من ألف عابد ، وألف زاهد ، وفي رواية ثانية : عالم ينتفع بعلمه أفضل من عبادة سبعين ألف عابد .

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ . كل شيء لا يؤدي الغاية المطلوبة منه فوجوده وعدمه سواء من هذه الحيثية . ومن أهم الغايات المقصودة من القلب أن يفتح لدلائل الحق ، ومن العين أن تبصر هذه الدلالة ، ومن الأذن أن تسمعها ، فإذا أعرضت هذه الأجهزة الثلاثة عن ذلك ، ولم تنتفع بشيء من دلائل الحق كان وجودها كعدمه ، قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ٣٧ ق . فالقلب والسمع موجودان ، ومع ذلك يصح سلب الوجود عنهما إذا غفلا عن آيات الحق ودلائله ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ لهم قلوب وأعين وآذان ، ولكن قلوبهم لا تفتح للحق ، وأعينهم لا تبصر دلائله ، وآذانهم لا تسمعها فكانوا كالأنعام بل تفتح للحق ، وأعينهم لا تبصر دلائله ، وآذانهم لا تسمعها فكانوا كالأنعام ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن الأنعام تؤدي الغرض المطلوب منها على أكمل وجه ، ولأنها تعجز عن تحصيل الكمال ، ولا تحاسب وتعاقب ، وبالتالي هي تعرف خالقها بالفطرة ، والكافرون لا يؤدون المطلوب منهم ، وقادرون على الكمال ، ولا يفعلونه ، وهم محاسبون ومعاقبون ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ عن دلائل الله في أنفسهم وفي الآفاق ، وعن مصيرهم وما سيحل بهم في الآخرة من الخزي والعذاب .

هل اسماء الله توقيفية او قياسية؟

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ . كل أسماء الله حسنة ، لأنها تعبر عن أحسن المعاني

وأكملها ، وكلها على مستوى واحد في الحسن ، إذ ليس لله حالات متعددة ، ولا صفات متغايرة ، حتى عند القائلين بأن صفاته غير ذاته ، ولا أفعال متفاوتة ، فخلق جناح بعوضة وخلق الكون بأسره سواء لديه ، يوجد كلا بكلمة ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ .. ومتى تساوت المعاني تساوت الألفاظ لأنها فرع ، والفرع يتبع الأصل.

﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾. أي اذكروا الله ، وادعوه بأي اسم شئتم من أسمائه ، فكلها ألفاظ تعبر عن تنزيهه وتعظيمه على مستوى واحد ، وليس لله اسم أعظم ، واسم غير أعظم ، فكل ما دل عليه هو أعظم الدلالات ، لأن المدلول أعظم الموجودات .. ومن أجل هذا لا نقول مع القائل : ان لله اسما خاصا هو الاسم الأعظم ، وان من عرفه فاضت عليه الخيرات ، وظهرت على يده المعجزات .. وقيل «ان لله تسعا وتسعين اسما ، وان من أحصاها دخل الجنة». حتى كأن الله خلق جنته لمؤلفي قواميس اللغة ، لا للمتقين!.

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .. اللحد والإلحاد الميل عن القصد ، ومعنى الجملة النهي عن اطلاق أية كلمة تشعر بالربوبية على غيره ، سواء أكان ذلك الغير نبيا أو كوكبا أو صنما أو أي شيء ، وأيضا لا يجوز اطلاق أية كلمة عليه تشعر بغير الربوبية كالأب والابن.

واختلف علماء الكلام في أسماء الله تعالى : هل هي توقيفية أو قياسية؟. ومعنى توقيفية الوقوف في أسمائه على ما جاء في الكتاب والسنة ، بحيث لا يجوز اطلاق أي اسم عليه إلا إذا نصت عليه آية أو رواية ، ومعنى قياسية ان أي لفظ كان معناه ثابتا في حق الله فيجوز اطلاق هذا اللفظ عليه ، سواء أورد في كتاب الله ، أم لم يرد.

وذهب أكثر العلماء الى أن أسماء الله توقيفية. أما نحن فنجيز مخاطبة الله ومناجاته بكل ما يدل على التنزيه والتعظيم ، سواء أورد له ذكر في القرآن والحديث أم لم يرد ، ولا نمنع إلا عما منع الله عنه ، عملا بالمبدأ القائل : كل شيء مباح ، حتى يرد فيه نهي على شرط التعظيم .. هذا ما تقتضيه الأصول والقواعد العلمية الدينية ، بالإضافة إلى اجماع الأمة قديما وحديثا في كل زمان ومكان على ان لغير العرب أن يعبروا عن ذات الله وصفاته وأفعاله بلغتهم الخاصة بهم.

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾. كل الناس منهم مؤمن وكافر ، وطيب

وخبيث ، وما من أحد إلا ويعرف هذه الحقيقة ، فما هو القصد من بيانها؟.

الجواب : قال سبحانه في الآية السابقة : ان كثيرا من الجن والإنس مصيرهم الى جهنم

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ فناسب ان يقول هنا : وان أمة منهم مصيرها إلى

الجنة ، وان تكن هذه أقل من تلك كما تشعر لفظة من. وعبر عن أهل الجنة بالذين يهدون

بالحق وبه يعدلون اشارة إلى ان السبب الموجب لدخولهم الجنة هو الهدي والعدل.

والذين كذبوا بآيتنا الآية ١٨٢ . ١٨٦ :

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي

مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي

مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا هَادِي لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

(١٨٦)﴾

اللغة :

الاستدراج من الدرجة ، أي ان الله يسوقهم إلى الهلاك شيئا فشيئا ، تماما كمن يرتقي

درج السلم. والإملاء الإمهال والتأخير. والكيد المكر ، والمراد به

هنا التدبير الخفي ، بحيث لا يشعر المكيد له إلا بعد خسارته وخذلانه. والجنة بكسر الجيم ، وأصله الستر. والملوك المالك غير المملوك. والعمه للقلب ، والعمى للعين.

الإعراب :

إن كيدي متين جملة مستأنفة ولهذا كسرت همزة إن. وما استفهامية انكارية في محل رفع بالابتداء ، وبصاحبهم متعلق بمحذوف خبرا ، والجملة مفعول ليتفكروا لأن التفكر من أفعال القلوب التي يجوز تعليقها عن العمل. وإن عسى ان مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف أي انه عسى ، والمصدر المنسبك من أن يكون فاعل عسى ، وقد استغنت عسى بالفاعل هنا عن الخبر ، كما استغنت عنه في قولك عسى ان تقوم كأنك قلت : قرب قيامك ، ومثله عسى أن تكرهوا شيئا. واسم يكون ضمير مستتر يعود الى الشأن ، وجملة قد اقترب أجلهم خبر كان ، والجملة من عسى وفاعلها خبر ان.

المعنى :

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾. قد تتابع النعم على الإنسان ، فيتمادى في طغيانه اغترارا بكثرته وثروته ذاهلا عن المخبات والمفاجئات ، حتى إذا قال الناس طوبى له فاجأته ساعة السوء .. وقد اغتر أبو سفيان بيوم أحد ، وقال : يوم بيوم بدر ، حتى إذا جاء نصر الله والفتح استسلم صاغرا. قال الإمام علي (ع) : كم من مستدرج بالإحسان اليه ، ومغرور بالستر عليه ، ومفتون بحسن القول فيه ، وما ابتلى الله أحدا بمثل الاملاء له ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾. الاملاء الامهال وعدم الاستعجال ، والمراد بكيد الله انه تركهم يغترون بإحسانه الظاهر ، حتى إذا ركنوا اليه أخذهم من حيث لا يشعرون : ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّ مِدْهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ نُسَارِعِهِمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. ٥٧ المؤمنون.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾. هكذا بيث اللصوص والسفاحون دعاياتهم المضللة ضد كل مخلص في كل زمان ومكان .. محمد مجنون وساحر وكذاب ، ولمه؟ لأنه يأبى الكذب والضلال ، ويحارب اللصوصية والاستغلال .. افترت قريش على محمد .. وهي تعرف من هو محمد منذ نشأته ، حتى تجاوز الأربعين من عمره الشريف ، وتعرف فيه العقل والصدق والأمانة ، ولكنها تعرف أيضا ان رسالة محمد هي الخطر الأكبر على سلطان قريش وطغيانها ، ومن أجل هذا وحده قالت : انه مجنون عسى أن يخدع بهذا الافتراء من استغلوه واستعبدوه .. فدعاهم القرآن إلى التفكير والتدبر في أمر محمد (ص) ، وهو صاحبهم ، وعشيرهم الذي سبروه وخبروه ، دعاهم القرآن أن يتفكروا : هل أخذوا عليه مأخذا ، أو وجدوا في عقله وخلقه مغمزا؟ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ يبين الحق ، وينذر من خالفه ، وهذا هو ذنبه الوحيد عندهم.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾. ملكوت مبالغة في الملك ، والمعنى ان السموات والأرض وكل ما فيهما من شيء يخضع لسلطانه ، ويدل على وحدانيته ، وان ما من عاقل ينظر الى أي شيء في هذا الوجود مجردا عن كل غاية إلا آمن بالله وكتبه ورسله ، أما الذي لا يفكر إلا في مصلحته فلا يهتدي ولن يهتدي إلى الله ولا لشيء من الخير ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾. بعد أن طلب الله اليهم التفكير والتدبر في خلق الكون وأشياءه نبههم إلى الموت هادم اللذات ، ومفرق الجماعات ، وانه ربما فوجئوا به عما قريب ، وهم في ضلالهم سادرون. نبههم الى هذا عسى أن يتوبوا ويثوبوا الى الرشده.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟ الضمير في بعده يعود الى القرآن ، وليس بعد القرآن بيان أوفى ، ولا دليل أقوى ، فمن لا تقنعه دلائل الله فلا يقنعه شيء. ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ ذكرنا معناه قريبا عند تفسير الآية ١٧٨ من هذه السورة ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. أي ان الله يتركهم يترددون في الضلال ويمهلهم إلى أجل ، ثم يجازيهم بما أسلفوا ، وليس في هذا الإهمال ظلم ، لأنه جاء بعد البيان والتحذير ، وبعد اليأس من ارعوائهم وهدايتهم.

يسألونك عن الساعة الآية ١٨٧ . ١٨٨ :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَفِّيهِهَا إِلَّا هُوَ
تَقُلْتُ فِي السَّمَاءَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا
عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ
اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْنَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾

اللغة :

الساعة لغة جزء قليل غير معين من الزمان ، وعرفا جزء من أربعة وعشرين جزءا من
مجموع الليل والنهار ، والمراد بالساعة هنا الوقت الذي يفنى فيه العالم ويموت جميع الخلق.
ومرساها إثباتها وحصولها من رسا الشيء إذا ثبت وحصل. والحفي المستقصي في السؤال.

الإعراب :

أيان اسم مبني لتضمنه حرف الاستفهام ، وهو سؤال عن الزمان ، ومحله الرفع خبرا
مقدما ومرساها مبتدأ مؤخر. وبغته حال من الضمير في تأتيكم العائد إلى الساعة.

المعنى :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾.

المراد بالساعة خراب الكون وموت الخلائق ، ويجليها يكشفها ويظهرها ، واللام في لوقتها للتوقيت ، مثل أقم الصلاة لدلوك الشمس .. ويدل ظاهر الآية على ان قوما سألو رسول الله (ص) : متى تقوم الساعة؟ فأمره الله أن يقول لهم : انها من الأمور التي ليس في طاقة البشر معرفتها ، وان علمها مختص بالله وحده ، وهو الذي يكشفها في وقتها المحدود ﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَاءَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ثقل وقعها على أهل السموات والأرض لعظمتها وشدتها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ من غير اعلام سابق.

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي كأنك مهتم بالسؤال عنها مثل اهتمامهم. لم يكن

النبي (ص) يهتم بعلم الساعة ومتى تقوم؟ وانما كان يهتم بالعمل لأجلها والانداز بها ، ويربط بين النجاة من هولها وبين العمل الصالح ، ومن أجل هذا لم يسأل ربه عنها. وقيل : ان أعرابيا سأله : متى تقوم الساعة؟ فقال له النبي (ص) : وما ذا أعددت لها؟. يريد بجوابه هذا أن يفهمه ان الأولى بك أن تسأل عما ينجيك منها ، لا عن وقتها وشكلها. فالعاقل إذا أصيب بداء لا يسأل : كيف يموت به؟ وانما يسأل : ما الذي يشفيه منه؟. وأعاد سبحانه ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ لتأكيد حصر العلم بالساعة وحده ، وتمهيدا لقوله : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأن علم الساعة عند خالقها ولا يطلع عليه أحدا.

النبي وعلم الغيب :

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾. هذه عقيدة المسلمين بنبيهم

محمد أشرف خلق الله أجمعين ، لا يملك لنفسه شيئا فضلا عن أن يملكه لغيره ، وهذا الاعتقاد بمحمد (ص) هو نتيجة حتمية لعقيدة التوحيد.

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَاسْتَكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ﴾. ان كلمة الغيب لا

تدل على معناها فحسب ، بل تدل أيضا على ان الغيب لله وحده ،

وبالإضافة الى هذه الدلالة فان أقرب الناس الى ربه يعلن للأجيال بأنه أمام الغيب بشر لا فرق بينه وبين غيره من الناس ، ثم لا يكتفي بهذا الإعلان بل يستدل على ذلك بالحس والوجدان وهو انه لو علم الغيب لعرف عواقب الأمور ، فأقدم على ما تكون عاقبته خيرا ، وأحجم عما تكون عاقبته شرا ، وما أصابه في هذه الحياة ما يسوؤه ويكرهه.

وكيلا يقول قائل : كيف لا يعلم محمد الغيب ، وهو الرسول المقرب من الله؟. قال محمد (ص) بأمر من الله : إن أنا إلا بشير ونذير لقوم يؤمنون. انه رسول الله ، ما في ذلك ريب .. ولكن مهمة الرسول تنحصر بتبليغ الناس رسالات ربه ، وإنذار من عصى بالعقاب ، وبشارة من أطاع بالثواب ، أما علم الغيب ، والنفع والضرر فييد الله وحده .. وخص المؤمنين بالبشارة والإنذار ، مع انهما يعمان جميع الناس اشارة إلى أن البشارة والإنذار إنما ينتفع بهما من يريد الإيمان الحق ، أما المكابر فلا يجدي معه شيئا.

وتسأل : لقد جاء في سيرة النبي (ص) وكتب الأحاديث : ان محمدا (ص) أخبر عن كثير من المغيبات .. من ذلك اخباره بأن المسلمين من بعده يتغلبون على الروم والفرس ، وان سلمان الفارسي سيوضع على رأسه تاج كسرى ، فوضع .. وأيضاً أخبر عن موت النجاشي وعن شهادة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وعن نباح كلاب حوآب على عائشة وعن قتال علي بن أبي طالب الناكثين والقاسطين والمارقين ، وعن استشهاد سبطه الحسين بن علي .. إلى غير ذلك كثير .. فكيف تجمع بين إخباره عن المغيبات ، وبين قوله : ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾.

الجواب : ان غيب الله لا حد له ولا حصر ، وحده ان لا حد له ، وهذا الغيب على أنواع : نوع يحجبه الله عن عباده ، ولا يطلع عليه أحدا كائنا من كان كقيام الساعة. ونوع يطلع عليه من ارتضى من عباده ، وإليه أشارت الآية ٢٦ من الجن : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾. والآية ١٧٩ من آل عمران : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. ونوع يطلع عليه كل الناس كالبعث والنشر ، والجنة والنار.

فالمراد بأن الغيب لله وعند الله انه لا طريق الى معرفته بالتجربة ، ولا بالعقل ولا بأي شيء إلا بالوحي منه تعالى ، وهو يوحى بشيء من غيبه إلى من ارتضى من رسول حسبما تستدعيه الحكمة وحاجة الناس ، والرسول بدوره يخبرهم بهذا الغيب كما تلقاه من الله .. وعلى هذا فلا يكون إخبار الرسول به علما بالغيب ، بل نقلا عما يعلم الغيب ، والفرق بعيد بين مصدر العلم ، وبين النقل عن مصدره ، لأن الأول أصل ، والثاني فرع ، وأيضا فرق بين من ينقل عما نقل عن الأصل مباشرة ، وبين من ينقل عن هذا الناقل .. ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ . ٣٢ البقرة.

وهذه الآيات دليل قاطع على فساد ما تقوله الصوفية من ان نفس الإنسان بنحو من الرياضة تنعكس فيها المغيبات .. وقد أسموا هذا الانعكاس علما لدنيا .. ولست أدري كيف جمع الصوفية بين الإيمان بالله ورسالة محمد (ص) ، وبين الاعتقاد بهذا العلم الديني؟. وأعجب من هذا ما قاله ابن العربي في الجزء الثالث من الفتوحات المكية الباب ال ٣١١ : ان من أحب الله حبا خالصا يستطيع أن يحول نفسه الى أية حقيقة شاء من حيوان أو شجر أو حجر أو ماء .. وقد حدث هذا بالفعل ، ذلك ان بعض المحبين من أهل هذه الطريقة . أي الصوفية . دخل على شيخ وحول نفسه بين يديه الى كف من ماء .. ولما قيل للشيخ : دخل عليك فلان ولم يخرج ، فأين هو؟. قال لهم : هذا الماء هو.

هو الذي خلقكم من نفس واحدة الآية ١٨٩ . ١٩٠ :

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا

جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

المعنى :

ليست الآيتان حكاية عن حادثة خاصة حصلت بين زوج وزوجته كما يوهم ظاهر اللفظ ، كلا ، وانما هما حكاية عن حال الإنسان بما هو مع صرف النظر عن أفراد معينين ، وتتلخص حكاية هذه الحال أو هذا التمثيل بأن الإنسان إذا نزل به ما يكره ، أو أراد الحصول على ما يحب التجأ الى الله يدعو ويتضرع ويقطع على نفسه العهود والمواثيق ان الله إذا حقق له ما يريد شكره وأطاعه ، فإذا آتاه الله ما أراد تولى معرضا عن عهوده ومواثيقه ، وبعد هذا التمهيد الذي ينبغي أن تفهم الآيتان على أساسه نشرع بايضاحهما :

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾. الخطاب في

خلقكم لجميع الناس ، والمعنى انكم جميعا أيها الناس من شيء واحد جنسا وطبيعة وعنصرا ، لا فرق إطلاقا بين شرقي وغربي ، ولا عربي وعجمي ، ولا بين اسود وأبيض ، ولا ذكر وأنثى .. ومسألة الذكر والأنثى تعم جميع الأجناس ، ولا تختص بجنس دون جنس ، قال عز من قائل : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. ٤٩ الذاريات ، والغرض من ذلك معروف هو حفظ النوع ، وبالإضافة الى هذا الغرض فان الله سبحانه قد خلق للإنسان زوجا من جنسه ليسكن كل منهما للآخر ويطمئن اليه ، وليكون بين الاثنين مودة ورحمة.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلٌ خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا

صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾. تغشاه قاربها ، وفي الفعل ضمير مستتر يعود الى الزوج وضمير ها الى الزوجة ، ومرت به أي استمرت بالحمل ، ولم تسقطه ، وأثقلت حان وقت الولادة ، وفي هذا الحين اتجه كل من الأب والأم الى الله سبحانه ، وتضرعا اليه ان يرزقهما ذكرا صالحا أي تام الخليقة والخلق ،

وان الله ان استجاب وفعل أديا شكر هذه النعمة على أكمل الوجوه ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ كما طلبا ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ ضمير جعلاً يعود الى الزوج والزوجة ، وضمير له يعود الى الله ، والمراد بما آتاهما الولد الذي طلباه ، والمعنى ان الله لما رزقهما الولد قالاً : الفضل فيه للأصنام وبركاتهما ، ونسيا الله وما عاهداه عليه ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي يشرك جميع الكافرين ومن جملتهم هذان الزوجان. ومرة ثانية نقول : ان الغرض الحكاية عن حال الإنسان بما هو ، وليس الحكاية عن حادثة خاصة.

أيشركون ما لا يخلق شيئاً الآية ١٩١ . ١٩٨ :

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨)﴾

المعنى :

﴿أَيْشُرْكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾. ان الخلق والأمر لله ، وهو وحده الذي يقول للشيء كن فيكون ، وكل من عداه وما عداه بما فيه الأصنام مفتقر اليه تعالى في أصل وجوده وفي استمراره في الوجود. ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾. ان النصر والغلبة والاعزاز والاذلال بيد الله ، والأصنام أحجار تبول عليها القطط والكلاب ، فلا تنصر ولا تنتصر ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾. هذه الأصنام لا تخلق ، ولا تنصر ولا تنتصر ، ولا تهدي ولا تهدي ، ولا تدعو أحدا ، ولا تستجيب لدعوة أحد ، ومع كل هذا تعبد!

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. لقد زعمتم أيها المشركون ان الأصنام آلهة ، والإله ينفع ويضر ، ويعطي ويمنع فاطلبوا منهم لنرى هل يستجيبون لطلبكم؟ ﴿أَلَمْ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ هُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ هُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ هُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾. هذا إيقاظ وتنبيه للمشركين الى أنهم خير وأفضل من الأصنام التي يعبدون ، لأن لهم عقولا تدرك ، وأعيننا تبصر وآذاننا تسمع ، وأرجلا تمشي ، وأكفا تبطش ، وألسنة تنطق ، وليس للأصنام شيء من ذلك ، فكيف صار الأدون معبودا ، والأكمل عبدا له؟.

وتسأل : ان الواو ضمير للعاقل ، فكيف استعملها القرآن في الأصنام ، وهي لا تعقل ، مثل يخلقون ويبصرون الخ؟.

الجواب : انها تستعمل في العاقل وغيره ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾. وقوله : وكل في فلك يسبحون. ولكن الأكثر استعمالها في العاقل. ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظَرُونَ﴾. قل الخطاب لمحمد (ص) ، وواو ادعوا للمشركين ، والأمر فيه للتعجيز ، وشركاءكم أي أصنامكم ، وأصل كيدون كيدوني ، ومثلها فلا تنظرون ، ومحصل المعنى ان الله سبحانه أمر نبيه

أن يقول للمشركين : إن كان لأصنامكم شأن كما تزعمون فاني احتقرها وإياكم ، فاستجدوا بها لكيدي والاقتصاص مني ، ولا تمهلوني لحظة ، فهذا أوان مقدرتها وسلطانها.

﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾. بعد أن تحدى النبي (ص)

المشركين وأهتهم قال لهم : أنتم تتولون هذه الأصنام ، وأنا أتولى الله الذي نزل عليّ القرآن ، وفيه تبيان كل شيء ، وهو أيضا يتولى حفظي وحراستي ، فهل لأصنامكم كتاب؟ وهل تتولى هي حفظكم وحراستكم؟. وكانت النتيجة ، كما يعرفها الجميع ، إذلال الشرك والمشركين ، وإعزاز الإسلام والمسلمين.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتِطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾. تقدم هذا في

الآية ١٩٢ ، وجاء التكرار لأن النبي (ص) تحدى الأصنام ان تناله بأذى فناسب أن يشير الى أنها أعجز من أن تنصر أو تنتصر.

﴿وَأِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾. أيضا تقدم في الآية ١٩٣ والتكرار للغاية

نفسها.

﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾. يدل هذا النص على ان الأصنام كانت

تماما كهذه التماثيل في الكنائس ، وان عرب الجاهلية كان لهم شأن في فن النحت لأنهم جعلوا أصنامهم بحيث يتخيل الرائي للوهلة الأولى أنها تنظر وتبصر.

وتسأل : لما ذكر الله وأعاد في آيات متلاحقة متلاصقة ان الأصنام لا تضر ولا

تنفع ، ولا تنصر ولا تنتصر ، وانه ليس لها أيد ولا أرجل ولا أعين الخ حتى بلغت الآيات تسعا ، مع العلم بأنه يغني عن كل ذلك القول : انها أحجار وكفى.

الجواب : لقد سيطرت الوثنية على تفكير العرب وعقولهم ، وامتزجت بأرواحهم

ودمائهم ، لأنهم ورثوها عن الآباء أجيالا وقرونا ، وكان إيمانهم بها أقوى من إيمانهم بالله الذي جعلوها شريكة له .. فلم يكن تغيير شيء من عقيدتهم هذه سهلا يسيرا ، وكانوا يضحون بالنفس والنفيس إذا ذكرها ذاك بسوء ، فاقتضى ذلك التكرار والتأكيد والإيضاح ..

ولنفترض ان واحدا من رجال الكنيسة حاول

أن يزيل منها هذه الصور والتماثيل فهل يكتفي بقوله : انها أوراق وأحجار ، أو يلقي الخطب الطوال العراض؟.

خذ العفو وامر بالمعروف الآية ١٩٩ . ٢٠٣ :

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَايَةٌ قَالُوا لَوْ لَا اجْتَنَبْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)﴾

اللغة :

العفو هو الذي يأتي من غير كلفة ومشقة ، والعرف المعروف ، وهو فعل الخير . والنزغ في اللغة النغز والوكز ، ونزغ الشيطان اغراؤه بالشر والفساد . والاستعاذة بالله الالتجاء اليه . والمس الاصابة . والطائف ما يدور حول الشيء ويأتيه من جميع نواحيه . ومعنى اجتنبتها اصطفتيتها ، والمراد بها هنا افتعلتها .

الاعراب :

إذا هم مبصرون إذا هنا للمفاجأة لا تحتاج الى جواب . ولو لا أداة طلب بمعنى هلا .

المعنى :

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. أدب الله نبيه محمدا (ص) فأحسن تأديبه ، وكان يقول في دعائه : اللهم حسن خلقي وخلقي ، وجنبي منكرات الأخلاق ، وقد استجاب الله دعاءه ، وأتم له مكارم الأخلاق ، ثم أرسله كافة للناس ليتم لهم مكارم الأخلاق. ومن الآيات التي أدب الله بها رسوله الأكرم (ص) هذه الآية ، وقد تضمنت أسسا ثلاثة في الشريعة والآداب ، وهي :

١ . العفو ، وهو السهل اليسير الذي لا مشقة فيه ولا عسر ، ويكون في الأفعال وفي الأخلاق ، وهو في الأموال ما زاد عن الحاجة ، وقد أمر الله نبيه أن لا يشق على الناس فيما يأمرهم به ، وينهاهم عنه ، وان يأخذ زكاة أموالهم فيما زاد عن حاجاتهم ، وهذا أصل من أصول الشريعة : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ . ٧٨ الحج ، وان لا يكلفهم الشاق من الأخلاق ، كأن يلزم أحدهم أن يتنازل لغريمه عن حقه ، ولا يقتص منه نفسه.

٢ . الأمر بالعرف ، وهو الخير المعروف الواضح يدركه الإنسان بفطرته.

٣ . وأعرض عن الجاهلين ، وهم الذين لا ترجى هدايتهم بالحجة والدليل ، ولا بالموعظة والإرشاد .. وقد يكون إهمالهم والإعراض عنهم أجدى في هدايتهم.

وقال الشيخ المراغي في تفسير هذه الآية : روي عن جعفر الصادق رضي الله عنه انه

قال : ليس في القرآن أجمع لمكارم الأخلاق منها.

﴿وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. النبي يغضب ما في

ذلك ريب .. ولكنه يغضب لله ، حتى غضبه لنفسه هو غضب الله .. وربما غضب على جهالة جاهل من الذين أمرهم الله بالإعراض عنهم ، فتحركه نفسه لمجاہته بكلمة يستحقها ، فقال له مؤدبه الأعظم جل ثناؤه : إن صادف وعرضت لك مثل هذه الحال فلا يذهبن الغضب بحلمك فاصبر واستعد بالله ، فانه يسمع لك ويستجيب ، ويعلم ما تلاقيه من أهل السفاهة والجهالة ، ويثيبك عليه.

ولا بد من الإشارة الى ان قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ هو مجرد فرض لمكان ان الشرطية ، تماما كقوله : ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ . وبديهية ان فرض المحال ليس بمحال ، وفي المجلد الثاني صفحة ٧٥ فقرة الأنبياء والمعصية بيّنا ان الله سبحانه أن ينهى أنبياءه المعصومين عن المعصية ، لأن نهيه من الأعلى الى من هو دونه ، وليس لأحد غير الله أن يأمرهم أو ينهاهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ . ما من انسان إلا وتنازعه اندفاعات نفسية ، بعضها عاطفي ، وبعضها عقلي ، وبعضها ديني ، وفي الأغلب ينهزم الدين والعقل أمام العاطفة ، لأنها تنبع من ذات الإنسان ، وتلازمه منذ تكوينه في بطن أمه ، والعقل متأخر عن العاطفة في الوجود ، وهو ينمو بالدرس والتجربة ، أما الدين فنزل لترويض العاطفة وكبح جماحها . فهو أضعف العوامل والانفعالات .. اللهم إلا إذا اقتنع الإنسان به اقتناعه بنفسه وكيانه ، بحيث لا يرى لنفسه وجودا سعيدا إلا بالدين والعمل بأحكامه ، وهذا النوع من المتدينين هم الذين يتغلب دينهم على ميولهم ، وهم المعنيون بقوله تعالى : ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ . أي إذا أغراهم

الشیطان بمعصية الله ، أو وسوست لهم النفس الامارة بذلك تذكروا ما أمرهم الله به ، وما نهاهم عنه ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ مكائد الشيطان ووسوسة النفس ، فيحجمون عن المعصية ، ويتغلب دينهم على أهوائهم.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ . المراد بالإخوان هنا الشياطين ، والضمير في إخوانهم يعود الى المشركين الذين تقدم ذكرهم ، والضمير المرفوع في يمدوهم يعود الى الشياطين ، والضمير المنصوب يعود الى المشركين ، والمراد بلا يقصرون لا يكف الشياطين عن أمداد المشركين بالإغواء والإفساد ، وملخص المعنى ان الشياطين هم اخوان المشركين لا يكفون عن غوايتهم وتضليلهم.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَآيَةٌ قَالُوا لَوْ لَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ . كان المشركون يطلبون من النبي آيات ومعجزات معينة على سبيل التعنت ، فإذا لم يأتهم بها قالوا له : هلا تأتي بها انت من نفس؟. ألسنت نبيا؟. ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ .

أي قل يا محمد هؤلاء المتعنتين : أجل ، أنا نبي ، ولكن النبي لا يصنع المعجزات ، ولا يبتدع من عنده الآيات ، ولا يقترحها على الله ، بل ينتظر الوحي ، ويبلغه لعباده .

﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ . هذا اشارة الى القرآن ، والبصائر

هي الحجج والبيانات التي يبصر العاقل بها الحق ، ويميزه عن الباطل .. بعد ان قال النبي (ص) للمشركين : انما اتبع ما يوحي إلي من ربي قال لهم : وقد أوحى إليّ ربي بهذا القرآن ، وفيه الأدلة الساطعة على نبوتي ، وهو هدى ورحمة لمن يريد أن يؤمن بالحق لوجه الحق ، فإن كنتم من طلابه كما تزعمون فعليكم أن تتركوا الشرك ، وتسلموا ، والا فأنتم طلاب منافع وأرباب غايات .

واذا قرىء القرآن الآية ٢٠٤ . ٢٠٦ :

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)﴾

اللغة :

استمع له واليه أصغى بقصد . والإنصات السكوت من أجل الاستماع . والغدو جمع غدوة ، وهي الصباح ، والآصال جمع أصيل ، وهو المساء ، والقصد دوام الذكر . وخيفة حالة الخوف .

الاعراب :

تضرعا وخيفة مصدران في موضع الحال من واو فاستمعوا ، أي متضرعين وخائفين.
ودون الجهر أي واذكر ربك دون الجهر ، والجملة عطف على واذكر ربك في نفسك.
وبالغدو متعلق باذكر.

المعنى :

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. لما ذكر سبحانه في الآية السابقة ان القرآن بصائر وهدى ورحمة أمر في هذه الآية بالاستماع والإنصات له ، لتدبر ما فيه من الهدى والدلائل ، وليس من شك ان من تدبر القرآن ، واتعظ به فهو جدير برحمة الله ورضوانه.

واتفق الفقهاء ما عدا الظاهرية على ان الإنصات لقراءة القرآن مستحب وليس بواجب على غير المأموم الذي يصلي جماعة خلف الإمام.
واختلفوا في المأموم : هل يجب عليه أن يسمع وينصت للإمام ، وهو يقرأ القرآن في صلاته؟. ذهب جماعة الى الوجوب ، وقال آخرون بعدمه.

وعلى أية حال فان الأمر في قوله تعالى : ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ هو للاستحباب لا للوجوب ، لأن هذا الأمر حكمه الأمر في قوله : ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ لأنهما جاءا في سياق واحد ، والأمر بالذكر للاستحباب فكذلك الأمر بالاستماع والإنصات .. هذا ، الى ان الإنصات لكل قارئ فيه عسر وجرح ، بخاصة في عصرنا الذي أصبحت فيه قراءة القرآن في المكبرات أشبه بالغناء واللعب ترتفع الأصوات به بمناسبة وغير مناسبة. ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾. اذكر الخطاب للنبي ، والمراد عام ، وتضرعا وخيفة أي ليكن مع الذكر خشوع وخوف من الله ، ودون الجهر من القول معناه اذكر ربك بصوت متوسط بين الجهر والإخفات ، وبالغدو والآصال كناية عن دوام الذكر وقوله تعالى : ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يدل صراحة على ان من

رفع صوته بالقرآن فقد ترك المستحب وفعل خلاف الأولى بخاصة إذا كان في المكبر ، وبصورة أخص إذا كان فيه إزعاج للنائمين. ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عن ذكر الله في نفسك ، لأن الذكر باللسان فقط أشبه بكلام فارغ لا معنى له.

ومعنى ذكره تعالى في النفس أن ندرك أن الله وحده هو الخالق الرازق ، والمحيي والمميت ، والمبدئ والمعيد .. وأفضل الذكر إطلاقاً أن يتقي الإنسان الاساءة الى أخيه الإنسان خوفاً من عقاب الله ، وأفضل منه أن يحسن اليه رغبة في ثواب الله عز وجل ، ونقول من غير تحفظ : ان هذا المعنى هو المقصود من قوله تعالى : ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ . ٤٥ . العنكبوت. وقوله : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ بعد قوله : ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يؤيد أن الذكر الأكبر هو الإحسان الى عيال الله .. وأخسر الناس صفقة عند الله من يهمل له ويكبر ، وهو يسعى في أرض الله فسادا بالغش والخداع ، ومشايعة الطغاة والمستعمرين ضد عيال الله الآمنين والمستضعفين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾. قال المفسرون : أراد الله بمؤلاء المسبحين الساجدين . الملائكة ، واستدلوا على ذلك ب ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ لأن الذين عند الله هم الملائكة .. ويلاحظ بأنه من الجائز أن يكون المراد كل من له مكانة ووجاهة عند الله ، سواء أكان ملكا ، أم بشرا.

واختلف الفقهاء : هل يجب السجود عند تلاوة آية فيها كلمة يسجدون كهذه الآية؟. نقل الطبرسي في المجمع عن أبي حنيفة القول بالوجوب ، وعن الشافعي والإمامية القول بالاستحباب المؤكد.

ويلاحظ بأن الشيعة الإمامية قد أوجبوا السجود على كل من القارئ والمستمع لآيات السجدة من السور الأربع ، وهي ألم تنزيل ، وحم فصلت ، والنجم ، والعلق.

سورة الأنفال

سورة الأنفال

آياتها ٧٥ ، وهي مدنية الا من آية ٣٠ لغاية ٣٦ فإنها مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قل الأنفال لله والرسول الآية ١ . ٤ :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾

اللغة :

الأنفال جمع نفل بفتح الفاء ، وهو الزيادة ، والمراد به هنا نوع من المال يأتي بيانه.
وبين ظرف يتوسط بين اثنين أو أكثر ، والمراد بالذات هنا الحال الواقعة بين اثنين أو جماعة.
والوجل الخوف.

الإعراب :

حقا منصوب على المصدرية ، أي أحق حقا ، أو صفة لموصوف محذوف أي إيماننا حقا.

المعنى :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾. ذكر سبحانه في هذه الآية ان قوما سألو النبي (ص) عن الأنفال ، ولم يبين المراد منها ، واتفق أهل العلم بالدين على ان أية كلمة ترد في كتاب الله وسنة نبيه من غير تحديد لمعناها فإنها تحمل على المعنى الذي يفهمه الناس من الكلمة ، فان لم يعرف الناس لها معنى تعين الرجوع الى قواميس اللغة. وتقول هذه القواميس : النفل الغنيمة والزيادة بوجه عام من غير تحديد لنوعها ، ومن هنا اختلف المفسرون في المراد بالأنفال : هل هي جميع الغنائم ، أو هي غنائم بدر ، أو غيرها؟.

أما الشيعة الإمامية فقالوا : لا مبرر لهذا الاختلاف لأنه ثبت في السنة النبوية برواية أهل بيت الرسول (ص) ان المراد بالأنفال الأرض التي تؤخذ من غير المسلمين بلا قتال ، والأرض الموات ، سواء أكانت مملوكة ثم باد المالك ، أم لم تكن ، ورؤوس الجبال وبطون الأودية ، والأحراج ، وكل ما اختص به سلطان الحرب ، على شريطة أن لا يكون مغتصبا من مسلم أو معاهد ، وميراث من لا ميراث له.

ويتفق هذا مع مذهب المالكية لأنهم فسروا الأنفال بما أخذ بغير قتال احكام القرآن لأبي بكر المالكي المعروف بابن العربي المعافري. وقال أبو اسحق الفيروزآبادي الشافعي في كتاب المهذب : الأنفال أن ينفل أمير الجيش لمن فعل فعلا يفضي الى الظفر بالعدو ، كالتجسس والدلالة على طريق أو قلعة ونحو ذلك. وقال الجصاص الحنفي في كتاب أحكام القرآن : قال أصحابنا : أن يقول الأمير : من قتل قتيلا فله سلبه ، ومن أصاب شيئا فهو له.

﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. هذا بيان لحل الأنفال ، وانها لله ورسوله ،

وما كان الله فهو لرسوله ، وما كان لرسوله ينفق لإعلاء كلمة الإسلام ، وصالح المسلمين ، يأخذ منه كل ذي حاجة منهم على قدر حاجته. والتفصيل في كتب الفقه ، ومنها الجزء الثاني من كتابنا فقه الإمام جعفر الصادق.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. هذا يشعر بأن الصحابة قد تنازعوا على الأنفال ، ولما سألوا النبي (ص) قال لهم بأمر من الله : انما الله والرسول ، وان عليهم أن يستسلموا لله ورسوله ، ولا يتنازعوا على الأنفال ولا على غيرها ، وان يتآلفوا ويتحابوا في الله ، كما هو شأن المؤمنين حقا.

ثم أوضح لهم جل ثناءه بأن المؤمنين حقا من اتصفوا بالأوصاف التالية :

١. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. فالخوف لا ينفك أبدا عن اسم الله عند المؤمنين بلقائه وحسابه وجزائه ، ولكنهم في الوقت نفسه يرجون رحمة الله ، لأنهم يؤمنون أيضا بقوله : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾. وقوله : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾. ومما قاله الإمام علي (ع) في وصف المؤمنين : فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون. وقال الشاعر في وصفهم :

تعاذل الخوف فيهم والرجاء فلم يفرط بهم طمع يوما ولا وجل
٢. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ بأنهم على بصيرة من دينهم ، تماما كما لو رأوا الغيب رأي العين ، بل قد يشكون فيما تراه العين لأن الحواس تخدع صاحبها بعض الأحيان ، فيظن السراب ماء ، والورم شحما ، أما قوله تعالى فلا يتطرق اليه الشك واحتمال الخلاف.

الدين لا يثبت قمحا :

٣. ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾. وليس معنى التوكل عليه تعالى أن نقول

بألسنتنا توكلنا على الله ، ولا أن نترك الأسباب والعمل اتكالا على ان يسخر لنا الأشياء ، ونحن قاعدون ، وانما التوكل ان نسعى كما أمرنا الله راجين التوفيق منه في سعينا مؤمنين بأن العمل شرط أساسي للتوكل ، وانه عبادة وطاعة لقوله تعالى : ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ . ١٥ الملك .. ان الإيمان والتوكل على الله من غير عمل لا ينبت قمحا ولا يشفي مريضا ، وإلا لم يخلق الله للإنسان يدين ورجلين من أجل العمل .. نعم ، ان الدين الحق ينبت الحب والإخلاص والاستقامة ، وليس الخبز والدواء .. حتى العلم لا يعطينا القمح ، ولا يشفينا من المرض ، وانما يعلمنا كيف نزرع القمح ونصنع الدواء ، ولا يعنيه بعد هذا متنا من الجوع والمرض أو لم نمت ، أما الدين فهو الحريص على حياتنا ومن أجلها يحثنا على العلم والسير على منهجه ، ويعتبر إهماله جريمة إذا أدى الى الفساد والضرر .. ان العلم يرسم الخطوط لحياة راضية مرضية ، وهذا ما يهدف اليه الإسلام ، ومن أجله أمر بالعلم وحث عليه تماما كما أمر بالصيام والصلاة ، ويعاقب من يستغل العلم للنهب والعدوان كما يعاقب من يحرف الدين لمنافعه الشخصية. والخلاصة إذا صح ان الإنسان لا يحيا بالخبز وحده فصحيح أيضا ان الإنسان لا يحيا بالصلاة وحدها.

٤ و ٥ . ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيَمْنَعُونَ رِزْقَهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ . الأوصاف السابقة من أحوال القلب ، والصلاة والزكاة من أفعال الجسم ، وهما نتيجة حتمية للإيمان بالله ، والخوف منه ، والتوكل عليه .. فتارك الصلاة والزكاة لا يعد من المؤمنين حقا ، والدليل قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ . أولئك اشارة الى الذين جمعوا بين الصفات الخمس ، والمؤمنون حقا هم الذين ينعكس الإيمان في أفعالهم ، لا في أقوالهم فحسب ، والدرجات عند الله تتفاوت تبعا للجهد والتضحية ، وأعلاها لمن ينتفع الناس بهم ، ويتحملون الكثير ليعيش عيال الله جميعا في ظل الأمن والعدل والخصب ، والمغفرة التجاوز عن المفوات والرزق الكريم الجنة.

كما أخرجك ربك الآية ٨ . ٥ :

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَافِقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّكُمْ لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨)﴾

اللغة :

المراد بالشوكة هنا القوة ، والطائفتان هما العير والنفير ، والنفير ذات الشوكة والعير غير ذات الشوكة ، ويأتي التوضيح. ودابر القوم آخرهم.

الإعراب :

كما متعلق بمحذوف دل عليه السياق ، والتقدير ان القتال حق كما أخرجك من بيتك بالحق ، وكما كره فريق اخراجك من بيتك فقد كره أيضا فريق القتال. وإذ يعدكم إذ منصوب بفعل محذوف أي اذكروا إذ يعدكم ، وإحدى مفعول ثانٍ ليعدكم ، وتسبك انهما لكم بمصدر في موضع نصب بدل اشتغال من إحدى أي يعدكم إحدى الطائفتين ملكيتها. والمعنى ملكية إحدى الطائفتين ، تماما كما تقول : أعجبنى زيد ثوبه أي ثوب زيد.

الى بدر :

بعث النبي (ص) وهو ابن أربعين ، وأقام بمكة بعد البعثة ١٣ سنة ، ثم

هاجر الى المدينة فدخلها يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول ، وأقام فيها عشر سنوات ، وانتقل إلى ربه وهو ابن ٦٣ سنة يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول ، ولما استقر به المقام في المدينة أخذ يرسل سرايا تعترض قوافل المشركين ، وتستطلع أخبارهم ، وتقلق راحتهم ، قال المسعودي : كانت غزوات النبي التي قادها بنفسه ٢٦ قاتل منها في تسع.

ونشير هنا الى خروجه لبدر لأنها موضوع الآيات التي نحن بصدددها ، وفي هذه الغزوة ظهرت أول قوة للمسلمين ترد بها على قوة المشركين الذين ظلوا يطاردون المسلمين بالتنكيل والأذى أكثر من ١٣ سنة ، والمسلمون يتلقون التنكيل بالاحتمال ، والأذى بالصبر ، لأن المقاومة مع الضعف الذي كانوا فيه أشبه بعملية الانتحار ، وتتلخص قصة الخروج الى بدر بأن رسول الله (ص) سمع بأن أبا سفيان رجع من الشام بقافلة ضخمة جهزتها قريش بالكثير من أموالها ، وكان من جملة هذه الأموال ما استولت عليه قريش من أموال المهاجرين الذين نفتهم من مكة.

فجمع النبي الصحابة ، وحثهم على الخروج ليصادروا أموال القافلة ، فتناقل البعض وكره الخروج رهبة من قريش وشوكتها ، ثم مضوا مع النبي ، وكان ذلك في ١٧ رمضان للسنة الثانية من الهجرة ، ولم يدر بخلد واحد من الصحابة انه مقبل على معركة من أعظم معارك المسلمين ، وأبعدها أثرا في حياة الإسلام والمسلمين.

وأرسل يهود المدينة الى أبي سفيان من ينذره ، وهو في الطريق ، فبعث؟؟؟ أبو سفيان يطلب النجدة من قريش ، فخرجت برجالها ، ولم يبق أحد قادر على حمل السلاح في مكة ، وكان المسلمون إذ ذاك ما يزالون في طريقهم الى بدر ، ولكن أبا سفيان تحول عنها الى ساحل البحر الأحمر ، وأتى النبي (ص) نبأ قريش ، فاستشار (ص) الصحابة أيمضون لقتال قريش ، أو يعودون الى المدينة؟ وفي الوقت نفسه قال لهم : ان الله وعده بإحدى الطائفتين إذا مضوا للقتال ، والطائفتان هما العير المحملة بالأموال ، والنفير وهم قريش الذين خرجوا من مكة لحماية الأموال ، فأشار الأكثرون بالمضي للقتال ، وكرهه البعض ، كما

كره الخروج من المدينة منذ البداية ، ثم أجمعوا على لقاء قريش .
وعندها قال لهم النبي (ص) : سيروا على بركة الله ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم ، فتأهبوا لخوض المعركة ، وابتدأت بها قريش ، وكان عددها حوالى الف مقاتل بينهم مائة فارس ، والمسلمون نحو ٣٠٠ ليس فيهم إلا فارس وقيل اثنان . وقتل المسلمون من المشركين ٧٠ وأسروا ٧٠ ، وفر الباقيون ، واستشهد من المسلمين ١٤ ولم يؤسر أسير ، وكانت هذه الغزوة أول نصر للمسلمين تغيرت بعدها أوضاعهم ، وانحاز الكثير إلى جانبهم ، وأصبحوا يقابلون القوة بالقوة والعنف بالعنف بعد أن كانوا يتلقونه بالسكوت أو الفرار من الوطن ..
بعد هذا التمهيد نشرع بتفسير النصوص .

المعنى :

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ . المراد بالبيت المدينة .. حين أراد النبي (ص) الخروج من المدينة لمصادرة العير تتأقل جماعة من المؤمنين ، وقالوا : لا طاقة لنا بقريش ، ثم خرجوا على كره مع من خرج على حب ، وفي أثناء الطريق أخبرهم النبي بخروج قريش من مكة ، واستشارهم : أيمضون للقتال ، أو يعودون الى المدينة ، فكره البعض القتال ، وقالوا : ما كان خروجنا إلا للعير ، وقال الأكثر : نمضي معك للقتال . ثم مضوا جميعا الى المعركة على بركة الله . وهذه الآية تشير الى موقفين لبعض الصحابة : الأول كراهية الخروج من المدينة الى العير . والثاني كراهية المضي لقتال النفير بعد أن خرجوا من المدينة قاصدين العير ، وأنهم كما كرهوا الخروج الى العير فقد كرهوا أيضا المضي لقتال النفير .. هذا هو معنى الآية ، وهو واضح وبسيط ، ولكن المفسرين حاروا في تفسيرها ، وذكر صاحب البحر المحيط خمسة عشر قولاً .

ومن الطريف ما قاله هذا المفسر في كتاب آخر : انه ذكر في البحر المحيط ١٥ قولاً للآية ، ولم يقتنع بشيء منها ، حتى رأى في النوم انه يمشي في رصيف ومعه رجل يباحت في قوله تعالى : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾ فقال له : ما

مر بي شيء مشكل في القرآن مثل هذا .. ولعل هناك محذوفاً يصح به المعنى ما وقفت فيه لأحد المفسرين على طائل ، ثم قلت للرجل : ظهر لي الساعة ان ذاك المحذوف هو نصرك . وما أردت بذكر ما حدث لهذا المفسر الجليل ان أمس من مكانته ، وانما أردت التدليل على ان العالم الفطن قد تسد أحياناً في وجهه نوافذ الفطنة ، فتلجئه الحيرة إلى التشبث بكل شيء .. حتى بالأحلام يفسر بها القرآن ، وهو في واقعه في فطرته على يقين من خطئه ، دون أن يلتفت الى هذا الواقع ، وهنا مكان الغرابة .. كيف يكون على يقين ، وهو غير ملتفت ؟. ولكن هذا هو الواقع .. والدليل انه لو رأى من غيره ما ارتضاه لنفسه لأنكر عليه .

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ جادل فريق من المؤمنين في لقاء النفي وقتاله ، مع ان هذا اللقاء والقتال حق وخير ، وآثروا العير لأنها أكثر أموالاً ، وأقل رجالاً .. وقوله تعالى : ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ يشير إلى أنهم جادلوا بعد أن أخبرهم النبي (ص) بالنصر ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إلى الموت وأسبابه عياناً ، وهذه صورة يرسمها القرآن لشدة خوفهم من قريش ، لأنها أقوى عدة ، وأكثر عدداً .

وتسأل : ان المسلمين يقدسون البدرين ، ويرفعونهم إلى المكان الأعلى ، وما هو القرآن يدين بعضهم صراحة ، وانهم جادلوا النبي على رغم بيان الحق لهم ووضوحه عندهم لأن الوحي نزل به وأخبرهم عنه الرسول الأعظم (ص) .

الجواب : ان هذا لا يحيط من شأنهم ، ولا يمس من إيمانهم بالله ورسوله . إنهم بشر تحتز نفوسهم إذا رأوا الموت برغم إيمانها واطمئنانها ، هذا إلى انها غمامة صيف عرضت ، ثم تقشعت . ومضوا مع النبي ، وواجهوا الموت بعزم وثبات .

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ : إما الانتصار في الحرب على قريش ، ولا عير ، وإما العير ، ولا انتصار ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ غير ذات الشوكة هي العير وأموالها ، وقد آثروها على القتال والجهاد في سبيل الله ، ولكن الله أراد الخير لهم وللإسلام بتحطيم الشرك والطغيان ﴿وَيُرِيدُ﴾

اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤﴾. المراد بالحق هنا ظفر المسلمين بالمشركين ، والمراد بكلماته وعده بأن تكون إحدى الطائفتين للمسلمين ، والمعنى انكم أيها المسلمون أردتم الحطام الزائل ، وأراد الله أن ينصركم على صناديد قريش أعداء الله وأعدائكم ، ويهلكهم بأيديكم ، ويستأصل الكافرين منهم ، ويحقق وعده بالنصر لكم ، فأيهما خير وأفضل : هذه العزة والكرامة ، أو الأباغر وحمولتها؟.

﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾. المراد بالحق في الآية السابقة أي قوله تعالى : ﴿أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ انتصار المسلمين على قريش ، والمراد بالحق هنا الإسلام ، والمجرمون أعداؤه ، والمراد بالباطل الشرك ، وإحقاق الحق يكون بإظهاره وإعلانه على الملأ ، أو بانتصار أهله ، أو بهما معا ، وإبطال الباطل يكون باعلانه ، أو خذلان المبطلين ، أو بهما معا ، وأوضح تفسير لهذه الآية قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. ٣٣ التوبة.

اذ تستغيثون ربكم الآية ٩ . ١٤ :

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ

كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكَمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابَ النَّارِ (١٤)

اللغة :

مردفين من أردفه إذا ركب وراءه ، والمراد ان للألف من الملائكة تبعاً. أو ان الألف يأتي بعضهم في أثر بعض. والرجز الشيء المستقذر حساً أو معنى. والريط على القلب اطمئنانه. وفوق الأعناق الرؤوس. والبنان أطراف الأصابع من اليد أو الرجل. وشاقوا الله ورسوله خالفوهما.

الاعراب :

إذ تستغيثون إذ ظرف متعلق بمحذوف أي اذكروا إذ تستغيثون ، وقيل بدل من إذ يعدكم. ومردفين حال من ألف. والضمير في جعله يعود الى الامداد ، وهو مصدر متصيد من ﴿مُذَكُّكُمْ﴾. وبشرى مفعول لأجله. ولتطمئن منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك معطوف على بشرى لأن المعنى إلا للبشارة وللاطمئنان. وفاعل يغشيكم ضمير مستتر يعود الى الله ، والناس مفعول به ليغشيكم ، وامنة مفعول لأجله. ذلك بأنهم شاقوا ذلك مبتدأ وبأنهم شاقوا خبر ، والكاف لخطاب السامع. وذلكم خبر لمبتدأ محذوف أي أمر الله أو عذاب الله ذلكم ، والخطاب للمشاقين.

المعنى :

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

لما تأكد المسلمون ان القتال واقع لا محالة مع عدو أقوى عدة ، وأكثر عددا التجأوا الى الله يطلبون منه النجاة من هذه الشدة ، ولما علم الله منهم صدق النية والعزم أنبأهم جل ثناؤه بلسان نبيه (ص) انه قد استجاب دعاءهم ، وانه ينجدهم بألف ملك يأتي بعضهم إثر بعض. وتساءل : قال سبحانه هنا : بمدكم بألف مردفين ، وفي الآية ١٢٤ من آل عمران قال : بمدكم بثلاثة آلاف منزلين ، وفي الآية التي بعدها بلا فاصل قال : بخمسة آلاف مسؤمين. فما هو وجه الجمع بين الآيات الثلاث؟. وأجبنا عن هذا السؤال في ج ٢ ص ١٥٢.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. يقول جلت عظمتة : ان الغرض من هذا الامداد ان تطمئنوا وتصبروا في قتال العدو ، لا أن تتكلوا على الملائكة ، بل عليكم أن تبذلوا كل جهد ، ولا تبقوا منه بقية ، أما النصر فلا يكون ولن يكون إلا بمشيئة الله ، لا بجهودكم ولا بامداد الملائكة. وتقدمت هذه الآية في سورة آل عمران رقم ١٢٦ ج ٢ ص ١٥٢.

ثم ذكر سبحانه ستة وجوه لنعمته على المسلمين.

١. ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ﴾. في يغشيكم ضمير يعود الى الله ، وكذلك ضمير منه .. خاف المسلمون من المشركين لكثرتهم ، فعالج خوفهم بالنوم ، وما استيقظوا منه إلا وأنفسهم تغمرها السكينة ، وكلنا يعلم بالتجربة ان النوم يخفف الكثير من وطأة الحزن والخوف ، قال الإمام علي (ع) : ما انقض النوم لعزائم اليوم. أي قد يعزم المرء على أمر فإذا نام وقام انحلت عزيمته.

٢. ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾. بعد أن أخذ المسلمون قسطا من الراحة بالنوم وجدوا أنفسهم بحاجة الى الماء ، لأنهم لم يكونوا قد وصلوا الى بدر آنذاك ، فأنزل الله عليهم المطر فشربوا وتطهروا ، وهذه نعمة ثانية تأتي بعد النوم.

٣. ﴿وَيُذْهِبْ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾. كان الشيطان يوسوس للمسلمين ، ويخوفهم من المشركين ، وقد أذهب الله هذا التخويف الذي عبر عنه برجز الشيطان ، أذهب به النوم والامداد بالملائكة.

٤ . ﴿وَلَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ بزوال الخوف والفرع.

٥ . ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾. قال أكثر المفسرين : ان ضمير به يعود الى الماء ، وان المراد بالأقدام الأرجل ، وذلك ان المسلمين كانوا في رملة لا تثبت فيها قدم ، فلما نزل المطر تلبدت الرملة وتماسكت ، وثبتت عليها أقدام المسلمين.

هذا ما جاء في أكثر التفاسير ، أما نحن فنختار ان ضمير به يعود إلى مصدر متصيد من ليربط قلوبكم ، وان المراد بتثبيت الأقدام الثبات في ميدان القتال ، وعدم الفرار منه ، والمعنى ان الله يثبتكم في القتال بما منحكم من ربط القلوب واطمئنانها.

٦ . ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾. الخطاب في ربك لمحمد (ص) وفي معكم وثبتوا للملائكة عملا بظاهر السياق ، أي ان الله مع الملائكة يسمع ويرى ، تماما كقوله لموسى وهرون : ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ . ٤٦ طه.

وتسأل : على أي شكل شارك الملائكة في نصرته المسلمين يوم بدر؟ هل كانت بالضرب والقتل ، أو بالتشجيع ، وانهم كانوا يسيرون أمام الصف في صورة الرجال المقاتلين ، ولا يقاتلون ، وإنما يقولون للمسلمين : ابشروا فان الله ناصركم ، كما قال بعض المفسرين.

الجواب : لقد أخبر سبحانه انه أمر الملائكة أن يثبتوا المؤمنين ، وليس من شك في أنهم فعلوا ، لأنهم يفعلون ما يؤمرون ، وأيضا ليس من شك ان المشركين هابوا المسلمين وتخوفوا منهم ، لأن الله وعد بذلك ، ووعدته الحق ، وان المؤمنين انتصروا على المشركين .. هذا كل ما دل عليه ظاهر النص ، أما التفصيلات والكيفيات فهي من الغيب الذي سكت الوحي عنه ، فبالأولى أن نسكت نحن ، وسكوت الوحي دليل قاطع على ان الإيمان بالتفصيلات ليس من العقيدة في شيء ، وإلا وجب بيانها.

﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾. قال بعض المفسرين :

الخطاب في اضرِبوا للملائكة. وقال آخرون : بل للمسلمين. ثم اختلفوا في المراد من فوق الأعناق ، فمن قائل : المراد الأعناق بالذات ، وان فوق بمعنى على ، ومن قائل : المراد الرؤوس ، ومن الطريف قول بعض الصوفية : ان المراد النفوس الخبيثة .. والذي نختاره نحن ان الخطاب للمسلمين ، لأنهم المقصودون بالقتال ، وان قوله : فوق الأعناق وكل بنان كناية عن حث المسلمين على الشدة في قتال المشركين ، وان لا تأخذهم بهم هواده ، ولا يدعوا فرصة تمر إلا ضربوهم في أي عضو من أعضائهم اتفق ، فهذه الآية أشبه بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ . ٢ . النور.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. ذلك اشارة إلى لزوم معاملة المشركين بالشدة ، وبأنهم بيان للسبب الموجب لهذه الشدة ، وهو وقوف المشركين من الله والرسول موقف المخالف والمعاند ﴿ذَلِكَمَ فَذُوقُوهُ﴾ ذا اشارة الى العقاب الشديد وخطاب كم للذين شاقوا الله والرسول ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ الى جانب ما أصابهم في الدنيا من القتل والأسر والهزيمة ، وليست هذه بشيء بالقياس الى النار الكبرى.

الفرار من القتال الآية ١٥ . ١٩ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكَمَ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ

تَعُودُوا نَعْدَ وَلَنْ تَغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

اللغة :

الزحف الدنو قليلا قليلا. والأدبار جمع دبر ، وهو الخلف ، والمراد به هنا الهزيمة. وقال صاحب البحر المحيط : المتحرف للقتال هو الذي يكر بعد أن يفر يري عدوه انه منهزم ، ثم يعطف عليه. ومتحيزا الى فئة منحازا الى جماعة من المسلمين. والمأوى الملجأ. والموهن المضعف.

الإعراب :

زحفا حال من الذين كفروا أي زاحفين. والأدبار مفعول ثان لتولوهم. ومتحرفا أو متحيزا حالان من الواو في تولوهم. ذلكم خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر ذلكم. وتسبك ان الله موهن بمصدر خبرا لمبتدأ محذوف أي الأمر كون الله موهنا كيد الكافرين ، والجملة عطف على جملة الأمر ذلكم.

المعنى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾. يقال : زحف العسكر إذا توجه للقتال ، وسبق ان المشركين خرجوا من مكة لقتال المسلمين ، وهذه الآية من تعاليم الحرب ، وهي تأمر المسلمين أن يثبتوا لعدوهم ، ولا يفرؤا منه إذا زحف لقتالهم ، لأن الفرار وهن في الدين ، وذلل للمسلمين.

﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ

مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . الا متحرفا لقتال أي تاركا موقفه إلى موقف أحكم وأصلح للقتال ، أو متحيزا إلى فئة أي منحازا إلى جماعة أخرى من المسلمين تقاتل العدو لأنهم بحاجة اليه ، أو هو بحاجة اليهم ، والمعنى اثبتوا أيها المسلمون لعدوكم في المعركة ، ولا تفروا منها الا أن تختاروا موقعا أحسن ، أو تدبروا خطة أحكم بانضمام بعضكم إلى بعض ، وان من فر من العدو بلا مبرر فقد استحق غضب الله ومأواه جهنم.

وقد أفتى الفقهاء بتحريم الفرار من الزحف إلا إذا كان عدد جيش العدو أكثر من ضعف عدد جيش المسلمين .. وفي رأينا ان الفقهاء لا يملكون هنا الفتوى بوجوب الثبات ، ولا بجواز الفرار ، وان الأمر في ذلك يجب أن يترك لتقدير القائد الأمين الخبير ، لأنه هو المسئول عن الحرب ، وليس الفقهاء ، فيجب أن يترك له تقدير وجوب الثبات أو الفرار ، فقد يرى الثبات مع زيادة عدد العدو ثلاثة أضعاف ، وقد يرى لزوم الفرار والانسحاب من المعركة مع زيادة عدد المسلمين أضعافا مضاعفة ، لأن الثبات عملية انتحارية ، وفي جميع الحالات يجب الأخذ بقوله ، لا بقول الفقهاء الذين يفتون ، وهم على الوسائد متكئون .. هذا ، إلى أن قول الفقهاء في الحروب قد ذهب بذهاب وقته الذي كانت تقاس فيه القوة بالكم لا بالكيف ، وبعدد الجيش لا بمعداته الجهنمية الحديثة.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ . انتصر المسلمون ببدر على المشركين ، فقتلوا منهم من قتلوا ، وأسروا من أسروا ، وسبب هذا الانتصار ثبات المسلمين وصبرهم في القتال ، أما سبب هذا الثبات والصبر فهو ما أشارت اليه الآيات السابقة من ان الله ربط على قلوب المسلمين ، وثبت أقدامهم ، وأمدهم بالملائكة ، وأزال الرعب من قلوبهم وألقاه في قلوب المشركين .. وعلى هذا تصح نسبة قتل المشركين إلى المسلمين لأنه كان بأيديهم ، وبسبب ثباتهم وصبرهم ، وأيضا تصح نسبته إلى الله تعالى لأنه هو الذي مهد لهم لهذا الثبات والصبر بالاضافة إلى انه سبب الأسباب .. وفي رواية ان بعض المسلمين قال يوم بدر أنا قتلنا فلانا. وقال آخر : وأنا قتلنا فلانا. فأنزل الله سبحانه : فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ . أجل ، ان الله رمى ، ولكنه

اختار لرميته كف محمد (ص) الذي فضله على جميع خلقه ، وخصه برسالته التي عمت رحمتها جميع العالمين. وروي ان النبي أخذ يوم بدر قبضة من الحصى أو التراب ، ورمى بها المشركين ، وقال : شأهت الوجوه ، فأعقب ذلك هزيمتهم. وغير بعيد أن تكون هذه الرواية صحيحة ، وأيضا غير بعيد أن يكون المراد بالرمية تدير الأمر وأحكامه ، ومهما يكن ، فان مشيئة الله هي سبب الأسباب ، بما وجد محمد (ص) والحصى والكون بما فيه ، فان أي سبب مباشر أو غير مباشر لأية حادثة من الحوادث فإنها تنتهي إلى قوة عليا وجدت من غير موجد ، وإلا كانت كلمة الوجود لفظا من غير معنى ، تماما كما لو قلت : لا أحد يعطي المال ، حتى يأخذه من غيره فان هذا تعبير ثان عن قولك : لا أحد يعطي المال على الإطلاق ، لأنك نفيت الأصل الذي يعطي ولا يأخذ ، وبانتفاء الأصل ينتفي الفرع.

﴿وَلْيُبَلِّغِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾. البلاء والابتلاء يستعملان بمعنى الاختبار ويكون الاختبار بالنعمة لإظهار الشكر ، وبالحنة لإظهار الصبر ، وأيضا يستعمل كل من البلاء والابتلاء بالإعطاء ، وهذا المعنى هو المراد بالبلاء في الآية ، أما المراد بالحسن فهو النصر والغنيمة ، أي ان الله سبحانه أمر المسلمين بالثبات والصبر وعدم الفرار من الزحف ، ومهد لهم السبيل الى ذلك ليتم عليهم نعمته بالنصر والغنيمة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. فقد سمع استغاثة المسلمين واستجاب لهم لأنه علم منهم صدق النية وصحة العزم.

﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾. ولا نعمة أجل وأعظم من ضعف العدو ، وإبطال كيده وحيله ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. الخطاب في أن تستفتحوا وان تنتهوا وان تعودوا وفي لكم وعنكم وفئتكم ، كل أولاء للمشركين بقرينة السياق واستقامة المعنى. وروي ان المشركين حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة ، فاستنصروا الله ، وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين ، وأكرم الفئتين. فأجابهم الله بقوله : ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح الخ. أي إن تستنصروا للأعلى والأهدى فقد استجاب الله ونصر

الأعلى والأهدى ، فان انتهيتم عن حرب المسلمين ومشاقة الله والرسول فالانتهاء خير لكم وأبقى بعد أن ذقتم من القتل والأسر والهزيمة ما ذقتم ، وان عدتم إلى الحرب والمشاقة يحل بكم ثانية ما حل بكم أولا. أما الكثرة التي تعتزون بها فقد رأيتم انها لا تدفع عنكم القتل والأسر والهزيمة ، فان الله هو الناصر ، وهو مع المؤمنين ، فان أردتم النصر حقا فدعوا الشرك ، وآمنوا بالله ورسوله.

طاعة الله والرسول الآية ٢٠ . ٢٣ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٣)

المعنى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ جاء هذا النداء منه تعالى للمؤمنين بعد قوله : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والغرض من النداء والأمر بطاعة الله والرسول هو تحديد المؤمن الذي ينصره الله ، ويكون معه أينما كان ، وانه الذي يطيع الله ورسوله فيما يأمران به ، وينهيان عنه ، وان من خالف وعصى فقد استحق من الله العذاب والخذلان ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾. التولي الاعراض ، وضمير عنه يعود الى الرسول ، ومفعول تسمعون محذوف أي تسمعون كتاب الله وآياته.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾. يستعمل السماع كثيرا

في القبول ، ومنه : لا أسمع منك أي لا أقبل منك. وسماعون للكذب أي قابلون له ، وهذا المعنى هو المراد بالسماع في الآية ، أي ان الله سبحانه نحى المؤمنين أن يكونوا كالمنافقين يظهرون القبول من النبي والطاعة لأمره ، ويضمرون المخالفة والعصيان.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾. الأصم لا يسمع ، والأبكم لا يتكلم ، والدواب لها آذان تسمع بها ، ولكنها لا تفهم الكلام الذي تسمعه ، ولها ألسنة ولكنها لا تنطق ، فهي لا تفهم ولا تفهم ، ومن يسمع كلام الله والرسول ، ثم لا يهتدي به فمثله كمثل الدابة الصماء البكماء تسمع الكلام ولا تنتفع به.

طالب حق وطالب صيد :

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾. الناس اثنان : الأول طالب حق ، مجردا عن كل غاية .. وهذا لا يؤمن بمبدإ ، ولا يرى رأيا إلا بعد البحث وإمعان النظر في الأدلة ، ثم يبنى آراءه عليها. والثاني طالب صيد لا يؤمن إلا بذاته ومصالحه ، فيرحب بما يلائمها ، وان كان باطلا ، ويرفض ما ينافيها ، وان كان حقا.

والله سبحانه يسمع دعوة الحق لكل من الاثنين على السواء إلقاء للحجة ، قال تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وبعد البيان الذي تتم به الحجة على الجميع يزيد سبحانه من النصح والإرشاد للذين يستجيبون له وينتفعون به : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾. ١٧ محمد. أما الذين لا يستجيبون إلا لمنفعتهم الذاتية فان الله يعرض عنهم ، ما دام النصح لا يجدي معهم شيئا. وهذا هو المراد من قوله : ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ .. ويدل على ذلك قوله بلا فاصل : ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي لو أسمعهم الحق لأعرضوا عنه لأنه لا يلائم أهواءهم.

الدين والدعوة الى الحياة الآية ٢٤ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)﴾

إذا في قوله تعالى : ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ليست للشرط ، وإنما هي لبيان موضوع دعوة الله والرسول ، وتقريرها وحصرها بالدعوة إلى الحياة بأكمل معانيها.

ومن أحاط بالإسلام علماً يجد أن كل أصل من عقيدته ، وكل فرع من شريعته يرتكز على الدعوة صراحة أو ضمناً إلى العمل من أجل الحياة .. فالإيمان بالله يستدعي الإيمان بالتحلل من العبودية إلا لله وحده ، وبأنه لا سلطان للمال ولا للجاه ولا للجنس ولا لشيء إلا للحق والعدل ، وبديهة أن الحياة الطيبة القوية لا توجد ، ومحال أن توجد إلا مع الالتزام بهذا المبدأ وتطبيقه. أما الإيمان برسالة محمد (ص) فهو عين الإيمان بشريعة الإخاء والمساواة ، وبحرية الإنسان وحمانيته ، وبكل مبدأ يعود على الإنسانية بالخير الصالح .. ذلك بأن رسالة محمد تهدف إلى هدي البشر وإسعاده ، وبث العدل بين أفرادهم ، أما الإيمان باليوم الآخر فهو الإيمان بأن الإنسان لا يترك سدى ، وأنه مسؤول عن كل صغيرة وكبيرة من أعماله يحاسب عليها ويكافأ ، أن خيراً فخير ، وأن شراً فشر .. وهذا الإيمان - كما ترى - أشبه بالقوة التنفيذية ، أو بالحافز على العمل بما يوجبه الإيمان بالله والرسول.

هذا فيما يعود إلى أصول العقيدة ، أما الفروع ، وأعني بها ما يجوز من الأفعال ، وما لا يجوز في الشريعة الإسلامية فإنها تقوم على مبدأ إنساني أشار إليه الإمام جعفر الصادق (ع) بقوله : كل ما فيه صلاح للناس بجهة من الجهات فهو جائز ، وكل ما فيه فساد بجهة من الجهات فهو غير جائز .. هذه هي دعوة الله والرسول التي نص عليها القرآن بصراحة ووضوح : ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ

وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴿٣٢﴾. وإذا عطفنا على هذا النص الآية ٣٢ من آل عمران : ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ إذا عطفنا هذه الآية على تلك ، وجمعنا بينهما تشكل معنا هذا القياس المنطقي : لقد دعا الله والرسول إلى العمل من أجل الحياة ، وحكم سبحانه بكفر من أعرض وتولى عن هذه الدعوة. فالنتيجة الحتمية ان الذي لا يعمل من أجل الحياة فهو كافر ^(١).

وبهذا يتبين معنا ان الإسلام يسير مع الحياة جنباً الى جنب ، وان كل ما هو بعيد عن الحياة فما هو من الإسلام في شيء ، وان أي انسان . كائناً من كان . يدعو الى حياة لا استغلال فيها ولا ظلم ولا مشكلات فان دعوته هذه تلتقي مع دعوة الله والرسول ، سواء أراد ذلك ، أم لم يرد ، وان من يقف في طريق الحياة وتقدمها فهو عدو لله وللرسول ، وان قام الليل ، وصام النهار .. أما تلك الزمرة التي ظهرت في عصرنا ، وباعت دينها للصهيونية والاستعمار ، وتستترت باسم الدين ، اما هذه الزمرة العميلة فقد أشرنا اليها في ج ٢ ص ١٦٦ عند تفسير الآية ١٤٢ من سورة آل عمران.

﴿وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. القلب محل الايمان والكفر ، والإخلاص والنفاق ، والحب والبغض ، وعنه تصدر الأعمال خيراً وشرها ، ولو لا القلب لم يكن الإنسان إنساناً ، وكفى به عظمة قوله تعالى : ما وسعني أرضي ولا سمائي ، ووسعني قلب عبدي المؤمن ، وما من شك ان الذي يتسع لما ضاقت عنه السموات والأرضين فهو أعظم منها.

وتسأل ، كيف اتسع هذا العضو الصغير لمن ضاقت عنه السموات والأرضون ، ثم لما ذا خص تعالى قلب المؤمن دون قلب الكافر؟.

الجواب : ليس المراد بالسعة في هذا الحديث القدسي السعة المكانية ، لأن الله

(١). عند تفسير الآية ٤٧ من المائدة ذكرنا ان الكفر إذا أضيف الى العمل فالمراد به الفسق ، وان الفسق إذا أضيف الى العقيدة فالمراد به الكفر ، وعليه يكون المراد بكفر تارك العمل من أجل الحياة الكفر العملي ، لا الكفر العقائدي.

لا مكان له ، وانما المراد بها سعة الإدراك والفهم عن الله ، وان قلب المؤمن يفهم عنه تعالى ما لا تفهمه السموات والأرض ، وكذلك قلب الكافر لا يفهم عن الله شيئا ، لأنه في كن من الضلال والفساد : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ . ٥ فصلت.

وبهذا يتضح ان المراد بالمرء الذي يحول الله بينه وبين قلبه هو الذي أعماه الهوى والضلال ، وعليه تكون هذه الآية بمعنى الآية ٧ من سورة البقرة : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي انهم لا ينتفعون بقلوبهم بسبب ما ران عليها من الضلال ، حتى كأن الله قد ختم عليها أو حال بين أصحابها وبينها .. وعلى هذا تكون نسبة الختم والمنع اليه تعالى مجازا ، لا حقيقة.

وذهب جماعة من المفسرين الى ان معنى قوله تعالى : ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ ان القلب في قبضة الله يقلبه كيف يشاء ، فيفسخ عزائمه ، ويبدله بالذكر نسيانا ، والنسيان ذكرا ، والخوف أمنا ، وبالأمن خوفا .. وكل من التفسيرين محتمل.

واتقوا فتنة الآية ٢٥ . ٢٩ :

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ

لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

اللغة :

للفتنة معان ، منها العذاب ، وهو المراد من الفتنة في قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾
بدليل قوله في نفس الآية : ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. أما الفتنة في قوله : ﴿أَمَّا أَمْوَالُكُمْ
وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فان المراد منها المحبة والهوى الذي يصد عن الحق. ويجعل لكم فرقانا أي
هداية ونورا تفرقون به بين الحق والباطل.

الإعراب :

لا تصنيف نفي بمعنى النهي ، ولهذا دخلت على الفعل نون التوكيد ، والجملة صفة
للفتنة. وتحنونوا أماناتكم عطفا على لا تحنونوا الله والرسول.

المعنى :

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.
هذا تحذير منه تعالى لكل مفتن يفسد في الأرض ، بخاصة الذين ييثون الخلافات والنعرات
الدينية ، ويقلقون راحة الأمنين ، ويعتدون على المستضعفين ، هذا تحذير منه تعالى بأن
شرور الفتنة ومفاسدها لا تقتصر على الظالمين ، بل تعم المجتمع بكامله صالحه وطالحه ..
وفي تفسير الطبري نقلا عن السدي ، وهو مفسر كبير ، ان هذه الآية تنطبق على أصحاب
الجميل الذين حاربوا علي بن أبي طالب وذكر الرازي عند تفسير هذه الآية : ان الزبير كان
يسامر رسول الله (ص) يوما إذ أقبل علي رضي الله عنه فضحك اليه الزبير ، فقال له رسول
الله :

كيف حبك لعلي؟ فقال : يا رسول الله أحبه كحبي لولدي أو أشد. فقال له الرسول : كيف أنت إذا سرت اليه تقاتله؟.

وأيضا في تفسير الطبري : ان الزبير بن العوام قال : قرأنا هذه الآية زمانا ، وما أرانا من أهلها ، فإذا نحن المعنيون بها.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. الخطاب لصحابة الرسول (ص) يذكرهم الله تعالى بما كانوا فيه قبل الإسلام من الضعف والخوف ، والمهانة والفقر ، وبما هم عليه بعد الإسلام من الأمن والمنعة ، والغنى والعز ، لأنهم استجابوا لدعوة الحياة التي دعاهم اليها الله ورسوله ، والغرض من هذا التذكير أن يستمروا على الطاعة والاستجابة لدعوة الحياة ، ليعيشوا في ظلها أقوياء أعزاء .. وانهم متى أعرضوا وعصوا عادوا إلى ما كانوا فيه من الضعف والهوان كما هي حال المسلمين اليوم ، بخاصة العرب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾. وليست خيانة الله والرسول بترك الصوم والصلاة فقط ، وإنما الخيانة العظمى هي خيانة الأمة والوطن ، هي أن يتولى الطغاة مركز القوة والقيادة ، ويتحكموا بالبلاد ومقدراتها ، وان نصبر عليهم وعلى طغيانهم ، ونسكت عن حربهم وجهادهم ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾. أي ولا تخونوا أماناتكم. وقال كثير من المفسرين : ان هذا نهي عن خيانة الأمانة فيما بين الناس من المعاملات المالية .. وليس من شك ان رد الأمانة واجب ، وان خيانتها حرام ، ولكن من الخيانة ، بل من أعظمها عدم التعاون مع المستضعفين لاسترداد حقوقهم من الأقوياء الظالمين ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ولا أحد أجراً على الله ممن يقدم على معصيته عالماً متعمداً.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾. جاءت هذه الآية بعد النهي عن الخيانة للتنبيه إلى أن المؤمن لا ينبغي له أن يمنعه المال والولد عن القيام بواجبه تجاه الله والأمة والوطن ، والمراد بالفتنة هنا المحبة التي تصد عن الحق والخير. وقد روي عن النبي (ص) انه قال : الولد ثمرة القلب ، وانه مجبنة مبخله محزنة ، تماما كالمال ، فانه ثمرة عرق الجبين وكبد اليمين ، وهو مجبنة لأن

أيضا : «أمرني ربي بالمدارة ، كما أمرني بالفرائض». وأجمع الفقهاء على أن الكذب واجب إذا توقف عليه حفظ النفس البريئة ، وخلاصها من الهلاك ، وإن الصدق حرام في النميمة والغيبة ، فالنمام صادق ، والمغتتاب صادق ، ولكنهما مذمومان عند الله والناس ^(١). وبعد ، فأن الرياء المحرم هو أن يتظاهر المرء أمام الناس بما ليس فيه ، فيزيههم الخير والصلاح من نفسه ، ليحظى عندهم بمكان الصالحين الخيرين ، وهو من الأشرار المفسدين. (مذبذبين). يتظاهرون تارة مع المسلمين ، وتارة مع الكافرين ، وهم في الواقع (لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء). بل إلى منافعهم ومطامعهم ... يقبلون كل يد تقبض على منفعتهم ، أو على شيء منها ، قدرة كانت اليد ، أو طاهرة. (ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً). أي إن الله سبحانه قد تخلى عنهم ، وأوكلهم إلى أنفسهم لعنادهم وتمردهم على الحق ، ومن كان هذا شأنه فلن يؤوب إلى رشد. ولا بد من التنبيه إلى أن حكمة الله تعالى تستدعي أن لا يتخلى عن عبده ، تماماً كما لا تتخلى الوالدة عن وليدها ، إلا إذا كان العبد هو السبب الموجب لتخلي الله عنه لولوجه في العصيان والتمرد ، كما تتخلى الأم عن ابنها لغلوه في العقوق. وتقدم هذا النص القرآني بالحرف في الآية ٨٨ من هذه السورة ، وتكلمنا عنها هناك مفصلاً ، فقرة «الاضلال من الله سلبى لا إيجابى» ، كما بسطنا القول في أقسام الهدى والضللال عند تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة، المجلد الأول ص ٧٠.

لا تتخذوا الكافرين أولياء الآية ١٤٤ . ١٤٧ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(١) نصوص الكتاب والسنة تقوم على أساس العمل بما فيه مصلحة ، وترك ما فيه مفسدة ، فحيث تكون المصلحة يكون الأمر ، وحيث تكون المفسدة يكون النهي ، ومن هنا جاز الكذب مع المصلحة ، وحرم الصدق مع المفسدة الترتبة على الغيبة والنميمة.

واذ يمكر بك الآية ٣٠ . ٣٥ :

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا هُمْ إِلَّا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَفَقُّونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)﴾

اللغة :

إذا نسب المكر إلى الإنسان فمعناه الحيلة والخداع ، وإذا نسب إلى الله فمعناه إبطال المكر. ليثبتوك أي يمنعوك من الحركة بالحبس أو شد الوثاق. والأساطير جمع اسطورة أي سطرت في الكتب من غير تمحيص. المكاء التصغير بالفهم. والتصدية التصفيق باليد.

الإعراب :

ان هذا ان نافية. هذا هو الحق هو ضمير فصل لا محل له من

الاعراب ، والحق خبر كان. واللام في ليعذبهم تسمى لام الجحود لمجيئها بعد النفي ، والفعل منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك مجرور باللام متعلقا بمحذوف خبرا لكان ، والتقدير ما كان الله مريدا لعذابهم. وما لهم مبتدأ وخبر. والمصدر المنسبك من ان لا يعذبهم منصوب بنزع الخافض ، وقدره الطبرسي وأبو البقاء في والصحيح انه من والمعنى أي شيء يمنع من عذابهم وهم يصدون. وصلاتهم اسم كان ، ومكاء خبرها.

المعنى :

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾. في الآية السابقة ٢٦ ذكر الله سبحانه المسلمين بنعمه عليهم ، وفي هذه الآية ذكر النبي (ص) بنعمه عليه ، وذلك ان المشركين من قريش أجمعوا على الخلاص من محمد (ص) ، واختلفوا في الوسيلة التي يتخلصون بها منه .. فمن قائل : نجسه ونقيده ، وقال آخر : بل نخرجه من مكة ، ثم اتفقوا على أن يختاروا من كل قبيلة رجلا على أن يفتحهم الجميع عليه بيته ، وهو نائم في فراشه ، ويضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل كلها ، ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب .. قال المفسرون ، ومنهم الطبري والرازي وأبو حيان الأندلسي : ان الله أوحى الى نبيه بذلك ، وأمره أن يخرج الى المدينة ، وأن يأمر علي بن أبي طالب بالمبيت في مضجعه ، وبات علي في فراش الرسول ، واتشح ببردته ، ولما بادر القوم إلى المضجع أبصروا عليا فبهتوا. وأوصى النبي (ص) عليا أن يرد ودائع للناس كانوا قد أودعوها عند رسول الله. وقوله تعالى : ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ يشير إلى من قال : احبسوه وقيدوه. وقوله : ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ يومئ إلى من أشار بإخراجه. وقوله : ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ أراد به ما اتفقوا عليه من القتل.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾. أما مكر قريش فهو تأمرهم على قتل محمد (ص) بأسلوب يعجز الهاشميون عن الاقتصاص من قاتله. أما مكر الله فهو إبطال مكرهم وكيدهم بما دبر سبحانه من خروج النبي ، ومبيت علي

في فراشه. وتقدم الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٥٤ من آل عمران ج ٢ ص ٦٦.

﴿وَإِذَا تُلِيَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. قالت قریش عن القرآن : انه أساطير ، وانها لو شاءت لقالت مثله ، قالت هذا ، وهي تعلم علم اليقين ان القرآن من عند الله ، لأنه تحداها والناس أجمعين على أن يأتوا بسورة من مثله ويدعوا من يشاءون ، ولما عجزت قریش لجأت الى الافتراءات والمناورات تخفي عجزها وضلالها ، شأها في ذلك شأن كل من عجز عن مجابهة الحق بالحجة والمنطق.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. قد تأخذ بعض الناس العزة بالإثم تعصبا لكبريائهم تماما كما يتعصبون لدينهم أو أشد ، حتى انهم ليؤثرون القتل على الخضوع للخصم وان كان محقا ، ويستسلمون للهلاك والعذاب ، ولا يتنازلون عن تعاليمهم وتقاليدهم وفي التاريخ الكثير من هؤلاء ، ذكر القرآن منهم فرعون وقوم نوح وغيرهم .. وقالت قریش حين دعاها النبي (ص) إلى الإسلام : اللهم ان كان محمد محقا في دعواه فأمطر علينا حجارة من السماء. أي انهم يفضلون الهلاك رجما بالحجارة على أن يتبعوا محمدا ، وان كان نبيا مرسلا من الله.

فأجابهم الله سبحانه بأن العذاب أمامهم ، وان الباب اليه ما زال مفتوحا ، وإنما أمهلهم بعض الوقت لسبب واحد أشار اليه بقوله : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾. أي ان الله جل ثناؤه لا يعذب أهل مكة ، ومحمد بين أظهرهم إكراما له ، وتعظيما لشأنه.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. أي وهم يؤمنون برسالة محمد (ص) بعد أن قال عز من قائل : انه لا يعذب قریشا ما دام محمد بينهم . قال : وأيضا لا يعذبهم إذا آمنوا ، سواء أكان محمد بينهم ، أم لم يكن ، فقلوه تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ بمعنى قوله : ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾. ١٤٦ النساء ، ويدل على ارادة هذا المعنى قوله بلا فاصل : ﴿وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾. وقوله مخاطبا قریشا : ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

وبكلمة بسيطة وواضحة ان معنى الآية انه تعالى لا يعذب قريشا إذا كان محمد بينهم ، وأيضا لا يعذبهم إذا أسلموا ، وعبر عن الإسلام بالاستغفار لأنه من لوازمه. وبهذا يتضح انه لا حاجة إلى التأويلات التي ذكرها المفسرون بالإضافة إلى أنها تترك القارئ في ظلمات لا يهتدي الى شيء.

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. ما لهم استفهام يتضمن معنى النفي ، أي لا شيء فيهم من دين أو خلق يمنع من عذابهم ، فإنهم الى جانب شركهم يصدون المسلمين عن عبادة الله في بيته الحرام ، فما كان المسلم ، حتى النبي (ص) يوم كان بمكة يستطيع الصلاة في المسجد الحرام ، دون أن يتحمل منهم الأذى والتكيل ، وقد اتفقوا على صد النبي والمسلمين بالقوة عن العمرة عام الحديبية ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي ان المشركين ليسوا أصحاب المسجد الحرام ، ولا هم أولياء عليه ، بل هم أعداء الله وأعداء بيته فيجب طردهم ومنعهم عنه ، لأنهم يدنسونه برجسهم ونجاستهم ، ومن أجل هذا حين قوي الإسلام منعهم من قربه : ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ . ٢٨ . التوبة.

﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ﴾. أي لا يحق لأحد كائنا من كان أن يتولى المسجد الحرام إلا إذا كان برا تقيا إلى جانب إسلامه وإقراره بالشهادتين. فكيف المشرك والجاحد؟ وموضوع الآية وان كان خاصا بأولياء المسجد الحرام ، ولكن التقوى شرط في كل من يتولى المساجد والمقامات الدينية ، لأن السبب الموجب هو طهارة المكان وقداسته .. والغريب ان أكثر الذين يتولون أمر هذه المقامات هم شرار الخلق الذين يتقنون فن الاحتيال والصوصية ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ان الولي على المساجد والعتبات المقدسة يجب أن يكون برا تقيا ، انه لا ولاية لفاسق.

وتسأل : ان قوله تعالى : ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ يشعر بأن الله قد عذب قريشا ، مع العلم بأنه لم يحل بهم ما حل بقوم الأنبياء السابقين كعاد وثمود وقوم نوح ولوط وغيره؟. الجواب : إن الذين آذوا النبي والمسلمين من قريش قتلهم الله يوم بدر بأيدي المسلمين أنفسهم .. وقد كان من جملة القتلى أبو جهل وعقبة بن أبي معيط

والنضر بن الحارث وأمّية بن خلف وغيرهم من صناديد قريش الذين كانوا يشتدون ويبالغون في أذى المسلمين. ونذكر من باب المثال أمّية بن خلف ، فقد كان يملك بلالا مؤذن الرسول (ص) وكان أمّية يعذبه في الرمضاء ، ويذيقه ألوان العذاب ، وفي يوم بدر خرج أمّية مع المشركين ، وخرج بلال مع رسول الله (ص) وما أن رأى بلال أمّية حتى صرخ : هذا رأس الكفر لا نجوت ان نجا ، واجتمع حول بلال بعض المستضعفين الذين. لاقوا الأذى من أمّية بن خلف ، واندفع بلال يضرب أمّية بالسيف حتى قتله ، وحمل رأسه على سيفه ، وهو يرقص طربا.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾. المكاء التصفير ، والتصديّة التصفيق ، وكأنّ سائلا يسأل : إن قريشا كانوا يصلون في المسجد الحرام ، فكيف استوجبوا العذاب؟ فأجاب سبحانه بأن صلاتهم كانت هرجا ومرجا لا خشوع فيها ولا خضوع ، لأنها كانت صفيرا بالأفواه ، وتصفيقا بالأيدي ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ الذي حل بكم يوم بدر ، وعذاب الآخرة أشد ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ولو أسلمتم لسلمتم من عذاب الدنيا والآخرة.

ان الذين كفروا ينفقون أموالهم الآية ٣٦ . ٤٠ :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنِّي يَنْتَهُوْا يُعْذَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ (٤٠)﴾

اللغة :

يركمه يضمه ويجعل بعضه فوق بعض. والمراد بالفتنة هنا الكفر.

الاعراب :

ليميز منصوب بأن مضمرة بعد السلام ، والمصدر المنسبك مجرور باللام متعلقا بيحشرون. ويجعل وفيركمه عطف على ليميز. وبعضه بدل بعض من الخبيث. وجميعا حال من الهاء في فيركمه. ونعم المولى ونعم النصير المخصوص بالمدح محذوف أي الله ، وهو مبتدأ ، والجملة من الفعل والفاعل خير مقدم.

المعنى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾. كان المشركون ينفقون أموالهم في قتال المسلمين ، وصد الناس عن الإسلام ، فبين سبحانه في هذه الآية أن تلك الأموال ستعود عليهم بالحسرة والخذلان في الدنيا ، والعذاب الشديد في الآخرة ، لأن النصر في النهاية لدين الله وأهله على الشرك وعبدية الأصنام.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾. هذا تعليل وبيان للسبب الموجب لحسرة المشركين وخذلانهم ، وهو ان الله سبحانه عادل وحكيم ، ومن عدله ان لا يتساوى عنده الخبيث والطيب ، والمؤمن والكافر ، بل يميز كلا عن الآخر ، ويعامله بما هو أهل له ، ومن أجل هذا يثيب الطيب ، ويرفع من شأنه في الآخرة ، وقد يجمع له بين ثواب الدارين ، ويخذل الخبيث المجرم ويعاقبه في الآخرة دار الحساب والجزاء ، وقد يعجل له نوعا من العذاب في الدنيا حسبما تقتضيه حكمته.

﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾. المراد جنس الخبيث أي ما ينطبق عليه هذا الاسم بدليل قوله : ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ والمعنى ان الله سبحانه يجمع الخبثاء غدا بعضهم فوق بعض متراكمين متراكبين ،

ثم يلقي بهم في نار جهنم ، كما يفعل الحاطب يحزم الحطب في حبله ، ثم يجعله وقودا للنار : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ . ١٥ الجن . ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وأي خسران أعظم من أن يكون المرء بلحمه ودمه وقودا لنار سجّرها جبارها لغضبه على من خان ربه وضميره! . اللهم إنا من عذابك خائفون ، وبك لائذون ، وأنت كريم لا تطرد من استجار بكرمك ، ولاذ إلى رحمتك .

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ . الخطاب للنبي (ص) يأمره الله به أن يعظ الكافرين ، ويقول لهم : ان باب التوبة مفتوح أمامهم ، وان الفرصة سانحة للانتهاء عن الكفر وعداوة الله والرسول ، فإن تابوا تاب الله عليهم ، لأن الإسلام يجب ما قبله ، كما جاء في الحديث ﴿وَإِنْ يَعْوِدُوا﴾ بعد التبين والتأمين الى عداوة الله والرسول ، والتجمع لحرب الإسلام وأهله ، وانفاق الأموال للصد عن سبيل الله ورسوله ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ من أمثالهم الذين كذبوا الرسل وقتلوه ، والمراد بسنة الأولين سنة الله فيمن مضى من هلاك الكافرين ونصر المرسلين عليهم : ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ . ٢١ المجادلة .

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ . تقدمت هذه الآية مع تفسيرها في ج ١ ص ٢٩٩ الآية ١٩٣ من سورة البقرة . ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ . أي فان أعرض المشركون عن بيان الرسول وأمانه فاصمدوا لهم أيها المسلمون ولا تخافوهم ، فان الله ناصركم عليهم ، وحافظكم منهم ، وهو خير الحافظين والناصرين .

الجزء العاشر

فان الله خمسة الآية ٤١ :

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ أَمْنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ
الْجُمُعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤١)

اللغة :

الغنيمة لغة الفوز بالشيء ، وشرعا ما يأخذه المسلمون بالقتال من أموال الكافرين ،
هذا عند السنة ، أما الشيعة فمعنى الغنيمة عندهم أعم ، ويأتي البيان . واختلفوا في معنى
الفيء على قولين : الأول انه الغنيمة ، والثاني المال الذي يؤخذ بغير قتال ، أما النفل بفتح
الفاء فقد تقدم الكلام عنه في أول هذه السورة . والمراد بذى القربى قرابة الرسول (ص) .
واليقيم من الإنسان من مات أبوه قبل أن يبلغ الحلم . والمسكين المحتاج . وابن السبيل المسافر
المنقطع في سفره .

الإعراب :

أنما غنمتم ان بفتح الهمزة تنصب الاسم وترفع الخبر وما اسم موصول بمعنى الذي الذي اسم
أن ، وجملة غنمتم صلة ، والعائد محذوف أي غنمتموه ، ومن شيء متعلق بمحذوف حالا
من الضمير المحذوف أي قليلا أو كثيرا . وفأن بفتح الهمزة ، وخمسه اسم أن ، والله خبر ،
والمصدر المنسبك خبر لمبتدأ محذوف أي فالواجب كون الخمس لله ، والجملة من المبتدأ
والخبر خبر أن الأولى ، والمصدر المنسبك من انما غنمتم مفعول اعلما .

المعنى :

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾. بحث المفسرون في جهات عديدة عند الكلام عن هذه الآية ، أما نحن فنقتصر على جهتين فقط أولاً لأن ظاهر الآية يدل عليهما دون سائر الجهات. ثانياً ان الجهات الأخرى لا أثر لها من الناحية العملية. والجهتان اللتان نتكلم عنهما هما تحديد معنى الغنيمة ، وبيان المستحقين للخمس.

وقد اختلف السنة والشيعة في المعنى المراد من الغنيمة في الآية ، فقال السنة : هي ما يغنمه المسلمون من الكفار بقتال. وعلى قولهم هذا تكون مسألة الخمس عبارة عن قضية لا واقع لها من الناحية العملية في هذه الأيام ، تماماً كمسألة العبيد والإماء ، إذ لا دولة إسلامية تجاهد الكفار والمشركين في هذا العصر.

وقال الشيعة : ان الغنيمة أعم مما يأخذها المسلمون من الكافرين بقتال ، وانها تشمل المعدن كالنפט والذهب وغيرهما ، وأيضاً تشمل الكنز المدفون تحت الأرض إذا لم يعرف له صاحب ، وتشمل ما يخرج من الإنسان من البحر بالغوص كاللؤلؤ ، وما يفضل عن مؤنة الإنسان وعياله مما اكتسبه في سنته ، وتشمل المال الذي فيه حلال وحرام ، ولم يعلم شخص الحرام ولا مقداره ولا صاحبه ، وتشمل الأرض التي يشتريها الذمي من المسلم ، والتفصيل في كتب فقه الشيعة ، ومنها الجزء الثاني من كتابنا فقه الإمام جعفر الصادق .. وعلى قول الشيعة تكون مسألة الخمس مسألة لها واقع من الناحية العملية.

وكما اختلف الشيعة والسنة في معنى الغنيمة فقد اختلفوا في عدد أسهم الخمس وتقسيمها على مستحقيها ، قال الشيعة : يقسم الخمس إلى قسمين ، والأول منهما ثلاثة أسهم : سهم لله ، وسهم لرسوله ، وسهم لذوي القربى ، وما كان لله فهو للرسول ، وما كان للرسول فهو لقرباته ، وولي القرابة بعد النبي هو الإمام المعصوم القائم مقام النبي ، فان وجد أعطي له ، وإلا وجب إنفاقه في المصالح الدينية ، وأهمها الدعوة الى الإسلام ، والعمل على نشره وإعرازه. أما القسم الثاني فهو ثلاثة أسهم : سهم لأيتام آل محمد (ص) ، وسهم لمساكينهم ،

وسهم لأبناء السبيل منهم خاصة ، لا يشاركهم أحد في ذلك ، لأن الله حرم عليهم الصدقات فعوضهم عنها بالخمسة . وقال الطبري في تفسيره وأبو حيان الأندلسي في البحر المحيط : قال علي بن أبي طالب عليه السلام : اليتامى والمساكين أيتامنا ومساكيننا . وقال الطبري في تفسيره أيضا : ان علي بن الحسين رضي الله عنه قال لرجل من أهل الشام : أما قرأت في الأنفال واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسة وللرسول وقرأ الآية . قال الشامي : نعم ، وانكم لأنتم؟ . قال : نعم .

أما مذهب السنة فندع الكلام عنه الى عالمين كبيرين : أحدهما من القدماء ، وهو الرازي ، والثاني من الجدد ، وهو المراغي أحد شيوخ الأزهر ورؤسائه في زمانه ، قال الرازي : القول المشهور ان ذلك الخمس خمسة أسهم : الأول لرسول الله ، والثاني لذوي قربه من بني هاشم وبني المطلب ، دون بني عبد شمس . أي الأمويين . وبني نوفل ، والثالث لليتامى ، والرابع للمساكين ، والخامس لابن السبيل .. هذا ، في حياة رسول الله وأما بعد وفاته (ص) فعند الشافعي انه يقسم الخمس على خمسة أسهم : سهم لرسول الله ، ويصرف الى ما كان يصرفه اليه من مصالح المسلمين ، وسهم لذوي القربى من أغنيائهم وفقرائهم : والباقي لليتامى والمساكين وابن السبيل . وقال أبو حنيفة : ان سهم رسول الله بعد وفاته يسقط بسبب موته ، وكذلك سهم ذوي القربى ، وإنما يعطون لفقرهم كغيرهم من الفقراء : ويقسم الخمس على اليتامى والمساكين وابن السبيل . وقال مالك : الأمر في الخمس مفوض إلى رأي الإمام .

وقال الشيخ المراغي : روى البخاري عن مطعم بن جبير من بني نوفل انه مشى هو وعثمان بن عفان من بني عبد شمس إلى رسول الله (ص) وقالوا له : يا رسول الله أعطيت بني المطلب وتركنا ، ونحن وهم بمنزلة واحدة .. قال الرسول (ص) : إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد . وعلق الشيخ المراغي على هذا الحديث الشريف بقوله : . وسر هذا ان قريشا لما كتبت الصحيفة وأخرجت بني هاشم من مكة ، وحصرتهم في الشعب دخل معهم فيه بنو المطلب ، ولم يدخل بنو عبد شمس ، ولا بنو نوفل للعداوة التي كانت بين بني أمية بن

عبد شمس لبني هاشم في الجاهلية والإسلام ، فقد ظل أبو سفيان يقاتل النبي (ص) ويؤلب عليه المشركين وأهل الكتاب إلى أن أظفر الله رسوله ، ودانت له العرب بفتح مكة ، وكذلك بعد الإسلام خرج معاوية على علي وقاتله.

ونعطف نحن على قول الشيخ المراغي وكذلك قتل يزيد حفيد أبي سفيان الحسين بن علي سبط الرسول الأعظم (ص) ، وقال الشاعر في هذا العدوان الموروث أبا عن جد :

فابن حرب للمصطفى وابن هند لعلي وللحسين يزيد

﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. قال المفسرون : المراد بيوم الفرقان واليوم الذي التقى فيه الجمعان هو يوم بدر ، لأن الله فرق فيه بين الكفر والإيمان بإعلاء كلمة الإسلام على الشرك ، وأيضا فيه التقى الجمعان : جمع المؤمنين ، وجمع المشركين ، ودارت دائرة السوء على هؤلاء .. والمعنى ان الله سبحانه لا يقبل الإيمان به وبكتابه ونبيه كنظرية مجردة عن العمل ، وإنما يقبل الإيمان ممن يحكم ويعمل بما حكم الله ، قال الرازي : إن قوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ يدل على انه متى لم يحصل الحكم بهذه القسمة كما حكم الله لم يحصل الإيمان.

ونعطف على قول الرازي وكذلك إذا لم يحصل الحكم في غير هذه القسمة كما حكم الله لم يحصل الإيمان به ، لأن السبب الموجب للكفر واحد ، وهو مخالفة حكم الله عمدا .. وبديهة ان هذا السبب لا يقبل التقييد والتخصيص في شيء دون شيء. وقدمنا أكثر من مرة ان المراد بالكفر في مثل ذلك هو الكفر العملي أي الفسق ، لا الكفر العقائدي.

اذ أنتم بالعدوة الدنيا الآية ٤٢ . ٤٤ :

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ

وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خَتْلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَیُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤) ﴿

اللغة :

العدوة بتثليث العين ، أي يجوز فتحها وكسرها وضمها ، وهي جانب الوادي ، والدنيا مؤنث الأدنى وهو الأقرب ، والقصوى مؤنث الأقصى وهو الأبعد. والبيئة الحجة الظاهرة. والمراد بذات الصدور ما يختلج في القلوب.

الإعراب :

الدنيا والقصوى صفتان للعدوة. والركب مبتدأ ، وأسفل منصوب على الظرفية متعلقا بمحذوف خبرا للمبتدأ ، لأنه بمعنى في مكان أسفل منكم. وليقضي منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك متعلق بمحذوف أي فعل ذلك لقضائه أمرا. والمصدر المنسبك من ليهلك متعلق بيقضي.

المعنى :

تعرض هذه الآيات بعض الأسباب التي مهدها الله لانتصار المسلمين على

المشركين في وقعة بدر ، من تلك الأسباب ان الله سبحانه ألهم المسلمين أن يربطوا في أقرب الجانبيين من الوادي الى المدينة ، أما المشركون فقد نزلوا في الجانب الأبعد منه ، وبين الجانبيين ربوة تفصل بينهما ، ويظهر من سياق الكلام ان الجانب الذي رابط فيه المسلمون كان موقعا حريبا يعينهم على أعدائهم ، لأن الله سبحانه قد منّ عليهم به ، وكان من تدبيره تعالى أن ينزل كل في موقعه ، دون أن يعلم بموقع الآخر ، إذ لو رأى المسلمون أعداءهم رأي العين لهاوهم ، ويئسوا من الظفر بهم ، وأيضا من تدبيره انه . جلت حكمته . قلل المشركين عند اللقاء في أعين المسلمين ، كل ذلك ليظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون ، ومن الحكمة أيضا أن تسلم العير التي مال بها أبو سفيان الى ساحل البحر ليتم اللقاء بين جند الحق وجند الباطل ، ولا ينصرف المسلمون الى العير عن النفير .. وبعد هذا التمهيد نشرع بتفسير الآيات :

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾. الخطاب موجه من الله للمسلمين يذكرهم به بالموقع الذي رابطوا فيه ، وهو جانب الوادي الأقرب الى المدينة ، وبالموقع الذي اتخذته المشركون ، وهو الجانب الأبعد ، ويذكر أيضا بانحراف العير إلى ساحل البحر الذي أشار اليه بقوله : ﴿وَالرَّكْبُ أَصْفَلَ مِنْكُمْ﴾. والغرض من هذا التذكير ان هذه الأشياء كانت لصالحهم ، كما تبين فيما بعد.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِ الْمِيعَادِ﴾. خرج المسلمون مع النبي (ص) من المدينة طلبا للعرير واحمالها غير قاصدين القتال ، كما قدمنا ، ولكن الله سبحانه حوّل هذه الرحلة من طلب المال إلى الجهاد في سبيله ، وكان في ذلك خير كثير ، ولو خرج المسلمون منذ البداية إلى القتال متواعدين عليه مع المشركين ، ثم علموا بكشركهم ، لو كان ذلك لعدل بعض المسلمين عن القتال خوفا ورهبة ، واختلفوا مع الذين يريدون القتال ، ولما تمّ شيء من نصر أولياء الله على أعدائه.

﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾. أي ولكن الله دبر هذا اللقاء على غير ميعاد ليقع ما أراد من إعزاز الدين ، وإذلال المشركين ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ المراد بمن هلك من كفر ، وبمن حي من آمن ، والمعنى ان الله نصر أوليائه ، وقهر أعداءه يوم بدر ليكون ذلك

حجة قاطعة على من يكفر ، وحجة ظاهرة لمن يؤمن.

وتسأل : إن ظاهر الآية يدل على ان من صارح الحق يصرع ويغلب ، مع ان المبطل كثيرا ما يتغلب على الحق ، كما نشاهد ونرى؟.

الجواب : ان الله سبحانه قد وعد المسلمين بالنصر على لسان نبيه . قبل المعركة . مع قلتهم وضعفهم عدة وعددا ، وذلك حيث يقول في الآية ٧ : ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ وقد وفى لهم بالوعد ، وتحققت المعجزة بذلك لمحمد (ص) الذي أخبرهم بالنصر حين كانت جميع الدلائل تشير إلى العكس .. هذا ، إلى جانب إمدادهم بالملائكة كما في الآية ٩ ، وإلى رمية النبي (ص) المشركين بقبضة من التراب أو الحصى كما في الآية ١٧ ، كل هذه وغيرها كانت معجزات باهرات ظهرت على يد محمد يوم بدر ، وهي المراد بالبينة والحجة على من كفر ، والحجة لمن آمن ، وليس المراد مجرد النصر .. وبكلمة ان المقصود بالبينة في الآية الإخبار بالنصر قبل وقوعه مع ما تم من المقدمات وخوارق العادات ، وليس المراد النصر بالذات ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من الأقوال والأفعال وما يحتلج في الصدور.

﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ﴾ . هذه معجزة أخرى لرسول الله (ص) ، وهي ان الله سبحانه أراه في المنام ان المشركين أقلاء عددا ضعفاء عدة ، وأخبر النبي الصحابة بما رأى ، فاستبشروا وتشجعوا ، ولو أراه الله الأعداء أقوىاء لوهنت عزيمة المسلمين ، وضعفوا عن القتال ، واختلفوا فيه ، ولأعقب ذلك الفشل وذهاب الريح ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ من هذه المشكلة ، ولطف بعباده المؤمنين ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ . أي ان الله يعلم ان قلوب المسلمين تشعر بالخوف من القتال إذا أيقنت بكثرة العدو ، فأبعد الله هذا الشعور عن قلوبهم بما أراه للرسول الأعظم في منامه من قلة العدو وضعفه.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ ليشد من عزمكم أيها المسلمون ، وتقاتلوا أعداءكم بجرأة وثبات ﴿وَيَقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ كي لا يبالغوا في الاستعداد لقتالكم والحذر منكم .. وهكذا كان ، حتى قال أبو جهل : إنما أصحاب

محمد أكلة جزور وكانت عاقبة هذا الاستخفاف والغرور الوبال والخذلان ، وقد أثبتت الأحداث ان أقوى سلاح بيد العدو هو الاستخفاف به ، وعدم الاستعداد له.

﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾. قال المفسرون : انما كرر هذه الجملة لأن التعليل بها في الآية الأولى كان للجمع بين المسلمين والمشركين في القتال من غير ميعاد ، أما التعليل بها في هذه الآية فقد جاء لتقليل كل فريق في عين صاحبه .. وذكرنا فيما سبق ان التكرار في القرآن أسلوب من أساليب الدعاية الناجحة ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾. انما تصدر منه ، واليه تنتهي ، وهو يدبرها بعدله وحكمته.

إذا لقيتم فئة فاثبتوا الآية ٤٥ . ٤٩ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيْنَ هُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)﴾

اللغة :

وتذهب ربحكم أي قوتكم وهيبتكم. والبطر الطغيان في النعمة وصرفها إلى غير وجهها. والرثاء الرياء. وجار لكم ناصر لكم. وتراءت الفتتان التقتا ورأت كل منهما الأخرى. ونكص رجع القهقرى. وفتفشلوا منصوب بأن مضمرة على معنى جواب النهي. وبطرا مفعول لأجله ، ويجوز أن يكون في موضع الحال.

عوامل النصر :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. والمراد بالفئة الفئة الباغية التي تسعى في الأرض فسادا ، وقوله لعلكم تفلحون أي تظفرون بها وتنتصرون عليها. وذكر سبحانه في هذه الآية عاملين للنصر على الفئة الطاغية الباغية ، العامل الأول الثبات ، واليه أشار بقوله : ﴿فَاثْبُتُوا﴾. العامل الثاني الإخلاص ، وأشار إليه بقوله ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ فليس المراد بذكر الله في الحرب مجرد التهليل والتكبير ، وإنما المراد أن يكون القتال والصمود فيه خالصين لوجه الله تعالى ، بمعنى أن لا تثار الحرب بحال إلا من أجل إحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، من أجل الحفاظ على سلامة العباد وأمنهم ، والضرب على أيدي الآثمين الذين يسعون في الأرض فسادا بالسلب والنهب ، ويشيرون الفتن والحروب ليتحكموا بالبلاد وأرزاق العباد.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. ذكر سبحانه في الآية السابقة عاملين للنصر : الثبات والإخلاص وذكر في هذه الآية ثلاثة عوامل : التقوى بطاعة الله والرسول ، وتجنب الاختلاف والصبر ، ولكن الصبر هو الثبات فقوله تعالى ، ﴿وَاصْبِرُوا﴾ في هذه الآية تعبير ثان عن قوله : ﴿فَاثْبُتُوا﴾ في الآية السابقة ، كما ان طاعة الله ورسوله هي الإخلاص لله ، أما الاختلاف فمنه حسن وقبيح ، والتفصيل فيما يلي ، والذي نستخلصه من الآيتين معا ان عوامل النصر الحقيقية ثلاثة :

١ . الصبر والثبات ، وهو توطين النفس على التضحية بكل عزيز لنصرة الحق على الباطل ، وكما ينتصر الحق بمحق الباطل وزواله ينتصر أيضا بالكشف عن الباطل ، وإظهاره للناس على حقيقته . والصبر ضروري لبلوغ أية غاية من الغايات ، فما من تلميذ أو أستاذ أو مخترع أو فنان ، أو تاجر ، أو أي كان ينال شيئا من النجاح إلا بالصبر والثبات ، وعلى مقدار صموده لتحمل المشاق والآلام يكون فوزه ونجاحه ، وبهذا نجد السر في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ . وقوله : ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ . وقوله : ﴿وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ . وقوله : ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ . إلى غير ذلك .. وقد جربت الصبر طالبا ومؤلفا فما وجدت أحلى منه مغبة ، ولا أجدى عاقبة . وتقدم الكلام عن الصبر في فقرة مستقلة ج ١ ص ٢٤٠ .

٢ . الإخلاص ، وهو ان يقصد العامل بعمله وجه الله ، فيثق به لا بسواه ويؤمن بإمانا قاطعا بأن ما عند الله خير وأبقى من الجاه والمال والبنين ، فلا يؤثر شيئا من هذه على طاعة الله ومرضاته .. وقد يبلغ المرء ما يبتغيه من أهداف شيطانية ، ولكن هذا لا يعد نصرا إلا إذا اعتبرنا الباطل فضيلة ، والصوصية غنيمة ، والفساد تقوى وصلاحا .

٣ . تجنب نوع من الاختلاف ، لأن الاختلاف قد يكون في الآراء وو جهات النظر ، مع الإخلاص والتجرد للحق ، وهذا لا يتنافى مع طاعة الله والرسول ، ولا يمنع من الاتفاق على الهدف كجهاد المفسدين ومحاربتهم ، وكثيرا ما يكون وسيلة للتمحيص وجلاء الحقيقة . وقد يكون سبب الاختلاف الأهواء وحب الذات ، والتكالب على الدنيا وحطامها ، وهذا هو المقصود بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ والأمثلة على إضرار التنافس في المكاسب والأرباح لا يبلغها الإحصاء ، وبين دفتي التاريخ منها المئات ، ولسنا بحاجة الى التاريخ البعيد ، لنستخرج منه الأمثلة ، فإن تاريخنا الحاضر مع إسرائيل كاف ومغن عن جميع الأمثلة .. فبالأمس القريب قرأت عن الكاتب الأمريكي سالزبرجر انه كتب مقالا لجريدة الهيرالد تريبيون قال فيه ما نصه بالحرف : واشنطن توازن الخلل العددي بين العرب وإسرائيل ،

وتؤكد أنه وان بدا في غير مصلحة إسرائيل إلا أنها توازن دائما بينه وبين الانقسام المستمر بين الدول العربية لأن هذا الانقسام يجعل تفوق العرب العددي مجرد أرقام لا قيمة لها. وقبل هذا الكاتب أعلن المسئولون في إسرائيل أكثر من مرة أنهم ربّحوا حرب ٥ حزيران لمساندة الولايات المتحدة ، واختلاف كلمة العرب ، وأي شيء أحب إلى إسرائيل من أن يحمل العرب السلاح على بعضهم البعض من ان يشهروه في وجهها ، ولذا لعب الاستعمار والصهيونية دورا أساسيا في اذكاء الصراع العربي ، وقد وجد ، وللأسف ، من يستجيب لهما ، بل ويتكلم بلغتهما أيضا .. وعلى أية حال ، فان الثورة تواصل الزحف ولا بد أن تصل وتنتصر على الاستعمار وعملائه آجلا أو عاجلا.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾. بعد أن أمر سبحانه المسلمين بثلاثة ، وهم يخرجون الى الحرب : الثبات والإخلاص والاتفاق نهاهم عن ثلاثة : البطر ، والرياء والصد عن سبيل الله ، ونسب هذه الأوصاف إلى كفار قريش لأنهم خرجوا إلى بدر لحرب النبي (ص) بطرين مرائين صادين المسلمين عن سبيل الله قال المفسرون : قاد أبو جهل قريشا لحرب النبي في بدر ، وفي طريقه أتاه ابن الحقاف الكناني بهدية من أبيه ، وقال لأبي جهل : يقول لك أبي : ان شئت أمدك بالرجال ، وان شئت زحفت معك. فقال أبو جهل : ان كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فو الله مالنا بالله من طاقة ، وان كنا نقاتل الناس فو الله ان بنا على الناس لقوة ، ولا نرجع عن قتال محمد ، حتى نرد بدرنا فنشرب فيها الخمر ، وتعزف علينا القيان .. وتسمع العرب بذلك.

ويتجلى البطر في أوسع معانيه بقول أبي جهل : وان بنا على الناس لقوة. أما الرياء فيتجسم بقوله : وتسمع الناس ومن أجل هذا نميل الى قول من قال : ان هذه الآية نزلت في أبي جهل ، أما عاقبة هذا البطر والرياء فقتل من قتل ، وفيهم أبو جهل ، وأسر من أسر ، وهزيمة الباقيين.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾

إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾. هذه الآية تقول بصراحة : ان هناك شيئاً اسمه الشيطان شجع قريشاً على حرب النبي في بدر ، وضمن لهم النصر ، وانه لما أيقن بسوء مصيرهم خذلهم وتبرأ منهم .. وقدمننا أكثر من مرة أننا نؤمن بكل ما دل عليه الوحي ، ولا يأباه العقل ، وأننا ندع التفاصيل للغيب ، ولا شيء في حكم العقل يمنع من وجود شيء يرى أو لا يرى يوسوس للناس بالباطل ويغريهم به .. وقد أمر الله سبحانه نبيه الكريم أن يتعوذ من شر الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس جنّا كان أو أنسا.

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ. وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. المنافقون هم الذين يظهرون الإسلام ، ويظنون الكفر ، أما قوله والذين في قلوبهم مرض فيشمل المنافقين والكافرين والفاسقين ، وعليه يكون عطف مرضى القلوب على المنافقين من باب عطف العام على الخاص. وقد حكى الله في هذه الآية عن مرضى القلوب أنهم دهشوا حين رأوا إقدام القلة المسلمة على حرب الكثرة الكافرة ، ولم يفهموا تفسيراً لهذا الإقدام الا تهور المسلمين وغرورهم بعقيدتهم ، أما الثقة بالله ، والتوكل عليه ، وفوز الشهيد بالجنة فكلام بلا معنى في مفهومهم ، لأن كل شيء عندهم صفقة تجارية ، حتى الدين.

هل الفدائيون مخربون؟

في هذا الظرف الذي تتألب فيه قوى الشر ، وتتآمر على العرب والمسلمين ، ويطرد فيه الشعب الفلسطيني من دياره ، ويلقى به في العراء نساء وشيوخاً وأطفالاً ، في هذا الوقت الذي يقض فيه الفدائيون مضجع إسرائيل ، ويقلقون راحتها ، ويعبّرون عن إرادة كل حر ، ورغبة كل مخلص في تحرير الأرض المحتلة ، في هذا الأوان بالذات يقف معمم على حدود إسرائيل ، وفي قرية من قرى الجنوب ، يقف هذا المعمم ، وينادي في الجموع من مكبر الصوت : الفدائيون مخربون .. تماماً كما يقول دايان وأشكول وإيبان.

الفدائيون مخربون يا محترم ، وأنت وإسرائيل مصلحون؟ ولما ذا الفدائيون

مخربون؟ ألاأنهم متمسكون بحقهم ، وفي سبيله يقتلون ويقتلون ، أو لأنهم غيروا وبدلوا اسم اللاجئين باسم الفدائيين؟ وهل أنت في قولك هذا مطيع لله ورسوله ، ومجاهد مناضل تؤدي واجبا دينيا ووطنيا؟.

وأي دين من الأديان يحرم التضحيات من أجل دفاع الإنسان عن وطنه وإرادة الحياة فيه حراكرهما ، وإن عظم الثمن؟.

أنا أعرف منطقك أيها المعمم ، انك تقول : إن إسرائيل تجيب عن عمل الفدائيين بالانتقام من الأبرياء ، ونحن نسألك بدورنا : أين كان الفدائيون في ٢٩ آب سنة ١٨٩٧ حين عقد الصهاينة مؤتمرا عاما بسويسرا وقرروا فيه طرد العرب من فلسطين وإحلال اليهود محلهم؟ هل كان هذا القرار والتصميم نتيجة لضربات الفدائيين آنذاك؟ ثم ما قولك في مجزرة دير ياسين ، والمذابح التي قام بها اليهود للسكان الآمنين قبل أن تدخل الجيوش فلسطين؟.

يجب أن تعرف أيها المعمم أنت وكل عربي ان فلسطين لا تشيع أطماع إسرائيل ومعها الأردن ولبنان وسوريا والعراق ، انها تهدف لاذلال العرب جميعا ، وإخضاعهم للصهيونية والاستعمار سياسيا واقتصاديا ، انها تطمع في نفط الكويت وقطر وأبي ظبي والسعودية ، وفي السوق العربية الاستهلاكية ، وفي أيدي العرب العاملة الرخيصة.

وقد وضعت لأطماعها هذه التصاميم ورسمت لها المخططات بالتآمر مع دول الاستعمار .. والعمل الفدائي هو الذي أفسد على إسرائيل هذه المخططات ، وتلك التصاميم ، وحملها على الاعتقاد بأن دون أحلامها وجود إسرائيل بالذات.

فخير ألف مرة أن نتحمل الألم الذي يفرضه عمل الفدائيين من أن تحقق إسرائيل أطماعها التي لا يحددها شيء ، حتى النيل والفرات .. هذا ، إلى أن المرحلة التي نحن فيها تحتم علينا أن نواجه العدو بمقاومة الفدائيين كخطوة أولى ، وأن نتحمل كل عبء بسببها دفعا لما هو أشد وأعظم.

وبعد ، فما قولك أيها المعمم في السرايا والبعوث التي كان يرسلها محمد (ص) لتقطع الطريق على أعدائه المشركين ، وتنهب أموالهم ، وتقتل وتأسر رجالهم ، وتسلبهم الراحة والأمن في ديارهم ، وكان يقود بعضها بنفسه ، كما فعل حين

غزا يهود بني قريظة بعد أن نكثوا عهده ، وانضموا لحربه مع أبي سفيان عدو الله ورسوله في حرب الأحزاب ، فلقد أمر النبي (ص) جيشه الذي كان يقوده بنفسه أن يحرق زرع اليهود ويقطع أشجارهم ، ويهدم مساكنهم ، فهل كان النبي في عمله مصلحا أو مخربا؟..
وقد تواتر قوله : من مات دون عقاب من ماله مات شهيدا .. فكيف بمن مات في مقاومة إسرائيل عدوة الله والوطن والانسانية جمعاء؟.

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعُذًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ . ١١٢ التوبة.
ولا عامل اليوم بهذه الآية في الأمة العربية إلا الفدائيون ، وفداؤهم هو حجر الأساس لثورة الشعب العربي بأسره.

ولو ترى الآية ٥٠ . ٥٤ :

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَعْرِفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)﴾

اللغة :

أدبارهم أي ظهورهم. والدأب العادة.

الإعراب :

جملة ذوقوا عذاب الحريق مفعول لقول محذوف أي ويقول الملائكة للكفار ذوقوا. وبظلام الباء زائدة ، وظلام خبر ليس ، والمصدر المنسبك من ان الله ليس بظلام للعبيد مجرور بالباء المحذوفة أي بأن الله ليس بظلام. كدأب آل فرعون الكاف بمعنى مثل في موضع رفع خبرا لمبتدأ محذوف أي دأبهم مثل دأب آل فرعون. والمصدر المنسبك من ان الله سميع عليم مجرور بحرف جر محذوف متعلقا بمحذوف أي وذلك كائن بأن الله سميع عليم.

المعنى :

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. ولو ترى خطاب لكل من يرى ، لأن القصد منه العظة والاعتبار ، والمراد بالذين كفروا كل كافر أخذا بظاهر اللفظ من حيث هو ، وقيل : المراد بهم خصوص كفار قريش الذين حاربوا النبي (ص) ببدر عملا بقرينة السياق لأن الحديث ما زال عن وقعة بدر ، وضرب الوجوه والأقفية كناية عما يقاسيه الكفار من العذاب عند الموت ، ويجوز أن يكون الضرب على حقيقته وان لم يشاهد بالحس ، وأيا كان الأمر فان الكافر يخزى عند الموت وبعده ، ولا تهمنا الصورة والكيفية.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾. كيف ، وهو ينهى عنه ، ويعاقب عليه؟. وقال السنة : ان العقل يجيز على الله تعالى أن يعاقب الطائغ ، ويثيب العاصي ، وأيضا يجيز العقل على الله تعالى أن يخلف وعده المواقف ٨ المقصد الخامس والسادس من المرصد الثاني في المعاد. والمذاهب

الاسلامية لأبي زهرة فصل بعنوان منهاجه وآراؤه رقم ١٠٤ .

وقال الشيعة : العقل لا يميز على الله أن يعاقب المطيع ، ويميز عليه أن يتفضل على العاصي ، لأن العادل لا يعاقب من أطاع ، والكريم الحليم يسمح عمن أساء .

﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. أي ان ما أصاب المشركين يوم بدر من القتل والأسر لأنهم كذبوا محمدا (ص) ان ما أصاب هؤلاء يشبه ما أصاب المشركين السابقين من الهلاك ، لأنهم كذبوا أنبياءهم ، كآل فرعون ومن كان قبلهم .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. الظاهر من النعمة هنا الرزق ، ومن تغييرها سلبه وإزالته .. وهنا سؤال يفرض نفسه ، وهو ان ظاهر الآية يدل على ان القوم الذين أنعم الله عليهم بالرزق فانه يبقيه عليهم ما داموا مطيعين ، فإذا عصوا سلبهم إياه ، مع ان الذي نراه من عصاة كثيرين انهم كلما ازدادوا عصيانا ازدادوا ثراء ، أو لا يتغير عليهم شيء .

الجواب : ان الآية لم تصرح بلفظ المعصية ولا بلفظ الكفر ، وكل ما دلت عليه ان الله لا يزيل النعمة عن أهلها إلا إذا غيروا ما بأنفسهم ، ولكنه جل ثناؤه لم يبين نوع التغيير ، ومثلها الآية ١١ من سورة الرعد : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾. وآل فرعون الذين مثل الله بهم في الآية السابقة كانوا مشركين من قبل ومن بعد ، أجل انهم ازدادوا طغيانا بعد أن جاءهم موسى (ع) بالبينات ، وعلى هذا يتعين حمل الآية التي نحن بصددتها على معنى ان الله لا يهلك قوما في الدنيا إلا إذا أرسل اليهم رسولا ودعاهم الى الله مشافهة وجها لوجه ، فأعرضوا عن دعوته كآل فرعون ، ومن سبقهم من قوم نوح ولوط وغيرهم ، وإذا لم يرسل الله اليهم رسولا كذلك فانه يؤخر عقابهم الى يوم الحساب والجزاء .. أما آية الرعد فإن لنا رأيا في تفسيرها نبينه في حينه ان شاء الله .

﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾. مر نظيره في سورة آل عمران الآية ١١ ج ٢ ص ١٧ .

﴿وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾. أي كل من آل فرعون الذين كذبوا موسى (ع) ، وكفار قريش الذين كذبوا محمدا (ص) ظلموا أنفسهم بالكفر ، وظلموا الناس بالصد عن سبيل الله.

قواعد وأحكام في السلم والحرب الآية ٥٥ . ٦٣ :

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثَقَّفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾

اللغة :

أصل الدابة لكل ما دب على وجه الأرض ، ثم غلب استعماله في ذوات الأربع ،
والثقف الظفر. والتشريد الإبعاد. والنبد الطرح. ورباط الخيل حبسها واقتناؤها. وجنحوا مالوا.
والسلم بفتح السين وكسرها ضد الحرب ، ويشمل الصلح والمهادنة ، ويدنر ويؤنث.

الإعراب :

الذين عاهدتم منهم بدل بعض من الذين كفروا. واما تثقفنهم واما تخافن اما ركبة من
كلمتين ان الشرطية وما الزائدة ، ودخلت نون التوكيد على الفعل لوجود ما ، ومفعول انبد
محذوف أي عهدهم ، ولا يعجزون أي ولا يعجزوني. وجملة ترهبون به حال من الواو في
اعدوا. وحسبك مصدر بمعنى اسم الفاعل أي كافيك ، وهو مبتدأ واسم الجلالة خبر ، ويجوز
أن يكون فاعلا سادا مسد الخبر ، مثل أقائم زيد.

المعنى :

تتضمن هذه الآيات قواعد وأحكاما في السلم والحرب نشرحها فيما يلي حسب

ترتيب الآيات :

١. ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ
يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾. يقول سبحانه : إن جماعة من الذين كفروا ولا
يرجى إيمانهم قد عاهدوا النبي (ص) على المسالمة وحسن الجوار ، ولكنهم أضمرؤا الغدر
ونقضوا العهد أكثر من مرة ، ولم يتقوا ما يترتب على ذلك من العذاب والوبال .. وقد
وصف الله هؤلاء بأنهم شر من دب ويدب على وجه الأرض ، وقال جماعة من المفسرين :
انهم يهود بني قريظة عاهدوا الرسول ، ثم نكثوا عهده ، وأعانوا عليه مشركي مكة يوم بدر ،
ولما

انتصر النبي (ص) على المشركين اعتذر اليه اليهود فقبل عذرهم وصفح عنهم ، ثم عاهدوه ثانية ونكثوا يوم الخندق .. ولا غرابة أن يخون اليهود ويغدروا ، وإنما يستكثر منهم الصدق والوفاء.

٢ . ﴿فَإِمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾. الخطاب للنبي (ص) بين الله فيه حكم هؤلاء الكفرة الغدر ، وانه ان ظفر بهم فليقس عليهم ، حتى يتعظ بهم غيرهم ممن تراوده نفسه بالخيانة والغدر. وبهذا يتضح ان المراد بمن خلفهم غيرهم.

٣ . ﴿وَأَمَّا خَوَافٌ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾. المراد بالخوف هنا العلم ، وعلى سواء أي تكون أنت وهم سواء في العلم بنقض العهد ، والمعنى إذا كان بينك يا محمد وبين قوم عهد ، وعلمت يقينا انهم خائنون بظهور أمارات قاطعة على انهم يضمرون الغدر والاختيال ، ويتخذون من العهد ستارا يدبرون من ورائه المكر السيء ، إذا كان كذلك فألق اليهم عهدهم ، وأعلمهم انك قد نقضته ، بحيث تكون أنت وهم في العلم بالنقض سواء ، ولا تبدأهم بقتال قبل أن تعلمهم بذلك كي لا تنسب إلى الغدر والخيانة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾.

وبكلمة : ان الإسلام يوجب الوفاء بالعهد لأهل الوفاء ، أما الذين يتخذون من العهد وسيلة للغدر والاختيال فان الإسلام يأمر بنقضه لأنه كيد لا عهد : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ . ٥٢ يوسف. قال الإمام علي (ع) : الوفاء لأهل الغدر غدر ، والغدر بأهل الغدر وفاء.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾. معنى سبقوا أفلتوا ، ولا يعجزون أي لا يعجزوني ، والمراد من مجموع الآية لا يحسن أحدا ان الله يفوته مطلوب.

٤ . ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾. الآيات السابقة تعرضت لأبرام العهد مع الغير ، والحكم فيمن ينقضه ، وفي هذه الآية أمر الله سبحانه المسلمين بأعداد القوة واستكمال العدة للأعداء ، والمراد بالقوة كل ما يتقوى به على العدو رحا كان ، أو صاروخا ، أو أي شيء .. وخص سبحانه

الخيال بالذكر ، لأنها كانت من أعظم مظاهر القوة آنذاك ، وروي عن النبي (ص) انه تلا هذه الآية ، وقال : الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي كررها ثلاثا ، والقصد بيان أهمية الرمي وتأثيره في الحروب وقد أثبت تاريخها صحة هذه النظرية التي نطق بها الرسول (ص) منذ أكثر من ألف وثلاثمائة سنة ، حيث لا قاذفات قنابل ولا صواريخ موجهة ، وقد اتجهت عباقرة العقول في كل عصر الى تقوية الرمي وتطويره من السهم إلى الرصاص ، ومنه الى القنابل ، ومنها الى الصواريخ والقذائف الذرية والهيدروجينية .. وقد استعمل المسلمون مع الرسول الرمي بالمنجنيق في غزوة خيبر .

﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ . قسم سبحانه أعداء المسلمين إلى نوعين : نوع ظاهر العداء يعرفهم المسلمون بذلك ، ونوع غير ظاهر يجهل المسلمون عداوتهم ، واليهام الاشارة بقوله : ﴿وآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ وهم كل من يتمنى للمسلمين الفشل والخذلان خوفا على سلطانه واستغلاله ، ومنهم الدول المجاورة كالفرس والروم الذين تغلب المسلمون عليهم حين قويت شوكة الإسلام .

القوة الرادعة والقوة المعتدية :

ونقف قليلا عند قوله تعالى : ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ لأنه ينطوي على مبدأ يحفظ المجتمع الانساني من الفوضى ، ويردع الطغاة الأقوياء من التلاعب بحياة الناس واستغلالهم .. وهذا المبدأ هو وجود قوة في قبضة أهل الحق والعدل يردعون بها أهل الظلم والباطل ، ويخضعونهم لحكم الله وشريعته التي تدعو الناس جميعا أن يعيشوا طبقا لقوانين الحياة وسننها ، ولا ينحرف عنها أحد ، فإذا ما راودته نفسه بالميل والانحراف أرغمته القوة على الرجوع الى تلك السنن والقوانين .

ولو ان أرباب العقول والمتخصصين بحثوا عن السبب لمشكلات الحياة وويلاتها لوجدوه في ضعف القوة الرادعة عن العدوان ، واستفحال القوة المعتدية . ويكفي مثالا على ذلك القوة التي تملكها الولايات المتحدة ، وتستغلها في السلب والنهب ، دون رادع وزاجر إلا نضال الشعوب العزلاء .

يقول نيكولاس سبيكمان في كتابه الاستراتيجية الامريكية في السياسية العالمية ، يقول : مسموح لنا نحن الامريكيين بكل أشكال الجبر والقسر بما فيها حروب الدمار ان نملّي ارادتنا ونفرضها بالقوة على الذين لا قوة لهم. وأيضا يقول ليو ويلتش الأمريكي : وأجبنا أن تحقق زعامتنا الايجابية بالقوة على العالم سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، ولا ينبغي أن يكون ذلك إلى أجل مسمى ، انه واجب أبدي لا يجوز التفريط فيه.

ولا سر لهذا التعاضم من أعداء الله ، والجهر بالعدوان على عياله وعباده من غير مبالاة إلا عدم الخوف والرغبة من القوة الرادعة التي تجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الباطل هي السفلى.

ونفذ القادة في الولايات المتحدة ما جاء في كتاب الاستراتيجية الامريكية ، واعتبروه انجيلهم المقدس دون كتاب الله ، ومارسوا جميع أشكال الجبر والقسوة بما فيها حروب الدمار ليفرضوا ارادتهم على الذين لا قوة لهم ، فألقوا بالقذائف المحرقة على الأطفال والعجائز والحوامل ، وبالقنابل الكيماوية على المحاصيل ووسائل الرزق والحياة من نبات وحيوان لتموت جوعا البقية الباقية من قنابل النابالم وغيرها من القذائف .. ولهذا الغاية أقامت الولايات المتحدة على أرضها العديد من قلاع الموت ، أنشأت فيها المعامل والمختبرات لاكتشاف أشد المكروبات فتكا بالإنسان والحيوان والنبات ، ولاختراع الغازات التي تذهب العقل ، وتنهك الأعصاب.

فأي عجب بعد هذا إذا أنشأت الولايات المتحدة على أرض فلسطين قلعة الموت والفناء ، وترسانة التخريب والتدمير ، وأطلقت عليها اسم دولة إسرائيل؟. أجل ، لا عجب في شيء من ذلك ، وإنما العجب أن تعترف الدول بما فيها الدول الصغيرة الضعيفة . ان تعترف بهذه القلعة والترسانة التي قامت وأسست على عداة الانسانية جمعاء ، وان يكون لها من يمثلها ويدافع عنها ويبرر أعمالها في الأمم المتحدة .. وبرغم هذا وفوق هذا فنحن لا نياس أبدا من انتصار الحق ، وخذلان الباطل في يوم من الأيام ، فهذه أصوات الاحتجاج ضد الطغاة المعتدين ترتفع في كل مكان ، حتى في الولايات المتحدة ، وهذا الشعب الفيتنامي الباسل قد أودى بهيبة الامريكيين ، وقتل من جيوشهم عشرات الألوف ، وأرغمهم أن

يحرقوا من أموالهم البلائين.

٥. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾. هذا ترغيب

في انفاق المال الذي لا بد منه لإعداد القوة الرادعة. وتقدم الكلام عن ذلك في ج ١ ص ٣٠١ عند تفسير الآية ١٩٦ من سورة البقرة ، وج ٢ ص ١٠٧ عند تفسير الآية ٩٢ من آل عمران.

٦. ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. السلم

عام يشمل ترك الحرب بالهدنة والصلح ، وبدفع الجزية ، والدخول بالإسلام ، وقوله تعالى لنبِيِّهِ : ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ هو أمر حتم بمسألة كل من يسلم كائنا من كان إلا إذا دلت الدلائل القطعية على أن سلمه مكر وتمهيد للوثبة والاعتيال على غرة.

وينبغي أن نفهم ان المراد بالسلم في الآية سلم الجميع من قاتل ومن لم يقاتل ، وليس سلم الأطراف المتنازعة فحسب ، كالتعايش السلمي بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الذي تسللت هذه من خلفه لتدبير المؤامرات والانقلابات لصالحها في الدول المحايدة ، وضرب الحريات في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية لتزيد من أرباح شركاتها الاحتكارية على حساب دم الشعوب وخبزها ومستقبلها.

وتسأل : قال سبحانه في هذه الآية : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾. وقال في

الآية ٣٥ من سورة محمد : ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾. فما هو وجه الجمع بين الآيتين؟.

الجواب : لا منافاة بينهما ، فالأولى تأمر المسلمين أن يسالموا من يسالم ، والثانية تشد من عزائمهم ، وتقوي فيهم الروح المعنوية ، وتنههم عن الانهيار والفرار من العدو ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾. وقوله : ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾. فهذه الآية ، وهي فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم تماما كآية ١٠٣ من سورة النساء : ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

٧. ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

ضمير الخطاب موجه للنبي (ص) ، وضمير الغائب في يريدوا

ويجندعوا عائد إلى الذين جنحوا للسلم ، والمعنى ان كان هؤلاء يبيتون لك يا محمد الخيانة والغدر من وراء جنوحهم للسلم فلا تخش غدرهم ، فأنت في أمان من الله وهو كافيك شرهم ، وقد أيدك من قبل بنصره وبالمؤمنين .

وتسأل : لقد مر قريبا عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ مَرَّ ان الله أمر نبيه أن ينقض عهدهم إذا خاف منهم الغدر والخديعة ، وفي هذه الآية أمره بالاستجابة لهم إذا طلبوا السلم ، حتى ولو كانوا يريدون الخيانة في الواقع ، فما هو وجه الجمع بين الآيتين؟.

الجواب : أمره الله هناك بنقض العهد مع اعلامهم بالنقض إذا كان على يقين من غدرهم بما ظهر له من الامارات القطعية ، وأمره هنا بمسألتهم وان أرادوا الغدر في الواقع إذا لم تقم الدلائل القطعية على غدرهم ، وإنما احتمل ذلك ، وفي مثل هذه الحال يأخذ النبي بالظاهر ويعاملهم بحسبه ، فان الظاهر للناس ، والباطن لله.

﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. ليس من شك ان الله سبحانه هو الذي ألف بين قلوب الصحابة بعد أن كانت عصية على التأليف بخاصة بين الأوس والخزرج الذين امتدت الحروب بينهما ١٢٠ سنة .. وأيضاً ليس من شك ان الله سبحانه يجري الأمور على سننها ، والمسببات على أسبابها ، وسبب التأليف بين قلوب أصحاب محمد (ص) هو الإسلام وإيمانهم به نظرياً وعملياً ، والإسلام من عند الله ، فصحت النسبة اليه تعالى .

وقلنا عند تفسير الآية ٢ من هذه السورة ان الدين لا ينبت قمحا ، ولكنه ينبت سبا وإخلاصا .. ونظير هذه الآية التي نحن بصدددها الآية ١٠٣ من سورة آل عمران ، وتجد تفسيرها مفصلاً في ج ٢ ص ١٢٢ .

حسبك الله الآية ٦٤ . ٦٦ :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ

حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

اللغة :

حسبك كافيك. والتحريض الحث. والتخفيف رفع المشقة. والضعف بكسر الضاد من المضاعفة أي زيادة الشيء مثله في المقدار ، وافتحها ضد القوة المادية والمعنوية ، وكذلك بضم الضاد ، وقيل الضم يختص بضعف العقل.

الإعراب :

حسبك الله مبتدأ وخبر ، ومر في الآية ٦٢. ومن اتبعك من في محل رفع عطفا على اسم الجلالة. وان يكن منكم عشرون منكم خبر مقدم ليكن ، وعشرون اسمها.

المعنى :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قيل : معناه يكفيك الله يا محمد ، وأيضا هو يكفي المؤمنين الذين اتبعوك ، وعلى هذا التفسير يكون محل من نصب عطفا على الكاف في حسبك ، أما نحن فنميل الى قول من قال : ان من محلها الرفع عطفا على اسم الجلالة ويكون المعنى يكفيك

يا محمد الله والمؤمنون برسالتك ، ودليلنا على ذلك قوله تعالى في الآية السابقة ٦٢ : ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنها صريحة بأن الله والمؤمنين نصرنا محمدًا ، فكذلك : ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . ومهما يكن ، فان القصد أن يطمئن النبي ويعلم بأن معركته مع الكافرين مضمونة على كل حال ، لأن القوة التي تسانده لا غالب لها.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ خَرِّصِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ . يقول جل ثناؤه لنبيه : شجع يا محمد أصحابك على القتال ، وأخبرهم بأنهم كفء لأعداء الله وأعدائهم ، حتى ولو زاد عددهم عشرة أضعاف ذلك بأن المؤمنين يفقهون أمر الله ، ويعتقدون باليوم الآخر ، وان السعادة تنال بالجهاد والاستشهاد ، فيقدمون عليه بنية صادقة ، وعزم قوي ، أما الكافرون فإنهم لا يفقهون أمر الله ، ولا يعتقدون بالمعاد ، ولهذا يحجمون شحًا بحياتهم وحرصًا عليها من الفناء والحرمان.

﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ . أطال المفسرون والفقهاء الكلام حول هذه الآية ، فمنهم من قال : إنها ناسخة للآية المتقدمة التي فرضت على المسلم أن لا يفر من عشرة ، وقال آخر ، شق على المسلمين أن يقابل الواحد منهم عشرة ، فجاء التخفيف بقوله : ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ الخ ، وأفتى الفقهاء استنادا الى هذه الآية بتحريم الفرار من الزحف إلا إذا كان عدد جيش العدو أكثر من ضعف عدد جيش المسلمين .. وبيننا عند تفسير الآية ١٥ من هذه السورة ان الفقهاء لا يملكون الفتوى بذلك ، وان الأمر فيه يترك لتقدير قائد الجيش الخبير الأمين وحده.

ومن أجل هذا نرجح ان الآيتين هذه والتي قبلها لم تردا لبيان حكم الفرار من الزحف بوجه عام ، وإنما هما خاصتان بالنبي وأصحابه فقط ، ولا تتجاوزان إلى غيرهم ، والله أعلم بمراده.

في الأسرى الآية ٦٧ . ٧١ :

﴿مَا كَانَ لِإِنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ
الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ
(٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ
فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأُسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ (٧١)﴾

اللغة :

أسرى جمع أسير ، والأسر الشد على المحارب وأخذه. والإثخان الشدة ، يقال :
أثخنه إذا اشتد عليه. والعرض ما يعرض ولا يدوم. ومسكم أصابكم.

الاعراب :

لو لا كتاب كتاب مبتدأ ، وسبق صفة له ، والخبر محذوف ، أي لو لا كتاب كائن.
وحلالا حال من الموصول في مما غنمتم ، أو صفة لمفعول مطلق محذوف أي كلوا أكلا
حلالا.

المعنى :

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾. اتفق المفسرون على ان هذه الآية نزلت في أسرى بدر ، وظاهر السياق يدل على ذلك ، واختلفوا في تفسيرها على أقوال ، ولايضاح المراد منها نورد بصيغة السؤال والجواب :

إذا قامت الحرب بين المسلمين وعبدة الأوثان ، وأمكن الله المسلم المقاتل من كافر ينازله فهل يجب على المسلم قتل هذا الكافر ، أو يجوز له أسره ، وإذا أسره بناء على جواز الأسر فهل يخير النبي بين قتل الأسير ، وبين أن يطلقه بفدية أو بدونها؟.

ولا بد في الجواب من التفصيل بين حالين : الأولى أن تقع المعركة بعد أن يعظم شأن الدين في الأرض ، وتتم القوة له ولأهله بحيث لا يضرهم كيد العدو ومكره لمكان القوة الرادعة ، وفي مثل هذه الحال يخير المسلم المقاتل بين القتل والأسر ، فإذا أسر كان الخيار للنبي بين قتل الأسير وإطلاقه بفداء أو غير فداء ، قال تعالى : ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتُمْهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ﴾ . ٤ محمد. والسر في ذلك واضح ، وهو وجود القوة الرادعة.

الحال الثانية أن تقع المعركة قبل أن يتمكن الدين في الأرض ، وتتم له القوة والغلبة ، فإذا تمكن المسلم المقاتل في مثل هذه الحال من الكافر المحارب فعليه أن يقتله ولا يأسره ، والسر إلقاء الرعب في قلب كل من يحاول إعلان الحرب على المؤمنين ، ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا أسر من الكفار ، حتى تتم للدين القوة الرادعة التي يذل بها أهل الكفر والطغيان.

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ هذا الخطاب موجه بصفة خاصة لمن أسر أسيرا من المشركين بقصد الغنيمة وأخذ الفدية غير مكترث بما يترتب على حياته من الفساد في الأرض ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ يريد لعباده ثواب الآخرة لأنه خير وأبقى من

عرض الدنيا ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يهب العزة للمؤمنين وإن لم يكن لهم أسرى ، وهو حكيم في تدبيره وأمره ونهيهِ .

﴿لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ . لقد سبق في قضاء الله أن ينصر دينه ونبيه بالفئة القليلة التي حاربت معه ببدر ، وإن ينكل بالكثرة الكافرين قتلا وأسرا ونهباً بأيدي المؤمنين ، ولو لا قضاؤه هذا لعذب المؤمنين الذين أسروا أعداء الله طمعا بالفدية ، لأنه تعالى يريد أن يكون الجهاد والعمل خالصا لوجهه الكريم ، وفي الحديث : من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر اليه وتجدد الإشارة إلى انه تعالى لم يبين نوع العذاب الذي كان سيوقعه بالأسرى من الصحابة لو لا قضاؤه السابق : هل هو العذاب الدنيوي أو الآخروي .

وتسأل : إذا كان الأسر محرما قبل أن يظهر الله دينه على الدين كله فكيف أجاز رسول الله (ص) للصحابة أن يأسروا يوم بدر ، ويقبل هو الفدية من الأسرى قبل النصر الشامل الكامل؟ فان المفروض ان معركة بدر كانت الأولى ، وأعقبتها معارك استمرت إلى عام الفتح والنصر .

وحوار المفسرون وغيرهم في الجواب عن هذا السؤال أو الاشكال ، وتضاربت فيه أقوالهم ، واستسلم بعضهم قائلًا : إن النبي غير معصوم عن الخطأ ، حاشا الله ورسوله الذي لا ينطق عن الهوى .. والذي نرجحه ان الله سبحانه قد استثنى من تحريم الأسر كل من أطلقه النبي (ص) من أسرى بدر ، وقد أسلم الكثير منهم وحسن فيه بلاؤهم ، بل كان فيهم من أخرج كرها إلى حرب المسلمين ، قال ابن الأثير في المجلد الثاني من تاريخه بعنوان ذكر غزوة بدر الكبرى :

قال رسول الله (ص) لأصحابه يومئذ : قد عرفت رجالا من بني هاشم وغيرهم أخرجوا كرها ، فمن لقي منكم أحدا من بني هاشم فلا يقتله .. وكان في الأسرى سهيل بن عمرو ، فقال عمر بن الخطاب : دعني اقتله يا رسول الله ، فلا يقوم عليك خطييا ، فقال النبي (ص) دعه ، فسيقوم مقاماً تحمده عليه .. ومن جملة أسرى بدر أبو العاص بن الربيع زوج بنت رسول الله (ص) ، وبعثت

زينب بفداء زوجها ، وفيه قلادة كانت لأُمها خديجة ، فلما رآها رسول الله (ص) رقّ رقة شديدة ، وقال للمسلمين : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا ، فأطلقوا الأسير ، وردوا القلادة .. وقد أسلم أبو العاص بعد ذلك.

وقتل النبي (ص) من الأسرى من لا يؤمن شره ، ولا يرجى خيره ، ولم يقبل الفدية منه ، قال ابن الأثير : وكان في الأسرى النضر بن الحارث ، وعقبة ابن أبي معيط ، فأمر النبي بقتلهما ، فقال عقبة : أليس لي اسوة بهؤلاء الأسرى؟ فلم يلتفت الرسول إلى قوله ، لأنه يعلم بخبثه وغدره ، وإن حياته شر وفساد في الأرض .. فإطلاق النبي لبعض الأسرى ، وقتله البعض الآخر يشعر بوجود مصلحة للإسلام والمسلمين في إطلاق من أطلق منهم ، وقد ظهرت هذه المصلحة فيما بعد كما أشرنا .. ومن أجل هذا صح استثناء أسرى بدر من حكم التحريم.

﴿فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. الخطاب موجه لمن حارب مع النبي (ص) ببدر ، ويتضمن الاذن بالأكل مما غنموه في معركة بدر فدية كان أو سلبا ، وهذا دليل على ان الأسرى من المشركين في معركة بدر جائز ، لأن إباحة أحد العوضين تستدعي إباحة العوض الآخر ، وفي الحديث : إذا حرم الله شيئا حرم ثمه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بعد أن أخذ النبي (ص) الفدية من الأسرى أمره أن يقول لهم : ان آمنتم بالله يعوض عليكم خيرا من الفدية دنيا وآخرة ، وقال المفسرون : ان قوما من الأسرى أظهروا الإسلام ، فأمر الله نبيه أن يقول لهم : ان كان ما قتلتموه حقا فان الله يعلمه ويعوض عليكم خيرا مما أخذ منكم ، ويغفر لكم ، وان كان نفاقا فقد كفرتم ومكرتم من قبل ، وأمكن الله نبيه منكم.

ثم ذكر المفسرون ، ومنهم الرازي والطبرسي ان النبي (ص) قال لعنه العباس ،

أفد نفسك وابني أخيك عقيلًا ونوفلاً^(١). فقال العباس : كنت مسلماً فأكرهوني على الخروج ، فقال له النبي : ان يكن ما تقول حقاً فالله يجزيك. قال العباس : ليس معي شيء. قال النبي : أين الذهب الذي سلمته لزوجتك أم الفضل ، وقلت لها : ان حدث بي حدث فهو لك ولأولادك؟. قال العباس : من أخبرك بهذا؟. قال : الله تعالى أخبرني. قال العباس : أشهد أنك رسول الله ، والله ما علم بهذا أحد إلا الله .. وقال العباس بعد ذلك : صدق الله ورسوله لقد عوضني الله عما افتديت أضعافاً كثيرة.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

الضمير في يريدوا عائد الى الأسرى الذين أطلقهم النبي (ص) ، والمعنى لا تخف يا محمد من خيانة من سرحت وأطلقت من الأسرى ، وما ذا عسى أن يفعلوا إذا أرادوا الغدر والخيانة؟. فليس بعد الشرك وإعلان الحرب شيء ، وقد حاربوك من قبل فسلطك الله عليهم : ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾. ٩٦ المائدة. وهذا دليل آخر على أن الله أباح الأسر للمسلمين في وقعة بدر.

والخلاصة ان الله أوجب قتل أهل الشرك في حربهم مع أهل الايمان إذا وقعت قبل أن يعظم شأن الدين إلا في معركة بدر فإن الله سبحانه قد أباح فيها للمسلم المقاتل الأسر لمصلحة الإسلام والمسلمين.

المهاجرون والأنصار الآية ٧٢ . ٧٥ :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ

(١). أسلم عقيل بن أبي طالب قتل وقعة بدر ، وأخرجه المشركون لحرب ابن عمه محمد (ص) كرها ، فاستأسر هو لابن أمه علي (ع).

يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ
إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَصْنَتِهِمْ أَولِيَاءُ
بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ
آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي
كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

اللغة :

الهجرة فراق الوطن. وآواه أسكنه منزله. والمراد بالولاية النصرة في قوله : بعضهم أولياء
بعض. والميراث في قوله : أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض.

الإعراب :

من شيء من زائدة وشيء مبتدأ ومالك خبر ، والجمله خبر الذين آمنوا ولم يهاجروا.
فعليكم النصر مبتدأ وخبر ، ويجوز نصب النصر على معنى الزموا النصر ، مثل عليك زيدا.
والهاء في تفعلوه عائد الى النصر.

المعنى :

قسمت هذه الآيات المؤمنين إلى أقسام ، وتعرضت للولاية فيما بينهم بسبب

الإيمان والهجرة ، وأشارت إلى ولاية الكافرين ، وميراث أولي الأرحام ، والتفصيل فيما يلي :

١ . ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ . وهم المهاجرون الأولون ، وقد وصفهم جل وعز بالإيمان ، وهجرة الأوطان ، والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله وبهذه التوضيح لا بمجرد الإيمان أثنى عليهم القرآن ، وتحدث كثيرا عن استجابتهم لله ورسوله .

وتسأل : المفروض ان المهاجرين دخلوا المدينة ، ولا شيء معهم من المال ، ومن أجل هذا آوهم الأنصار في مساكنهم ، وآثروهم في المأكل والملبس على أنفسهم ، وإلى ذلك أشار تعالى بقوله : ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا﴾ فمن أين جاءهم المال الذي جاهدوا به في سبيل الله؟ .

الجواب : أولا ان أغنياء المهاجرين كانوا ينفقون على فقراء المسلمين قبل الهجرة . ثانيا انهم هاجروا من ديارهم تاركين مساكنهم ومزارعهم نخباً للمشركين رغبة في مرضاة الله .. ولا شيء أعظم من تضحية الإنسان بمسكنه وأرضه ، وبكل ما جمعه لحياته وحياة أولاده .

٢ . ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ . وهؤلاء هم الأنصار ، ومنتهم سبحانه بأنهم آووا النبي ومن هاجر معه في مساكنهم ، وآثروهم على أنفسهم وأولادهم ، وبأنهم سالموا من سالمهم ، وعادوا من عاداهم ، ولهذا شرفهم الله بهذا الوصف ، حتى أصبح اسم الأنصار علما عليهم مدى الدهر . وقوله : ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إشارة إلى المهاجرين والأنصار معا ، وان كلا منهم يتولى من أمر صاحبه ما يتولى من نفسه نصرة ودفاعا .. وفي الحديث : مثل المؤمنين في تراحهم وتوادهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائرُه بالحمى والسهر .

وقارن بعض المفسرين بين المهاجرين والأنصار ، وفضل أولئك على هؤلاء ، أما نحن فنميل إلى انهم عند الله سواء ، وتشعر بذلك الآية التي نحن بصدددها ، والآية ١٢ من الواقعة : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فان المراد بالسابقين المهاجرون والأنصار ، أولئك سبقوا إلى الإيمان والهجرة ، وهؤلاء سبقوا

إلى الإيواء والنصرة ، فكان كل فريق من السابقين الأولين ، وقد وصفهم سبحانه بذلك في الآية ١٠٠ من سورة التوبة : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾.

٣ . ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ هؤلاء آمنوا بالله ورسوله ، ولكنهم رفضوا الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام ، مع ان القرآن أمرهم بها ، وحثهم عليها ، ولكنهم رفضوا تمسكا بأموالهم ، وخوفا على مصالحهم ، وسبق الكلام عن هؤلاء ، وعن حكم الهجرة في ج ٢ ص ٤١٨ وما بعدها عند تفسير الآية ٩٧ من النساء .

وقد بين سبحانه حكم الذين آمنوا ولم يهاجروا بقوله : ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ . أي ان هؤلاء لا يعتبرون أعضاء في المجتمع الإسلامي ، ولا يثبت لهم شيء من حقوق المسلمين المقيمين في دار الإسلام ، لأنهم قد اختاروا حكم الشرك والمشركين على حكم الإسلام والمسلمين .. أجل ، إذا تركوا أرض الشرك إلى أرض الإسلام كان لهم حق الدفاع والنصرة ، وأيضا إذا اعتدى عليهم معتد من أجل دينهم وعقيدتهم ، وحاول أن يفتنهم عن الإسلام ، ويردهم إلى الشرك فعلى المهاجرين والأنصار أن يدافعوا عنهم ، ولا تجب نصرتهم في غير ذلك ، لأن رابطة الدين تحتم على كل واحد من أهله أن يدافع عن دين أخيه ، وإن كان فاسقا .. وبكلمة ان الدفاع عن عقيدة الفاسق دفاع عن الدين بالذات ، لا عن شخص الفاسق .

وكأن سائلا يسأل : إذا اعتدى معتد من الكافرين على مؤمن من الذين آمنوا ولم يهاجروا ، وكان بين الكافر المعتدي ، وبين المسلمين المقيمين في دار الإسلام عهد وميثاق في الأمان والمسالمة ، واستنصر المؤمن المعتدى عليه بمن في دار الإسلام من المسلمين ، إذا كان الأمر كذلك فهل تجب نصرته المعتدى عليه على المعاهد المعتدي؟ .

فأجاب سبحانه بقوله : ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ . أي ان النصر لا تجب في مثل هذه الحال محافظة على الوفاء بالعهد والميثاق ، والإسلام وان كان عهدا وميثاقا أيضا ، ولكنه لا يجوز بحال الخيانة والغدر ، حتى بالكافر .

لا أثر لاسم الدين :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾. قد يوهم ظاهر الآية ان مجرد المشاركة في الكفر بين اثنين تستدعي بطبيعتها ان يناصر كل منهما الآخر .. وهذا لا ينطبق على الواقع ، فان تاريخ أهل الكفر بعضهم مع بعض تاريخ حروب ودماء .. وكذلك تاريخ المسلمين .. وقد دلتنا التجارب ان المصلحة هي التي تجمع وتفرق ، أما مجرد المشاركة في الألفاظ والأسماء الدينية ، كمسلم ومسيحي فقد يكون لها شيء من الأثر ، ولكنه لا يبلغ حد الولاية ، أي يتولى كل واحد يحمل هذا الاسم من أمر صاحبه وشريكه فيه ما يتولى من نفسه إلا إذا تجرد عن كل غاية إلا الغاية الدينية ، بحيث يضحي بجميع مصالحه ، حتى بنفسه وأهله وماله في سبيل دينه ومعتقدده ، وهذا هو المراد من قوله تعالى عن المهاجرين والأنصار : ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾. وقوله : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ . ٧١ التوبة. أي ان الأمر بالمعروف عندهم هو المصلحة.

أما المراد من قوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾. وقوله : ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ . ١٨ الجاثية. وقوله : ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ . ٦٧ التوبة. أما المراد من هذه الآيات فهو ان الكفار والظالمين والمنافقين يتفقون يدا واحدة ضد الحق ، على ما بينهم من العداوة والتناقضات ، لأن المصلحة المشتركة تجمعهم وتوحد صفوفهم ، وهي الدفاع عن المنافع والامتيازات ، وقد تكرر ذلك مرات ومرات قديما وحديثا ، فمن التاريخ الحديث تكتل المستعمرين والمستغلين ضد الشعوب والثورات الوطنية ، على ما بين الدول الاستعمارية ، والشركات الاحتكارية من التنافس على الأرباح ، ومن القديم اتفاق مشركي العرب ويهود الحجاز والمنافقين ، اتفاقهم وإجماع كلمتهم على محاربة الإسلام والمسلمين ، ولا دافع إلا المصالح المشتركة ، فلقد بلغت العداوة بين المشركين واليهود الغاية قبل الإسلام .. وبهذا نفسر قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾. أما ما ذهب اليه أكثر المفسرين من أن المراد به ان الكفار يرث بعضهم بعضا ،

أما هذا التفسير فبعيد عن ظاهر اللفظ. وتكلمنا عن نظير هذه الآية ، وعن المصلحة المشتركة بين كثير من اليهود والنصارى في هذا العصر عند تفسير الآية ٥١ من سورة المائدة بعنوان اليهود والبتول والنصارى.

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾. إلا هنا مركبة من كلمتين إن الشرطية ، ولا النافية ، والهاء في تفعلوه تعود إلى النصر في قوله : ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ والمعنى انكم أيها المسلمون إن لم تنصروا من استنجد بكم من المسلمين على الكافرين الذين حاولوا أن يفتنوه في دينه ، ويردوه إلى الشرك ، إن لم تنجدوه تكن فتنة وفساد بتسلط الشرك على الإيمان والباطل على الحق.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾. ذكر سبحانه في الآية السابقة المهاجرين والأنصار بهذا اللفظ لبيان ما يجب على كل واحد منهم تجاه الآخر من الدفاع والمناصرة ، ثم أعاد هنا للثناء عليهم بقوله : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وليبيان شأنهم ، وما أعد الله لهم غدا من العفو عن السيئات والثواب الجزيل الذي عبّر عنه بقوله : ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

وما قرأت شيئا أبلغ من وصف الإمام زين العابدين (ع) للمهاجرين والأنصار وهو يناجي ربه ، ويطلب لهم الرحمة والرضوان بقوله :

اللهم وأصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا الصحابة ، وأبلوا البلاء الحسن في نصره وكاتفوه وأسرعوا إلى وفادته ، وسابقوا إلى دعوته ، واستجابوا له ، حيث أسمعهم حجة رسالاته ، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته ، وقتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته ، وانتصروا به ، ومن كانوا منطوين على محبته يرجون تجارة لن تبور في مودته .. فلا تنس لهم اللهم ما تركوا لك وفيك .. وكانوا مع رسولك لك اليك.

. ملحوظة . هذه المناجاة جاءت في الصحيفة السجادية التي تعظمها الشيعة ، وتقدس

كل حرف منها ، وهي رد مفحم لمن قال : ان الشيعة ينالون من مقام الصحابة.

٤ . ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾. هؤلاء هم

الذين آمنوا بالله ورسوله ، وهاجروا إلى المدينة ، وجاهدوا بأنفسهم وأموالهم

بعد السابقين الأولين ، ومع ذلك فحكمهم واحد من حيث وجوب النصرة والدفاع.

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. قال المفسرون : بعد أن آخى النبي (ص) بين أصحابه ، وبينه وبين علي (ع) ^(١). أصبحوا أولياء في النصرة ، وفي الميراث أيضا ، أي انهم يتوارثون بهذه المؤاخاة لا بالنسب والقرباة ، ثم نسخ التوارث بهذه المؤاخاة ، وعاد الى التوارث بالرحم والقرباة.

واستدل الشيعة بهذه الآية على ان من كان أقرب الى الميت نسبا فهو أولى بميراثه من الأبعد ، سواء أكان الأبعد ذا سهم ، أم لم يكن ، وسواء أكان عصبية ، أم غير عصبية ، فبنت الميت تحجب أخاه عن الإرث لأنها أقرب منه الى الميت ، وأخته تحجب عمه لنفس السبب ، وهكذا يحجب الأقرب الأبعد من جميع المراتب ، وتكلمنا عن ذلك وأقوال السنة والشيعة فيه ، كما أشرنا الى التوارث بالمؤاخاة ، وإلى أسباب الإرث في الجاهلية ، كل ذلك تكلمنا عنه في ج ٢ ص ٢٦٢ وما بعدها عند تفسير الآية ١١ من سورة النساء.

(١). قال الشيخ محمد الغزالي في كتاب فقه السيرة ص ١٤٢ طبعة ١٩٥٣ : ولقد صح ان رسول الله (ص) جعل عليا منه بمنزلة هرون الى موسى ، وهذا يؤيد رواية مؤاخاة النبي لعلي.

الفهرست

سورة المائدة.....	١
اوفوا بالعقود الآية ١ . ٢	٥
الثورة والثورة المضادة	٨
حرمت عليكم الميتة الآية ٣	٩
إكمال الدين وإتمام النعمة.....	١٣
وما علمتم من الجوارح ملكين الآية ٤	١٥
طهارة أهل الكتاب الآية ٥.....	١٧
الوضوء والتيمم الآية ٦ . ٧	٢٠
اعدلو هو أقرب التقوى الآية ٨ . ١٠	٢٤
اذكروا نعمة الله الآية ١١ :	٢٧
اخذ الميثاق من اليهود والنصارى الآية ١٢ . ١٤	٢٨
قد جاءكم من الله نور الآية ١٥ . ١٦	٣٣
الإسلام وأنصار السلام	٣٤
قالوا ان الله هو المسيح الآية ١٧ . ١٩	٣٥
الاشاعة والنصارى	٣٨

٤٠.....	موسى وقومه الآية ٢٠ . ٢٦.....
٤٤.....	قاييل وهايبيل الآية ٢٧ . ٣١.....
٤٦.....	الفرد والجماعة في الاسلام الآية ٣٧.....
٤٩.....	جزاء المفسدين الآية ٣٣ . ٣٤.....
٥٢.....	ابتغوا اليه الوسيلة الآية ٣٥ . ٣٧.....
٥٣.....	والسارق والسارقة الآية ٣٨ . ٤٠.....
٥٦.....	سماعون الكذب الآية ٤١ . ٤٣.....
٦٠.....	فلا تخشوا الناس الآية ٤٤.....
٦٢.....	النفس بالنفس الآية ٤٥ . ٤٧.....
٦٤.....	بين الكفر والفسق والظلم.....
٦٦.....	لكل جعلنا منكم شرعة الآية ٤٨ . ٥٠.....
٧١.....	لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء الآية ٥١ . ٥٣.....
٧٣.....	البتول واليهود والنصارى.....
٧٥.....	أذلة على المؤمنين أعززة على الكافرين الآية ٥٤.....
٧٩.....	مشكلة الأخلاق.....
٨١.....	يؤتون الزكاة وهم راکعون الآية ٥٥ . ٥٦.....
٨٣.....	اتخذوا دينكم هزوا ولعبا الآية ٥٧ . ٥٩.....
٨٦.....	وجعل منهم القردة والخنازير الآية ٦٠ . ٦٣.....
٨٩.....	قالت اليهود يدالله مغلولة الآية ٦٤ . ٦٦.....
٩١.....	الصهاينة تواطئوا مع النازيين.....
٩٣.....	اليهود ونار الحرب.....
٩٤.....	الرزق وفساد الأوضاع.....

٩٦.....	وبلغ ما أنزل اليك الآية ٦٧
٩٨.....	صاحب المنار وأهل البيت
٩٩.....	اقامة التوراة والانجيل الآية ٦٨ . ٦٩
١٠٠.....	ميثاق بني اسرائيل الآية ٧٠ . ٧١
١٠٢.....	دعوة المسيح الى بني اسرائيل الآية ٧٢ . ٧٥
١٠٥.....	لا يملك لكم ضرا ولا نفعا الآية ٧٦ . ٨١
١١٣.....	عداوة اليهود ومودة النصارى الآية ٨٢ . ٨٦
١١٥.....	من هم أقرب مودة للمسلمين
١١٧.....	لا تحرموا الطيبات الآية ٨٧ . ٨٨
١١٨.....	الغلو في الإيمان الآية ٨٩
١٢١.....	الخمر والميسر الآية ٩٠ . ٩٢
١٢٣.....	اتقوا وآمنوا الآية ٩٣
١٢٤.....	لا صيد في الحرم ولا مع الاحرام الآية ٩٤ . ٩٦
١٢٦.....	معنى الاختبار من الله
١٢٨.....	البيت الحرام الآية ٩٧ . ٩٩
١٣١.....	كثرة الخبيث الآية ١٠٠
١٣١.....	هل الرزق صدفة أو قدر
١٣٤.....	لا تسألوا عن أشياء الآية ١٠١ . ١٠٢
١٣٦.....	لا بحيرة ولا سائبه الآية ١٠٣ . ١٠٥
١٣٨.....	في اثبات الوصية الآية ١٠٦ . ١٠٨
١٤٢.....	الرسل ويوم الجمع الآية ١٠٩ . ١١١
١٤٤.....	عيسى ونبوة الأطفال

١٤٦.....	مائدة السماء الآية ١١٢ . ١١٥.....
١٤٨.....	بين حوارى محمد وحوارى عيسى.....
١٤٩.....	عيسى والناس الآية ١١٦ . ١١٨.....
١٥٢.....	صدق الصادقين الآية ١١٩ . ١٢٠.....
١٥٧.....	سورة الأنعام.....
١٥٧.....	خلق السموات والأرض الآية ١ . ٣.....
١٥٩.....	المجود بآيات الله الآية ٤ . ٦.....
١٦١.....	لا دكتاتورى فى الأرض ولا فى السماء.....
١٦٢.....	ولو نزلنا عليك الآية ٧ . ١١.....
١٦٥.....	كتب ربكم على نفسه الرحمة الآية ١٢ . ١٦.....
١٦٩.....	لا كاشف الا الله الآية ١٧ . ١٩.....
١٧١.....	يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الآية ٢٠ . ٢٤.....
١٧٥.....	على قلوبهم أكنة الآية ٢٥ . ٢٦.....
١٧٧.....	وقفوا على النار الآية ٢٧ . ٣٢.....
١٨٠.....	قد نعلم انه ليحزنك الآية ٣٣ . ٣٧.....
١٨٤.....	الدواب والطيور الآية ٣٨ . ٣٩.....
١٨٦.....	قل أرأيتمكم الآية ٤٠ . ٤٥.....
١٨٨.....	الله والفترة.....
١٩٠.....	ان اخذ الله سمعكم وأبصاركم الآية ٤٦ . ٤٩.....
١٩٢.....	ان اتبع الا ما يوحى الى الآية ٥٠ . ٥٥.....
١٩٧.....	لا اتبع أهواءكم الآية ٥٦ . ٥٨.....
١٩٩.....	وعنده مفاتيح العيب الآية ٥٩ . ٦٢.....

٢٠٢	قل من ينجيكم الآية ٦٣ - ٦٧
٢٠٥	حتى يخوضوا في حديث غيره الآية ٦٨ - ٧٠
٢٠٨	قل اندعوا من دون الله الآية ٧١ - ٧٣
٢١٠	مع أهل التصوف
٢١١	ابراهيم مع ابيه وقومه الآية ٧٤ - ٧٩
٢١٤	اتحاجوني في الله الآية ٨٠ - ٨٣
٢١٧	ووهبنا له اسحق ويعقوب الآية ٨٤ - ٩٠
٢١٩	الحسن والحسين ابنا رسول الله
٢٢١	وما قدروا الله حتى قدره الآية ٩١ - ٩٧
٢٢٤	أنبياء الله وعلماء الطبيعة
٢٢٦	الافتراء على الله الآية ٩٣ - ٩٤
٢٢٩	يخرج الحي من الميت الآية : ٩٥ - ٩٩
٢٣١	من أين جاءت الحياة
٢٣٥	وجعلوا لله شركاء الآية ١٠٠ - ١٠٧
٢٤٠	لا تسبوا الآية ١٠٨ - ١١٠
٢٤٧	وكلمهم الموتى الآية ١١١ - ١١٣
٢٤٨	طراز من الناس
٢٥١	افغير الله ابتغى حكما الآية ١١٤ - ١١٧
٢٥٣	التسمية على الذبيحة ١١٨ - ١٢١
٢٥٦	او من كان ميتاً الآية ١٢٢ - ١٢٤
٢٥٧	المسئولية والسائل الأعلى
٢٦٠	يشرح صدره للاسلام الآية ١٢٥ - ١٢٧

ويوم محشرهم جميعا الآية ١٢٨ . ١٣٢	٢٦٣
وربك الغني الآية ١٣٣ . ١٣٥	٢٦٦
فقالوا هذا الله الآية ١٣٦ . ١٤٠	٢٦٧
كلوا من ثمرة الآية ١٤١ . ١٤٤	٢٧٣
قل لا اجد فيما أوحى الى محرمات الآية ١٤٥ . ١٤٧	٢٧٥
لو شاء الله ما أشركنا الآية ١٤٨ . ١٥٠	٢٧٧
ما حرم ربكم الآية ١٥١ : ١٥٣	٢٨١
الوصايا العشر	٢٨٢
ثم آتينا موسى الكتاب الآية ١٥٤ . ١٥٧	٢٨٥
لا ينفع نفسا الا ايمانها الآية ١٥٨ . ١٦٠	٢٨٨
قل اننى هداىي ربى الآية ١٦١ . ١٦٥	٢٩١
ولا تنزروا وزر أخرى	٢٩٣
الأرض والبيت	٢٩٤
سورة الأعراف	٢٩٩
كتاب أنزل اليك الآية ١ . ٣	٢٩٩
وكم من قرية أهلكناها الآية ٤ . ١٠	٣٠١
ميزان الأعمال	٣٠٣
ولقد خلقناكم الآية ١١ . ١٨	٣٠٤
حول أصل الإنسان	٣٠٥
ويا آدم اسكن زوجتك الآية ١٩ . ٢٥	٣١٠
قصة آدم كما هي في القرآن	٣١٣
اللباس الحسى والمعنوي الآية ٢٦ . ٢٧	٣١٥

واذا فعلوا فاحشة الآية ٢٨ . ٣٠	٣١٧
يا بني آدم خذوا زينتكم الآية ٣١ . ٣٤	٣٢٠
في اتقى وأصلح الآية ٣٥ . ٣٩	٣٢٣
الجمل وسم الخياط الآية ٤٠ . ٤٣	٣٢٦
ونادى أصحاب الجنة الآية ٤٤ . ٤٥	٣٢٩
وعلى الاعراف رجال الآية ٤٦ . ٤٩	٣٣٠
الاعراف.....	٣٣١
بين أهل الجنة وأهل النار الآية ٥٠ . ٥٣	٣٣٤
في ستة أيام الآية ٥٤ . ٥٦	٣٣٧
الله أصلح الأرض والإنسان أفسدها	٣٤٠
يرسل الرياح بشراً الآية ٥٧ . ٥٨	٣٤١
نوح الآية ٥٩ . ٦٤	٣٤٤
هود الآية ٦٥ . ٧٢	٣٤٦
صالح الآية ٧٣ . ٧٩	٣٤٩
لوط الآية ٨٠ . ٨٤	٣٥٢
شعيب الآية ٨٥ . ٨٧	٣٥٥
لنخرجنك يا شعيب الآية ٨٨ . ٨٩	٣٦١
لئن اتبعتم شعباً الآية ٩٠ . ٩٣	٣٦٣
وما أرسلنا في قرية الآية ٩٤ . ٩٥	٣٦٤
ولو ان أهل القرى آمنوا الآية ٩٦ . ١٠٠	٣٦٦
تلك القرى نقص عليك الآية ١٠١ . ١٠٢	٣٦٦
موسى وفرعون الآية ١٠٣ . ١١٢	٣٧٠

اسم ام موسى.....	٣٧٢
وجاء السحرة الآية ١١٣ . ١٢٦.....	٣٧٦
حول السحر.....	٣٧٩
انذر موسى وقومه الآية ١٢٧ . ١٢٩.....	٣٨١
ولقد أخذنا آل فرعون الآية ١٣٠ . ١٣٣.....	٣٨٣
ولما وقع عليهم الرجز الآية ١٣٤ . ١٣٧.....	٣٨٦
وجاوزنا بني اسرائيل البحر الآية ١٣٨ . ١٤١.....	٣٨٧
وواعدنا موسى ثلاثين ليلة الآية ١٤٢ . ١٤٥.....	٣٨٩
سأصرف عن آياتي الآية ١٤٦ . ١٦٩.....	٣٩٣
ولما رجع موسى الى قومه الآية ١٥٠ . ١٥٤.....	٣٩٦
ان هي الا فتنتك الآية ١٥٥ . ١٥٧.....	٣٩٩
رحمة الله تسع إبليس.....	٤٠٣
رسول الله اليكم جميعاً الآية ١٥٨ . ١٥٩.....	٤٠٤
بين الصهيونية واليهودية.....	٤٠٦
وقطعناهم اثنتي عشر اسباطاً الآية ١٦٠ . ١٦٢.....	٤٠٧
وأسلهم عن القرية الآية ١٦٤ . ١٦٦.....	٤٠٩
اليهود وسوء العذاب الآية ١٦٧.....	٤١٢
وبلوناهم بالحسنات واليسئات الآية ١٦٨ . ١٧١.....	٤١٤
ألست بربكم الآية ١٧٢ . ١٧٤.....	٤١٧
عالم الذر.....	٤١٨
آتيناه آياتنا فانسلخ منها الآية ١٧٥ . ١٧٧.....	٤٢٠
من يهدي الله فهو المهتدي الآية ١٧٨ . ١٨١.....	٤٢٣

هل اسماء الله توقيفية او قياسية.....	٤٢٥
والذين كذبوا بآيتنا الآية ١٨٢ - ١٨٦	٤٢٧
يسألونك عن الساعة الآية ١٨٧ - ١٨٨	٤٣٠
النبي وعلم الغيب.....	٤٣١
هو الذي خلقكم من نفس واحدة الآية ١٨٩ - ١٩٠	٤٣٣
أشركون ما لا يخلق شيئاً الآية ١٩١ - ١٩٨	٤٣٥
خذ العفو وامر بالمعروف الآية ١٩٩ - ٢٠٣	٤٣٨
واذا قرىء القرآن الآية ٢٠٤ - ٢٠٦	٤٤١
سورة الأنفال.....	٤٤٧
قل الأنفال لله والرسول الآية ١ - ٤	٤٤٧
كما أخرجك ربك الآية ٥ - ٨	٤٥١
اذ تستغيثون ربكم الآية ٩ - ١٤	٤٥٥
الفرار من القتال الآية ١٥ - ١٩	٤٥٩
طاعة الله والرسول الآية ٢٠ - ٢٣	٤٦٣
طالب حق وطالب صيد.....	٤٦٤
الدين والدعوة الى الحياة الآية ٢٤	٤٦٥
واتقوا فتنة الآية ٢٥ - ٢٩	٤٦٧
واذ يمكر بك الآية ٣٠ - ٣٥	٤٧١
ان الذين كفروا ينفقون أموالهم الآية ٣٦ - ٤٠	٤٧٥
فان الله خمسة الآية ٤١	٤٨١
اذ أنتم بالعدوة الدنيا الآية ٤٢ - ٤٤	٤٨٤
اذا لقيتم فئة فاثبتوا الآية ٤٥ - ٤٩	٤٨٨

٤٨٩	عوامل النصر.....
٤٩٢	هل الفدائيون مخربون.....
٤٩٤	ولو ترى الآية ٥٠ . ٥٤.....
٤٩٧	قواعد وأحكام في السلم والحرب الآية ٥٥ . ٦٣.....
٥٠٠	القوة الرادعة والقوة المعتدية.....
٥٠٣	حسبك الله الآية ٦٤ . ٦٦.....
٥٠٦	في الأسرى الآية ٦٧ . ٧١.....
٥١٠	المهاجرون والأنصار الآية ٧٢ . ٧٥.....
٥١٤	لا أثر لاسم الدين.....